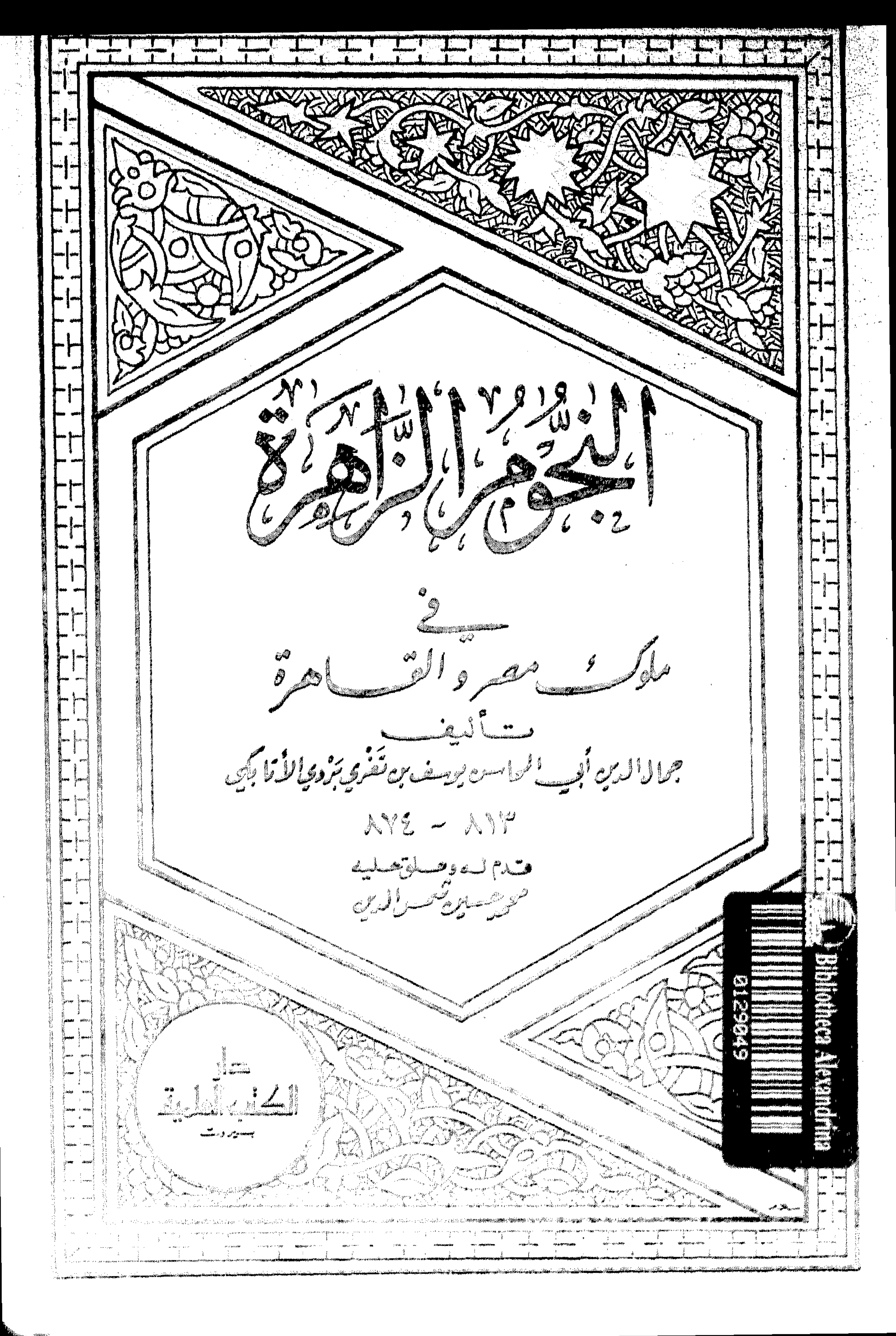
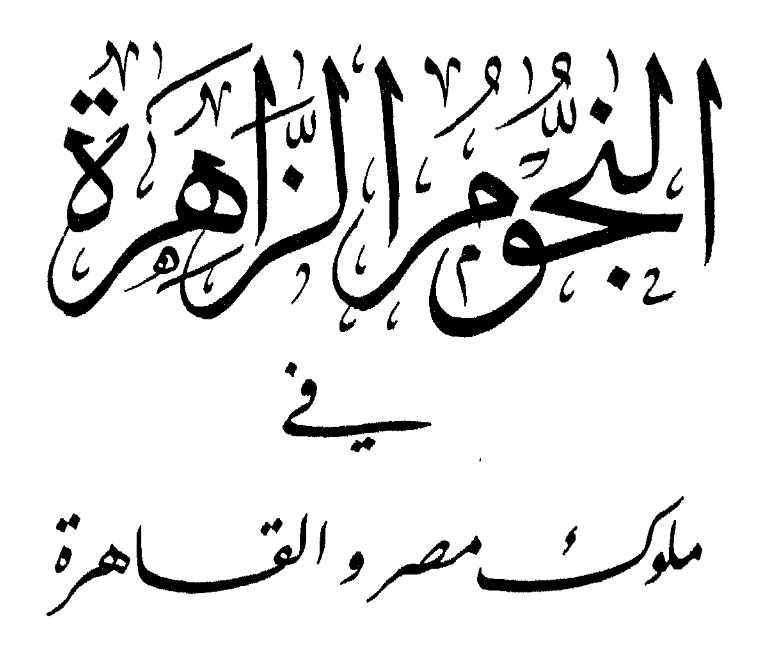

النجوم الزاهرة
في
ملوك مصر والقاهرة
تأليف
جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي
٨١٣ - ٨٧٤
قدم له وعلق عليه
محمد حسين شمس الدين
دار
الكتب العلمية
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0129049



في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء السادس عشر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر سلطنة الملك المنصور عثمان[1] [بن جقمق] على مصر

السّلطان الملك المنصور أبو السّعادات فخر الدين عثمان ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد جَقْمَق العلائي الظاهريّ؛ وهو الخامس والثلاثون من ملوك مصر الأتراك، والحادي عشر من الجَرَاكسة.

تسلطن بعد أن خلع أبوه الملك الظاهر جَقْمَق نفسَه عن المُلْك، وحضر الخليفةُ القائم بأمر الله حمزةُ، والقضاةُ الأربعة، وجميعُ الأمراء، وأعيانُ الدولة بقاعة الدّهيشَة[2] من قلعة الجبل، وبايعوه بالسلطنة في الثانية من نهار الخميس الحادي والعشرين من محرّم سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وكانت البيعة له بالسلطنة في الثانية من نهار الخميس بعد طلوع الشمس بخمس وعشرين درجة، ولبس الخلعة على العادة، وركب من الدهيشة وعليه السواد الخَليفَتِي[3] بشعار المُلْك وأُبّهة السلطنة على نحو ثلاثين درجة من طلوع الشمس.

وسار وبين يديه الأمراء وأعيان المملكة إلى أن نزل بالقصر السلطاني، وحمل الأمير الكبير إينَال العَلاَئي الناصري القُبَّة والطَّيْر[4] على رأسه، إلى أن جلس على

---

(١) ترجمته وأخباره في: بدائع الزهور؛ ٣٤٣ ـ ٣٤٥؛ وحوادث الدهور: ٤٠٠ ـ ٤٢٢؛ والضوء اللامع: ٥/١٢٧؛ والأعلام: ٤/٢٠٤؛ ومعجم زامباور: ١٦٤.

(٢) الدهيشة: قاعة كبيرة مرتفعة البناء، كانت مفروشة بأنواع البسط والمقاعد الزركش، بناها الملك الصالح عماد الدين إسماعيل سنة ٧٤٥ هـ. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٢؛ والسلوك: ٢/٢١٢).

(٣) السواد الخليفتي: هو شعار الخليفة العباسي بمصر الذي يخلعه على السلطان الجديد. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٤) هي من رسوم السلطنة في المواكب. ـ راجع في وصفها فهرس المصطلحات.

تخت الملك، وقبَّل الأمراءُ الأرضَ بين يَدَيْه، وخلع على الخليفة القائم بأمر الله حمزة، وعلى الأمير الكبير إينَال المذكور، على كلٍّ منهما أَطْلَسَيْن مُتَمَّراً[١]، وفرساً بسرج ذهب، وكُنْبُوش[٢] زَرْكَش، وأنعم على الخليفة بألف دينار، وبإقطاع هائل زيادة على ما بيده.

وتمَّ أمرُه في السلطنة، ولُقِّب بالملك المنصور، وعمرهُ يومئذ نحو الثماني عشرة سنة تخميناً.

وكان الطالعُ عند بيعته بالسلطنة سبعاً وعشرين درجة من بُرْج الحُوت، والغارب بُرْج السّنبلة، والمتوسطُ بُرْجُ القَوْس، والسّاعة ساعة المرِّيخ، والقمرُ بالوجه الثالث من بُرج العَقْرَب.

واستمرّ الملك المنصور بالقصر السلطاني ساعة، ثم عاد إلى منزله بالحُوش السلطاني من قلعة الجبل؛ وهذا بخلاف عادة الملوك، لأن العادة جَرَتْ أنّ السّلطان إذا تسلطن يمكثُ بالقصر ثلاثة أيام بلياليها، وعنده أعيان الأمراء والخَاصِّكِيَّة، فأبطل ذلك كلَّه الملكُ المنصور، وعاد من يومه، لكون والده على خطة[٣] وهو حاضر الحس، وفعل ذلك مراعاة لخاطره.

ثم في يوم السبت ثالث عشرين المحرّم جلس الملكُ المنصور على الدِكَّة بالحُوش السلطاني[٤]، وحضر الأمير دُولاَتْ بَاي المحمودي الدَّوَادَار الكبير أمير حاج المحمل إلى بين يديه، وقبَّل الأرض، وخُلع عليه، ونزل إلى داره[٥].

ثم أصبح يوم الأحد طلع المَقَامُ الغَرْسِي خليلُ ابن السلطان الملك الناصر

(١) هو شاش حرير من عمل الإسكندرية مموّج بالذهب. وورد اللفظ في حوادث الدهور للمؤلّف، وفي خطط المقريزي بالتاء المثلثة: «المثمر».

(٢) الكنبوش: هو البرذعة تُجعَل تحت الفرس.

(٣) عبارة حوادث الدهور: «وفعل ذلك مراعاة لوالده، فإنه متمرّض بقاعة الدهيشة» وهي أوضح.

(٤) في حوادث الدهور: «على الدكّة الملاصقة لباب البحرة من الحوش السلطاني».

(٥) زاد المؤلّف في حوادث الدهور: «وخلع على والديه كلٌّ منهما كاملية بفرو سمُّور، ثم خلع على الأمير عيسى بن عمر الهواري أمير العربان بالوجه القبلي، وعلى جماعة أُخر من مشايخ العربان على عادتهم».

فرج إلى القلعة، وقد حضر أيضاً من الحج، وسلَّم على الملك المنصور، فأقبل عليه المنصورُ، وخلع عليه كَامِلِيَّة صوف بنفسجي بمقلب بفروسَمُّور؛ ثم خرج من عنده ودخل إلى الملك الظاهر جَقْمَق، وعاده وسَلَّم عليه بقاعة الدّهِيشَة؛ وقبل أن ينزل رسم له الملكُ المنصورُ بالتَّوَجّه من يومه إلى ثغر دِمْياط.

وكان الملك الظاهر جَقْمَق لمّا استقدمه من الإسكندرية للحج أطمعه بالسُّكنى في القاهرة، فنزل خليل المذكور إلى تُرْبَة جدِّه الملك الظاهر بَرْقُوق بالصحراء، وسافر منها ليلته إلى دِمْياط.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرين المحرّم أنعم السّلطان الملك المنصور بإقطاعه الذي كان بيده أيام أبيه على الأمير تَنَمْ من عبد الرزَّاق أمير مجلس.

وأنعم بإقطاع تَنَمْ ـ وهو أيضاً تقدمة ألف ـ على الأمير يونس الأَقْبَائي شاد الشَّرَاب خَانَاه.

وأنعم بإقطاع يونس على الأمير جَانِبَك القَرَمَانِي ـ الظاهريّ بَرْقُوق ـ ثاني رأس نوبة، والإقطاع إِمْرَة أربعين طَبْلَخَانَاه.

وأنعم بإقطاع جَانِبَك القَرَمَانِي على الأمير يَشْبُك الناصريّ [أحد أمراء العشرات ورأس نوبة][1]، وهو أيضاً إِمْرة أَرْبَعِين[2].

وأنعم بإقطاع يَشْبُك الناصري ـ وهو إِمْرَة عَشَرَة ـ على الأمير كُزُل السُّودُوني المُعَلِّم، وكان بَطَّالاً.

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشرينه حضر الملك المنصور خِدْمَة القصر على العادة قديماً، لأن والده الملك الظاهر كان أبطل خِدْمَتَي السبت والثلاثاء من القصر.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) أي إمرة طبلخاناه. ـ راجع فهرس المصطلحات: طبلخاناه، وأمير طبلخاناه.

وخلع على الأمير لاجِين الظاهريّ الزَّرْدَكَاش ولَالَاة[١] الملك المنصور باستقراره شَاد الشَّرَاب خاناه عوضاً عن يونس المقدّم ذكره.

وخلع على جَانِبَك قَرَا الظاهريّ ـ جَقْمَق ـ أحد أمراء العَشَرَات ورأس نوبة، باستقرارة زَرَدْكَاشاً عوضاً عن لاجين المذكور.

ثم توجّه الملك المنصور من القصر إلى البحرةَ بالحُوش السلطاني، وطلب بـه مُبَاشِـري الدولـة، وحضر الأمير قَانِي بَـاي الجَارْكَسي الأميـر آخُـور الكبيـر، والطَّوَاشي فَيْرُوز الرُّومي النّوْرُوزِي الزّمام والخازْنْدَار، وكلُّهم في أمـر المماليـك السلطانيَّة، ومن أين تكون النفقة عليهم، لأن الملك الظاهر لم يَدَعْ في الخـزائن شيئاً؛ وطال جلوسهم عنده إلى قريب الظهر، وانفضّ المجلس بعد كلام طـويل. واختلفت الأقوال فيما وقع فيه من الكـلام، ومحصول ذلـك كله أن السلطان شكا للجماعة قِلَّةَ وجود المال بالخِزَانة السلطانية، وسألهم في المساعدة في أمر النفقة، فدار الكلام بينهم في ذلك، إلى أن التزم كلٌّ منهم بحمل شيء مسـاعدةً لـه في نفقة المماليك، وانفضَّ المجلس بعد أمور حكيناها في «الحوادث»[٢].

ثم في يوم الخميس ثامن عشرين المحرّم خلَعَ السلطانُ على الأمير جَانِبَك الظَّاهريّ بالتكلّم على بندر جـدّة على عادتـه في كل سنـة، وخلع على عدّة من الخاصِّكِيَّة بالتوجّـه إلى البلاد الشـامية بـالبشارة بسلطنـة الملك المنصور عثمـان، وهم: جَانَم الأشْرَفيّ السّاقي البَهْلَوَان، توجَّه إلى نائب الشام الأمير جُلُبَّان. وطُوخ النـوْرُوزي رأس نوبـةَ الجَمدَارِيـة إلى نائب حلب الأمير قَـانِي بَـاي الحَمْـزاوي. وبَرْسبَاي الأشرفي الأمير آخُور إلى نائب طرابلس الأمير يَشْبُك النّوْرُوزي. وقَايِتْبَاي الأشرفي الأمير آخور إلى نائب حماة الأمير حَاج إينَال اليَشْبُكي. ودُولاتْ بَاي إلى

---

(١) أي مربّيه.

(٢) الذي ذكره المؤلّف في حوادث الدهور أن المجلس انفضّ على «أن الصاحب جمال الـدين يوسف نـاظر الخاص والجيش يقوم من ماله بمائة ألف دينار للخزانة الشريفة برسم نفقة المماليك السلطانيـة، والتزم الزيني يحيىٰ الأستادار بحمل ثلاثين ألف دينار بعد أمور، ووقع الاتفاق على صرف النفقة في أول شهر ربيع الأول».

نائب صَفَد الأمير بَيْغُوت الأعْرَج المؤيّدي. وتَمُر الأشْرَفي الخَاصِّكيّ إلى نائب قلعة دمشق وقُضاتها وغيرهم. وسودُون يَكْرَك[١] إلى نائب غزة جَانِبَك التَّاجيّ. وخُشْقَدَم مملوك قَرَاجَا الأشرفي إلى نائب الكَرَك والقدس. وإينال الظاهري - جقمق - إلى نائب الإسكندرية بَرْسبَاي البَجَاسي.

ثم في يوم السبت سلخ المحرّم أعاد السلطانُ الجمع بقاعة البَحْرَة من قلعة الجبل بسبب نفقة المماليك السلطانية، وأعاد على مباشري الدولة الكلام في أمر النفقة، فكَثُرَ الكلامُ بسبب ذلك. وكان زين الدين [يحيىٰ][٢] الأسْتَادَار قد تقرَّب إلى الملك المنصور أيام والده، وصار أسْتَادَاره. واختصَّ به، ومهَّد أموره معه؛ فلما تسلطن ظنَّ أنه سيكون من أمره في دولته أضعاف ما كان له في دولة والده الملك الظاهر جَقْمَق، وأخذ في هذا الجمع يمتنع من حمل ما قُرِّر عليه من الذهب برسم نفقة المماليك، وأنه في حمله[٣] بوظيفة الأستادارية، وأوسع وصمَّمَ على مقالته. وكان في المجلس الأمير جَانِبَك الظاهري، نائب جدَّة، والناصري محمد بن أبي الفرج نقيب الجيش - وهو أعدى عدوٍّ لزين الدين الأستادار - مع مَن حواه المجلسُ من الأمراء وأعيان المملكة. وكثر الكلام بسبب امتناع زين الدين من حمل المال، وتغيّر السلطان عليه بسبب ذلك، فأمر بمسكه وعَزْله، وتولية الأمير جَانِبَك الظاهري نائب جدّة للأسْتَادَارِيَّة، وأحضر في الحال خلعة الأسْتَادَارِيَّة وألبسها للأمير جَانِبَك المذكور، ونزل إلى داره وبين يديه وجوهُ الدَّوْلة. وسُرّ الناس قاطبة بعزل زَيْن الدين المذكور عن الأسْتَادارِية، فإنه كان طال واستطال، وظلم وعسف، وأخذ عدّة إقطاعات من أخباز المماليك السلطانية والأمراء؛ استولى عليها بالشّوكة، وأضافها إلى الديوان المفرد[٤]، وحجر على غالب الأشياء، واستولى عليها من معايش

(١) أضاف في الحوادث: «أعني مجرى باللغة التركية».

(٢) زيادة عن حوادث الدهور.

(٣) كذا هي عبارة الأصل، وهي غير واضحة... ولعلّ المراد: «وأنه قد حمل ما يتوجّب عليه حمله أثناء قيامه بوظيفة الأستاداريّة» أو بما في معناه.

(٤) هو ديوان تابع للسلطان، أفردت له قرى وأراضٍ يصرف السلطان من ريعها نفقة مماليكه من جامكيات وعليق وكسوة. - راجع أيضاً فهرس المصطلحات: الديوان المفرد.

الفقراء وأرباب التكَسُّب، وصار هو يأخذها ثم يبيعها بأضعاف ما أخذها، حتى جمع من هذا المال الخبيث أموالاً كثيرة، وعمّر منها الجوامع والمساجد والسُّبُل، فكان حاله في ذلك كقول القائل: [الطويل]

بنى جامعاً لله مِنْ غَيْرِ مَالِهِ ... فكان بحمد الله غيرَ مُوَفَّقِ
كَمُطْعِمَةِ الأيْتامِ من كَدِّ فَرْجِها ... لَكِ الويلُ، لا تَزْني ولا تَتصدّقي

وقد حرّرنا أحواله مِن ابتداءِ أمره إلى يوم عَزْلِهِ في غير هذا المحل ـ والمقصود هنا الآن أخبار الملك المنصور ـ ثم رسم الملك المنصور بحبس زين الدين وإلزامه بخمسمائة ألف دينار [والحوطة على جميع موجوده وحواشيه][١].

ثم أنعم الملكُ المنصورُ على الأمير بُرْدبَك الظاهري ـ جَقْمَق ـ البَجْمَقْدار[٢]، أحد أمراء الخَمْسَات[٣] بإمْرَة عَشرة من الديوان السلطاني، وأنعم بإقطاع بُرْدبك على سُودون من سلطان الظاهري البَجْمَقْدار حساباً عن إمْرَة عشرة ضعيفة، وأنعم على جَانِبَك القَجْمَاسِي الأشرفي المعروف بِدَوادَار سَيّدِي بإمْرَة عشرة أيضاً من الذخيرة من المتوفر[٤].

وفي عصر هذا النهار سلّم السلطانُ زينَ الدين يحيىٰ الأستادار المنفصل إلى الأمير جَانِبَك الظاهري الأستادار المستقر في الأستادارية، وأمَرَهُ بمعاقبته، فنزل به من القلعة على أقبح وجه، فنعوذ بالله من زوال النِّعم، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾. وازْدَحَم الناسُ تحت القلعة لرؤيته، فما منهم إلّا شامِتٌ أو متهكّم، فتفضّل عليه الأمير

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) البجمقدار والبشمقدار هو الذي يتولّى أمر نعل السلطان أو الأمير. ـ راجع فهرس المصطلحات: بجمقدار.

(٣) في حوادث الدهور: «أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بإقطاع من الذخيرة» والمراد بالذخيرة الخزانة السلطانية التي تحوي الذخائر من أموال منقولة.

(٤) أضاف في حوادث الدهور: «وفيه استقرّ الأمير قاني باي المؤيدي أحد أمراء العشرات من جملة رؤوس النوب، وكذلك الأمير جاني بك من أمير الأشرفي».

جَانِبَك، وتنزّه عن عقوبته، رحمةً عليه لا خوفاً من عاقبته، وأعاده إلى القلعة في يوم الأربعاء، وقد حرّرنا ذلك كلّه في الحوادث[١].

ثم في يوم الاثنين ثاني صفر خلع السلطان على الأمير فَيْرُوز النَّوْرُوزِيّ الزّمام الخَازِنْدَار بإعادة الذخيرة إليه.

وخلع على الأمير قُشْتُم الناصريّ باستقراره في نيابة البُحَيْرَة على عادته أوّلاً على كُرْه منه؛ وهو أيضاً أحد أعداء زين الدين الأستادار. وكان قُشْتُم من محاسن الدهر.

وفيه أنعم الملك المنصور على السّيْفي قَانصُوَه المحمدي الساقي الأشرفي بإمْرَة عشرة من الذخيرة أيضاً؛ وقَانصوه أيضاً من نوادر الدهر ومحاسنه.

ومات السلطان الملك الظاهر جقْمَق في تلك الليلة حسبما ذكرناه في خمسة مواطن من مصنفاتنا، لا حاجة في ذكره هنا ثانياً[٢].

ثم في يوم الأربعاء ثاني يوم دفن الملك الظاهر جقْمَق نُودِيَ بالقاهرة بالأمان والنَّفقة[٣] في المماليك السلطانيَّة في آخر صفر.

وفيه نُقل زين الدين الأستادار [من بيت الأمير جانِبَك][٤] إلى طبقة الخازِنْدَار

---

(١) وذكر المؤلّف في الحوادث أن الأمير جانبك أخبر السلطان أن زين الدين الأستادار أقرّ بأن في حاصله مائة ألف دينار، وقد وجدوا منها أربعة وأربعين ألفاً، وهم في طلب الباقي... ثم في يوم الاثنين ثاني صفر وجد لزين الدين الأستادار في قاعته بدرب شمس الدولة من القاهرة سبعة وأربعون ألف دينار، فصار الجملة نيّفاً وتسعين ألف دينار.

(٢) ذكر المؤلّف في حوادث الدهور أن السلطان حضر جنازة والده، وصلّى عليه الخليفة القائم بأمر الله حمزة... قال: وكان يوماً مشهوداً لم نرَ لملك جنازة كجنازته لعدم الغوغاء وكثرة الناس والخفر الذي حصل على جنازته، بخلاف جنائز الملوك. كلّ ذلك لكون ولده تسلطن في حياته.

(٣) جرت العادة أن يقوم السلطان الجديد بالنفقة على المماليك السلطانية. وهذه العادة قلّما كانت تخرق، وإذا خرقت قام المماليك بالشغب والفوضى مُطالبين بالنفقة، إلّا إذا كان السلطان الجديد قوياً جداً وعلاقته بمماليكه ممتازة فإنهم يتسامحون معه مراعاة لأحوال الدولة المالية.

(٤) زيادة عن حوادث الدهور.

فَيْرُوز [بالقلعة][١] على [أن][١] يحمل ما قُرِّر عليه.

وفيه[٢] خلع السلطان على جَانِبَك الأشرفي اليَشْبكي وَالي القاهرة، وعلى يَرْعلي محتسب القاهرة، وعلى الناصريّ محمد بن أبي الفرج نقيب الجيوش المنصورة باستمرارهم [على وظائفهم][١].

وخُلع[٣] على الأمير قَرَاجَا العُمَري الناصريّ [باستقراره] كاشف الشرقيَّة بالوجه البحري، بعد عزل عبد الله عنها، فتزايد سرور الناس بعزل هذا الظالم أيضاً.

ثم في هذا اليوم عوقب زَيْنُ الدين الأستادار بالعصيّ والمعاصير، وضُرِبَ على سائر أعضائه، وحضر الناصريّ محمد بن أبي الفرج عقوبته، وكان السلطان ألزمه باستخراج الخمسمائة ألف دينار منه.

ثم في يوم الثلاثاء [عاشر صفر] استقرّ الزيني فَرَج بنُ النحّال كاتبُ المماليك في نظر الدولة[٤] وخلع السلطان على تَنَمْ الخاصِّكيّ الظاهري المعروف برصاص باستقراره في التَّكلم على بندر جُدّة عِوَضاً عن الأمير جَانِبَك الظاهري الأستادار بسفارة جَانِبَك.

ثم في يوم الخميس ثاني عشر صفر أمسك السلطانُ الملكُ المنصور ـ برأي مماليك أبيه ـ جماعةً من الأمراء المؤيدية[٥]، وهم: الأمير دُولات بَاي المحمودي المؤيدي الدَّوَادار الكبير، والأمير يَرْشِبَاي الإينَالي المؤيدي أحد أمراء الطَّبْلَخَانات وأمير آخور ثانٍ، والأمير يَلَبَاي الإينالي أحد أمراء الطَّبْلَخَانات ورَأْس نوبة؛ وكان

(١) زيادة عن حوادث الدهور.
(٢) في الحوادث: «وفي يوم السبت سابع صفر».
(٣) في الحوادث أن ذلك حدث يوم الاثنين تاسع صفر.
(٤) في حوادث الدهور أنه استقرّ في نظر الديوان المفرد... وهناك فرق بين الوظيفتين: فناظر الدولة (ويقال له أيضاً ناظر الدواوين) هو الذي يشارك الوزير في النظر والتصرّف في المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين. أما ناظر الديوان المفرد فهو الذي ينظر في أرزاق المماليك السلطانية ويكون على رأس الديوان المفرد التابع للسلطان.
(٥) نسبة إلى السلطان الأسبق المؤيد شيخ المحمودي.

القبض على دولات بَاي بقاعة الدّهيشَة، وعلى يَرْشِبَاي بالإسطبل السلطاني، وعلى يَلَبَاي من سوق الخيل، وقُيِّدوا الجميع إلى بعد أذان الظهر، فأُنزلوا بالقيود على البغال إلى النِّيل، وحُملوا إلى الإسكندرية، فسجنوا بها. وكان مُسَفِّر دُولات بَاي الأمير جَانِبَكْ قَرَا الذي استقرّ زَرَدْكَاشاً، وقد تَوَلّى نيابةَ الإسكندرية في الباطن عِوَضاً عن بَرْسْبَاي البَجاسي، وحُمل إليه التقليد بعد يومين، فاتَّضَعَ بمسك هؤلاء قَدْرُ المؤيدية، وارتفع أمر الأشرفية.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر صفر أنعم السلطانُ على الأمير قَرْقَماس الأشرفي الجَلَب، أحد أمراء الطَّبْلَخَانات وقريب الأشرف بَرْسْبَاي بإمْرَةِ مائة وتَقْدِمَةِ أَلْفٍ بالدّيار المصرية، عِوَضاً عن دُولاَت بَاي المحمودي بحكم حبسه، وأنعم بإمْرَةِ قَرْقَمَاس المذكور على الأمير جَانِبَكْ النَّوْرُوزي، المعروف بنائب بَعْلَبَك والقادم من مكة قبل تاريخه.

وفيه استقرّ الأمير تَمُرْبُغا الظّاهريّ الدَّوَادار الثاني وأحد أمراء العشرات دَوَادَاراً كبيراً، عِوَضاً عن دُولاَت بَاي، وأنعم عليه بإمْرَةِ أربعين، وهو إقطاع يَرْشِبَاي الإينَالي، وأنعم بإقطاعه على يَشْبُك الظاهري بعد أيام.

وفيه أيضاً استقرّ الأميرُ أَسِنْبَاي الجمالي الظاهري أحد أمراء العشرات دواداراً ثانياً، عوضاً عن تَمُرْبُغَا على إقطاعه إمْرَة عشرة من غير زيادة. واستقرَّ الأمير سُنْقُر العايق الأمير آخور الثالث أمير آخور ثانياً عوضاً عن يَرْشِبَاي. واستقرّ الأمير بُرْدبَكْ البَجْمَقْدَار أمير آخور ثالثاً، عوضاً عن سُنْقُر المذكور. واستقرّ الأمير جَانِبَك اليَشْبُكي والي القاهرة زَرَدْكَاشاً عوضاً عن جَانِبَك قَرَا المتوجِّه إلى نيابة الإسكندرية، مُضَافاً إلى ما بيده من الولاية والحجوبيَّة وشَدِّ الدواوين. فعظم ما وقع في هذا اليوم من الولاية والتغاير على أعيان الأمراء، ونفرت القلوب من الظاهريَّة في الباطن بسبب تولية تَمُرْبُغا الدوادارية الكبرى، وكان الأمير أَسَنْبُغَا الطَّيَّاري رأس نَوبَة النُّوَب رُشِّح لولايتها، وأن يكون الأمير جَرِباش المحمدي كُرْد رأس نَوبَة النُّوَب عِوَضَهُ.

وبات الناس على ذلك، فأصبح وَقعَ ما حكيناه، ومن يومئذ وقع الكلامُ في

الدّولة ووَجد مَن له غرضٌ في إثَارة الفتنةِ مَدْخَلاً يَدْخـل منه، وتـرقّب الناس وقـوعَ الفتنة، غير أن الناس في سكون، والبواطن مشغولة إلى ما سيأتي ذكره.

ثم في يوم الثلاثاء سَابع عَشرِهِ أنعم السلطان على الأمير سَونْجبُغَـا اليُونسِي أحـد أمراء العشـرات ورأس نـوبَـة بـإقـطاع الأميـر يَلَبَـاي الإينـالي بحكم حبسـه بالإسكندرية، وأنعم بإقـطاع سَونْجبُغَـا المذكـورة وإقطاع جَـانِبَكْ النَّـوْروزِي نائب بَعْلَبَـك على قَاني بَـكَ السّيفي يَشْبُك بن أزْدَمُـر أحـد الـدواداريـة، وعلى قُـوزِي الظاهري الساقي، واستقرّ سنْطَبَاي[1] الظاهري ساقياً عوضاً عن قُوزِي، وخَيرِ بَـك الأشرفي صاحب تِمْرَاز المُصَارع دَوادَاراً عوضاً عن قَانِي بَكْ.

وفيه أيضاً عُـوقب زينُ الدين أشـدَّ عقوبـة بحضرة الأميـر جَانِبَـك الظاهـري الأستادار وغيره، وهو لا يُظْهِر ماله من الذخائر غير ما أُخذ له، وهو دون المائة ألف دينار، ذكرنا تفصيلها في غير هذا المحل[2].

وفي هذه الأيام أُشيع بوقوع فتنة، ووثوب المماليك السلطانية بسبب النفقة[3] عليهم.

وفيه استعفى الأميرُ الوزيرُ تَغْرِي بَرْدِي القلاوي الظاهري من الوزَر، فأُعْفِيَ على أنَّه يقوم بالكُلَفِ السلطانية في يومه ومن الغد.

ثم في يوم الأربعاء ثامن عشر صفر عُقد مجلس بين يَدَي السلطان بالقُضَاة الأربعة بسبب أمْلاَك زين الدين الأستادار الموقوفة عليه وعلى جـوامعه ومسـاجده، ووقع بسبب ذلك أمور آل الأمر إلى بيعها.

---

(١) في الحوادث: «سنبطاي».

(٢) قال المؤلّف في حوادث الدهور: «هذا والبيع مستمر في أمتعته وأملاكه في كـل يوم في الأسـواق، وإلى الآن لم يغلق ما أورده مائتي ألف».

(٣) هذا الخبر هنا مقتضب وغير واضح. والمراد به أن المماليك ثاروا مُطالبين بالإنفاق عليهم مما صُودِرَ من إقطاعات زين الدين الأستادار وما كان موقوفاً عليه وعلى جوامعه ومساجده وربطه. وكذلك ألحّ المماليك في طلب إقطاعات الفقهاء والمتعمّمين. وبسبب الأملاك التي كانت موقوفة على زين الدين الأستادار عقد السلطان مجلساً بالقضاة الأربعة. ـ انظر حوادث الدهور: ٤١٠ ـ ٤١١.

ثم في يوم الخميس تَاسع عشره خلع السلطان على الصاحب أمين الدين بن الهَيْصم باستقراره وزيراً على عادته. قلتُ: إذاً أُعْطِيَ القوسُ لراميه.

ثم في يومِ السبت حادي عشرينه عمل السلطانُ الخِدْمَةَ بالحوش السلطاني بسبب قُصَّاد ملك الحبشة. وكان أشاع أهل الفتن في أمسه أن السلطان يريد يعمل الخِدْمَة بالحوش ليقبضَ على جماعة كبيرة من الأعيان، فانفضَّ الموكب، ولم يقع شيء من ذلك.

ثم في يوم الاثنين ثَالث عشرين صفر المذكور رسم السلطانُ للأمير جَرِبَاش الكَريمي الظاهري - بَرْقوق - أمير سلاح بلزوم بيته بحكم كِبَرَ سِنّه وعجزه عن الحركة. وكان جَربَاش من القبائح. وأنعم السلطان بإقطَاعه على الأمير قَرَاجَا الظاهري - جَقْمَق - الخَازِنْدَار، وصار من جملة أمراء الألوف؛ وقَرَاجَا المذكور من خِيَار أبناء جنسه ديناً وعِفّةً وكَرَماً. وأنعم بإقطاع قَرَاجَا ووظيفته عَلَى الأمير أُزْبُك من طَطَخ الظاهري - جَقْمَق - الساقي أحد أمراء العشرات ورأس نَوْبَة، وأنعم بإقطاع أُزْبُك على الأمير بَتْخَاص العُثْمَانِي الظاهري بَرْقوق، وكان بَطّالاً.

وفيه أيضاً استقر الأميرُ تَنَم من عبد الرَّزّاق المؤيدي أمير مجلس أميرَ سلاح عوضاً عن جَرِبَاش الكَريمي قاشق بحكم لزومه داره.

وفيه خلع السلطان عَلَى الأمير تَمُرْبُغَا الظاهري الدّاوادار الكبير خلعة الإنظار[1] المتعلقة بالدُّواداريَّة، ونزل بخلعته في موكب جليل، ولسان حاله ينشد: [البسيط]

مَن راقبَ الناسَ مَات غمّا وفاز باللَّذةِ الجسورُ

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشرينه خَلع السلطان عَلَى الأمير تَنِبَك البُرْدبَكي

(١) خلعة الإنظار، أو الانتظار: وهي خلعة خاصة بكل وظيفة من الوظائف التي يوليها السلطان، تخلع على صاحبها قبل مباشرته لوظيفته الجديدة. ولم نعثر على وصفين مختلفين لهذين النوعين من الخلع: خلعة الانتظار وخلعة المباشرة، ولعلّ الفارق الوحيد بينهما هو في التوقيت.

الظاهري، المعزول عن حجوبيّةِ الحجّاب قبل تاريخه، باستقراره أمير مجلس عوضاً عن تَنَم المنتقل إلى إمْرَة سلاح. ومن الغريب أنه لمّا ولِيَ إمرة مجلس، وطلع إلى القلعة بعد ذلك، وجلس في الموكب، قعد قانِي بَاي الجاركسي الأمير آخور الكبير فوقه، وهذا شيء لم يُعهد من أن أمير آخور يجلس فوق أمير مجلس، فعُدَّ ذلك من جنون قانِي بَاي وقلّة أدبه، إذ [إن] تَنِبَك المذكور في مقام أستاذه، لأنه خُجْداش جاركَس، وأيضاً أنه كان في الدّولة الأشرفيّة أمير مائة ومقدّم ألف، وقَانِي بَاي جندي بجِياصة، فما ثمَّ وجه من الوجوه لجلوسه فوقه.

وفيه أيضاً عزَلَ السلطانُ جماعةً كبيرة من الخَاصِّكِيَّة البوَّابين[1] من المؤيَّديَّة، وولّى عوضهم جماعةً من حواشيه، فزاد ما بالمؤيّديّة[2]، وأخذوا في عمل الرّكوب[3] فلم يكن لهم طاقة لذلك لِقِلَّتِهِم؛ فلم يجدوا بُدّاً من مصالحة الأشرفية ليكونوا معاً، فسعوا في ذلك في الباطن إلى ما يأتي ذكره.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشرينه وصل إلى القاهرة مملوك الأمير قَانِي بَاي الحمزاوي نائب حلب، ومملوك نائب قلعتها، وحاجبها، وقبَّلوا الأرض، وأخبر مملوكُ نائب حلب عن مخدومه أنه قبَّل الأرض، وسُرَّ بسلطنة الملك المنصور إلى الغاية، فرحَّب السلطان بهم وخلع عليهم.

ثم في يوم الخميس سادس عشرين صفر قُرِئ تقليدُ السلطان الملك المنصور بالسلطنة بالقصر الكبير السلطاني من قلعة الجبل، فجلس السلطان على كرسي

(١) البوّابون هنا جمع «بابا»، وهو لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه الذين يتعاطون الغسل والصقل وغير ذلك. وأُطلق عليه هذا اللقب لأنه يقوم بترفيه مخدومه من تنظيف ملابسه وتحسين هيئته، فهو أشبه بالأب الشفيق، ومنه جاء إطلاق اللقب. (انظر صبح الأعشى: ٤/١٠).

(٢) أي زاد ما بهم من سوء حال لما كان قد حلّ بهم على إثر عزل عدد من أمرائهم، كما ذكر المؤلّف قبل هذا.

(٣) لعلّ المراد بذلك تهيئة ما يلزم لموكب ركوب السلطان... قال القلقشندي: «... ولغلمان الطشت خاناه دربة بترتيب الأحمال التي تُحمَل على ظهور البِغال للزينة في المواكب العظيمة ونحوها، يأتون فيها من بديع الصُّنعة والتعاليق الغريبة بكل عجيب، وهم يتباهون بذلك، ويسامي بعضهم بعضاً فيه». (صبح الأعشى: ٤/١٠).

المُلْك، وجلس الخليفة القائم بأمر الله حمزةُ على الأرض على يمينه، فَعَظُمَ ذلك على الخليفة، ولم يُبْدِه إلّا بعد ركوب الأتابَك إينَال. وحضر القضاةُ الأربعة وتولّى قراءة التقليد القاضي محبُّ الدين بن الأشقر كاتب السِّرّ. وبعد فراغ القراءة خلع السلطان الملك المنصور على الخليفة وعلى كاتب السِّر، وخلع على القضاة الأربعة.

ثم في يوم السبت ثامن عشرين صفر خلع السلطان على قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِيني الشافعي بإعادته إلى قضاء القضاة، بعد عزل شرف الدين يحيىٰ المُنَاوي.

وفيه استقرَّ السيفي يَشْبُك القِرْمِي الظاهري والي القاهرة بحكم عزل جَانِبَك اليَشْبُكي، بحكم انتقاله إلى الزَرَدْكَاشِيّة، حسبما تقدّم ذكره.

هذا وقد أخذت المؤيَّدية في استمالة الأشرفيّة من يوم قبض الملك المنصور عَلَى خُجْدَاشِيتهم دُولَات بَاي ورفقته، ولا زالوا بهم حتى وافقوهم لحزازةٍ كانت في نفوس الأشرفيّة أيضاً من الملك الظاهر جَقْمَق قديماً. وقد تجدَّد مع ذلك أيضاً قولُ بعض أمراء الظاهرية للأشرفيّة في أخذ ابن أستاذهم الشِّهابي أحمد ابن الملك الأشرف بَرْسَبَاي من عند عمّه زَوْجِ أُمِّه الأمير قَرْقَمَاس الأشرفي، وإرساله إلى ثغر الإسكندرية ليقيم بها عند أخيه الملك العزيز يوسف، فعظم ذلك على أُم الشِّهابي أحمد، وعَلَى زوجها الأمير قَرْقَماس، فكان ذلك من أكبر الأسباب لموافقة الأشرفيّة للمؤيّدية. ثم ساعدهم أيضاً مَنْ له غرض في تغيير الدُّوَل، لا رغبةٌ في أحدٍ بعينه بل حتى يناله ما قد أمّل، وقد صار ذلك عادةً عند موت كلُ سلطان من عهْد الملك المؤيد شَيْخ إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة، لعدم أهلية الملوك، ولغفلتهم عن هذا المعنى في أيام عِزِّهم؛ وأعجب من هذا أنَّ أحدهم لا يزال في غفلة عن ذلك حتى يشرف على الموت، فيعهد لولده بالسلطنة مع معرفته وتحقُّقِهِ بما يفعلونه مع ولده من بعده، كما فعل بأمثاله. وقد قيل في المثل: «إذا أردتَ أن تنظر الدنيا بعدك انظرها بعد غيرك»؛ فلما انتظم الصلح بين الطائفتين سِرّاً تحالفوا واتفقوا عَلَى الركوب في يومٍ بعينه.

كلُّ ذلك والمنصور ومماليك أبيه وحواشيه في غفلةٍ عن ذلك، وأكبرُ همِّهم في تفرقة الإقطاعات والوظائف، وفي ظَنِّهم أن دولتهم تدوم، وأن المُلْكَ قد صار بيدهم. هذا مع عدم التفاتهم لتقريب العقلاء، ومشاورة ذوي التدبير وأرباب التجارب ممّن مارس تغيير الدُّول والحروب والوقائع، وصار أحدهم إذا لَوَّح له بعض أصحابه بشيء مما يدلّ عَلَى ذلك يستخفُّ عقله ويهزأ به، حتى لقد بلغني من بعض أصحابنا الثقات أنه قال للأمير تَمُرْبُغَا مشافهةً. «بلغني أن الأشرفيّة في عزم الرّكوب على السلطان» فضحك تَمُرْبُغَا وقال: «هم نقطوا بعقلهم»، ازدراء بأمرهم واستخفافاً بشأنهم؛ وليس هذا من شأن مَن قد صار أمور المملكة بيده في سائر أحوالها، وإنما شأن الذي يكون في هذه الرتبة أن يفحص دائماً عن أخبار أصدقائه وأعدائه، ولا يُكَذِّب مخبراً ولا ينهر منذراً، بل يسمع كلام كلِّ ناصحٍ نَصَحه، فيأخذ ما صلح بباله، ويترك ما لم يعجبه، من غير أن يُفْهَمَ عنه لأحد من نصحائه عدمُ قبول كلامه، بل يشكره على ذلك ويثني عليه، ويُحَرِّضُه على ما هو فيه، ويُصْغِي لكلام كلِّ قائلٍ حتى يفهمه، ثم يفعل ما بدا له؛ هذا مع الاحتراز والتحرِّي في أموره، واستجلاب الخواطر، وتأليف القلوب له ولسلطانه، ما دامت الدولة مضطربة كما هي عادة أوائل الدُّول، فيصير بذلك في غالب أموره على يقظة، فإن كان خيراً فيحمد الله على التوفيق، وإن كان شرّاً فيتأهّب لذلك قبل وقوعه، ثم يلقاه بعد استحكام واستعداد بقوة جنان، وبذل النفوس والأموال، وهيهات بعد ذلك إن تمّ الأمر أو لم يتم، فإن كان النصر فهو من عند الله، وإن كانت الأخرى فيكون لما سبق في الأزل، فيزول مُلْكُه، وهو معذور مشكور، لا ندمان مقهور؛ فأين هذا مما كان فيه هؤلاء القوم، وقد صار الناس عند الأمير الكبير إينال، ولبسوا السلاح، وأجمعوا على قتالهم، وهم إلى الآن في تكذيب الأخبار واستبعاد ما سيكون، فمَن أساء لا يستوحش، والمفرِّطُ أولى بالخسارة، وعدم التدبير هو أصل التدمير، وهو كما قيل: [السريع]

ما يفعل الأعداءُ في جاهلٍ ما يفعلُ الجاهلُ في نفسه

وبات الملك المنصور وأمراؤه في ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الأوّل على

تفرقة النفقة على المماليك السلطانية في غده، وقد انبرم أمر القوم، وتجهّزوا لما عساه يكون.

وأهلّ شهر ربيع الأول يوم الاثنين، وفيه كان ابتداء الوقعة بين السلطان الملك المنصور عثمان وبين الأتَابَك إينَال العلائي حسبما نذكره هنا على سبيل الاختصار، وقد حرَّرنا ذلك في تاريخنا «حوادث الدهور» باستيعاب[١].

فلما كان وقت السّحَر من يوم الاثنين مستهلّ شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وخمسين وثمانمائة ركب جماعة كبيرة من أعيان المماليك الأشرفية، ورافقهم جمعٌ كبيرٌ من المؤيّديّة والسّيفيّة[٢] وغيرهم من غير لبس سلاح، ووقفوا بالرُّمَيْلَة من تحت القلعة لمنع الأمراء من طلوع الخِدْمَة. وكان بالصُّدَف بات تلك الليلة جميعُ الأمراء في بيوتهم، لِكَوْنِ السلطان كَان في أمْسِه لم يتوجَّه إلى القصر، وأمر بعمل الخِدْمَة من الغد بالحوش السّلطانيّ، ليبدأ بنفقة المماليك في اليوم المذكور. فلم يكن إلّا ساعة يسيرة من وقوفهم، وقَدِمَ الأمراء جميعاً إلى الرُّمَيْلَة يريدون طلوع القلعة، فتكاثرت المماليكُ عليهم واحتاطوا بهم، وأخذوهم غَصْباً بأجمعهم، وعادوا بهم إلى بيت الأمير الكبير إينَال العلائي، وهو من جملتهم، وكان سكنه بالدَّار التي على بِرْكَةِ الفيل الملاصقة لقصر بَكْتَمُر السّاقي تجاه الكَبْش. وأخذوا من جملة الأمراء الأمير قَرَاجَا الخَازِنْدَار الظاهريّ، وقد صار من جملة أمراء مقدّمي الألوف، وهو أحد أركان مملكة الملك المنصور عثمان، وأخذوا معه أيضاً من الظَّاهريّة الوزير تَغْري بَرْدي القَلاَوِي الظاهريّ، ويُرْدَ بك البَجْمَقْدَار الأمير آخور الثالث. وفات المماليك من أعيان الأمراء الأمير تَنَم من عبد الرزَّاق أمير سلاح، فإنه قد أحسّ بالأمر في أمسه، فلم يحسن بباله إلّا مُوَافقة السّلطان، لأمر يريدُه اللّهُ عزّ وجلّ، فركب سحراً، وقصدَ القلعة، ووافاه الأمير تَمُرْبُغا الظاهريّ الدَّوَادَار الكبير في طريقه، فطلعا معاً إلى الملك المنصور.

---

(١) انظر حوادث الدهور: ٤١٣ وما بعدها.

(٢) السيفيّة: هم مماليك الأمراء الذين توفّوا أو قتلوا أو سجنوا وأُسقطت عنهم الإمارة، فانضمّوا بذلك إلى المماليك السلطانية التابعين للسلطان القائم. (زبدة كشف الممالك: ١١٥).

واجتمع المماليك ومعهم الأمراء في بيت الأمير الكبير، وقد كَثُرَ جمعهم، وتزايد عددهم وهم بغير سلاح، وصار جميع الأمراء معهم في صِفَةِ التَّرْسِيم[١]، ولم يبقَ عند الملك المنصور من أعيان الأمراء غير الأمير تَنَم أمير سلاح، والأمير قانِي بَاي الجَارَكَسِيّ الأمير آخور الكبير، والأمير تَمُرْبُغَا الدَّوَادَار [الكبير الظاهري، والأمير جَانِبَك الأستادار؛ وكان أيضاً من أمراء الظاهرية بالقلعة برد بك البجمقدار][٢] فهؤلاء مقدّمو الألوف، وإن كَان تَمُرْبُغَا إقطاعه طَبَلْخَانَاه، فمنزلته تقدمة، [وكذلك جَانِبَك الظاهري][٢].

وكان عند الملك المنصور من الأمراء غير مماليك أبيه جماعةٌ منهم يونُس العلائي الناصري نائب قلعة الجبل، وكُزُل السُّودُوني المُعَلِّم، ومُغُلْبَاي الشهابي أحد أمراء العشرات، وقُطّي الدُّوكَاري نائب البحيرة، وعبد الله كاشف الشَّرقية، ومن مماليك أبيه الأمير لاجِين شادّ الشراب خَانَاه، وأسِنْبَاي الجمالي الدَّوادار الثاني، وأُزْبُك من طَطَخ الخازندار الكبير، وهو صهر الملك المنصور وزوج أُخته، وسُنْقُر العايق الأمير آخور الثاني، وسُنْقُر أستادار الصُّحْبَة، وجماعة أُخَر تأمَّروا في الدولة المنصورية لا يُعتَدُّ بهم، كونهم إلى الآن صفة الخَاصّكِيَّة؛ فهؤلاء [هم] الأمراء.

وأما مَنْ كان عنده من مماليك أبيه الخَاصّكِيَّة والْجَمَدَارِيَّة وغيرهم فكثير جداً. على أنه كان بالقلعة جماعة كثيرة غير الظاهرية [الجقمقية][٣] من الظاهرية [البرقوقية][٣] والناصرية والمؤيدية والأشرفيَّة والسَّيفيَّة.

وأما مَن كان مع المماليك من أعيان الأمراء ببيت الأمير الكبير من المقدّمين؛ الأمير الكبير إينال، وتَنِبَك أمير مجلس، وأَسَنْبُغَا الطيَّاري رأس نَوبَة النُّوَب، وخُشْقَدم المؤيدي حاجب الحجّاب، وطُوخ من تِمْراز الناصري، وجَرِبَاش

---

(١) الترسيم: هو الحجز والمراقبة وتحديد الإقامة.

(٢) ما بين معقوفين زيادة عن هامش طبعة كاليفورنيا.

(٣) زيادة عن هامش طبعة كاليفورنيا، وهي ضرورية لاستقامة السياق.

المحمدي الناصري كُرْد، ويونُس الأقْبَائي، وقَرْقماس الأشرفي الجلَب. وأما من أمراء الطبلخانات والعشرات فكثير ذكرناهم في غير هذا المحل، يطول الشرح في ذكرهم.

ولمّا اجتمع القوم في بيت الأمير الكبير، وعظم جمعهم، أتاهم الأمراء والخاصّكيّة والأعيان من كلّ فجّ، حتى بقوا في جَمْعٍ مَوْفورٍ، فأعلنوا عند ذلك بالخروج عن طاعة الملك المنصور، والدّخول في طاعة الأمير الكبير إينَال، والأمير الكبير يَمْتَنِعُ من ذلك بلسانِه، فلم يلتفتوا لِتَمَنُّعه. وأخذوا في لبس السلاح، فلبسوا في الحال عن آخرهم. وطلبوا الخليفة القائم بأمر الله حمزةَ، فحضر قبل تمام لبسهم السلاح، واحتفظوا بالأمير قَرَاجَا الظاهريّ، وتَغْرِي بَرْدِي القَلَاوِي، وبُرْدبَكْ البَجْمَقْدار، كونهم ظاهرية جَقْمَقِيَّة.

ولمّا حضر الخليفة أظهر الميل الكليَّ للأتابَك إينَال، وأظهر كَوَامِن كانت عنده من الملك المنصور وحواشيه، منها: أنّ المنصور جلس يوم قُرِىء تقليدُه على الكرسيّ وجلس الخليفةُ مع القضاة أسفل، وأشياء من هذا، وقام مع الأمراء في خلع المنصور أتمّ قيام. كلُّ ذلك والمماليك في احتراز عظيم على جماعةٍ من الأمراء، خوفاً من فرارهم إلى الملك المنصور، حتى على الأمير الكبير.

ولما تكامَل لبس المماليك والأمراء السلاح طلبوا من الأمير الكبير الرّكوبَ معهم والتوجُّهَ إلى بيت قَوْصون[1] تجاه باب السلسلة، فامتنع تَمَنُّعاً ليس بذاك، ثم أجابهم في الحال؛ ورَكِبَ هو والأمراء وحولهم العساكر مُحْدِقَةٌ بهم إلى أن أوصلوهم إلى بيت قَوْصون المذكور، ودخلوه من باب سرّه الذي بالشارع الأعظم، ونزل الأمير الكبير بمَن معه من الأمراء بالمقعد من الحوش، وجلس الخليفة بالقصر

---

(١) بيت قوصون، أو دار قوصون، أو اصطبل قوصون: كان هذا البيت بجوار مدرسة السلطان حسن، وهو منسوب إلى الأمير سيف الدين قوصون الأتابك الكبير أيام الناصر محمد بن قلاوون. وقد جعلت هذه الدار منذ ذلك الوقت مقرّاً ثابتاً لمن يتولى مهمّة الأتابكية الكبرى أو الأمير الكبير، وكانت أحياناً مقرّاً للأمير آخور الكبير.

الفوقاني[١] بالبيت المذكور، ورُسم على قَرَاجَا وتَغْرِي بَرْدِي القَلاوي وبُرْدبَكْ بالقصر أيضاً؛ كلّ ذلك والقومُ في غير ثِقَةٍ من الأمير الكبير وغيره من الأمراء، حتى كلَّم الأمير الكبير بعض أصحابه العقلاء بكلام معناه قول القائل: [البسيط]

إذا وتَرْتَ امـرأً فـاحـذرْ عَـدَاوَتَـهُ ... مَنْ يزرع الشوكَ لا يحصـد به عِنَبـا
إن العـدوَّ وإن أبـدى مُسـالَـمَـةً ... إذا رأى منك يـومـاً فـرصـةً وثَبـا

وأظن القائل له الأمير أَرْنَبُغَا الناصري أحد أمراء الطبلخانات، فإنه كان أمثل القوم وأقواهم بأساً وأفرطهم شجاعة.

وأما الملك المنصور لمّا بلغه ما وقع من القوم في بيت الأمير الكبير تحقّق مَنْ عنده من الأمراء والأعيان ركوب الأمير الكبير وخروجه عن الطاعة، فأمروا في الحال يَشْبُك القِرْمي والي القاهرة أن ينادي بطلوع المماليك السلطانية لأخذ النفقة، وأن النفقة لكل واحد مائة دينار؛ فنزل يَشْبُك من القلعة والمنادي بين يَدَيْه ينادي بذلك، إلى أن وصل إلى الرُّمَيْلة تجاه باب السلسلة، فأخذته الدّبابيس من المماليك، فتمزقوا، وذهب القِرْمي إلى حال سبيله. ثم أمر الملك المنصور لأمرائه وحَواشيه بلبس السلاح، فلبسوا بأجمعهم، ولبس هو أيضاً؛ كلّ ذلك وآراؤهم مفلوكة، وكلمتهم غير منضبطة. وصرتُ أنا أنظر إليهم من أسفل القلعة، فلم أجد عندهم انزعاجاً ولا هَرَجاً مع جمودة حركاتهم، ولم ينزل من القلعة أحد لحفظ المدرسة الحَسنيَّة، مع معرفتهم أنها مسلَّطة على القلعة غاية التسليط، هذا مع كثرتهم وقوّة بأسهم بالقلعة والسلاح والرجال، وعندهم السلطان وشوكته إلى الآن قائمة فما شاء الله كان.

وأما الأمير الكبير فإنه حال ما استقرّ به الجلوس نَدَبَ دواداره وصهره بُرْدبَك، ومعه الأمير سَونجْبُغَا اليونسي رأس نَوبَة، ونُوكَار الناصري أحد أمراء العشرات وثاني حاجب إلى القلعة رسالةً إلى الملك المنصور يطلب منه إخماد الفتنة بإرسال

---

(١) كان هذا البيت كبيراً جداً أدخل فيه الأمير قوصون عدّة دور وعمائر وإصطبلات وبنى فيه قصراً كبيراً جعله لإقامته. ـ انظر خطط المقريزي: ٢/٧٢.

جماعة من أمرائه، وهم: تَمُرْبُغَا الدَّوادار الكبير، ولاجين شادّ الشَّرَاب خَاناه، وأسِنْبَاي الدوادار الثاني، فطلعوا إلى الملك المنصور وكلّموه في ذلك، وعادوا إلى الأمير الكبير بأجوبة طويلة مضمونها أنه امتنع من تسليمهم، فأرسلهم الأمير الكبير ثانياً، وصحبتهم بُرْدبَك دواداره وصهره، فتوجّهوا إلى القلعة، وطلعوا إلى المنصور ثاني مرّة، وطلبوا منه ما ذكرناه، فامتنع، وعوّق عنده سَونجْبُغَا ونُوكار، وأرسل بُرْدبَك بالجواب.

وابتدأ القومُ في القتال من يوم الاثنين المذكور، واشتدَّ الحرب، وجرح من الطائفتين جماعةٌ. ثم خرج جماعة من أصحاب الأمير الكبير لأخذ مدرسة السلطان حسن فامتنع مَنْ بها من فتح أبوابها، فنقبوا حائطاً من جوارها مما يلي حِدْرَة البقر، ودخلوا منه إلى المدرسة المذكورة، وعمَّروا سلالم سطحها، وطلعوا منه إلى مآذنها، ورموا منها بالمدافع على قلعة الجبل. وقوي أمر أصحاب الأمير الكبير بأخذ المدرسة المذكورة إلى الغاية، غير أن الأمير الكبير إلى الآن يقدِّم رِجلاً ويؤخِّرُ أخرى في الخلاف على المنصور، ويحسب العواقب، وصار يظهر أنه مُكْرَهٌ على ذلك، فلم يقبل المنصور منه ما أظهره، وتحقّق كل أحد ما القصد بالركوب.

ثم نزل الملك المنصور من القصر السلطاني بأمرائه وعسكره إلى الإسطبل السلطاني، وجلس بالمقعد المطل على الرُّمَيْلة، ونزل من عساكره جماعة مُشاة من باب السلسلة إلى الرُّمَيْلة، لقلّة وجود الخيل بالقلعة، فإنه كان أيام الربيع والخيول غالبها مربوطة على القرط بالبرّ الغربي من الجيزة، حتى إنه كان جميع ما بالقلعة من الخيول أقلّ من مائة فرس، ومُنِعوا من إحضار خيولهم التي بالربيع، وعزَّ توصّلهم إليها، وقاتلوا القوم وهم مُشاة غير مرّة.

وصار أمر الأمير الكبير في نمو بمَن يأتيه من المماليك السلطانية، وجميعهم فرسان غير مشاة، فإنه صار كل واحد منهم يرسل غلامه فيأتيه بفرسه من مربطه بالربيع بخلاف القلعيين، فإنهم ممنوعون من ذلك، من حَجْر أصحاب الأمير الكبير عليهم لهذا السبب وغيره.

ولما رأى الملك المنصور أمر الأمير الكبير في زيادة، أراد النزول إليه بعساكره في الحال من أوّل وهلة، فمنعه قَانِي باي الجاركسي من ذلك بسوء تدبيره لأمرٍ سبق[1]، وكان في نزوله غاية المصلحة من وجوه عديدة.

ومضى نهارُ الاثنين بعد قتال كبير وقع فيه، وبات الفريقان في ليلة الثلاثاء على أُهبة القتال، وأصبحا يوم الثلاثاء على ما هم عليه من القتال والرمي بالمدافع والنفوط والسهام من الجهتين، والجراحات فاشية في الفريقين، إلّا أن فيمَن هو أسفل أكثر، غير أنه لا يؤثّر فيهم لكثرتهم. ولم يكن وقت الزّوال حتى كثر عسكر الأمير الكبير إينال بمَن يأتيه أرسالاً من المماليك السلطانية، واستفحل أمرُه، لا سيما لمّا نزل الأمير جَانِبَك الظاهري أستادار[2] العالية إليه داخلاً في طاعته، ومعه خُجْدَاشُه الأمير بُرْدبَك البَجْمَقْدَار، أحد أمراء العَشَرَات، ورأس نَوْبَة، وسُرَّ الأمير الكبير بنزوله إلى الغاية. وكان لنزول جَانِبَك المذكور من القلعة أسباب خفيَّة.

ثم في هذا اليوم لهج الخليفةُ أميرُ المؤمنين القائمُ بأمر الله حمزةُ بخلع الملك المنصور عثمان من الملك غير مرّة في الملأ، فَقَوِيَ بذلك قلبُ أصحاب الأمير الكبير وجدُّوا في القتال، وتفرَّقوا على جهات القلعة، وجدُّوا في حصارها، ومنعوا مَن يطلع إليها بالمِيرَة وغيرها. وخفَّ التَّرسيمُ عن جماعة من الأمراء من أصحاب الأمير الكبير مِمَّن كانت المماليك تخاف من ذهابهم إلى الملك المنصور، وكانوا قبل ذلك يحتفظون بهم بطريق التحشُّم: وهو أن الأمير منهم كان إذا ركب للقتال أو غيره، دار حوله جماعةٌ من المماليك الأشرفيّة وغيرهم، وساروا معه حيث سار كأنهم في خدمته حتى يعود إلى مكانه؛ فمن آخر يوم الثلاثاء هذا ومن صبيحة يوم الأربعاء تركوا ذلك لعلمهم أن جميع الأمراء والعساكر صاروا في طاعة الأمير

---

(١) عبارة كثيراً ما يستعملها المؤلّف بمعنى: لأمر مقدّر من الله.

(٢) أي الأستادار الكبير. وكلمة «العالية» لا تضيف شيئاً خاصّاً يعدّل بمعنى اللقب. ـ راجع فهرس المصطلحات: الأستادار، وأستادار العالية.

الكبير. وشرع الجميع في القتال بمماليكهم وحواشيهم، وفي عمل التدبير في أخذ الملك المنصور وخلعه من السلطنة، وباتوا تلك الليلة على ما هم عليه.

وأصبحوا يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأوّل والقتال عمّال، وأصحاب الملك المنصور تنسلّ منه إلى الأمير الكبير واحداً بعد واحد، ومَن بقي منهم عند الملك المنصور لا يلتفت إلى مَن ذهب، بل هو على ما هو عليه من القتال لكثرة عددهم، وللقيام بنصرة ابن أستاذهم، فكان في يوم الأربعاء هذا وقعات بين الطائفتين بالمناوشات لا بالمقابلة، وباتُوا على ذلك.

فلما كان يوم الخميس رابع شهر ربيع الأوّل أرسل الملك المنصور إلى الأمير الكبير بالأمير سَونْجبُغَا، والأمير نُوكَار، والزيني عبد الرحمن بن الكُوَيز، وشهاب الدين الإمام الإخْميمي، ومعهم منديلُ الأمان للأمير الكبير ومَن معه من الأمراء ليطلعوا إلى طاعة السلطان. وتردّدوا بين الملك المنصور والأتَابَك إينَال غير مرّة في عمل الصلح، وكثر الكلام بينهم إلى أن انفضّ المجلس على غير طائل، ولم ينبرم صلح، ومنع الأمير الكبير سَوَنْجبُغَا ونُوكار من الطلوع إلى القلعة، وعاد الإخْميمي بالجواب إلى السلطان. وفي الحال عاد القتال على ما كان عليه، فإنه كان بطل الرّمي من القلعة ومن المدرسة لعمل الصلح، فلما انفضّ الأمر على غير صلح عاد كلُّ أحدٍ من الطائفتين إلى ما كان بصدده.

وأعلن الخليفة في هذا اليوم أيضاً بين الملأ بخلع الملك المنصور من السلطنة، وسلطنة الأتَابَك إينَال، والأتَابَك إينال يمتنع من ذلك في ذلك الوقت حتى ينظر ما يكون من أمر الملك المنصور ومحاصرته[1].

ثم تكلّم الخليفة في [ذات] اليوم أيضاً بين الناس بأعلى كلامه: «قد خلعتُ الملك المنصور من الملك». هذا وقد ضعف أمر الملك المنصور واستفحل أمر

---

(١) قال المؤلّف في حوادث الدهور: «... فامتنع امتناعاً هيّناً، ثم أجاب بعد أن سأل الخليفة الأمراء والمماليك عن سلطنته فقال الجميع بلسان واحد: نحن راضون به، وصرّحوا بذلك غير مرّة. ويقال إن بعض الخاصكية قبّل الأرض بين يديه».

الأتابَك إينَال، غير أن الرّمي من القلعة بالمدافع وغيرها مستمرٌّ، وهلك من ذلك جماعةٌ كبيرة من عساكر الأمير الكبير ومن الأجناد والعامّة والمتفرّجين.

وأصبح يومُ الجمعة خامسه حضر المقَرُّ الجمالي ناظر الجيش والخاصّ وعظيم الدّولة عند الأمير الكبير، فقام له الأمير الكبير واعتنقه وأجلسه بإزائه فوق الأمير خُشْقَدَم حاجب الحجّاب. فعند قدومه تحقّق كل أحد بزوال دولة المنصور وإقبال دولة الأتَابَك إينَال. وتكلّم المقرُّ الصحابي مع الأتَابَك كلاماً كثيراً لا يشاركهما في ذلك أحد إلّا في النادر، ثم رسم الأمير الكبير بطلب القاضي محبّ الدين بن الأشْقَر كاتب السِّرِّ والقضاة الأربعة، فحضروا في الحال، وقد نزل الخليفة من القصر أيضاً، وجلس عند الأمير الكبير هو والقضاة وشاهدوا المدافع التي ترمي عليهم من القلعة، وكان أهل القلعة في يومي الأربعاء والخميس قد أمعنوا في الرمي من القلعة على الأمير الكبير وأصحابه حتى كان المدفع يصل إلى باب سرٍّ بيت قَوْصُون الذي فيه الأمير الكبير، وربما عدّى الباب ووقع بالشّارع على المارِّ إلى صَلِيبَة ابن طولون. ولمّا حضرت القضاة عند الأمير الكبير تكلّموا مع الخليفة في خلع الملك المنصور عثمان بكلام طويل، ثم طلبوا بدر الدين ابن المصري الموقِّع فأملاهُ قاضي القضاة عَلَمُ الدين صالح البُلْقيني الشافعي ألفاظاً كتبها تتضمن القدح في الملك المنصور وخلعه من السلطنة، وكان ذلك في أوائل الساعة الثالثة من نهار الجمعة. وخُلع الملك المنصور في اليوم المذكور من الملك وحكم القضاة بذلك.

وكانت مدة سلطنة الملك المنصور من يوم تسلطن بعد خلع أبيه الملك الظاهر جَقْمَق في يوم الخميس حادي عشرين المحرّم من سنة سبع وخمسين هذه إلى يوم الجمعة هذا شهراً واحداً وثلاثة عشر يوماً؛ ولا نعرف أن سلطاناً أقام هذه المدَّة اليسيرة في ملك مصر في الدَّولة التركية غيره. هذا مع كثرة عساكره ومماليك أبيه وحاشيته، وما أرى هذا إلّا نوعاً من المُجازاة ـ انتهى.

ولمّا فرغ بدر الدين المصري من كتابة الورقة أمره قاضي القضاة عَلَمُ الدين

صالح البُلْقيني أن يقرأ ما في الورقة على مَن حضر المجلس من الأمراء وغيرهم، وقرئت عليهم إلى آخرها. ثم سأل قاضي القضاة مَنْ حضـر المجلس عن سلطنة الأمير الكبير إينَال عليهم، فصاحوا بأجمعهم: «نحن راضون بالأمير الكبير»، وكرّر القاضي عليهم القولَ غير مرّة وهم يردّون الجواب كمقالتهم أوَّلاً. وفرحوا بذلك، وسُرُّوا غاية السرور، وانفضّ المجلس على خلع الملك المنصور وسلطنة الأتَابَك إينَال؛ غير أنه لم يلبس خِلْعَةَ السلطنة، ولا ركب بشعار المُلْك: ترك ذلك لوقته. وصار الناس في خطابه من يومئذ على أقسَام وألفاظ مختلفة، فمن الناس مَن صار يقول له: «يا خَوَنْد» ومنهم مَن يقول: «أَغَاه»، ومنهم مَن يقول: «الأمير الكبير»، ومنهم مَن يقول: «السلطان» كلُّ ذلك وهو على حالة جلوسه كأوّل يوم دخل إلى بيت قَوْصُون المذكور، أعني من أوّل يوم الوَقْعَة، ولم يتغيَّر عليه شيء مما كان عليه، ولم يركب من المقعد المذكور من يوم قَدِمَ بيت قَوْصُون غير مرة واحدة في يوم الثلاثَاء، وعاد من وسط الحوش قبل أن يصل إلى باب البيت النافذ إلى الرُّمَيْلَة، ردَّه أصحابه إجلالاً لقدره، وإنما كان يجلس هو بالمقعد، والأمراء عن يمينه ويساره جلوساً ووقوفاً بين يديه، والمماليك والعساكر تخرج من بين يديه للقتال طائفة بعد أخرى باجتهاد وعمل جدّ في مدة هذه الأيام من غير أن يستحثّهم أحدٌ لذلك، وهذا شيء عظيم إلى الغاية: [الخفيف]

وإذا سَخَّر الإلَهُ أُنَاساً لسعيدٍ فإنهم سعداء

وكنت أنظر في تلك الأيام إلى وجه الأمير الكبير لأتحقَّقَ هل هو مسرور أم محزون، فلا أعرف هذا منه لثباته في سائر أحواله، وسكونه وعقله؛ فإنه كان ينفّذ الأمور على أحسن وجه من غير اضطراب ولا هرج، بتأنٍّ وتُؤَدَة، وكلما وقع من أصحابه ما يخالف ذلك يأخذ في تسكينهم وثباتهم عَلَى القتال من غير عجلة، ثم يقول لهم: «القلاع ما تؤخذ إلّا بالصَّبر والثبات والتأنّي».

ثم إن الأمير الكبير أمر في اليوم المذكور بعمل منبر ليخطب عليه قاضي القضاة بالبيت المذكور لصلاة الجمعة، فصُنع ذلك في الحال، وتهيأ القوم لصلاة

الجمعة. فلما دخل وقتُ الصلاة خطب قاضي القضاة عَلَمُ الدين صالح البلقيني وصلّى بالأمير الكبير والخليفة وجميع العساكر بمقعد البيت المذكور، ثم انصرف القضاة بعد الصلاة إلى منازلهم.

هذا والقتال مستمرٌ أشد ما يكون بين الطائفتين، وقد تداول نزول الخاصكية والمماليك من عند الملك المنصور إلى الأتابَك إينَال، وهم مع ذلك كل يوم في زيادة في القتال لا يلتفتون إلى مَن يذهب من عندهم، ويقول بعضهم لبعض: «نحسبه أنه جُرح ومات، وما علينا مِمّن يتوجّه من عندنا، ونحن نقاتل إلى أن نموت»، والملك المنصور جالس بالقصر السلطاني، وعنده من أكابر الأمراء الأمير تَنَم أمير سلاح، والأمير قَانِي بَاي الجاركسي. هذا مع مبالغة أصحاب الأمير الكبير في القتال أيضاً، لا سيما من يوم حضر المقرُّ الجمالي ناظر الجيوش والخاص، ثم حضر القضاةُ، وخُلع الملك المنصور في يوم الجمعة، فمن يومئذ بذلوا نفوسهم لنصرة الأمير الكبير، وخوفاً من أن يصير للملك المنصور عليهم دولة، فسيكون فناؤهم على يديه، وأيضاً إنهم تحقّقوا سلطنة الأتابَك إينال، فاشتاقت نفوسهم لما عساه ينالهم من الإقطاعات والوظائف وغير ذلك، فاقتحموا الأهوال لذلك من غير صبر ولا تأنٍّ: [الوافر]

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دَنَت الخيامُ من الخيامِ

هذا والجراحات فاشية في كلٍّ من الطائفتين، ويُقْتَلُ أيضاً منهم في اليوم الواحدُ والاثنان وأكثر وأقل.

ولمّا كان يوم الجمعة المذكور توعّك فيه الأمير أَسَنْبُغَا الطيّاري رأس نَوْبَة النُّوَب، ومات من ليلته شبه الفُجاءة من غير سابق مرض، وصُلّي عليه من الغد بالمقعد من بيت قَوْصُون، وحُمل ودفن بالصحراء، وكان من محاسن الدنيا. يأتي التعريف بحاله في الوفيات كما هي عادة هذا الكتاب.

ثم أصبح يوم السبت سادس شهر ربيع الأول حضر المَقَرُّ الجمالي الصاحبي ناظر الجيش والخاصّ عند الأمير الكبير، وصحبته غالب مُباشِري الدولة والقضاة،

وكتبوا محضراً يتضمّن ما وقع في أمسه من خلع الملك المنصور من السلطنة ومبايعة العساكر للأمير الكبير بالسلطنة؛ وكَتَبَ في المحضر جماعة كبيرة من أمراء الظاهرية وغيرهم، وفيه قوادِحُ في المَلِكِ المنصور، ذكرناها في غير هذا المحل.

وجدَّ في هذا اليوم كلٌّ من العسكريْن في القتال، ورتَّب الأمير الكبير جماعةً من أعيان الأمراء على المواضع التي يتوصل منها إلى القلعة، وحَرَّض الوالي[1] وغيره على مسك مَن يطلع إلى القلعة من الغلمان والخدم بالمآكل وغيرها، ومُسِك بسبب ذلك جماعة وضُرب آخرون.

وفي هذا اليوم والذي قبله صارت أمراءُ الألوف تخاطب الأمير الكبير وهم وقوف، وصار لا يقُومُ لأحدٍ منهم عند ذهابه وإيابه.

وكان الأمير أَسَنْبُغَا الطيَّاري رأس نَوبَة النُّوَب ـ رحمه الله ـ في يوم الجمعة الذي مرض فيه رَمَّل على كتابة الأمير الكبير على المراسيم وغيرها؛ وناهيك بأَسَنْبُغَا، فإنه كان يوم ذلك أمْثَل الأمراء وأجلّهم. رأيتُه أنا وهو يرمِّلُ عَلَى علامته من غير أن يحتشم معه الأمير الكبير في ذلك ولا تجمّل معه، بل صار كلما علّم العلامة ورمى بها أخذها أَسَنْبُغَا ورمَّل عليها كما كان يفعله مع السلطان، فإن العادة لا يُرَمِّلُ عَلَى السلطان إلاّ رأس نوبَة النُّوَب[2].

هذا وقد تحقّق أهل القلعة زوال مُلْك الملك المنصور، وهم عَلَى ما هم عليه من الشدَّة في القتال، والقيام بنصرة ابن أستاذهم، غير أنهم كما قيل في الأمثال: «سلاح حاضر وعقل غائب»، لكونهم شباباً لم تمرّ بهم التجارب، ولا لهم ممارسة بالحروب، ولا يعرفون نوعاً من أنواع الخديعة والمكر بأخصامهم، وأيضاً لم يكن عندهم من الأمراء وغيرهم ممّن له خبرة بهذه الأنواع غير أمير واحد وجندي، وكلٌّ منهما غير مقبول الكلمة عندهم. فالأمير كُزل المعلِّم، والجندي السيفي كَمَشْبُغَا الظاهري ـ برقوق ـ المعلّم، وأما مَن عداهما من الأمراء فحالهم

(١) أي والي القلعة.

(٢) الأفضل أن يقال: رأس رؤوس النوب. ـ راجع فهرس المصطلحات للتعريف بهذه الوظيفة.

معروفٌ لا يحتاج إلى بيان؛ وأعظم مَن كان هناك من الأمراء الأمير تَنَم أمير سلاح، وقَاني بَاي الجاركسي الأمير آخور؛ فأما تَنَمْ فإنه لم يأتِ بشيء، إما تقصيراً منه لمعنًى من المعاني، أو لقلّة دُرْبَتِه بالحروب والخطوب، وأما قَاني بَاي فحالُه معروف لا يحتاج للتعريف به.

وأصبح الناسُ في يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول والقتال مستمرٌّ بين الفريقين، وكلٌّ منهم في أشدّ ما يكون من القيام بنصرة صاحبهم إلى قريب الظُّهر، فنزل من القلعة جماعةٌ كبيرة مشاة إلى عند سبيل المؤمنيّ، فخرج إليهم جماعةٌ كبيرة من عسكر الأمير الكبير، وتقاتلوا بالرّماح والسيوف والأَطْبّار[1]، وافترقوا ثم التقوا غير مرّة حتى أردف عسكر الأمير الكبير طُوخ من تِمْراز الناصري من مكانه الذي كان مقيماً عند زاوية قَاني بَاي الجاركسي بجماعته، ثم أردفهم جماعة أُخَر من عند الأمير الكبير، والتحم القتال بينهم وقتل جماعة من عكسر الأمير الكبير، منهم: طُقْتَمُر الناصري رأس نَوبَة الجَمدَارِيَّة تهبيراً ـ لأنه كان هرب من عند الملك المنصور ونزل إلى الأمير الكبير في يومه، فلما ظفروا به قتلوه، لما كان في نفوسهم منه ـ ثم مَمْجَق اليَشْبُكي الخاصكي ـ أُخذ سحباً إلى القلعة، فمات من جراحه ـ وأَيْتَمُش المؤيدي الخاصكي، وقاني بَاي الأشرفي الخاصكي وغيرهم.

ودام القتال بينهم حتى ملك أصحابُ الأمير الكبير سبيلَ المؤمني بعد أمور وحروب. ثم أطلقت أصحاب الأمير الكبير النّار في البيوت التي بجوار الميدان برأي تِمْرَاز الأشرفي الزَّرَدْكَاش، فتعلقت النار فيهم حتى وصلت إلى سقف المسجد من سبيل المؤمني وأحرقته عن آخره؛ وكان بسطحه جماعة كبيرة من السلطانية فنزلوا عنده، فحينئذ وجد أصحاب الأمير الكبير طريقاً لهدم سور الميدان، فهدموا جانباً منه، ودخلوا منه إلى الميدان الذي تحت قلعة الجبل.

هذا وقد انحاز السلطانية إلى باب السلسلة، فكان في هذا اليوم حرب بين الطائفتين لم يقع مثله في الستة أيام الماضية.

---

(١) أي الفؤوس.

فلما دخل القوم إلى الميدان ولَّت المنصورية الأدبار، وقام السلطان الملك المنصور عثمان من مجلسه بمقعد الإسطبل السلطاني، وطلع إلى القصر الأَبْلَق من قلعة الجبل، ومعه جماعة كبيرة من مماليك أبيه وغيرهم من الأمراء والخاصكيّة، ودخل قَاني بَاي الجاركسي إلى مبيت الحرّاقة من الإسطبل، ودام الأمير تَنَم بالمقعد مستعزّاً بخُجْدَاشِيَّته المؤيديَّة وغيرهم. وتمزَّقت عساكر المنصور في الوقت كأنها لم تكن، من غير أمرٍ أوجب ذلك، وتركوا باب السلسلة وفرُّوا منه قبل أن يطلع إليه واحدٌ من أصحاب الأتابَك إينال، ثم فعلوا ذلك أيضاً بقلعة الجبل وتركوها وأبوابها مفتَّحة، ولم يقاتلوا بها ساعة واحدة، وتمزَّقُوا كلّ مُمَزَّق.

وكان هذا بعكس ما كان منهم في السبعة أيام الماضية من شدَّة القتال وعظم الثّبات وقُوّة البأس، إلى أن كان من أمرهم ما كان في هذا اليوم، وتركوا باب السلسلة والقلعة وانصرفوا في الحال على أقبح وجه. وكان يمكنهم أن يقاتلوا القومَ بالميدان أيّاماً، فإن الميدان لا فرق بينه وبين الرُّمَيلة، وليس بينه وبين باب السلسلة تعلّق. وأيضاً ولو ملكت أصحاب الأمير الكبير بابَ السلسلة والإسطبل السلطاني كان يمكنهم القتال من القلعة أياماً، إذ ليس للقلعة تعلُّق بالإسطبل: وقد ملك المؤيَّد شيخ أيام إمرته الإسطبل من الأمير أرْغُون الأمير آخور نائب غَيْبَة الملك الناصر فرج، ودام به أياماً، ولم يَقْدِر على أخذ القلعة ولا توصل إليها بوجهٍ من الوجوه، وكان مع الملك المؤيد أقوام هم هم، وأيضاً لم يكن بالقلعة يوم ذاك بعض مَن كان بها الآن؛ ووقع ذلك لخلائق من الملوك أنهم ملكوا بابَ السلسلة ولم يقدروا على أخذ القلعة.

والمقصود من هذا الكلام أن ليس للقلعة علاقة بباب السلسلة إلّا في الأمن والرّخاء لا غير؛ كلّ ذلك لما تقدّم ذكره أنه ليس عندهم مَن يدبِّر أُمورهم، وإلا فكان يمكنهم أن يطلعوا إلى القلعة ويحصّنوها ويقاتلوا بها أياماً حتى تعمل مصالحهم، وإذا سلّموها يعطوها بالأمان والرّضا، هذا إذا لم يكن لهم نهضة للهروب والخروج من الدِّيار المصرية، والاختفاء في مكان من الأمكنة من القاهرة، كما فعل غيرهم من الملوك السالفة. على أن أصحاب الأمير الكبير كان أخذ منهم

التعبُ والجهدُ في هذا اليوم والذي قبله أمراً كبيراً، وكَلَّ أكثرُهُم من القتال، فلو امتنعت السلطانية بباب السلسلة يوماً أو يومين لطال أمرُهم بعد ذلك، ووقع لهم أمور ليس في ذكرها الآن فائدة. وكان أمر المماليك الظاهرية في مبدأ الأمر عجيباً من شدِّة بأسهم أولاً، وفي تهاونهم آخراً؛ وقد قيل في الأمثال: «على قدر الصعود يكون الهبوط».

ولمّا بلغ الأمير الكبير إينال طلوع الملك المنصور من الإسطبل السلطاني إلى القصر الأبْلَق نَدَبَ في الحال الأميرَ جَرِبَاش المحمدي الناصري المعروف بِكُرْد إلى الطلوع إلى باب السلسلة وتسليم[١] الإسطبل السلطاني. ولم يتحرّك الأميرُ الكبيرُ من مكانه، ولا ظهر عليه فرحٌ ولا كآبة، فهذا أيضاً مما تعجّبتُ منه. وطلع الأمير جَرِبَاش إلى باب السلسلة بعد أن استولى أصحاب الأمير الكبير عليها.

وكان من خبر أخذهم لباب السلسلة أن الأمير تَنَم من عبد الرزّاق المؤيدي أمير سلاح لمّا قام الملك المنصور وطلع إلى القصر، وتشتت عساكره ثم دخل قَاني بَاي الجاركسي مبيت الحرّاقة من الإسطبل، قام تَنَم المذكور ومشى إلى المقعد الذي كان يجلس به الملك المنصور في أيام الوقعة، وأشار إلى القوم بمنديل كان بيده كمَن يطلب الأمان، ثم ركب في الحال وفي زعمه أن الجماعة تتلقاه بالرحب والقبول، لأيادٍ كانت له، وصحبة عند الأمير الكبير قديماً وحديثاً، وأيضاً أن غالب مَنْ كان من أصحاب الأمير الكبير هو خُجْدَاشه أو صاحبه، فركب فرسه ونزل حتى وقف عند باب السلسلة أسفل الحدرة. وفتحت خوخَة[٢] باب السلسلة ودخل القوم، فحال ما وقع بصرهم عليه تناولته الألسن والأيدي بالسبّ والضرب، حتى أُخذ وأُنزل بغير تخفيفة[٣] على حالة غير مرضية، ولولا أن بعض خُجْدَاشِيّته المؤيدية حماهُ لكان أَمرُه ربما وصل إلى التلاف. وكذلك وقع للأمير

---

(١) كذا. والمراد: تسلُّم أو استلام.

(٢) الخوخة: هي باب صغير في أصل باب كبير، يُفتح عادة عندما لا تكون حاجة لفتح البوّابة الكبيرة.

(٣) أي بغير عمامة. وعبارة الحوادث: «وعلى رأسه طاقيّة خضراء من غير تخفيفة».

كُزُل المعَلِّم. وأما عبد الله كاشف الشرقية فإنه أُخِذَ ورأْسُه مكشوفة وشيبته قد تضمخت بالدماء السائلة على وجهه من الضرب بالدبابيس، والقوم تهجم عليه كَرّة بعد أخرى لهلاكه، لولا قائل كفَّهم عنه وهو يقول: «لا تقتلوه؛ يروح مال السلطان، دعوه حتى يأخذ السلطانُ أَمْوَاله»، ثم وقع ذلك بجماعة من الخاصكية يطول الشرح في ذكرهم من الأخذ والسلب مما عليهم والإخراق بهم.

وأما الأمير تَنَم فإنه لما أخذوه ودخلوا به إلى الأمير الكبير، وعلى رأسه قُبع[1] أخضر من غير تخفيفة، ومعه كُزُل المعلِّم، وعبد الله الكاشف، فأوقف بين يدي الأمير الكبير على بُعْدٍ، فكان أول ما تكلَّم به تَنَم أن قال: «بيني وبين الأمير الكبير عهود» أو معنى ذلك، فقال الأمير الكبير: «أنت نقضتَ العهد» (يعني بتركه وطلوعه إلى الملك المنصور). ثم أمرَ به وبرفقته فحُبسوا بالقصر عند الأمير قَرَاجا وغيره، ثم نقلوا بعد ساعة إلى رِكَبْخَانَاه[2] الإسطبل السلطاني، وأُضيف إليهم قاني بَاي الجاركسي وغيره ممّن يأتي ذكرهم عند توجههم إلى سجن الإسكندرية.

ولمّا طلع الأمير جَرِباش إلى الإسطبل وملك باب السلسلة، قام الأمير الكبير عند ذلك من مقعد بيت الأمير قَوْصُون، وركبَ فرَسه، وخرج منه في موكب عظيم إلى الغاية، والخليفة عن يمينه، وتَنِبَك البُرْدَكي أمير مجلس عن يساره، والعساكر بين يديه محدقة به، وقد وقفت الخلائق دهليزاً لرؤيته، حتى سار من بيت قَوْصُون تجاه باب السلسلة إلى أن طلع إليها، وجلس بالحرّاقة من باب السلسلة؛ فحال جلوسه تفرَّقت العساكر في قبض أعيان الأمراء الظاهرية وغيرهم، فقبضوا منهم على جماعة كثيرة يأتي ذكرهم بعد ذلك.

ثم أُخذ قَاني بَاي الجاركسي من مبيت الحرّاقة، وأُنْزِل به عند رفقته المقبوض عليهم، وقُيِّدُوا الجميع برِكَبْخاناه الإسطبل، ولم ينجُ أحد من أمراء

---

(١) أي طاقية، كما ورد في الحوادث.

(٢) الركبخاناه، أو الركابخاناه، أو الركاب خاناه: المكان الذي به معدّات ركوب الخيل، ومنها السروج واللجم والكنابيش المخالي وغير ذلك. (صبح الأعشى: ١٢/٤).

الظاهرية غير أسِنْبَاي الجمالي الدَّوادار الثاني، فإنه فرَّ من القلعة، واختفى على ما سيأتي ذكره.

ثم أمر السلطان في الوقت بالإفراج عن الأمير قَرَاجَا الظاهري، وعن الأمير تَغْرِي بَرْدِي القَلاوي، وعن الأمير بُرْدبَك الأمير آخور الثالث، ورسم لهم بلبس الكَلَفْتاه[١] من الغد، وحضور الخدمة السلطانية.

ثم رسم الأمير الكبير في الحال بقلع السلاح، وقَلع هو قبلَ الناس ما كان عليه، وكان لِبْسُه في تلك الأيام كلها قَرْقل[٢] مُخْمَل أحمر بغير أكمام. وقلعت العساكر في الحال السلاح من عليهم، وسكنت الفتنة كأنها لم تكن، وبات الناس في أمن وسلامة. على أن القاهرة كانت في مدَّة هذه الأيام، والقتال عمّال في كل يوم، في غاية الأمن، والحوانيت مفتَّحَة، والناس في بيعهم وشرائهم، وأكثرهم جالس بالدكاكين للفرجة على مَن يمرُّ عليهم من العساكر المُلبسة[٣]، بل كان يتوجّه منهم أيضاً جماعة كبيرة إلى الرُّمَيْلَة للفرجة على القتال كما كان يتوجّه بعضهم للفرجة على المحمل وغيره[٤]. ولم تقفل أبواب القاهرة في هذه المدة، ولا شَوَّشَت الزُّعْر[٥] على أحد، بل كان كلّ واحد يمضي إلى حال سبيله، والقتال عمّال بين الطائفتين لا يصيب من العامّة إلاّ مَن توغّل منهم بين المقاتلة، فهذا أيضاً من الغرائب. على أنّنا لا نعلم وقعةً كانت بمصر تطول هذه المدة، ولا

(١) غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) القرقل، ويجمع على قرقلات: نوع من الدروع يُصنع من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر. (صبح الأعشى: ٤/ ١١).

(٣) أي التي تلبس عدّة الحرب.

(٤) هذا يشير إلى عدم اهتمام عامّة الناس بالصراع الدائر على رأس السلطة. وقد اعتاد الناس منذ زمن طويل على مثل هذه الصراعات بين أمراء المماليك وعرفوا بالتجربة أن السلطة تكون لمن غلب، وما عليهم إلاّ الانقياد للسلطان الجديد، وما على الخليفة إلاّ تنصيب الأمير الغالب سلطاناً جديداً.

(٥) الزُّعر: هم جماعات من الفئات الدنيا من عامّة الناس، كانوا يتعاطون السرقة والنهب واللصوصية خاصة أثناء الاضطرابات والصراعات بين فئات المماليك المختلفة. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: الزعر، الشطّار، العيّارون.

حوصرت قلعة الجبل سبعة أيام إلّا في هذه الواقعة.

وأما وقعة يَشْبُك الشعباني ورفقته مع الملك الناصر[١] المقدّم ذكرها ليس هي كهذه الوقعة، ومع هذا قُفِّلت القاهرة في تلك الكائنة أياماً ونهبت الزُّعْرُ عِدَّةَ أماكن، فكانت هذه الوَقْعة بخلاف جميع الوقائع في هذا المعنى ـ انتهى.

وبات الأميرُ الكبيرُ إينال بمبيت الحرَّاقة من الإسطبل السلطاني حتى أصبح وتسلطن منه، على ما يأتي ذكره مُفَصّلاً في ترجمته عقيب هذه الترجمة.

وزالت دولة الملك المنصور عثمان كأنها لم تكن، فسبحان مَن لا يزول ملكه.

وكانت مدة سلطنة الملك المنصور من يوم تسلطن بعد خلع أبيه حسبما تقدَّم ذكره إلى يوم خَلَعهُ الخليفة يوم الجمعة خامس شهر ربيع الأول شهراً واحداً وثلاثة عشر يوماً، وإلى يوم تسلطن الملك الأشرف إينال في صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول المذكور شهراً وستّة عشر يوماً. ولا نعلم أحداً من ملوك مصر من الأتراك كانت مدّتُه في المُلْك أقصرَ من مدّة الملك المنصور هذا، مع عظم شوكته، وثبات قدمه في المُلْك. فما شاء الله كان، وما هذا إلّا نوع من القصاص. وقد ورد في الإسرائيليات: يقول الله سبحانه وتعالى: «يا داود أنا الربُّ الودود، أُعامل الأبناء بما فَعَلت الجدود». وقد رأينا هذه المكافأة في واحد بعد واحد من يوم خُلع الملك المنصور حاجي بالملك الظاهر بَرْقوق من السلطنة إلى يومنا هذا، والجميع يشربون هذا الكأس من يد أتابكتهم، ويردّ عليهم هذا الشراب بتدبير مماليك أبيهم؛ وقد تقدّم ذكر هذا المعنى في مواطن كثيرة، والإضراب عن ذكر هذا أجمل.

ولمّا طلع الملك المنصور من الإسطبل إلى القصر ودّعه مماليكُ أبيه وفارقوه، فلا قوّة إلّا بالله. وتوجّه هو إلى الحريم السلطاني عند والدته، وأقام

---

(١) أي الناصر محمد بن قلاوون.

عندها إلى أن طلبه منها الملك الأشرف إينال، فخرجت معه إلى قاعة البَحْرَة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل، فأقام الملك المنصور بالبَحْرَة من يوم خُلع هو ومَن يخدمه مع والدته وأولاده والجميع في التَّرْسِيم إلى يوم الأحد ثامن عشرين شهر ربيع الأول، فأُخذ منها بجميع خَدَمِه ووالدته وأولاده، وأنزلوا الجميع في حرَّاقة إلى ثغر الإسكندرية[1]. وكانت هيئة نزول الملك المنصور من القلعة أنه أُركب على فرس بوز بقيد، من غير أن يركب أحد من الأوجَاقِيَّة خلفه كما هي عادة الملوك من الأمراء، ومضوا به من باب القرافة في وقت القائلة، وقد خرجوا الناس للفرجة عليه بخارج القاهرة، وساروا به وحوله الخاصكية بالسيوف والرّماح، وجماعة كبيرة من أعيان الأمراء، وقد ازدحم الناس بالكيمان للفرجة عليه، حتى اجتاز بقرافة مصر القديمة إلى أن وصل إلى نيل مصر، وأنزل في الحرّاقة، وسافر من وقته في بحر النيل إلى الإسكندرية، فسُجن بها. وهذا أيضاً من الغرائب من أن ملك مصر يُخلع ويتوجّه مقيّداً إلى الإسكندرية نهاراً، ولم يقع ذلك لغيره في السنين الخالية. وكان مُسَفِّرُه خَيربَك الأشقر المؤيّدي الأمير آخور الثاني.

واستمر الملك المنصور مسجوناً بثغر الإسكندرية وعنده والدته وجواريه وأولاده إلى ما يأتي ذكره ـ أحسن الله عاقبته بمحمد وآله.

---

(١) جرت العادة في أيام سلاطين المماليك الجراكسة أنه إذا وثب أمير على السلطنة فإنه يعمد إلى نفي السلطان السابق ـ إذا بقي على قيد الحياة ـ وعائلته إلى خارج القاهرة. وكانت الإسكندرية هي المنفى المعتاد.

ذكر سلطنة الملك الأشرف إينال[1] العلائي على مصر

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال بن عبد الله العلائي الظاهري ثم الناصري. مَلَكَ الدّيارَ المصرية بعد انهزام الملك المنصور عثمان في يوم الأحد سابع شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وطلع إلى باب السلسلة وبات بمبيت الحراقة حسبما ذكرنا إلى أن تسلطن من الغد. وقد ذكرنا طلوعه وما وقع له في حرب الملك المنصور في ترجمته مفصّلاً، ويأتي ذكر سلطنته أيضاً في أوّل ترجمته كما هي عادة هذا الكتاب.

والملك الأشرف هذا هو السلطان السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والثاني عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بها.

ولمّا كان صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين المذكورة طلع أعيان الدولة والعساكر إلى الإسطبل السلطاني بقماش الموكب، وانضمّوا الجميع بالحَرَّاقَة من باب السّلسلة، وقد حضر الخليفة والقضاة الأربعة وسائر أمراء الدّولة، وبويع الأمير الكبير إينال بالسلطنة، ولقّب بالملك الأشرف، ولبس خلعة السلطنة من مبيت الحرَّاقة بالإسطبل السلطاني في أوّل ساعة من النهار المذكور، بعد طلوع الشمس بنحو ست درجات، في ساعة القمر، والطالع

(١) ترجمته وأخباره في: بدائع الزهور: ٣٤٥ ـ ٣٧١؛ وحوادث الدهور: ٤٢٣ ـ ٦٠٨؛ والضوء اللامع: ٢/ ٣٢٨؛ والأعلام: ٢/ ٣٥؛ وشذرات الذهب: ٧/ ٣٠٤؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ٥/ ٤١٨ ـ وقد جرت العادة على ضبط اسم إينال بهمزة مكسورة في أوله، غير أن الزركلي في الأعلام رجّح ضبطه بهمزة مفتوحة في أوله (أينال) استناداً إلى مخطوط يرجع تاريخه إلى سنة ٨٨١ هـ.

الحَمَل. وكان بويع بالسلطنة حسبما تقدم ذكره في بيت قُوْصُون قبل أن يملك قلعة الجبل في يوم الأربعاء ثالثه، ثم في يوم الجمعة حسبما ذكرنا ذلك في وقته، ثم في يوم السبت سادسه، ثم في عصر أمسه بعد طلوعه إلى باب السلسلة، والعهدة في سلطنته من وقت لبسه الخلعة السوداء الخليفتية وركوبه بشعار الملك.

ولمّا تمّ لبسه خلعة السلطنة من المبيت المذكور، خرج منه، ومشى حتى ركب فرس النوبة(١)، بأُبّهة السلطنة وشعار الملك، وحمل ولدُه المقامُ الشهابيُّ أحمدُ القُبَّة والطيْرَ على رأسه حتى طلع إلى القصر السلطاني، والأمراء والعساكر مُشاة بين يديه، ما خلا الخليفة.

وسار على تلك الهيئة إلى أن وصل إلى باب القصر، فنزل عن فرسه، ودخل القصر الكبير، وجلس بإيوانه على تَخْت الملك، وقَبَّلَت الأمراء الأرض بين يديه، وخلع على الخليفة القائم بأمر الله فوقانياً كَمْخاً حريراً بوجهيْن أخضر وأبيض، بطرز يَلْبُغَاوي زَرْكَش، وقدَّم له فرساً بسرج ذهب، وكُنْبُوش زَرْكَش. وتمّ جلوسه بالقصر السلطاني إلى يوم الجمعة على ما سنذكره بعد ذكر نسبه فنقول:

أصله جارْكَسِيّ الجنس، أُخذ من بلاده، فاشتراه خواجا علاء الدين [علي](٢)، وقَدِمَ به إلى القاهرة، هو وأخيه طُوخ، وطُوخ كان الأكبر، وكان اسم إينَال غير إينال، فاستقرّ إينال، فاشتراهما الملك الظاهر برقوق - أعني إينال وطوخ - من الخواجا علاء الدين المذكور في حدود سنة تسع وتسعين [وسبعمائة] تخميناً، فأعتق الظاهرُ أخاه طوخ المذكور، ودام إينال هذا كتابيّاً(٣) بطبقة الزّمام، إلى أن ملكه الملك الناصر فرج بن برقوق وأعتقه، وأخرج له خيلاً على العادة. واستمر من جملة المماليك السلطانيّة، إلى أن صار في آخر الدّولة الناصريّة خاصكيّاً، فدام

---

(١) فرس النوبة: هي الفرس المخصّصة لركوب السلطان عند خروجه في موكب السلطنة.

(٢) زيادة عن بدائع الزهور. - ولقب «خواجا» كان يطلق عادة على التجّار الأجانب.

(٣) أي من المماليك الصغار الكتابية الذين يربّون في الطباق. وسُمّوا بالكتابية لأنهم كانوا يتعلمون في تلك الطباق (مدارس عسكرية) الكتابة والقراءة والعلوم الأخرى التي تؤهّلهم للخدمة السلطانية. - راجع أيضاً فهرس المصطلحات: الطباق، المماليك الكتابية.

على ذلك إلى أن أنعم عليه الأمير الكبير طَطَر في الدّولة المظفرية[١] بإمْرَة عشرة من أوائل سنة أربع وعشرين. ثم نُقل إلى إمْرَة طبلخاناه في أوائل دولة الأشرف بَرْسبَاي في سنة خمس وعشرين وثمانمائة. ثم صار بعد انتقال قَاني بَاي الأبو بكري البَهْلَوان إلى تَقْدمَة ألف، ثانيَ رأس نَوْبَةِ النُّوَب. ثم نُقل إلى نيابة غزَّة بعد عزل الأمير تِمْرَاز القرْمَشِي وقدومه إلى الدّيار المصرية، وذلك في يوم الثلاثاء ثامن عشرين شوّال سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، فباشر نيابة غزَّة إلى أن سافر صحبة الملك الأشرف بَرْسبَاي إلى آمِد في سنة ست وثلاثين وثمانمائة.

ولمّا عاد الأشرف من آمِد ونزل بمدينة الرُّها ـ وقد استولى عليها وهي خراب ـ طلبه الملك الأشرف ليستقرَّ في نيابة الرُّها فامتنع، ورمى بسيفه وأغلظ للأشرف في الكلام، فاستشاط الأشرف غضباً ولم يسعه إلّا أن طلب مملوكه قَرَاجَا شادَّ الشّرَاب خَانَاه، وخلع عليه بنيابة الرُّها، وقال: «أنا ما يمتثل أوامري إلّا مماليكي».

وانفضّ الموكب، وذهب إينال هذا إلى مُخَيّمِهِ، فندم على ما وقع منه، وخُوِّف عواقب ذلك، فأذعن. وطلبه السلطان في عصر النهار المذكور، وخلع عليه أطلسيْن متَمَّراً، ووعده بأن يمدّه بالسلاح والعليق وغير ذلك، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، زيادة على نيابة الرُّها، عوضاً عن جَانِبَك الحمزاوي المستقر في نيابة غزّة عِوَضَه.

وخرج إينال وهو متغيِّرُ اللون ـ رأيته لمّا سلّمت عليه ـ ودام في نيابة الرُّها، إلى أن عزله الأشرف عنها بالأمير شَاد بَك الجَكَمِي ثاني رأس نَوْبَة في يوم الثلاثاء سابع عشرين شوّال سنة سبع وثلاثين، واستقدمه إلى القاهرة على إمرة مائة وتقدمة ألف، وهو الإقطاع الذي كان بيده زيادة على نيابة الرُّها.

ودام بمصر إلى أن خلع عليه الأشرف في يوم الخميس عاشر رجب سنة

---

(١) أي دولة المظفر احمد بن المؤيد شيخ.

أربعين وثمانمائة بنيابة صَفَد بعد عزل الأمير يونس الركني الأرْغُوني الأعـور عنها. فاستمر في صَفَد إلى أن طلبه الملك الظاهر جَقْمَق في سنة ثلاث وأربعين، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في صفر السنة المذكورة، ووَلَّى صَفَد عوضه قَاني بَاي البَهْلَوَان أتابك دمشق.

وكان قدوم إينال هذا إلى القـاهرة في يـوم السبت ثالث عشـر صفر، فـدام بالقاهرة من جملة أمراء الألوف إلى أن نقله الملك الظاهـر جَقْمَق إلى الدواداريـة الكبـرى بعد مـوت تَغْرِي بَـرْدِي البَكْلَمُشِي المؤذي في يوم الخميس ثـالث عشـر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين، فبلشر الدَوَادَارِيَّة إلى أن نقله الظاهر إلى أتابَكِيّة العساكر بالديار المصرية دفعة واحدة بعد موت الأتابك يَشْبُك السُّودوني المشدّ في سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فدام أتَابَكاً إلى أن مات الظاهر جَقْمَق، وملك بعده ابنـه المنصور عثمـان، ووقع مـا حكيناه من الفتنـة بينه وبين المنصـور حتى خُلع المنصور وتسلطن حسبما ذكرناه في أول هذه الترجمة ـ انتهى ذكر نسبه.

ولنعد لما كنّا فيه من جلوسه بعد قَلْعِهِ خِلْعَةَ السلطنة بالقصر فنقول:

ولمّا تمَّ جلوسُه بالقصر طلب خُجْداشَه يُونُس العَلائي النـاصري نـائب قلعة الجبل، وخلع عليه باستقراره في نيابة الإسكندرية بعـد عزل يَشْبُـك قَرَا وحبسـه، وأمر السلطان الأمير قَاني بَاي الأعْمَش الناصري ـ أحد أمراء العشرات ورأس نَوبَة ـ أن يجلس مكان يونس المذكور.

ثم أصبح السلطان الملك الأشرف إينال هذا في يوم الثلاثاء تاسع ربيع الأول خلع على جماعة كبيرة بعدّة وظائف:

فخلع على ولده المقام الشهابي أحمد باستقراره أَتَابَك العسـاكر عـوضاً عن نفسه.

وعلى الأمير تَنِبَك البُرْدبَكي الظاهـري أمير مجلس بـإمرة سـلاح عوضـاً عن الأمير تَنَم من عبد الرزّاق المؤيّدي بحكم القبض عليه وسجنه.

وخلع على الأمير طُوخ من تِمْرَاز الناصري غليظ الرقبة بإمرة مجلس عوضاً عن تَنِبَك المذكور.

وخلع على الأمير خُشْقَدَم الناصري المؤيّدي حاجب الحجّاب باستمراره على وظيفته.

وخلع على الأمير جَرِبَاش المحمدي الناصري المعروف بكُرْد باستقراره أمير آخور كبيراً عوضاً عن قانِي بَاي الجاركسي بحكم القبض عليه.

وخلع على الأمير يونس الأقْبَائي دواداراً كبيراً عوضاً عن تَمُرْبُغَا الظاهري بحكم القبض عليه، لكن يونس هذا ولي الدّواداريّة على تقدمة[1]، وكان تَمُرْبُغَا وليها على إمرة طبلخاناه.

وخلع على الأمير قَرْقَماس الأشرفي الجَلَب باستقراره رأس نَوْبَة النُّوَب عوضاً عن الأمير أَسَنْبُغَا الطيّاري بحكم وفاته.

وخلع على الأمير جَانِبَك الظاهري نائب جُدَّة خلعة الاستمرار على وظيفته الأستادارية الكبرى.

ثم أمر السلطان في يوم الأربعاء عاشره بالمناداة في المماليك السلطانية بأن النفقة في يوم الاثنين.

ثم في يوم الأربعاء هذا حُملت الأمراءُ المسجونون من القلعة على البِغال إلى بحر النيل وسُفِّروا من وقتهم إلى الإسكندرية، وهم: الأمير تَنَم المُؤيّدي أمير

(١) أي على إقطاع مقدّم ألف. والمعلوم أن الإقطاع (الخبز) كان بحسب الرتبة العسكرية التي للأمير. وكان سلّم الرتب العسكرية لأمراء المماليك يتدرّج حسب الترتيب التالي: جندي، أمير خمسة، أمير عشرة، أمير عشرين، أمير أربعين (طبلخاناه)، ثم أمير مائة مقدَّم ألف وهي أعلى الرتب العسكرية. وفوق ذلك تأتي مرتبة أتابك العساكر، وهو أمير الأمراء أو الأمير الكبير الذي يأتي مباشرة بعد السلطان الذي كان يجمع بيده سائر السلطات المدنية والعسكرية وحتى الدينية، لأنه هو الذي كان يعيّن الخليفة والقضاة، وإن كان السلطان المملوكي يتظاهر عادة بالرضوخ لحكم الخليفة وقضاة الشرع فإن ذلك كان على سبيل مراعاة الشكليات.

سلاح المقدَّم ذكره، وقانِي بَاي الجاركسي الأمير آخور الكبير، والأمير تَمُرْبُغَا الدوادار، والأمير لَاجِين شادّ الشرَاب خاناه، وأُزْبُك الساقي الخَازِنْدَار، وسُنْقُر العايق الأمير آخور الثاني، وجَانَم الساقي الظاهري، وسودون الأقْزَم الظاهري، وجَانِبَك الظاهري البوّاب - وهما ممّن تأمَّر في الدولة المنصورية -، والجميع ظاهرية ما عدا تَنَم وقانِي بَاي.

وفي يوم الأربعاء هذا أُشيع كلامٌ بسبب تولية السلطان ولده أحمد أتابكاً عِوَضَه، وأن ذلك بخلاف العادة، فخارت طباع الأشرف من غير أمرٍ يوجب ذلك، وأصبح من الغد في يوم الخميس خلع على الأمير تَنِبَك البُرْدبَكي الذي كان استقرَّ في إمرة سلاح باستقراره أتابك العساكر عوضاً عن ولده الشهابي أحمد، وأنعم على ولده المذكور بإمرة مائة وتَقْدِمَة ألف - على عادة أولاد السلاطين - وجعله يجلس رأس الميسرة.

قلت: وهذا أول وَهَن وقع في دولة الأشرف إينال من كونه يُوَلِّي ولده أتَابكاً في الأمس، ثم يعزله في الغد من غير أمر يقتضي ذلك، ولو صمَّم على بقاء ولاية ولده لتمّ له ذلك ولم ينتطح في ذلك عنزان.

ثم خلع على الأمير خُشْقَدَم الناصري حاجب الحجّاب باستقراره أمير سلاح عوضاً عن تَنِبَك المذكور.

وخلع على قَرَاجَا الخَازِنْدَار الظاهري باستقراره حاجب حُجّاب عوضاً عن خُشْقَدَم المؤيّدي المذكور.

ثم استقرَّ الأمير يِمْراز الإينالي الأشرفي دواداراً ثانياً عوضاً عن أَسِنْبَاي الجمالي بحكم تَسَحُّبه، وأنعم عليه بإمرة عشرين.

ثم استقرَّ جانِبَك من قَجْماس الأشرفي شادَّ الشَرَاب خَانَاه عوضاً عن لَاجِين بحكم حبسه.

واستقرّ خَير بَك الأشْقَر المؤيَّدي أمير آخور ثانياً عوضاً عن سُنْقُر العائق بحكم

سجنه. وأنعم علَى خير بَك المذكور بإمْرَة عشرين، وكانت العادة إمْرَة طبلخاناه.

واستقر قاني بَاي الأعْمَش الناصري نائب قلعة الجبل عوضاً عن يُونُس العلائي نائب الإسكندرية، كما تقدَّم ذكره.

ثم أنعم السلطان على الأمير جانِبَك القَرَماني الظاهري رأس نَوْبَة ثاني بإمْرَة مائة وتَقْدِمَة ألف بالديار المصرية عوضاً عن الأمير أَسَنْبُغَا الطيَّاري بعد وفاته.

واستقرَّ يَشْبُك الناصري رأس نَوبَة ثانياً عِوَضاً عن جَانِبَك القَرَماني المذكور.

ثم أنعم علَى الأمير أَرَنْبُغَا اليونسي الناصري بإمْرَة مائة وتَقْدِمَة ألف بالديار المصرية عوضاً عن قانِي بَاي الجاركسي بحكم القبض عليه وحبسه.

وأنعم على بَرْسبَاي البَجاسي المعزول عن نيابة الإسكندرية بإمْرَة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضاً عن الأمير طوخ [أمير مجلس][1] بحكم انتقال طوخ إلى تقدمة أخرى أكثر خراجاً منها ـ وهو إقطاع تَنِبَك المنتقل إلى الأتَابَكية.

ثم أنعم السلطان على جماعة كثيرة بإمْرَة طبلخانات، وعشرات، باستحقاق وبغير استحقاق، كما هي عوائد أوائل الدّول، يطول الشرح في تسميتهم.

ثم خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدّة وظائف، منهم: البدري حسن بن الطولوني باستقراره معلِّم المعمارية، وأميرزة بن حسن الدّوكاري التُرْكُماني بكشف الوجه القبلي على عادته، وعلى جماعة أُخَر.

ثم في يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول المذكور استقرَّ الأمير جَانِبَك من أمير الأشرفي الظريف أمير طبلخاناه خازنداراً كبيراً عوضاً عن الأمير أُزْبُك من طَطَخ الظاهري بحكم سجنه بالإسكندرية.

واستقرَّ بُرْدبَك دوادارُ السلطان قديماً وزَوجُ ابنتِهِ دواداراً ثالثاً بإمْرَة عشرة؛ وهذا شيء لم نعهده كون الدوادار الثالث يكون أمير عشرة، وما عادته إلاّ خاصكيّاً.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

وكان حق بُرْدبَك هذا الدواداريَّة الثانية لكونه مملوك السلطان ودواداره وزَوْج ابنته، غير أن السلطان لمّا رأى أن تِمْرَاز الأشرفي غرضه في الدوادارية الثانية لم يسعه إلّا الإنعام عليه بها، لعظم شوكة الأشرفية يَومئذ.

ثم استقرَّ يَشْبُك الأشْقَر الخاصكي أستادار الصُّحْبَة بعد عزل سُنْقُر الظاهري عنها من غير إمْرَة.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول ابتدأ السلطانُ بالنفقة على المماليك السلطانية على أقسام متعددة نفقةً كاملةً، وهي مائة دينار [لكل مملوك][1]، ونصف نفقة، وربع نفقة، وعشرة دنانير، وهذا لم يقع قبل في الدّولة التركية. ولامَ السلطانَ بعضُ أعيان الأمراء على ذلك، فقال: «هذا الذي كان رتّبه تَمُرْبُغا للتفرقة في الدولة المنصورية»، فكُلّم ثانياً، فاعتذر بقلّة المتحصّل في الخزانة السلطانية.

قلتُ: «والعذر الثالث أن كلمة الشُّحّ مُطاعة».

قلت: «والذي فُرّق في المماليك السلطانية إنما هو الذي جمعه الملك المنصور عثمان من السُّلَف والمصادرات في أيّام سلطنته، وإلّا فما ترك والده الملك الظاهر جَقْمَق في الخزانة شيئاً يُذكَر، لكرم نفسه وكثرة عطاياه، رحمه الله تعالى».

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشره خلع السلطان على جماعة من الأمراء خلع الإنظار[2] المتعلقة بالوظائف المقدّم ذكرها.

ثم في يوم الأربعاء سابع عشره وصل الأمير دُولات باي المحمودي الدّوادار من سجن الإسكندرية. ووقع في خروج دُولات بَاي المذكور ومجيئه من ثغر الإسكندرية غريبةٌ فيها عبرةٌ لمَن اعتبر، وهو أنّ الأمراء الذين قبض عليهم الملك

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) راجع ص ١٣ من هذا الجزء، حاشية (١).

الأشرف إينال هذا كان غالبهم هو الـذي حسَّن للمنصور القبضَ على دولات بـاي هذا وسجنه بثغر الإسكندرية، فلما أمسكهم الملك الأشرف وسيّرهم إلى الثغـر، رسم بإطلاق دُولات بَاي من السجن، فتوافوا خارج الإسكنـدرية، وقـد أفرج عن دُولات بَاي، ورُسم بحبسهم عوضه، فانظر إلى هذا الدّهر وأفعاله بالمغرمين بـه، لتعلم أن الله على كل شيء قدير.

وفي يوم الخميس ثامن عشره أنعم السلطان على الأمير يونُس العلائي نائب الإسكندرية بإقطاع الأمير جَانِبَك اليَشْبُكي الوالي ثم الزّرَدْكَاش بعـد وفاتـه، وأنعم بإقطاع يونُس المذكور على قانِي بَـاي الأعْمَش الذي استقـرَّ عوضـاً عن يونُس في نيابة القلعة.

وفي يـوم الجمعة تـاسع عشـره أفرج السلطان عن الأميـر زين الدين يحيىٰ الأستادار من محبسه بالبُرُج من قلعة الجبل، وخلع عليه كَامِلِيَّة(١) بمَقْلَب سَمُّور، ونزل إلى داره.

وفي يـوم السبت العشرين من ربيـع الأول المذكـور استقر نُـوكَار النـاصري الحـاجب الثاني زَرَدْكَـاشاً بعـد مـوت جَـانِبَـك اليَشْبُكي، واستقـرَّ سمـام الحسني الظاهري حاجباً ثانياً عوضاً عن نُوكَار.

وفي هذه الأيام خلع السلطان على جماعة كبيـرة بعدّة وظـائف حتى تجاوز عَدَد رؤوس النُّوَب على خمسة وعشرين نفراً، والدّوادارية صاروا عشرة نفر بعـدما كانوا خمسة، وكذلك البَجْمَقْدَارِية والبوّابون، وقِسْ على ذلك.

ثم قبض السلطان على نيِّف وثلاثين مملوكاً من مماليك الظاهريـة، وحبسوا بـالبُرْج من القلعـة، وكان نَفَى قبـل تاريخـه جماعـة أُخَر، وشيَّـع شـاهين الفقيـه الظاهري، وهو ممّن لا يلتفت إليه، وسُنْقُر أستادار الصّحبة، كلاهمـا إلى القُدس الشريف.

---

(١) الكاملية: ثوب ضيق الأكمام يلبس فوق القباء. وكـان يبطّن بفـرو سمُّور وتعمـل له قـلابات من فـرو السمّور أيضاً فيسمى: كاملية بفرو سمّور بمقلب سمّور.

ثم أخرج أيضاً يَشْبُك الظاهري، وكان تَأَمَّرَ في الدولة المنصورية عشرة، ويَشْبُك الساقي، وسَنْطَبَاي رأس نَوْبَة الجَمدَارِيَّة، إلى طرابُلُس، ثم أخرج بعدهم أيضاً جماعة أُخَر.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه استقرَّ الأمير زين الدين يحيىٰ أستاداراً على عادته أوّلاً، بعد عزل الأمير جَانِبَك نائب جدّة عنها برغبة من جَانِبَك المذكور.

وفيه وصل الأمير يَرْشِبَاي الإينالي المؤيّدي الأمير آخور الثاني ـ كان ـ والأمير يَلَبَاي الإينالي المؤيدي من ثغر دِمْيَاط، بطلب من السلطان.

وفي يوم الخميس خامس عشرينه وصل الأمير سودون الإينالي المؤيّدي قَرَاقاش من القُدْس الشريف بطلب.

ثم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأوّل ظهر الأمير أُسِنْبَاي الجمالي الظاهري الدّوادار الثاني ـ كان ـ وكان مختفياً من يوم ملك السلطانُ بابَ السلسلة، فرسم له بالتوجّه إلى القُدْس بَطّالاً.

وفي يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر وصل الأمير جَانَم الأمير آخور ـ كان ـ قريب الملك الأشرف بَرْسبَاي من حبس قلعة صَفَد وخلع السلطان عليه كامِلِيَّة مُخْمَل أخضر بمَقْلَب سَمُّور، ووعده بكل جميل؛ نذكر ذلك في تاريخنا الحوادث مفصّلاً هذا وغيره لكونه محلّ ضبط الحوادث، وما نذكره هنا ليس هو إلّا على سبيل الاستطراد والأمور المهمّة لا غير، وأما جميع الوقائع ففي الحوادث تُطلَب هناك ـ انتهى.

وفي يوم الجمعة أوّل جمادى الأولى قبض السلطان على الأمير قَرَاجَا الخازندار الظاهري، وهو يومئذ حاجب الحجّاب، وحبسه بالبَحْرَة من قلعة الجبل من غير أمرٍ أوجب مَسْكَه، وإنما هي مندوحة لأخذ إقطاعه[1].

(١) ذكر المؤلّف في حوادث الدهور أن جماعة المماليك الأشرفية صاروا يوغرون صدر السلطان على المماليك الظاهرية ويخوّفونه منهم طمعاً في الحصول على إقطاعاتهم. ولم يزالوا به حتى وافقهم على هذا الفعل مع قراجا الخازندار ووجهه إلى القدس بطّالاً.

وفي يوم السبت ثاني جمادى الأولى أنعم السلطان بإقطاع قَرَاجَا المذكور وهو إمْرَة مائة وتَقْدمَة ألف على الأمير جَانَم الأمير آخـور الأشرفي، وخلع على الأميـر جانِبَك القَـرَمَاني بـاستقراره حـاجب الحجّاب عـوضاً عن قَـرَاجَا المـذكور، ورسم السلطان بتوجّه قَرَاجَا إلى القدس بطَّالاً، فسافر يوم الاثنين رابعه.

وفي يوم الثلاثاء خامسه قرىء تقليد السلطان الملك الأشرف إينـال بالقصـر الكبيـر من قلعة الجبـل، وحضر الخليفـة والقضاة الأربعـة، وجلس السلطان على الأرض[١] من غير كرسيّ على مرتبة، وجلس على يمينه الخليفة القـائم بأمـر الله حمزة، ثم جلست القضاة الأربعة كلّ واحد في منزلته، وقرأ القاضي محبّ الدين ابن الأشقر كاتب السرّ التقليد إلى أن تمّت قـراءته، فخلع عليـه السلطان، وعلى الخليفة، وانفضّ الموكب.

وفي يوم الجمعة ثامنه عقد السلطان عقد الأمير يونُس الأقبائي الدوادار الكبير على ابنته بجامع القلعة بحضرة السلطان.

وفي يوم السبت تاسـع جمادى الأولى خلع السلطان على الشيـخ عزّ الـدين أحمد الحنبلي باستقراره قاضي قضاة الحنابلة بالديـار المصريـة، بعد وفـاة قاضي القضاة بدر الدين بن عبد المنعم.

---

(١) هنا إشارة إلى أحد المراسم المتّبعة أثناء تقليد السلطان الجديد، وهو ألاّ يرتفع السلطان في مجلسه أثناء قراءة التقليد عن مجلس الخليفة علامة التواضع والخضوع للشرع. قال أبو المحاسن في حوادث الدهور تعليقاً على هذا: «وشكر الناس جلوس السلطان من غير كرسي، لأن الخليفة القائم بأمر الله المذكور يوم خلع الملك المنصور عثمان بن جقمق عدَّ من ذنوبه أنه جلس على كرسي يوم قرىء تقليده وبقي الخليفة تحت رجليه بجانب الكرسي». قال أبو المحاسن: «وكذا كان فعل والده الملك الظاهر جقمق (أي جلس على الأرض) مع الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح داود يوم قرىء تقليده أيضاً. ولعلّ ذلك عـادة الملوك السالفة، والله أعلم. فإن الظاهر جقمق كان عنده تواضع مع العلماء والفقهاء، فكيف الخلفاء!؟».
قلت: وعبارة أبي المحاسن التي تشير إلى عدم تأكّده من أن ذلك كان رسماً متّبعاً إنما تتعلق بمسألة جلوس السلطان على الأرض أثناء قراءة التقليد. غير أن ما أخذه الخليفة على السلطان عثمان بن جقمق وعدّه من ذنوبه يرجّح ما ذهبنا إليـه في بدايـة هذا التعليق من أن العـادة المتّبعة كـانت عدم ارتفـاع مجلس السلطان عن مجلس الخليفة، ولا عبرة في الجلوس على كرسيّ أو عدمه، لأن الأساس في ذنب السلطان عثمان هو «بقاء الخليفة تحت رجليه بجانب الكرسي».

وفيه رسم السلطان أن يُحَطَّ عن البلاد بالوجه القبلي والبحري وسائر الأعمال ربع ما كان يطرح عليهم قبل ذلك [في أيام الظاهر جقمق][١] من الأطرون[٢]، وسُرَّ الناس بذلك وتباشروا بزوال الظلم وإزالة المظالم.

وفي يوم الأحد سابع عشره ورد الخبر على السلطان بقتل الأمير بن سَوِنْجبُغَا [اليونسي الظاهري جقمق][٣] وتَغْري بَرْدي القَلاوي المعزول عن الوزر قبل تاريخه: قَتَلَ الواحدُ الآخر، ثم قُتل الآخر في الوقت ـ ذكرنا أمرهما مفصّلاً في تاريخنا الحوادث[٤] ـ فأنعم السلطان بإقطاع تَغْري بَرْدي القَلاوي على الأمير يَرْشِبَاي الإينالي المؤيّدي، وأنعم على الأمير يَلَباي الإينالي المؤيّدي بإقطاع سَوِنْجبُغَا، وكان إقطاعه قديماً قبل أن يُمْسَك، وأنعم بإقطاع عبد الله الكاشف على سُودون الإينالي المؤيّدي قَرَاقَاش، وأنعم على تَنَم الحسيني وعلى قَلَمْطاي الإسحاقي الأشرَفِيَّيْن بإقطاع يَلْبُغا الجاركسي بحكم تَعَطُّلِهِ ولزومه داره، لكل واحد منهما إمْرَة عشرة.

وفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة أنعم السلطان على خير بَك الأجرود المؤيدي أتَابَك دِمَشق ـ كان ـ بعد قدومه من السجن بإقطاع دُولات بَاي المحمودِيّ الدَّوَادار ـ كان ـ بعد موته، والإقطاع إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية. وكان دُولات بَاي الدّوادار أخذ هذا الإقطاع بعد موت أُرَنْبُغَا، وأُرَنْبُغَا أخذه بعد قاني باي الجاركسي، كلُّ ذلك في دون ثلاثة أشهر.

وفي يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة ورد الخبر من الشام بموت قَانْصُوَه النَّوْرُوزِيّ، أحد أمراء دمشق، فأنعم السلطان بتقدمته على الأمير قاني بَك

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) أي النطرون. والمراد تخفيض الضريبة على النطرون. والنطرون هو من المعادن الموجودة بأرض مصر، وكان يستخرج أساساً من الطرانة الواقعة غربي النيل، خاصة من بركة النطرون. (انظر صبح الأعشى: ٣١٢/٣، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٤٧).

(٣) زيادة عن حوادث الدهور.

(٤) انظر حوادث الدهور: ٤٤٠ ـ ٤٤١.

المحمودي المؤيدي، وكان قاني بَك بَطّالاً بدمشق.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر[١] شهر رجب أُدير المَحْمَل[٢] على العادة، ولعبت الرمَّاحة، وكان الملك الظاهر جَقْمَق أبطل ذلك، فأعاده الملك الأشرف هذا، وسُرَّ الناس بعمله غاية السرور.

وفي يوم الخميس تاسع عشر رجب المذكور نَدَبَ السلطانُ الأميرَ قانَم طَاز الأشرفي أحد أمراء العشرات ورأس نَوْبَة بنقل الأمراء المسجونين من ثغر الإسكندرية إلى حُبوس البلاد الشامية، فتوجّه إليهم، ونقل الجميع ما خلا الأميرين تَنَم المؤيّدي أمير سلاح، وقاني بَاي الجاركسي، فإنهما داما في سجن الإسكندرية[٣].

وفي يوم السبت رابع شهر رمضان استقرَّ الزيني فرج بن ماجد بن النحّال كاتب المماليك السلطانية وزيراً بعد تَسَحُّب الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهَيْصَم.

وفي يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان بموت الأمير بَيْغُوت الأعرج المؤيدي نائب صَفَد، فرسم السلطان بانتقال الأمير إيَاس

---

(١) في طبعة كاليفورنيا: «سابع عشر»، وفي طبعة الهيئة المصرية: «رابع عشر»، وما أثبتناه عن حوادث الدهور وهو الصواب، لأن أول المحرّم كان يوم الأحد.

(٢) راجع فهرس المصطلحات: دوران المحمل. ـ ونضيف هنا ما أورده أبو المحاسن في حوادث الدهور في وصف دوران المحمل: «وكان محملاً بهيجاً إلى الغاية، وسرّ الناس بعمله سروراً زائداً، وتغالوا في اكتراء البيوت والحوانيت والأسطحة مغالاة كبيرة» ـ وهي إشارة إلى أن ازدحام الناس للتفرّج على المحمل يكون عادةً كبيراً. بحيث إنهم يستأجرون الأماكن المطلّة على الشارع بأثمان غالية... قال: «ومما وقع فيه من اللطائف أنهم لمّا زيّنوا القاهرة وشرعت عفاريت المحمل تضحك الناس على العادة ـ وهم جماعة من الأجناد وغيرهم يغيّرون صفاتهم بهيئة مزعجة مهولة إلى الغاية ويركبون خيولاً بالقلاقل والأجراس والشراشح ويعتدون على العوّام ـ فلما كان يوم المحمل خرج شخص من التجّار المشارقة يسمى سليمان على فرس له، وقصد جهة من الجهات، فلما صار في وسط الحلقة قصده عفريت وطعنه برمحه حتى رماه عن فرسه بعد أمور وقعت بينهما، فضحك الناس من ذلك...». ـ انظر حوادث الدهور: ٤٤٥.

(٣) ذكر المؤلّف في حوادث الدهور أسماء جميع السجناء المنقولين، ثم قال: «والجميع ظاهرية جقمقية».

المحمّدي الناصري أتابَك طرابُلُس إلى نيابة صَفَد دفعةً واحدة، وحُمل إليه التقليد والتشريف على يد الأمير خُشْكَلْدي القوامي الناصري أحد أمراء العشرات، واستقرَّ حَطَط الناصري المعزول قبل تاريخه عن نيابة غزّة أتابَك طرابُلُس عوضاً عن إيَاس المذكور، وأُنعم بإقطاع حَطَطْ ـ إمرة عشرين بطرابلس ـ على جَانِبَك المحمودي المؤيدي، وكان بطّالاً بطرابلس.

ثم استهلَّ شوّال يوم الجمعة، فصلّى السلطان صلاة العيد بجامع القلعة الناصري على العادة، ثم صلّى من يومه أيضاً الجمعة بالجامع المذكور، فكان في هذا اليوم خطبتان في يوم واحد، وكثر كلام الناس في هذا الأمر[١]، فلم يقع إلّا كل جميل من سائر الجهات، وصار كلام الناس من جملة الهذيان، وأنت تعلم مقدار ما أقام الأشرف بعد ذلك في الملك.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر شوّال المذكور خلع السلطان على الأمير جَانِبَك الظاهري المعزول قبل تاريخه عن الأستادارية باستقراره في التكلّم على بندر جدّة بعد أن أنعم عليه بزيادة على إقطاعه، وجعله من جملة أمراء الطبلخانات بالديار المصرية. ثم رسم بنفي الأمير بُرْدبَك التاجي الأشرفي ـ الذي كان تكلم على بندر جدّة في السنة الماضية ـ إلى القُدْس بطّالاً، وأخرج السلطان إمْرَة بُرْدبَك المذكور إلى جَكَم الأشرفي خال الملك العزيز يوسف، والإقطاع إمْرَة عشرة.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر شوّال المذكور تسحّب الأمير زين الدين الأستادار، واختفى، مِما حَمَلَ[٢] للديوان السلطاني من الكُلَف. وبلغ السلطان ذلك، فأرسل

---

(١) هذه الملاحظة وردت عدة مرّات في الأجزاء السابقة من النجوم، وهي تشير إلى اعتقاد كان لدى العامّة في ذلك الزمان، وهو أنه إذا أُقيمت صلاتان وخطبتان في يوم واحد فإن ذلك يعتبر طالع سوء ويتوقّعون موت السلطان أو حلول مكروه كبير به.

(٢) أي إنه هرب مما كان يتوجّب عليه دفعه للديوان السلطاني من الكلف، أي من المصاريف. . . وكان الأستادار في تلك الأيام ـ وهو المسؤول عن مالية السلطان ومصاريفه ـ من أكثر الموظفين أهميّة، وفي نفس الوقت كان من أكثرهم تعرّضاً للنكبات على يدي السلطان. فقد درجت العادة في أواخر أيام السلاطين الجراكسة أن يولوا مهمة الأستادارية إلى أحد الأثرياء الذين يتكفّلون بدفع الكلف نتيجة العجز المتفاقم =

السلطان خَلْفَ علي بن الأَهْنَاسي البُرْددَار(١) بخدمةِ زينِ الدين المذكور(٢)، وهو يومذاك أستادار المقام الشهابي أحمد بن السلطان، واستقرَّ به أستاداراً عوضاً عن زين الدين دفعة واحدة. وعلم السلطان أن عليّاً هذا ليس هو في هذه الرُّتبة، ولا فيه أهليّة(٣) لأن يكون من جملة كُتّاب ديوان المُفْرَد، فتكلم في الملأ بكلام معناه أن السلطان إذا أقام كائناً مَن كان من أقلِّ الناس في أيّ وظيفة شاء ـ وكان للسلطان به عناية ـ سدَّ تلك الوظيفة على أحسن الوجوه، فسكت كلُّ أحد، لعلمهم أن السلطان يعلم حاله، كما يعلمونه هم، واختاره لهذه الرُّتبة.

ثم في يوم السبت ثالث عشرين شوّال ورَدَ إلى الدّيار المصرية قاصدُ خَونْدكار محمد بك بن مراد بن عثمان، متملِّك بلاد الرّوم، لتهنئة السلطان بالمُلْك، وأيضاً يخبره بما مَنّ الله عليه من فتح مدينة إسطنبول، وقد أخذها عَنْوَة بعد قتال عظيم في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة، بعدما أقاموا على حصارها من يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من هذه السنة ـ أعني سنة سبع وخمسين المذكورة ـ إلى أن أخذها في التاريخ المقدّم ذكره(٤).

= في ميزانية الدولة، وفي المقابل كانت تطلق يد الأستادار في التصرّف بالأمور المالية وموارد الدولة، بحيث أصبحت هذه الوظيفة تُشترى بمبالغ طائلة لأن طالبها يأمل بتعويضات كبيرة. وبسبب قلّة موارد الخزينة كما أشرنا، وبذخ السلاطين، فإن السلطان كان يصبّ غضبه على الأستادار بمجرد تقصيره أو بمجرد أن يلوح للسلطان إمكانية استبداله بآخر يتعهّد بالتزامات مالية مغرية.

(١) البردادار أو البرددار: هو الحاجب الذي يفتح الستارة ويغلقها على باب الوزير أو الأمير. ـ راجع في تأصيلها فهرس المصطلحات.

(٢) أي إنه كان سابقاً في خدمة زين الدين، كما جاء في حوادث الدهور.

(٣) ذكر المؤلّف في حوادث الدهور أن الأهناسي هذا كان أعرف من غيره بديوان المفرد. ـ وديوان المفرد ديوان يتبع السلطان، ومنه يصرف على مماليكه.

(٤) الإشارة هنا إلى فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح العثماني. وقد كانت مملكة الروم الشرقية في ذلك الوقت قاصرة على القسطنطينية وضواحيها، فأسقطها محمد الفاتح في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو ١٤٥٣ م، وسمّاها إسلامبول أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام، وجعلها عاصمة الدولة العثمانية. وفي تلك المعركة قتل قسطنطين آخر ملوك الروم. (انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية: ٥٨ ـ ٦٢).

قلت: ولله الحمد والمنّة على هذا الفتح العظيم.

وجاء القاصد المذكور ومعه أُسيران من عظماء إسطنبول، وطلع بهما إلى السلطان وهما من أهل قسطنطينية، وهي الكنيسة[١] العظمى بإسطنبول، فسُرّ السلطان والناس قاطبةً بهذا الفتح العظيم سروراً زائداً، ودُقّت البشائر لذلك، وزُيِّنت القاهرة بسبب ذلك أياماً. ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران المذكوران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس عشرين شوّال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن، وأمعنوا في ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمةَ بالحوش السلطاني من قلعة الجبل. وقد استوعبنا طلوع القاصد المذكور في غير هذا المحل من مصنّفاتنا بأطول من هذا.

وبالجملة فكان لمجيء هذا القاصد بهذه البشارة الحسنة أمر كبير، وعيّن السلطان من يومه الأمير يَرْشِباي الإينالي المؤيَّدي الأمير آخور الثاني ـ كان ـ بالتوجُّه إلى ابن عثمان صحبة القاصد بالجواب السلطاني؛ وقد كتبنا صورة الكتاب الذي جاء من ابن عثمان على يد القاصد المذكور بفتح مدينة إسطنبول، والجواب الذي أرسله السلطان صحبة يَرْشِباي هذا، كلاهما مثبوت في تاريخنا حوادث الدهور[٢]، إذ هو محل ضبط هذه الأمور ـ انتهى.

ثم رسم السلطان بالمناداة على زين الدّين يحيىٰ الأستادار، وتهديد مَن أخفاه عنده بالشنق والتنكيل، ووعد مَن أحضره بألف دينار إن كان متعمّماً، وبإقطاع إن كان جندياً.

---

(١) المراد كنيسة أيا صوفيا أو كنيسة القديسة صوفيا.

(٢) بعد الاطّلاع على حوادث الدهور لم نجد صورة الكتابين المذكورين. ولعلّ المؤلّف كان ينوي إثبات ذلك في الحوادث ثم فاته الأمر. على أن المؤلّف أثبت في حوادث الدهور نصّ كتاب ورد من ابن عثمان بتاريخ ٢١ صفر سنة ٨٦٠ هـ محرّراً بتاريخ ٢ ذي الحجة سنة ٨٥٩ هـ، كما أثبت نص كتاب السلطان إينال جواباً عليه. ـ انظر حوادث الدهور: ٥٧٤ ـ ٥٨٤.

ثم في يوم الاثنين ثالث ذي القعدة استقرَّ القاضي محبّ الدين ابن الشِّحْنَة الحنفي كاتب سِرّ مصر، بعد عزل القاضي محبّ الدين بن الأشقر، [على مال بذله وهو مبلغ أربعة آلاف دينار][1].

ثم في يوم الاثنين ثاني ذي الحجة خلع السلطان على الأمير جَانِبَك النَّوْرُوزِيّ نائب بَعْلَبَك باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل يونس العلائي وقدومه إلى القاهرة من جملة أمراء الطبلخاناتِ.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشرين ذي الحجة ظهر الأمير زين الدين الأستادار من اختفائه، وطلع إلى القلعة وعلى رأسه منديل الأمان، صحبة عظيم الدولة الصاحب جمال الدين بن كاتب جَكَم، وكان هو الساعي لزين الدين في رضاء السلطان عليه. وقبّل زينُ الدين الأرضَ بين يدي السلطان، فرسم له السلطان أن يلزم داره، ولا يجتمع بأحد، ولا يكاتب أحداً من أعيان الدولة.

وفرغت سنة سبع وخمسين، وما ذكرناه فيها إنما هو على سبيل الاختصار، علم خبر لا غير.

واستهلّت سنة ثمانٍ وخمسين وثمانمائة.

وأول السنة يوم الثلاثاء، فأحببت أن أذكر في أوّل هذه السنة أسماء أعيان أرباب الوظائف من الأعيان والأمراء والقضاة والمباشرين، ليعلم الناظر في هذه الترجمة كيف تكون تقلبات الدهر، وتغيير الدولة، بعد أن ينظر المتأمّل في ترجمة الملك المنصور عثمان في السنة الخالية، ولم يمضِ بين مَنْ سُمّي في تلك السنة وبين مَن سُمّي في هذه السنة إلّا بعض أشهر، لأن المنصور والأشرف هذا كلًّا منهما وَلِيَ في هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وثمانمائة. وما قلناه في السنة الخالية معناه في ترجمة المنصور عثمان. على أنّا لا نذكر إلّا جماعة الأعيان لا غير؛ ولو ذكرنا كلَّ مَن تغيّر من أرباب الوظائف من الخاصكيّة والأجناد الذين

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

أخذوا الإقطاعات والوظائف لطال الشرح في ذلك، وخرجنا عن المقصود، ولنعد إلى ما هو المقصود فنقول:

أما الخليفة فهو القائم بأمر الله حمزة، وهو المذكور أيضاً في [السنة] الخالية.

وكذلك القضاة الأربعة فهم على حالهم كما ذكرناه في ترجمة المنصور أيضاً.

وكذلك نوّاب البلاد الشاميّة، فالجميع على حالهم كما ذكرناه في ترجمة المنصور أيضاً.

وتغيَّر نائب الإسكندرية، فإنه كان في تلك السنة بَرْسبَاي البَجَاسي، والآن هو جَانِبَك النَّوْرُوزِيّ.

وأما أرباب الوظائف من أمراء مائة: فالأمير الكبير[1] تَنِبَك البُرْدبَكي الظاهري. وأمير سلاح خُشقَدم الناصري المؤيَّدي. وأمير مجلس طوخ مِنْ تِمْرَاز الناصري غليظ الرّقبة. والأمير آخور الكبير جَرِبَاش المحمدي الناصري كُرْد. والدّوادار الكبير يونس السيفي آقْبَاي نائب الشام. ورأس نَوْبَة النُّوَب قَرْقَماس الأشرفي الجَلَب. وحاجب الحُجّاب جَانِبَك القَرَمَاني الظاهري.

فهؤلاء هم أرباب الوظائف من مقدّمي الألوف.

وبقية مقدّمي الألوف هم: المقام الشهابي أحمد ابن السلطان، وهو يجلس رأس مَيْسَرة فوق أمير سلاح.

والأمير جَانَم الأمير آخور ـ كان ـ وهو يجلس تحت أمير سلاح فوق بقية الأمراء. ثم خَيرِبَك الأَجْرُود المؤيَّدي. ثم بَرْسبَاي البَجَاسي.

---

(١) أي أتابك العسكر أو قائد الجيوش. وما يأتي من وظائف سبق لنا التعريف بها، فانظر في ذلك فهرس المصطلحات.

فهؤلاء جميع مقدّمي الألوف بالديار المصرية، وهم أقلّ من النصف من أمراء الظاهر برقوق.

وأما أرباب الوظائف من أمراء الطبلخانات وغيرهم: فشاد الشراب خاناه جَانِبَك من قَجْمَاس الأشرفي المعروف بدَوادار سَيِّدي.

والخَازندار [الكبير](١) جانِبَك من أمير الأشرفي الظريف. ونائب القلعة قَاني بَاي الناصري الأَعْمَش أمير عشرة. والزَّرْدكَاش نوكار الناصري أمير عشرة؛ والتَّجَمُّل به هتكة. والحاجب الثاني بَتْخَاص العثماني الظاهري ـ برقوق ـ أُمير عشرة. وأستادار الصحبة يَشْبُك الأشقر الأشرفي من جملة الأجناد.

وكانت هذه الوظائف المذكورة في سالف الأعصار لا يليها إلاّ أُمير مائة مقدّم أَلف، ولهذا قدّمنا ذكرها على غيرها مما سنذكره، فتنازل ملوك زماننا هذا حتى وَلِيَ بعضَها الأجناد.

وقد أبطل الملوك أيضاً عدّة وظائف جليلة كان لا يليها إلاّ أمير مائة مقدَّم ألف، مثل نيابة السلطنة، لأن آخر مَن وَلِيَها من العظماء تِمْراز الناصري الظاهري في دولة الناصر فَرَج. ورأس نَوْبَة الأمراء، وآخر مَن وليها نَوْرُوز الحافظي في دولة الناصر فرج أيضاً، وكانت هذه الوظيفة تضاهي الأَتَابَكِيَّة. ومثل أمير جاندار، فإن الأمير أُلْجَاي اليوسفي صاحب الوَقْعَة مع الأشرف شعبان انتقل إليها من وظيفة رأس نَوْبَة النُّوَب.

وأما ما ذهب من الوظائف التي كان يليها أُمراء الطبلخانات والعشرات ـ مثل شاد الدواوين، وأمير منزل، وشادّ القصر السلطاني، والمِهْمَنْدار، ومقدَّم البريدية، وشادّ العمائر، وإن كان بعض هذه الوظائف مستمرة ـ فإنه لا يليها إلاّ الأحداث من الناس، بحيث إنها صارت كلا شيء. وقد خرجنا عن المقصود في نوع الاستطراد، ولنعد إلى ما كنّا فيه.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

ورأس نَوْبَة ثانٍ يَشْبُك الناصري. وتعدّ سبعة من طبلخانات رؤوس النـوب. وأما العشرات من رؤوس النُّوَب فكثيرٌ جداً.

وكان جميع رؤوس النُّوَب في أوائل سلطنة برقوق أربعة لا غير، ثم صاروا في دولة الناصر فرج بعد تجريدة الكَرَك سبعة، فنقول: ما تجدَّد من كثـرة رؤوس النُّوَب يكون عوضاً عمّا ذهب من تلك الوظـائف، فيقول القـائل: لا نُسلِّم! وأين رَوْنَق تلك الـوظائف المتعـددة كثرة من [رونق] وظيفـة واحـدة؟! وكـذلـك كـانت الحجَّـاب ثلاثـة: حاجب الحجّـاب، وحـاجب ميسـرة، وهـو أيضـاً مقـدّم ألف، والحاجب الثالث. فأول مَن زادهم الظاهر بَرْقُـوق، وجعلهم خمسة حُجّـاب أمراء عشرات، لا هذه الحرافيش[1] الذين يلونها اليوم الجَهَلَة الفَسَقة.

والـدوَادَار الثاني تِمْـرَاز الإينالي الأشـرفي بإمـرة عشرين، وهـو من مساوىء الدهر. والأمير آخور الثاني خَيربك الأشقر المؤيـدي أمير عشـرين أيضاً. والـزّمام والخـازندار الـطواشي الرومي فَيْـرُوز النَّوْرُوزِي أميـر طبلخانـاه. ومقدّم الممـاليك السلطانية الطَّوَاشي لؤلؤ الرّومي الأشرفي أميـر عشرة. ونـائبه عنبـر، عتيـق التاجـر نور الديـن الطُّنْبُذي، جندياً بغير إمرة. ونقيب الجيش الأمير ناصر الدين محمد بن أبي فرج بعد أن وَلِيَ الأستادارية قبـل تاريخـه. ووالي القاهـرة علي بن إسكندر، ووَلِيَها بالبذل.

* * *

---

(١) أي السفلة من الناس. ولا يذكر المؤلّف السبب في انحطاط مرتبة تلك الوظائف وتداولها بين أُناس غير أكفّاء لها، ولكنه من وقت إلى آخر يُبدي أسفه لما حلَّ بالجهاز الإداري المملوكي من تفسّخ وانحطاط. وهو ينهي ملاحظاته عادة بعبارة: «والسُّكات عند ذلك أجمل». ولكن القارىء لهذا الكتاب، إذا أراد أن يتتبّع أحوال الجهاز الإداري المملوكي وأحوال موظفيه من مدنيين وعسكريين، فإنه يستطيع أن يـلاحظ أن انحطاط تلك الوظـائف إنما يعـود بشكل أسـاسي إلى سوء سيـاسة السـلاطين الجـراكسة المتـأخرين وفسادهم المالي بحيث أصبحت جميع الوظائف ـ حتى القضاء والحِسبة وغيرهـا من الوظـائف الدينيـة ـ تُشتَرى بالمال. ولا عجب عندئذ أن نرى تاجراً جزّاراً يصل إلى تولّي الوزارة. (انظر على سبيـل المثال وفيات سنة ٨٦٩ هـ من هذا الجزء: ترجمة الوزير محمد البباوي).

ذكر أعيان مباشري الدولة من المتعمّمين

كاتب السِّرِّ محبُّ الدين ابن الشِّحْنَة الحنفي. وناظر الجيش والخاصّ معاً، عظيم الدولة الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جَكَم. والوزير سعد الدين فرج بن النحّال. والأستادار علي البُرْددار بن الأُهْنَاسي.

ووظيفة نظر الدولة ونظر المُفْرَد كلٌّ منهما تلاشى أمرهما حتى صارت كلا شيء، سكتنا عن ذكر ذلك لوضاعة قدر مَن يليها.

قلت: ولو سكتنا عن ذكر مَن يلي الوزَرَ أيضاً لكان أجمل، غير أنه لا يسعنا إلّا ذكرها لمحلها الرّفيع في سائر الأقطار ـ فلا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

وأما ذكر نظر الجوالي، والإسطبل السلطاني، والبيمارستان، والكسوة، وخزائن السلاح، والخزانة الشريفة، وأشباههم ليس لذكرهم هنا محل، لكونهم في غير هذه الرّتبة.

وفي مثل هذا المحل لا يُذكر إلّا أعيان الوظائف المعدود أصحابها من ذوي الرياسات، وقد ذكرنا تلك الوظائف كلها في تاريخنا الحوادث، إذ هو محل ضبط الولايات والعزل ـ انتهى.

وفي يوم الأحد سادس محرّم سنة ثمانٍ وخمسين وثمانمائة ورد الخبر على السلطان من حلب بوفاة الأمير علي بَاي بن طَرَباي العجمي المؤيّدي أَتَابَك حلب، فرسم السلطان باستقرار الأمير آقْبَرْدِي السّاقي الظاهري نائب قلعة حلب أتابَكاً بحلب عِوَضَه.

واستقرَّ في نيابة قلعة حلب الزَّيني قاسم بن جمعة القساسي، وأُنعم بتقدمة قاسم المذكور ـ وكان أخذها قبل ذلك عن سُودون القَرَماني بمدة يسيرة ـ على الأمير يَشْبُك البَجَاسي.

واستقرَّ مكان يَشْبُك البجاسي في دَوادارية السلطان بدمشق خُشْكَلْدي الزيني عبدُ الرحمن بن الكُوَيْز.

وفي يوم الاثنين حادي عشرين المحرّم أيضاً وصل إلى القاهرة تَقْدِمَةُ الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب، تشتمل على جماعة يسيرة من المماليك ومائة فرس لا غير[١].

قلت: وهذا كثير ممّن أُشيع عنه العصيان ثم أظهر الطاعة في الظاهر، والله متولّي السّرائر. وقد أوضحنا أمر قاني باي هذا في غير هذا المحل مع السلطان الملك الأشرف إينال بأوسع من هذا.

ثم في صفر رُسم بسفر الأمير زين الدين الأستادار إلى القُدْس بطالاً، فلما خرج إلى ظاهر القاهرة قُبض عليه، وأُخذ إلى القلعة، وصودر ثانياً، وعوقب ووقع له أمور، آخرها أنه وَلِيَ الأستادارية ـ مسؤولاً في ذلك ـ في يوم الثلاثاء رابع عشر صفر، وعُزل عليٌّ بن الأهناسي.

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من سنة ثمانٍ وخمسين المذكورة ركب السلطان الملك الأشرف إينال من قلعة الجبل بغير قُماش[٢] الخِدْمة، ونزل إلى جهة قُبَّة النصر خارج القاهرة، ثم عاد من باب النصر، وشقّ القاهرة وخرج من باب زُوَيْلة حتى طلع إلى القلعة، وهذا أوّل ركوبه من يوم تسلطن.

وفي يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر ثارت فتنة بسوق الخيل بين المماليك الظاهرية ـ جَقْمَق ـ وبين المماليك الأشرفية ـ بَرْسبَاي ـ بالدبابيس، وأصبح كلٌّ من الطائفتين مستعدّة للأخرى، فلم يقع شيء ولله الحمد؛ وقد ذكرنا كيفية الفتنة المذكورة في تاريخنا الحوادث.

---

(١) أضاف المؤلّف في حوادث الدهور: «ولم تكن هذه عادة تقدمة نائب حلب، وإنما الظاهر أنه استعجل بإرسال ذلك ليعلم كل أحد أنه في طاعة السلطان، وينقطع عنه كلام كل أحد ممّن يشنّ الغارات ويثير الفتن».

(٢) المراد بالقماش اللباس والزيّ الذي يلبسه السلطان. فإذا قيل: «قماش الخدمة» فالمعنى الزيّ الرسمي للسلطان أثناء ركوبه في المواكب أو جلوسه في دست السلطنة. وإذا قيل: «قماش الجلوس» فالمعنى لباس السلطان وهو في بيته بين أهله وحريمه وخدمه.

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه عزل السلطان لؤلؤ الأشرفي عن تقدمة المماليك السلطانية، وأعاد إليها الطواشي مرجاناً المحمودي بمال أخذه من مرجان. وإلّا فأيْش هو الموجب لعزل الرئيس بالوضيع إلّا هذا المعنى؟!.

ثم في يوم الأحد سادس جمادى الأولى عزل السلطان تِمْرَاز الأشرفي عن الدّواداريّة الثانية لأمرٍ اقتضى ذلك. وقد أراح الله الناس منه، لسوء خلقه، وحدَّة مزاجه؛ وقد ذكرنا من أحواله نبذة كبيرة في غير هذا المحل.

وفي يوم الخميس سابع[1] عشر جمادى الأولى المذكورة وصل الأمير جُلُبَّان الأمير آخور نائب الشام إلى القاهرة بعد أن احتفل أربابُ الدّولة به، وطلع إلى ملاقاته كلُّ أحد، حتى المقام[2] الشهابي أحمد. وطلع إلى القلعة ودخل إلى السلطان بالقصر الأبْلَق المطلّ على الرُّمَيْلة بالخرجة، فلما رآه السلطان قام إليه واعتنقه، بعد أن قبّل جُلُبَّان الأرضَ بين يديه، ثم أجلسه السلطان على ميسرته فوق ولده المقام الشهابي أحمد. ولم يطل جلوسه حتى طلب السلطان خِلْعَتَه، وخلع عليه خلعة الاستمرار بنيابة دِمَشْق على عادته في مكان جلوسه بالخرجة المذكورة، ولم يقع ذلك لأحد من النواب، لأن العادة أنه لا يخلع السلطان على مَن يخلع عليه إلّا بالقصر الأبْلَق من داخل الخَرْجَة.

ثم قام السلطان وخرج إلى القصر، ولم يدع جُلُبَّان المذكور أن يقف، بل أمره أن يتوجّه إلى حيث أنزله السلطان، فنزل محمولاً لضعف به ولكبر سنّه أيضاً، ونزل غالب الأمراءِ الأكابر وأُرباب الدولة بين يديه إلى أن أُوصلوه إلى الميدان الكبير بطريق بولاق تجاه بركة الناصري، ومدَّ له مدّة هائلة، وتردّدت الناس إليه نهارَه كلّه. واستمر إلى يوم الأحد عشرينه، فقدّم إلى السلطان تقدمة؛ وكانت

---

(١) في طبعة كاليفورنيا: «سادس عشر». وما أثبتناه عن حوادث الدهور، وهو الصواب لأن أول الشهر كان الثلاثاء.

(٢) هذا اللقب كان يطلق عادة على ابن السلطان. وهو من أرفع الألقاب في العصر المملوكي. ـ راجع فهرس المصطلحات: المقام.

تقدمة هائلة، تشتمل على: عشرة مماليك، ومائتي فرس، منها اثنان بقماش ذهب، والباقي على العادة، وعدّة حمّالين، منها ستّون حمّالاً عليها قسِيّ، كلّ حمّال خمسة أقواس، ومنها مائة وعشرون حمّالاً بعلبكياً، على كل حمّال خمسة أثواب، النصف منها عالٍ موصلي، وستّون حمّالاً عليها أبدان سنجاب، وعشرة حمّالين وشق، وعدّة حمّالين عليها أثواب صوف مُلَوَّنة، وعدّة حمّالين عليها شقق حرير مُلَوّن، وأثواب مُخْمَل تزيد على مائة حمّال، وطبق مغطى فيه ذهب مبلغ عشرة آلاف دينار على ما قيل. فقبل السلطان ذلك، وخلع على أرباب وظائف جُلُبَّان المذكور خِلَعاً سنيّة، وفرّق السلطان من الخيول على أمراء الألوف جميعهم على قدر مراتبهم.

وفي هذا اليوم أيضاً رسم السلطان لنقيب الجيش أن يخَرج الأمير تِمْرَاز الإينالي الأشرفي الدوادار الثاني إلى القُدْس بطّالاً، فنزل وتوجّه به من يومه إلى خانقاه سرياقوس. قلت: [السريع]

ما يفعلُ الأعداءُ في جاهلٍ ما يفعلُ الجاهلُ في نفسه

فإن تِمْراز هذا كان في الدولة الظاهرية - جَقْمَق - من جملة أمراء العشرات، وكان ممّن لا يؤبه إليه، حتى مات الظاهر، وثار مع الملك الأشرف إينال لما وثب على الملك المنصور عثمان مع مَن انضمّ إليه من المماليك الظاهرية والأشرفية وغيرهم. فلما تسلطن الأشرف قرَّب تِمْراز هذا، وجعله دَوَادَاراً ثانياً، وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، وصار له كلمة في الدولة وحُرْمة وافرة، وهابته الناس لشراسة خلقه وحدّة مزاجه، وباشر الدوادارية أقبح مباشرة من الظلم والعسف والإخراق بالناس والبطش بحواشيه وأرباب وظائفه ومماليكه، حتى تجاوز الحدّ، وما كفاه ذلك حتى صار يخاطب السلطان بما يكره. وبقي في كل قليل يغضب ويعزل نفسه، ووقع ذلك غير مرّة. فلما زاد وخرج عن الحدّ عزله السلطان، ولزم داره أيّاماً، ثم خرج إلى القدس بطّالاً.

وفي يوم الاثنين حادي عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على الصاحب

أمين الدين بن الهَيْصَم باستقراره وزيراً على عادته أولاً، بعد عزل فرج بن النَّحال، وكان أحقّ بها وأهلاً لها.

وفي يوم الاثنين هذا أيضاً خلع السلطان على مملوكه صهره الأمير بُرْدبَك الدوادار الثاني باستقراره في الدواداريّة الثانية عوضاً عن تِمْراز الأشرفي المقدّم ذكره.

وفي يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة استقرّ القاضي تاج الدين عبد الله بن المَقْسِي كاتب المماليك السلطانية عوضاً عن الصاحب سعد الدين فرج بن النّحال. قلت: وتاج الدين هذا مستحق لأعظم الوظائف، لما اشتمل عليه من حُسْن الخَلْق والخُلُق.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرين شهر رجب سافر الأمير بُرْدبَك الدوادار الثاني إلى القدس الشريف، وصحبته كسوة مقام سيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام التي صنعها السلطان الملك الأشرف هذا. وخرج بُرْدبك المذكور من القاهرة بتجمّل زائد، ومعه جماعة من الأعيان، مثل القاضي شرف الدين الأنصاري، ناظر الكسوة ووكيل بيت المال، والسيفي شاهين الساقي وغيرهما.

وفي يوم الخميس سادس شعبان وصل إلى القاهرة الأمير بَرْشِباي الإينالي المؤيّدي، أحد أمراء الطبلخانات المتوجّه قبل تاريخه في الرسلية إلى ملك الروم السلطان محمد بن عثمان، وعليه خلعة ابن عثمان المذكور، وهو لابس لبس الأروام وخلعهم على العادة.

وفيه رسم السلطان بتعويق جوامك أولاد الناس[1] والمرتبين من الضعفاء والأيتام على ديوان السلطان. وعرضهم السلطان [في يوم الأحد ثالث عشرينه

---

(١) أولاد الناس: تسمية كانت تطلق على أبناء كبار الأمراء السابقين من المماليك. وكان هؤلاء يتلقّون رواتب شهرية من الديوان السلطاني الذي يسمى الديوان المفرد. ويعتبر المؤلّف من أولاد الناس. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: أولاد الناس.

بالحوش السلطاني][(١)] وقطع [جوامك] جماعة كبيرة. وبينما هو في ذلك وصل الأمير بُرْدبَك من القدس، وحذّر السلطان من الدعاء عليه، ونهاه عن هذه الفَعْلَة فانفعل له، وترك كلّ واحد على حاله، ونودي بذلك بشوارع القاهرة، فعُدَّ من محاسن بُرْدبَك المذكور[(٢)].

وفي يوم السبت حادي عشر ذي القعدة اختفى الوزير أمين الدين بن الهَيْصَم، لعجز متحصِّل الدولة عن القيام بالكُلَف السلطانية، فتغيَّر السلطانُ بسبب ذلك على جماعة [المباشرين][(٣)]. وقبض على الأمير زين الدين الأستادار في يوم الاثنين وحبسه بالقلعة، وخلع على الأمير ناصر الدين محمد بن أبي فرج نقيب الجيش باستقراره في الأستادارية عوضاً عن زين الدين على كرهٍ منه في الوظيفة، مضافاً إلى نقابة الجيش. وخلع على سعد الدين فرج بن النّحال باستقراره وزيراً

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور لبيان السياق الزمني للخبر.

(٢) أورد المؤلّف هذا الخبر بتفصيل أكثر في حوادث الدهور ننقله هنا لما فيه من فوائد تلقي الضوء على أحوال الدولة المالية في ذلك الوقت وتشير إلى ما كان يتلقّاه أولاد الناس والمماليك السلطانية من جامكيات ومرتبات بالإضافة إلى إقطاعاتهم... قال المؤلّف: «ثم طلع بردبك إلى السلطان وعرّفه أن فيما فعله من قطع جوامك أولاد الناس دماراً عليه وعلى مملكته فرجع السلطان إلى كلامه على ما سيأتي ذكره... ولمّا عرض السلطان أولاد الناس في اليوم المذكور وقطع مَن قطع منهم وعظم ذلك على الناس استأنف السلطان من العرض ثانياً، فإنه لم يعرض في ذلك اليوم غير ستّة أطباق، ورسم لزين الدين الأستادار أن يتحدّث في ذلك، وينظر مَن يكون إقطاعه كبيراً يقطع جامكيته، ومَن يكون إقطاعه دون ذلك يبقيه. فحينئذ وصل زين الدين إلى مراده وفتك في الخلق. فلما رأى الوزير [ابن الهيصم] ذلك تحرّك أيضاً وشكا إلى السلطان كثرة الرواتب، فرسم السلطان بقطع مَن يكون له زيادة على زبدية من اللحم الراتب، فقطع شيء كثير. ـ والزبدية عبارة عن رطلين ونصف وربع الرطل، وإن كان صاحب وظيفة يكون له خمسة أرطال لا غير، وكان قبل ذلك يأخذ صاحب الوظيفة ثمانية أرطال، وبعضهم يأخذ عشرة، وهذا الأمر ليس هو بالتخصيص في حق أولاد الناس بل المماليك السلطانية جميعهم قاطبة ـ فعند ذلك كثر هرج الناس وماج العسكر، فتكلّم بردبك مع السلطان في ترك ذلك جميعه وأن يكون كل أحد على حاله فرسم له بذلك» انتهى...

والمؤلّف يستعمل هنا كلمة «الجامكية» بمعنى المرتّب الشهري النقدي، ويستعمل كلمة «الراتب» بمعنى ما يُصرَف شهرياً للمماليك السلطانية ولأولاد الناس من اللحم والعليق وما شابهه.

(٣) زيادة عن حوادث الدهور. والمراد بالمباشرين الموظفون في الدواوين والأعمال، مثل الناظر والمستوفي والشادّ.

على عادته، وهذه ولاية فرج الثانية للوَزَر، وأنعم عليه بكتابة المماليك، وعزل القاضي تاج الدين المَقْسي.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشر ذي القعدة ضرب السلطانُ زَيْنَ الدين الأستادار، وألزمه بجملة كبيرة من المال، فأخذ زين الدين في بيع قماش بدنه وأثاث بيته. ثم أخذه الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص، وتسلّمه من السلطان، ونزل به إلى بيته، فدام عنده أيّاماً. ثم رسم له بالتوجّه إلى داره، وأنه يسافر إلى القدس، فتجهّز زين الدين وخرج إلى القدس في يوم الجمعة ثاني ذي الحجة.

ثم في يوم الاثنين [خامس ذي الحجة][1] خلع السلطان على شخص من الأقباط يُعرف بـ[شمس الدين نصر الله][1] بن النجّار، واستقرّ به ناظر الدّولة بعد شغورها مدّة طويلة، وصار رفيقاً للوزير فرج.

وفي يوم الاثنين سادس عشرين ذي الحجة نزلت المماليك الجُلْبَان الأشرفية من الأطباق، وهجمت دار الأستادار الأمير ناصر الدين محمد بن أبي الفرج، ونهبوا جميع ما كان له في داره من غير أمر أوجب ذلك، فلم يسع الأستادار إلاّ الاستعفاء، فأُعفي بعد أُمور[2].

وخلع السلطان على قاسم الكاشف بالغربية وغيرها بالأستادارية عوضاً عن ابن أبي الفرج المذكور. قلتُ: وهذا أول ظهور أمر مماليك الأشرف الجُلْبَان، وما سيأتي فأعظم.

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) ذكر أبو المحاسن في حوادث الدهور أن قيمة ما نهب من بيت الأستادار المذكور بلغ خمسة وعشرين ألف دينار. قال: «وكان سبب ذلك تعويق الجامكية». قال: «ولّما وقع ذلك شاعت الأخبار وانتشرت في البلاد والقرى، وكثر قطع الطريق وإخافة السُّبُل، كل هذا والسلطان لا يكترث بما وقع ولا يلتفت إلى إصلاح شأنه... وفرغت هذه السنة والأسعار رخيّة، غير أن البلاد غير مطمئنة، والفتن واقعة في البحيرة بين العرب الطائعة والعاصية، والسبل مخافة، وذلك لعدم اكتراث السلطان لذلك ولِلينه».

وفي يوم الأحد ثاني محرّم سنة تسع وخمسين وثمانمائة أُشيع بين الناس وقوعُ فتنة، وكثر كلام الناس في هذا المعنى حتى بلغ السلطان ذلك، فلم يلتفت السلطان لقول مَن قال[١].

وفي يوم الأربعاء رابع عشرين صفر من سنة تسع وخمسين المذكورة وصل مملوك الأمير جَانِبَك التاجي للمؤيّدي نائب غـزَّة يخبر بموت الأمير جُلُبَّان نائب الشام، ثم وصل بعد ذلك سيف جُلُبَّان المذكور على يد يَشْبُك المؤيَّدي الحاجب الثاني.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين صفر رسم السلطان للأمير قاني بَاي الحمزاوي ـ نائب حلب ـ بأن يستقرّ في نيابة الشَّام عِوَضاً عن جُلُبَّان بحكم وفاته، وحَمَلَ إليه التقليدَ والتشريفَ الأمير يونس العلائي الناصري، المعزول قبل تاريخه عن نيابة الإسكندرية.

وخلع السلطان في اليوم المذكور على الأمير جَانم الأشرفي باستقراره في نيابة حلب عوضاً عن قاني بَاي الحمزاوي على كرهٍ من جَانَم المذكور في ذلك. واستقرّ مُسَفِّر جَانَم الأمير بُرْدبَك الدّوادار الثاني وصهر السلطان، مع توجّه بُـرْدبَك أيضاً إلى تَرِكَة[٢] الأمير جُلُبَّان بدمشق.

وأُنعم السلطان بإقطاع جَانَم المذكور على الأمير يونس العلائي المقدّم ذكره، وهو إمْرَة مائة وتَقْدِمَة ألف. وأنعم بإقطاع يونس المذكور على الأمير بُرْدبَك الدوادار، وصار بُرْدبَك أمير طبلخاناه. وأنعم بإقطاع بُرْدبَك المذكور عَلَى أُرْغون شاه وتَنِبَك الأشرفيَيْن، كل واحد منهما أمير خمسة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشرين صفر من سنة تسع وخمسين وثمانمائة المذكورة استقرَّ شمس الدين نصر الله بن النجّار ناظر الدّولة وزيراً عوضاً عن

(١) الذي كان قد أُشيع بين الناس هو أن المماليك الظاهرية (مماليك الظاهر جقمق) يريدون الوثوب على السلطان. (حوادث الدهور).

(٢) المراد أن يتوجّه إلى دمشق لضبط تَرِكَة الأمير جلبان نائب الشام المتوفّى.

سعد الدين فرج بن النحّال بحكم عزله؛ فلم تَـرَ عيني فيما رأيت ممّن لبس خلع الوزارة أقبحَ زيّاً منه، حتى إنـه أذهب رَوْنَق الخلعة مـع حُسْن زِيٍّ خلعة الـوزارة وأُبَّهَة صفتها. ولو مَنّ الله سبحانه وتعالى بأن يبطل اسم الوزير من الديار المصرية في هذا الزمان كما أبطل أشياء كثيرة منها لكان ذلك أجود وأجمل بالدولة، ويصير الذي يلي هذه الوظيفة يسمى ناظر الدولة؛ لأن هذا الاسم[1] عظيم، وقد سُمّي به جماعة كبيـرة من أعيان الـدنيا قـديماً وحـديثاً في سـائر الممـالك والأقـطار، مثل جعفر بن يحيـىٰ بن خالد البرمكي وغيره، إلى الصاحب إسماعيل بن عبّـاد، وهلمّ جرّاً، إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم، ثم بَني حِنَّاء وغيرهم من العلماء والأعيان، إلى أن تنازلت ملوك مصر في أواخـر القرن الثـامن حتى وَلِيَها في أيـامهم أوباشُ الناس وأسافل الكَتَبَة الأقباط، وتغيّر رسومها، وذهب بهم أُبَّهة هذه الوظيفة الجليلة التي لم يكن في الإسـلام بعد الخـلافـة أجـلّ منهـا ولا أعـظم، وصـارت بهؤلاء الأصاغر في الوجود كلا شيء. وليت مع ذلـك كان يلي هـذه الوظيفـة من هؤلاء الأسافل مَن يقوم بما هو بصدده، بل يباشر ذلك بعجزٍ وضعف وظلم وعسف، مع ما يمدُّه السلطان بالأموال من الخزانة الشريفة، فليت شعري لِمَ لا كان ذلـك مع مَن هو أهل للوزارة وغيرها ـ فلا قوة إلّا بالله.

وباشر ابن النجّار الوَزَر أشرّ مباشرة، وأقبح طريقة، ولم تطل أيّامُه، وعجز[2] وبلغ السلطانَ عجزُه. فلما كان يوم الخميس أول شهر ربيع الآخر طلب السلطان الـوزراء الثلاثـة ليختار منهم مَنْ يـوليه (وهم: ابن النجّـار الذي عجـز عن القيام بالكُلَف السلطانية، والصاحب أمين الدين بن الهَيْصَم، وسعد الدين فرج بن النحّال) فوقع فيه واقعة طريفة: وهي أن السلطان لمّا أصبح وجلس على الدكّة من الحوش استدعى أوّلاً ابن النجّار، فقيل له: هرب واختفى، فطلب أمين الدين بن الهَيْصَم، فقيـل له: مـات في هذه الليلة، وإلى الآن لم يُـدفن، فطلب فـرج بن النحّـال، فحضـر، وهو [الـذي] فضل من الثـلاثة، فكلّمـه السلطان أن يستقـرّ وزيـراً على

(١) أي اسم الوزارة.

(٢) المراد أنه عجز عن القيام بالكلف السلطانية، كما جاء في حوادث الدهور.

عادته، فامتنع واعتذر بقلّة مُتَحَصِّل الدّولة، وفي ظنِّـهِ أن السلطان قد احتـاج إليه بموت ابن الهَيْصَم وتَسَحُّب ابن النجّار، وسرع يكرِّر قوله بـأن [غالب بـلاد الوزر خرب وأن](١) لحم المماليك السلطانية المرتّب لهم في كل يوم ثمانيـة عشر ألف رطل، خلا تفرقة الصُّرَر التي تُعطى لبعض المماليك السلطانية وغيرهم، عوضا عن مرتب اللحم. فلما زاد تمنُّعُه أمر به السلطان، فحُطَّ إلى الأرض، وتناولته رؤوس النُّوَب بالضـرب المبـرح إلى أن كـاد يهلك، ثم أُقيم ورسم عليـه بـالقلعـة عنـد الطواشي فَيْروز الزّمام والخازندار إلى أن عملت مصالحة وأُعيد للوَزَر(٢).

وفي يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الآخـر أنعم السلطان على الأمير قَانَم من صَفَر خَجَا المؤيّدي المعـروف بالتّـاجر بـإمرة مـائة وتقـدمة ألف بـالديـار المصرية بعد موت خيربَك الأجْرود المؤيّدي، وأُضيف إقـطاع المذكـور وهو إمْـرَة طبلخاناه إلى الدّولة.

ثم في يـوم الاثنين سلخ جمادى الآخـرة كانت وقعـة المماليـك الـظاهـريـة الجَقْمَقيَّة مع الملك الأشرف إينال. وسبب هذه الفتنة ثورة المماليـك الأجلاب(٣) أوّلاً، وأفعالهم القبيحة بالناس، ثم عقب ذلك أن السلطان كان عيَّن تجـريدة إلى البحيرة، نحـواً من خمسمائـة مملوك، وعليهم من أمراء الألـوف الأميـر خُشْقَـدم المؤيّـدي أميـر سـلاح، والأميـر قَـرْقَمـاس رأس نـوبَـة النُّوب، وعـدّة من أمـراء الطبلخانات والعشرات، ورسم لهم السلطان بالسفر في يوم الاثنين. هذا ولم يُفَرِّق

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) الملاحظ أن وظيفة كلٍّ من الوزير والأستادار وناظر الـدولة في تلك الأيـام أصبحت من الوظـائف التي يتحاشاها الكثيرون على الرغم من أهميتها وخطورتها وكونها أرفع الوظـائف الإدارية أو وظـائف أرباب الأقلام بتعبير ذلك العصر. والسبب في ذلك هو ما آلت إليه أمور الدولة المالية من تدهور، في حين أن النفقات المالية الضخمة للسلطان والمماليك السلطانية كانت مـطلوبة من هؤلاء الثـلاثة، وفي مقـدمتهم الأستادار. وقد كانت نقمة المماليك السلطانية غالباً ما تنصبّ على هؤلاء فيتعرّضـون للنهب والضرب. وزاد الـطين بلّة انفلات المـماليك السلطانيـة وانطلاقهم من غـير رقيب أو حسيب في العبث والتخريب والاعتداء على حرمات الناس وأموالهم، حتى إنهم تجرؤوا على السلطان، كما سيأتي.

(٣) الأجلاب أو الجلبان هم الذين يشتريهم السلطان. والمراد بهم هنا مماليك الأشرف إينال.

السلطان على المماليك المكتوبة[١] للسفر الجِمَال على العادة، فعظم ذلك عليهم، وامتنعوا إلى أن أخذوا الجِمَال.

وسافر الأمير خُشْقَدم في صبيحة يوم الاثنين المذكور، وتبعه الأمير قرقْمَاس في عصر نهاره، وأقاما ببر مُنْبَابَة تجاه بولاق، فلم يتبعهم أحدٌ من المماليك المعيَّنة معهم، بل وقف غالبهم بسوق الخيل تحت القلعة ينتظرون تفرقة الجِمال عليهم، إلى أن انفضّ الموكب السلطاني، ونزلت الأمراء إلى جهة بيوتهم. فلما صار الأمير يونس الدوادار بوسط الرُّمَيْلَة احتاطت به المماليك الأجلاب، وعليه الكَلَفْتاة وقماش الخدمة[٢]، ودَارُوا حوله وهم في كثرة، وأرادوا الكلام معه بسبب زيادة جوامكهم، وأنه يكلِّم السلطان، فتبيّن لمماليك يونس الغدر بأستاذهم، فتحلَّقوا عليه ومنعوهم من الوصول إليه، فصار يونس في حلقة من مماليكه، ومماليكه في حلقة كبيرة من المماليك الأجلاب. وطال الأمر بينهم، ويونس لا يستطيع الخروج. وتحقّق الغدر، فأمر مماليكه بإشهار سيوفهم ففعلت ذلك، ودافعت عنه، وجُرح من المماليك الأجلاب جماعة، وقطع أصابع بعضهم، وشُقّ بطن آخر عَلَى ما قيل. فعند ذلك انفرجت ليُونُس فرجة خرج منها غارةً إلى جهة داره، ونزل بها، ورمى عنه قماش الموكب، ولبس قماش الرُّكوب، وطلع من وقته إلى القلعة من أعلى الكَبْش، ولم يشق الرُّمَيْلة، وأعلم السلطانَ بخبره. فقامت لذلك قيامةُ المماليك الأجلاب، وقالوا: «نحن ضربناهم بالدبابيس فضربونا بالسيوف»، وثاروا على أستاذهم[٣] ثورةً واحدة، وساعدهم جماعة من المماليك القَرَانيص[٤] وغيرهم لما في نفوسهم من السلطان لعدم تفرقة الجِمَال وغيرها، ووقفوا بسوق الخيل وأفحشوا في الكلام في

(١) أي المعينون للسفر.
(٢) أي الزيّ الذي يلبسه في المواكب الرسمية.
(٣) أي السلطان الأشرف إينال.
(٤) المماليك القرانيص: هم مماليك الأمراء والسلاطين السابقين. وهؤلاء كانوا يمتازون بخبرة عسكرية كبيرة، غير أنهم كانوا دائماً محرومين من الإقطاعات والإنعامات السلطانية، فلذلك كانوا دائماً يشاركون في عمليات التمرّد والشغب على السلطة. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: القرانيص.

حقِّ السلطان، وهدّدوه إن لم يسلّم لهم الأمير يونس، والسلطان لا يتكلم إلى أن حرّكه بعضُهُم، فأرسل إليهم بالأمير جَانِبَك الناصري المرتد، والطواشي مُرْجان مقدّم المماليك السلطانية، فسألاهم عن غرضهم، فقالوا بلسان واحد: «نريد غريمنا الأمير يونس»، وخشّنوا في القول. فعاد جَانِبَك بالجواب، فأرسل السلطان إليهم ثانياً بنوكار الزَرَدْكاش، فأعادوا له القول الأول. ثم ساقوا غارَةً إلى بيت يونُس الدَّوَادار، فمنعوهم مماليكه من الدخول إلى دار يونس، فجاؤوا بنار ليحرقوا الباب، فمنعوهم من ذلك أيضاً، فعادوا إلى سوق الخيل، فوافوا المنادي ينادي من قبل السلطان بالأمان، فمالوا على المنادي بالدبابيس، فسكت من وقته، وهرب إلى حال سبيله.

هذا وقد طلعت جميع أمراء الألوف إلى عند السلطان، والسلطان على حالة السكوت، غير أنه طلب بعض مماليكه الأجلاب الأعيان، وكلّمه بأنه يعطي من جُرح من الأجلاب ما يكفيه، وأنه يعطي للذي قُطعت أصابعه إقطاعاً ومائة دينار، فلم يقع الصلح[1]، وانفضَّ الأمر على غير طائل لشدّة حرِّ النهار.

ولمّا تفرّقت المماليك نزلت الأمراء إلى دورهم، ما خلا الأمير يونس الدوادار، فإنه بات في القلعة.

فلما أصبح يوم الثلاثاء أول شهر رجب ضرب السلطان الكرّة مع الأمراء بالحوش السلطاني من القلعة. وفرغ من ذلك، وأراد كلّ أمير أن ينزل إلى داره، فبلغهم أن المماليك الأجلاب وقوف على حالهم الأول بسوق الخيل بغير سلاح كما كانوا في أمسه [فانثنى عزمهم عن النزول وعادوا إلى القلعة][2]. فلما تضحّى النهارُ أرسل إليهم السلطانُ بأربعة أمراء، وهم: الأمير يونُس العلائي أحد مقدّمي

---

(١) عبارة حوادث الدهور أكثر وضوحاً، وهي: «... بأنه يعطي لكل واحد ممّن جرح مائة دينار، ويعطي للذي قطعت أصابعه إقطاع حلقة ومائة دينار أخرى، فرضوا المجروحين [كذا، ومراده: فرضي المجروحون] فنهاهم خشداشيتهم عن الصلح، فلم يقع الصلح، وانفضّ الأمر على غير طائل».

(٢) زيادة عن حوادث الدهور يقتضيها تمام السياق.

الألـوف، وسُودون الإينـالي المؤيّدي قَـرَاقاش رأْس نَـوْبَـة ثـان، ويَلَبـاي الإينـالي المؤيَّدي أحد أمراء الطبلخانات ورأس نَوْبَة، وبُرْدبَك البَجْمَقْدار أحد الطبلخانـات أيضاً ورأس نَوبَة، فنزلـوا إليهم من القلعة؛ فمـا كان إلاّ أن وقـع بصرُ المماليك الأجلاب على هؤلاء الأمراء احتاطوا بهم، وأخذوهم بعد كـلام كثير، ودخلوا بهم إلى بيت الأمير خُشْقَدم أمير سلاح تجاه باب السلسلة، ورسَّمُوا عليهم بعضهم.

كلّ ذلك والمماليك الظاهرية الجقمقية وقوف على بعد، لا يختلطون بهم، لينظروا ما يصير من أمرهم. فلما وقع ما ذكرناه تحقّقوا خـروجهم على أستاذهم، وثار ما عندهم من الكمائن التي كانت كامنة في صدورهم من الملك الأشرف إينال لمـا فعل بـابن أستاذهم الملك المنصـور عثمان، وحبس خُجْـداشيتهم، وتقـريب أعـدائهم الأشرفيـة مماليـك الأشرف بَـرْسبَاي، فـانتهزوا الفـرصة، وانضـافـوا إلى المماليك الأجلاب، وعرّفُوهم أن الأمر لا يتم إلاّ بحضرة الخليفة ولبس السلاح. فساق قاني باي المشطوب أحد المماليك الظاهرية من وقته إلى بيت الخليفة القائم بأمر الله حمزة، وكان في الخليفة المذكور خفّة وطيش، فمال إليهم، ظنّاً أنه يكون مع هؤلاء وينتصر أحدهم ويتسلطن، فيستفحل أمرُه ثانياً أعظم من الأوّل. وسببه أنه كان لما ولّاه الظاهر جَقْمَق الخلافة بعد أخيه المستكفي بالله سليمان صـار تحت أوامر الظاهر، لأنه هو الذي استخاره[1] وولّاه الخلافة. فلما ثار إينال على المنصور عثمان وطلبه وجاء إلى عنده، قـوي أمر إينال بمجيء الخليفة عنـده. فلما تسلطن عـرف إينال لـه ذلك، ورفـع محلّه أضعاف مـا كان أوّلاً، وزاده عـدّة إقطاعـات، وصارت له حُرْمَـة وافرة في الدولة إلى الغاية. فلما كانت هذه الفتنة ظنّ في نفسه أنه يوافقهم، فإذا تسلطن أحد منهم رفع محلّه زيادة على مـا فعل إينـال، ويصير الأمر كلُّه بيده، وما يدري بأن لسان الحال يقول له: [الرجز]

خـيـرُ الأمـور الـوسط   حُـبُّ الـتـنـاهـي غَـلَط
مـا طـار طيـرٌ وارتـفـع   إلاّ كـمـا طـار وقـع

(١) كذا! والمراد: اختاره.

ولمّا حضر الخليفة عندهم، تكامل لبسهم السلاح، وانضافت إليهم خلائق من المماليك السيفية، وأوباش الأشرفية، وغيرهم من الجياع الحرافيش. فلما رأت الأجلاب أمر الظاهريّة، حسبوا العواقب، وخافوا زوال مُلْك أُستاذهم، فتخلّوا عن الظاهريّة قليلاً بقليل، وتوجّه كل واحد إلى حال سبيله، فقامت الظاهرية بالأمر وحدهم؛ وما عسى يكون قيامهم من غير مساعدة، وقد تخلّى عنهم جماعة من أعيانهم وخافوا عاقبة هذه الفتنة؟!.

هذا وقد تعبأ السلطانُ لحربهم، ونزل من القلعة إلى باب السّلسلة من الإسطبل السلطاني. وتناوش القومُ بالسِّهام، وأرادوا المصافقة، فتكاثر عليهم السلطانية، وصدموهم صدمةً واحدةً بدّدوا شملهم، بل كانوا تشتّتوا قبل الصدمة أيضاً. وهجموا السلطانية في الحال إلى بيت الأمير خُشقدم أمير سلاح، وأخذوا الأمراء المرسَّم عليهم، وأخذوا فيمن أخذوا الخليفة معهم، وطلعوا بهم إلى السلطان.

فلما رأى السلطان الخليفة وبّخه بالكلام الخشن، وأمر بحبسه بالبحرة من قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة بأخيه يوسف في يوم الخميس ثالث شهر رجب المذكور. ثم سُفِّر الخليفة القائم بأمر الله المذكور في يوم الاثنين سابع رجب إلى سجن الإسكندرية فسجن بها مدة سنين، ثم أطلق من السجن، وسكن بالإسكندرية إلى أن مات بها في أواخر سنة اثنتين وستّين وثمانمائة.

ولما بلغ الأمير خُشْقَدَم أمر هذه الفتنة عاد من برّ منبابة، وطلع إلى القلعة، ومعه رفيقه قَرْقَماس رأس نوبة النوب في يوم الأربعاء، وحضرا الموكب في باكر يوم الخميس، ثم عادا إلى برّ منبابة بمخيّمهما. ثم فرّق السلطان الجمال على المماليك السلطانيَّة، وسافروا صحبة الأميرين المذكورين[1] إلى ما عُيِّنوا إليه.

وتفرّقت من يوم ذاك أجلاب السلطان فرقتين: فرقة وهم الذين اشتراهم من كتابية الظاهر جَقْمَق وابنه، وفرقة اشتراهم هو في أيام سلطنته. وقويت الفرقة

(١) أي خشقدم وقرقماس.

الذين اشتراهم على الفرقة الظاهرية، ومنعوهم من الطلوع إلى القلعة، والسكنى بالأطباق، وقالوا ما معناه: «إنكم سوَّدتم وجوهنا عند أستاذنا». وأظن ذلك كلّه زوراً وبهتاناً، مع أن الأشرف كان هو لا يقطع فيهم قربته بهذا ولا بغيره، وهو مستمر على محبتهم كما كان أولاً، فلعمري إذا كان هذا فعلهم به وهو راضٍ، فما عساه يُرجِعهم عن ظلم غيره؟! فهذا مستحيل.

ولما انتهت الوقعة وخلع السلطانُ الخليفةَ، أمسك جماعةً من المماليك الظاهرية وحبسهم بالبُرْج من قلعة الجبل، ونفى بعضَهم واختفى بعضُهم، وأخرج قوزي السّاقي الظاهري ـ وكان تأمّر عشرة ـ ومعه عشرين مملوكاً من المماليك الظاهرية إلى البلاد الشامية، مع أن قُوزِي المذكور لا في العير ولا في النّفير. وسافروا في يوم الجمعة تاسع شهر شعبان، وسكن الأمر كأنه لم يكن، لحُسن سياسة السلطان في تسكين أخلاط الفتن ـ انتهى.

وفي يوم الأربعاء حادي عشرين شعبان ورد الخبر على السلطان بمسك الأمير يَشْبُك النَّوْرُوزِي نائب طَرَابُلُس بأمر السلطان؛ لأن السلطان كان قبل تاريخه أرسل إينال الجُلُبّاني القُجَقي الخاصكي إلى طرابلس، وعلى يده ملطَّفات[1] في الباطن، بمسك يَشْبُك المذكور وحبسه بالمرقب. وتولى عوضه نيابة طرابُلُس الأمير حاج إينال اليَشْبُكي نائب حماة، وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير يشبك الفقيه المؤيدي، واستقر في نيابة حماة عوضه الأمير إياسُ المحمدي الناصري نائب صَفَد، وحمل إليه التقليد والتشريف الأميرُ قانْصُوَه المحمدي الأشرفي، واستقر في نيابة صفد عوضاً عن إياس الأمير جانِبَك التاجي المؤيدي نائب غزة، وحمل إليه التقليد تَمُرباي من حمزة المعروف بطَطَر الناصري، واستقر في نيابة غزة عوضاً عن جَانِبَك التاجي خيربك النوروزي أحد أمراء صَفَد، ومُسَفِّرُه سنقر قرق شبق الأشرفي الخاصكي.

---

(١) الملطفات: نوع من الرسائل يبعث بها السلطان إلى الأمراء تتضمن المديح والوعود تمهيداً لأمر ينويه السلطان. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: الملطفات. ـ والمراد هنا أن السلطان أرسل بتلك الملطفات إلى الأمراء بطرابلس يعدهم فيها ويحثّهم على مسك يشبك المذكور.

ثم رسم السلطان أيضاً بنقل الأمير آقْبَرْدِي الساقي الظاهري من أتابَكية حَلَب إلى نيابة مَلَطْيَة، بعد عزل قاني باي الناصري، واستقر في أتابكية حلب عوضاً عن آقبردي سُودون من سيدي بك الناصري القرماني أتابك طرابلس، وصار مُغُلْباي البجاسي أحد أمراء طرابُلُس وحاجب حجّابها أتابك طرابلس عوضاً عن سُودون القَرَماني المذكور. ووَلِيَ حجوبية طرابُلُس يَشْبُك دوادار قاني بَاي البهلوان ـ وهو رجل من الأوباش، لم تسبق له رئاسة ـ بالبذل، انتقل إليها من نيابة المَرْقَب. ثم أخرج السلطانُ سَنْطَباي الظاهري رأس نَوبَة الجَمَدارِيَّة ـ كان ـ منفيّاً إلى طرابلس في أوائل شهر رمضان.

ثم في يوم الأحد عاشر شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان من مكة بموت الشريف بركات بن حسن بن عَجْلان أمير مكة، فأقرَّ السلطانُ ولدَه الشريف محمداً في إمرة مكة عوضه، بسفارة الأمير جَانِبَك الظاهري نائب جدَّة بمكاتبته. ثم وصل نائب جدَّة بعد ذلك إلى القاهرة، وتمّ أمر ولاية محمد بقدومه بخمسين ألف دينار، يحمل منها عاجلاً عشرين ألف دينار، وما بقي آجلاً على نفذات متفرقة ـ هكذا حكى لي الأمير جَانِبَك من لفظه. هذا غير ما يدفعه الشريف محمد المذكور لأرباب الدّولة بالدّيار المصرية ولولد السلطان وزوجته؛ فإن زوجة السلطان وولده صار لهما نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة[1].

ثم رسم السلطانُ أيضاً بعزل أبي السعادات[2] قاضي مكّة، وولاية الإمام محبّ الدين الطبري[3] إمام مقام إبراهيم عليه السلام بغير سَعْي[4]. ورسم أيضاً

(١) في ذلك الوقت كان شراء الوظائف والولايات بالمال قد أصبح الحالة السائدة والقاعدة المتّبعة. ـ راجع أيضاً ص ٥٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) هو أبو السعادات جلال الدين محمد بن ظهيرة المتوفى سنة ٨٦١ هـ. ـ ترجمته في الضوء اللامع: ٢١٤/٩ ـ ٢١٦.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، المحبّ الطبري الإمام. توفي سنة ٨٩٤ هـ. ـ ترجمته في الضوء اللامع؛ ١٩١/٩ ـ ١٩٤.

(٤) هذا الاستثناء يؤكد القاعدة التي أشرنا إليها في الحاشية (١) أعلاه.

باستقرار الشيخ برهان الدين إبراهيم[١] ابن ظَهيرة في نظر حرم مكّة، بعد عزل الشيخ طوغان[٢] الأشرفي عنها، وخرج إليهما الأمْرُ صحبة الحاج في الموسم.

وكان أمير حاج المحمل في هذه السنة الأمير بُرْدبك البَجْمَقْدار الظاهري، أحد أمراء الطبلخانات ورأس نَوْبَة، وأمير الرّكب الأول الناصري محمد ابن الأمير جَرِباش المحمدي الأمير آخور الكبير، وصحبته والدته خوَنْد شقراء بنت الناصر فرج بن بَرْقُوق. وسافر أيضاً في هذه السنة إلى الحجاز الأمير بِيبَرْس الأشرفي ـ خال العزيز يوسف ـ باشاً[٣] للمماليك السلطانية المجاورين بمكة المشرّفة.

وفي أوائل ذي القعدة رسم السلطانُ بهدم[٤] تربته التي كان أنشأها أيّام إمرته وإعادتها مدرسة، وخلع على الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الجيش والخاص بالنظر على عمارتها.

وفي عشر ذي الحجة ـ وهو يوم عيد الأضحى ـ صلّى السلطان صلاة العيد بالجامع الناصري بقلعة الجبل، ثم خرج من الجامع بسرعة، وذهب إلى الحوش السلطاني، ونحر ضحاياه به. وكان العادة أن السلطان إذا خرج من صلاة العيد جلس بالإيوان ومعه الأمراء وذبح له، ثم يتوجّه من الإيوان إلى باب الستارة وينحر به أيضاً ويفرّق ما يذبحه، ثم بعد ذلك يتوجّه إلى الحوش ويذبح به، فلم يفعل السلطان شيئاً من ذلك، خوفاً من مماليكه الأجْلاب، فإنهم رجموه في العام الماضي وأخرقوا به وبأمرائه غاية الإخراق، ورجموه وهجموا عليه حيث كان ينحر الضحايا، حتى إنه قام من مقامه فَزِعاً بعد أن أصاب جماعةً من الأعيان الرجمُ.

وفرغت هذه السنة وقد قوي أمر المماليك الأجْلاب.

---

(١) توفي سنة ٨٩١ هـ. ـ وترجمته في الضوء اللامع: ١٠/٨٨.
(٢) توفي سنة ٨٨١ هـ. ـ وترجمته في الضوء اللامع: ٤/١٠.
(٣) أي مقدماً للمماليك السلطانية، وكان يسمى: باش المحمل.
(٤) في حوادث الدهور: «... بهدم الإيوان القبلي من تربته التي بناها بالصحراء في أيام إمرته خارج باب النصر بالقرب من تربة كوكاي، وأن تعمر مدرسة بأربعة أواوين ويجعلها خانقاه».

واستهلّت سنة ستّين وثمانمائة.

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرّم نزلت المماليك الأجْلاب من الأطباق، وقصدوا بيت الوزير فرج بن النحال لينْهبوا ما فيه؛ وكأنه أحسَّ بذلك وشال ما كان في بيته، فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه ما يأخذونه، فمالوا على مَن هـو ساكن بجوار بيت فرج المذكور فنهبوهم بحيث إنهم أخذوا غالب متاع الناس، ولا قوة إلاّ بالله.

وفي يوم الأربعاء حادي عشرين المحرّم ورد الخبر على السلطان بموت الأمير آقْبَرْدي الساقي نائب مَلَطْيَة بها، فرسم السلطان لجَانِبَك الجَكَمي المعزول عن نيابة مَلَطْية قبل ذلك بنيابة مَلَطْيَة على عادته أولاً، ورسم بان يستقرَّ في نيابة طَـرَسُوس عوضاً عن جَانِبَك الجَكَمي آقْبَاي السيفي جَارقُطْلو، وكان آقْبَـاي أيضاً وَلِيَ نيـابة طَرَسُوس قبل ذلك.

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر صفر من سنة ستّين المذكورة أخرق المماليـك الأجْلاب بعظيم الدولة الصـاحب جمال الـدين ناظـر الجيش والخاصّ بغيـر سبب أوجب ذلك، وشقَّ ذلك على كل أحد، ولم تنتطح في ذلك شاتان.

وفي يوم السبت ثامن عشر جمادى الأولى من سنة ستّين أيضاً وصل قاصـد السلطان محمد بن مراد بك بن عثمان متملِّك بلاد الرّوم، وهو جمال الدين عبد الله القـابوني، وطلع إلى السلطان في يـوم الثلاثـاء وعلى يده كتـاب مُرْسِلِه، يتضمن البشـارة بفتح قُسْطَنْطِينِيّـة[1]، والكتاب نـظم ونثر، وقفتُ عليـه وعلى جوابـه من السلطان من إنشاء القاضي معين الدين عبد اللطيف ابن العجمي نائب كاتب السِّرِّ، وأثبتُّ الكتاب الوارد والجواب كليهما في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» إذ هو محل ضبط هذه الأشياء.

وفي يـوم الخميس خامس عشـر جمادى الآخـرة من السنة أمسـك السلطان

(١) الواقع أن هذا الكتاب لا يتضمن البشارة بفتح القسطنطينية، وإنما يتضمن البشـارة بفتح مملكـة اللُّان وبعض القلاع. ونصّ الكتابين في حوادث الدهور: ٥٧٤ ـ ٥٨٤.

الأمير زين الدين الأستادار، ووضع في عنقه الجَنْزير، وحطّه إلى الأرض ليضربه، ثم رُفع من عَلَى الأرض بغير ضرب، وحُبس عند الطواشي فَيْروز الزِّمام والخازندار، واستقرَّ عوضه في الأستادارية سعد الدين فرج بن النحّال الوزير، واستقرّ عليّ بن الأهْناسي البُرْددَار وَزيراً عوضاً عن فرج المذكور. فلما سمعت المماليك الأجْلاب بهذا العزل والولاية نزلوا من وقتهم غارةً إلى بيت الأستادار لينهبوه، فمنعهم مماليك زين الدين، وقاتلوهم وأغلقوا الدروب. فلما عجزوا عن نهب بيت زين الدين نهبوا بيوت الناس من عند بيت زين الدين إلى قنطرة أمير حسين، فأخذوا ما لا يدخل تحت حصر كثرةً. واستمروا في النهب من باكر النّهار إلى قريب العصر، وفعلوا بالمسلمين أفعالاً لا تفعلها الكَفَرَة ولا الخوارج مبالغة، وهذا أعظم مما كان وَقع منهم من نهب جوار بيت الوزير فرج، فكانت هذه الحادثة من أقبح الحوادث الشنيعة التي لم نسمع بأقبح منها في سالف الأعصار.

ومن ثم دخل في قلوب الناس من المماليك الأجْلاب من الرجيف والرّعب أمر لا مزيد عليه، لعلمهم أنه مهما فعلوا جاز لهم، وأن السلطان لا يقوم بناصر من قُهر منهم.

ووقعت حادثة عجيبة مضحكة، وهي أنه لما عظم رجيف الناس والعامّة من هذه المماليك الأجلاب اتفق أن جهاز بنت الناصري محمد بن الثَّلاّج الأمير آخور خرج من بيت أبيها إلى بيت زوْجها الأمير جَانِبَك قَرا الأشرفي، وحُمل ذلك عَلَى رؤوس الحمّالين والبِغال كما هي عادة المصريين، وسَارت الحمّالون بالمتاع، فوقع مِن عَلَى رأس بعضهم قطعة نحاس، فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد، فحنق الجندي من فرسه وضَربه، ثم ساقه، فلم تشُكّ العامّة أن المماليك نزلوا إلى نهب حوانيت القاهرة، فأُغلقت القاهرة في الحال، وماجت الناس، وتعطلت المعايش، وحصل عَلَى الرعيّة من الانزعاج أمر كبير من غير موجب ـ انتهى.

وفي هذه الأيام كان الفراغ من مدرسة السلطان التي هدمها[1] وبناها

(١) المراد أنه هدم جزءاً من تربته بالصحراء وابتنى مكانها مدرسة. ـ راجع ص ٧١ والحاشية (٤) من نفس الصفحة.

بالصحراء، وقرىء بها خَتْمةٌ شريفة، وحضرت الأعيان من الأمراء وغيرهم ما خلا السلطان.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر رجب من سنة ستّين المذكورة أفرج السلطان عن زين الدين [يحيىٰ] الأستادار، ورسم له بأن ينزل إلى بيت الصّاحب جمال الدين ليحمل ما تقرّر عليه إلى الخزانة الشريفة ـ وهو مبلغ عشرة آلاف دينار ـ ثم يُنفى بعد تغليقه المال إلى حيث يأمر به السلطان. ولما غلّق ما أُلْزِمَ به من المال، سافر من يوم الاثنين أول شعبان إلى المدينة الشريفة من عَلَى طريق الطُّور.

ثم سافر قاصد ابن عثمان إلى جهة مُرْسِله في يوم الجمعة خامس شعبان، وتبعه قاصد السلطان إلى ابن عثمان المذكور، وهو السّيفي قاني بَاي اليوسفي المِهْمَنْدَار.

وفيه ورد الخبر على السلطان بأن السلطان إبراهيم بن قَـرَمان صاحب لارِنْدَة[1] وغيرها من بلاد الرّوم طرق معاملة السلطان، واستولى على مدينة طَرَسُوس وأُذنه[2] وكولَك[3]، فغضب السلطان من ذلك، وأمر بخروج تجريدة من الدّيار المصريّة لقتال ابن قَرَمان المذكور، وعيَّن جماعة من الأمراء والمماليك، يأتي ذكرهم عند سفرهم من القاهرة.

وفي يوم الأربعاء ثالث عشرين شهر رمضان نُودِيَ بالقاهرة من قِبَل السلطان بعدم تعرّض المماليك الأَجْلاب إلى الناس والباعة والتجّار، فكانت هذه المناداة كضرب رباب أو كطنين ذُبَاب. واستمرّوا على ما هم عليه من أخذ أموال الناس والظلم والعنف حتى غلَت الأسعار في سائر الأشياء من المأكول والملبوس والغِلال والعلوفات، وصاروا يخرجون إلى ظواهر القاهرة، ويأخذون ما يجدون من الشَّعير

---

(١) لارندة: قاعدة إمارة قرمان من بلاد الروم، وإلى جنوبها مدينة أرمناك. (بلدان الخلافة الشرقية).

(٢) أذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة. (معجم البلدان).

(٣) كولك: قلعة في الشمال من طرسوس. (صبح الأعشى: ٤/١٣٥).

والتِّبن والدّريس بأبخس الأثمان، إن أعطوا ثمناً، وإن شاؤوا أخذوه بلا ثمن، وكلُّ مَن وقع له ذلك معهم لم يعد ثانياً إلى بيع ذلك الصنف إلّا أن يكون محتاجاً لبيعه، فعزَّت لذلك هذه الأصناف بحيث إنها صارت أقلّ وجوداً من أيَّام الغلاء، فصار هذا هو الغلاء بعينه، وزيادة على الغلاء عدم الشيء. ثم شرعوا في نهب حواصل البطيخ الصيفي وغيره. ثم تزايد أمرُهم، وشرعوا يفعلون ذلك مع تجّار القماش وغيره، فغَلَت جميع الأسعار مع كثرتها عند أربابها، فضرَّ ذلك بحال الناس قاطبة، رئيسها وخسيسها، وهذا أول أمرهم، وما سيأتي فأهول.

وفي يوم الاثنين تاسع عشر شوّال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من بركة الحاج، وهو الأمير قانم من صفر خَجَا أحد مقدّمي الألوف، وسار إلى البركة دفعة واحدة، فكان عادة أمراء المحمل النزول بالمحمل إلى الريدانية، فبطل ذلك، وصاروا يتوجّهون إلى البركة في مسير واحد، وأمير الرّكب الأوّل عبد العزيز بن محمد الصغير أحد الأجناد.

وفي هذه الأيَّام كانت عافية الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص من مرض أشرف فيه على الموت، وطلع إلى القلعة، وخلع السلطان عليه ونزل إلى داره في يوم مشهود لم يُرَ مثله إلّا نادراً.

وفي يوم الخميس سابع عشرين ذي القعدة استقرَّ الأمير سُودون النوروزي السلاح دار أحد أمراء الطبلخانات في نيابة قلعة الجبل بعد موت قاني بَاي الأعمش النّاصري، وأنعم السلطان بإقطاع قاني باي المذكور على ولده الصغير المقام الناصري محمد، والإقطاع إمرة عشرة.

واستهلّت سنة إحدى وستّين وثمانمائة يوم الاثنين الموافق لثالث كيهك أحد شهور القبط.

فلما كان يوم السبت سادس المحرّم ضرب السلطان والي القاهرة خيربك القصروي، وعزله عن ولاية القاهرة، وحبسه بالبرج على حمل عشرة آلاف دينار، فَدَامَ في البرج إلى أن أُطلق في يوم عاشره، واستقر عوضه في ولاية القاهرة

علي بن إسكندر، واستقرّ في نقابة الجيش الأمير ناصر الدين بن أبي الفرج ـ على عادته أوّلاً ـ عوضاً عن علي بن إسكندر المذكور.

وفي يوم السبت هذا نودي أيضاً على الذَّهب بأن يكون صرف الدّينار الذي هو وزن درهم وقيراطين ثلاثمائة درهم نقرة[1]، وكان بلغ صرفه قبل ذلك إلى ثلاثمائة وسبعين نقرة؛ وأضرّ ذلك بحال الناس زيادة على ما هم فيه من أَمْرِ المماليك الأجلاب.

وفي يوم الاثنين خامس عشر المحرّم المذكور ورد الخبر على السلطان بموت يشبك حاجب حجَّاب طرابُلُس، فرسم باستقرار شادْبك الصارمي عوضه في حجوبية الحجّاب؛ والمتوفى والمولى كلاهما ولي بالبذْل.

وفي يوم الخميس ثالث صفر ثارت المماليك الأجْلاب على السلطان، وأفحشوا في أمره إلى الغاية. وخبر ذلك أن السلطان لمّا كان في يوم الخميس المذكور وهو جالس بقاعة الدهيشة، وكانت الخدمة بطَّالة في هذا اليوم، وذلك قبل أن يصلّي السلطان الصبح، وإذا بصياح المماليك، فأرسل السلطان يسأل عن الخبر، فقيل له إن المماليك أمسكوا نُوكَار الزَّرَدْكاش وهدّدوه بالضرب، وطلبوا منه القَرْقَلات[2] التي وعدهم السلطان بها من الزَّرَدْخاناه السلطانية، فحلف لهم أنه يدفع لهم ذلك في أوّل الشّهر، فتركوه ومضوا، فلقوا الشيخ عليّاً الخراساني الطويل محتسب القاهرة، وهو داخل إلى السلطان، فاستقبلوه بالضّرب المبرح المتلف، وأخذوا عمامته من على رأسه، فرمى بنفسه إلى باب الحريم السلطاني حتى نجا.

وأما السلطان لمّا فَرَغ من صلاة الصُّبح نزَل وقعد على الدّكة بالحوش على العادة، ثم قام بعد فراغ الخدمة وعاد إلى الدّهيشة، وإذا بالصِّيَاح قد قوي ثانياً، فعلم أن ذلك صياح الأَجْلاب، فأرسل إليهم الأمير يُونُس الدَّوادار، فسألهم يونس

(١) الدراهم النقرة هي الدراهم التي كانت تغلب فيها نسبة الفضة على نسبة النحاس، بعكس الدراهم التي كانت تسمى السوداء.

(٢) نوع من الدروع.

المذكور عن سبب هذه الحَرَكَةِ، فقالوا: «نريد نقبض جَوَامِكَنا، كل واحد سبعة أشرفيَّة ذهباً [في كل شهر][1]». وكانت جَامَكِيَّة الواحد منهم ألفين قبل تاريخه يأخذها ذهباً وفضةً، بسعر الذهب تلك الأيام، فلما غلا سعر الذهب تَحَيَّلُوا على زيادة جوامكهم بهذه المندوحة، ثم قالوا: «ونريد أن تكون تفرقة الجامكية في ثلاثة أيام، أي على ثلاث نفقات كما كانت قديماً، ونريد أيضاً أن يكون عليقنا السلطاني الذي نأخذه من الشُونة مُغَرْبَلاً، ويكون مرتبنا من اللحم سميناً» فعاد الأمير يُونُس إلى السلطان بهذا الجواب، ولم يَتَفَوَّه به إلى السلطان، وتربَّص عن رَدِّ الجواب على السلطان حتى يفرغ السلطان من أكل السّماط، فأبطأ الخبر لذلك عن الأجلاب، فندبوا مَرْجاناً مقدّم المماليك للدخول بتلك المقالة إلى السلطان، فدخل مَرْجان أيضاً ولم يخبر السلطان بشيء حتى فرغ من أكل السّماط، فعند ذلك عرَّفه الأمير يُونُس بما طلبوه، فقال السلطان: «لا سبيل إلى ذلك»، وأرسل إليهم مَرْجَاناً المقدّم يعرّفهم مقالةَ السلطان، فعاد مَرْجَان ثانياً إلى السلطان بالكلام الأوّل. وصار يتردَّدُ مَرْجَان بين السّلطان والمماليك الأجلاب نحو سبعة مرار، وهم مصمّمون على مقالتهم، والسّلطان ممتنعٌ من ذلك.

وامتنع الناسُ من الدّخول والخروج إلى السلطان خوفاً من المماليك لما فعلوه مع العجمي المحتسب. فلما طال الأمر على السّلطان خرج هو إليهم بنفسه، ومعه جماعةٌ من الأمراء والمباشرين، وتوجَّه إلى باب القُلَّة حيث يجلس مقدّم المماليك والخُدَّام، فوجد المماليك قد اجتمعوا عند رحبة باب طبقة المقدّم؛ فلما علموا بمجيء السلطان أخذوا في الرجم، فجلس السلطان بباب القُلَّة مقدار نصف درجة، ثم استدرك أَمْرَه لمَّا رأى شدَّة الرَّجْم، وقصدَ العوْد إلى الدّهيشة، ورسم لمَن معه من الأمراء أن ينزلوا إلى دورهم، فامتنعوا إلاّ أن يُوَصِّلُوه إلى باب الحريم، فعاد عليهم الأمر فنزلوا من وقتهم، وبَقِيَ السلطانُ في خواصّه وجماعة المباشرين وولده الكبير المقام الشهابي أحمد.

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

فلما سار السلطان إلى نحو باب الستارة، ووصل إلى باب الجامع أخذه الرَّجْمُ المُفْرِطُ من كلّ جهة، فأسرع في مشيته والرّجم يأتيه من كل جانب، وسقط الخاصكي الذي كان حامل تُرْس السلطان من الرّجم، فأخذ التُّرْس خاصكيّ آخر فَضُرِب الآخر فوقع وقام، وشُجَّ دوادارُ ابن السلطان في وجهه وجماعة كثيرة، وسقطت فردة نعل السلطان من رجله فلم يلتفت إليها لأنه محمول من تحت إبطيه مع سرعة مشيهم إلى أن وصل إلى باب الستارة، وجلس على الباب قليلاً، فقصدوه أيضاً بالرّجم، فقام ودَخَل من باب الحريم وتوجّه إلى الدّهيشة.

واستمرّ وقوف المماليك على ما هم عليه إلى أذان المغرب. فبعد صلاة المغرب نزل الصاحبُ جمالُ الدين ناظرُ الجيش والخاص من باب الحريم إلى القصر، وتوصل منه إلى الإسطبل السلطاني، وخرج من باب السّلسلة، وتوجَّه إلى داره، ونزل الأمير بُرْدبَك الدّوادار الثاني وصهر السلطان من الميدان ماشياً، فوجد فَرَسه تحت القلعة، فركبه وتوجّه إلى داره، وكذلك فعل جَانِبَك المشدّ، وجَانِبَك الخازندار وغيرهم. وبات القوم وهم على وجل، والمماليك يُكْثِرُون من الوعيد في يوم السبت؛ فإنهم زعموا أن لا يتحركوا بحركة في يوم الجمعة مراعاة لصلاة الجمعة.

وأصبح السلطان وصلّى الجمعة مع الأمراء على العادة، فتكلّم بعض الأمراء مع السلطان في أمرهم بما معناه أنه لا بدّ لهم من شيء يطيِّب خواطرهم به؛ ووقع الاتفاق بينهم وبين السلطان على زيادة كسوتهم التي يأخذونها في السّنة مرَّة واحدة، وكانت قبل ذلك ألفيْن، فجعلوها يوم ذاك ثلاثة آلاف [درهم]، وزادوهم أيضاً في الأضحية، فجعلوا لكل واحد ثلاثة من الغنم الضأن، فزيدوا رأساً واحداً على ما كانوا يأخذونه قبل ذلك. ثم رسم لهم أن تكون تفرقة الجامَكِيّة على ثلاث نفقات في ثلاثة أيام من أيام المواكب، فرضوا بذلك وخمدت الفتنة. وقد انتفعت جميع المماليك السلطانية بهذه الزيادات؛ فإنها ليست بمختصّة بالأجلاب فقط، وإنما هي لجميع مماليك السلطان كائناً مَن كان، فحمدت المماليك والناس جميعاً فعلهم لما جرّ إليهم من المنفعة.

قلتُ: هذا هو الاحتمال الذي يؤدّي إلى قلّة المروءة، فإنه لو أراد لفعل بهم ما شاء، غير أنه كما ورد: «حُبُّك للمرء يُعمي ويصمّ» انتهى.

وفي هذه الأيام ترادفت الأخبار من الأمير جانم الأشرفي نائب حلب بحركة ابن قرمان[١]، فلهج السلطان بخروج تجريدة لقتاله بعد انفصال فصل الشتاء.

ثم في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأوّل أبطل السلطان الخدمة من القصر، وجلس بالحوش السلطاني، وجمع القضاة والأعيان وناظر دار الضَّرب، وسُبكت الفضة المضروبة في كل دولة[٢]؛ وقد حرّرنا وزن ضرب كلّ دولة وما نقص منها في تاريخنا «حوادث الدهور» ـ انتهى.

وانفضّ الجمع وقد نُودِيَ في يومه بشوارع القاهرة بأن أحداً لا يتعامل بالفضّة المضروبة بدِمَشْق في هذه الدَّولة، فشقَّ ذلك على الناس قاطبة، لكثرة معاملاتهم بهذه الفضة التي داخلها الغشّ، ولهجت العامّة في الحال فيما بينهم: «السلطان من عكسه أبطل نصفه» و«إذا كان نصفك إينالي لا تقف على دكاني» وأشياء من هذه المهملات التي لا وزن [لها] ولا قافية، وانطلقت الألسن بالوقيعة في السلطان.

هذا والصاحب جمال الدين عظيم الدَّولة بلّغ السلطان من الغَد أنّ المماليك

---

(١) هو تاج الدين إبراهيم بن محمد الثاني، السلطان الحادي عشر في سلسلة أمراء بني قرامان التي حكمت على لارندا وسيواس وقونية وقرمان وأرمناك وغيرها من بلدان آسيا الصغرى. وهذه الأسرة حكمت من سنة ٦٥٤ هـ إلى سنة ٨٨٨ هـ حيث انتقلت تلك المنطقة إلى السيادة العثمانية. وابن قرمان المذكور حكم من سنة ٨٢٧ هـ إلى سنة ٨٦٧ هـ. (معجم زامباور: ٢٣٦ ـ ٢٣٨).

(٢) المراد أن السلطان أمر بجمع الدراهم الفضيّة الموضوعة في التداول والمضروبة في أيام مَن سبقه من السلاطين، على أن يُعاد سبكها وضربها بسكّة جديدة. ومثل هذا الإجراء حدث مراراً عديدة أيام السلاطين السابقين، وذلك لأسباب مختلفة لعلّ أهمها: أن تكون الدراهم الفضيّة ـ أو الدنانير الذهبية ـ المتداولة قد أصاب الكثير منها النقصان في العيار بسبب التداول أو الغش، أو أن تكون لدى السلطان رغبة في إبطال السكّة القديمة واعتماد سكّة خاصة به، أو أن تكون لدى السلطان رغبة في الكسب المادّي بحيث يجمع العملات المتداولة بأثمان منخفضة ثم يُعيد سبكها وضربها وطرحها في التداول.

تريد إثارةَ فِتْنَةٍ أخرى بسبب ذلك، فخشي السلطان من مساعدة العَوَامّ لهم، فأبطل ما كان نُودِي به.

قلتُ: والمصلحة ما كان فعله السلطان، غير أنك تعلم أن السّواد الأعظم من العامّة ليس لهم ذوق ولا خبرة بعواقب الأمور؛ فإنهم احتاجوا بعد ذلك إلى أن سألوا في إبطال ذلك، فلم يسمح لهم السلطان به إلّا بعد أمور وأشهر، حسبما يأتي ذكرُه، وهو معذورٌ في ذلك.

وفي يوم الخميس خامس عشر شهر ربيع الأوّل المذكور من سنة إحدى وستين عمل السلطانُ المَوْلِد النبويّ بالحوش من قلعة الجبل على العادة في كل سنة، غير أنه فرّق الشُّقَق الحرير على القُرّاء والمُدَّاح، كل شُقَّة طولها خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع ونصف، ولم يفرّق على أحد شقة كاملة إلّا نادراً.

قلتُ: كل ذلك من سوء تدبير أرباب وظائفه وحواشيه؛ وإلّا فما هو هذا النزر اليسير حتى يشحَّ به مثلُ هذا الملك الجليل؟! ونفرض أنه عزم على ذلك فكان يمكنهم الكلام معه في ذلك، فإن عجزوا عن مدافعته كان أحد من أولاده وخواصه يقوم بهذا الأمر عنه من ماله، وليس في ذلك كبير أمر.

وفي يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأوّل المذكور وصل إلى القاهرة سُنْقُر الأشرفي الدَّوادار المعروف بقَرَق شَبَق، وكان توجّه قبل تاريخه إلى البلاد الحلبيّة لكشف أخبار ابن قَرَمان، وتجهيز العساكر الشّاميَّة والحلبية، فوقع له هناك أمور وحوادث ذكرناها في غير هذا المحل، من قتل جماعة من تركمان ابن قَرَمان وغير ذلك.

وكان سُنْقُر المذكور من مساوِىء الدّهر، وعنده طيش وخفّة مع ظلم وجَبرُوت، وما سيأتي من أخباره عند عمارته لمراكب الغُزاة فأعظم.

ثم في يوم الأَحد هذا نودي بالقاهرة من قِبَل السلطان بأن يكون سِعْر الدِّرهم من الفضَّة الشاميَّة المقدّم ذكرها التي داخلها الغشّ ثمانية عشر درهماً نُقْرَة، [وما عداها من الفضة المؤيدية والأشرفية والظاهرية تكون على حالها بأربعة وعشرين

درهماً][1]، فقامت قيامة العامّة من ذلك خوفاً من الخسارة، وأكثروا من الوقيعة بالسلطان وأرباب دولته، ولا سيما في الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص، فإنهم نسبوا هذا كله إليه ـ رحمه الله.

وكان السلطان خلع على ولده المقام الشهابي أحمد باستقراره أمير حاجّ المحمل، فلما نزل ابن السلطان وعليه الخلعة من القلعة إلى داره ـ وهي قصر بَكْتَمُر الساقي تجاه الكبش ـ وبين يديه جميع أعيان الدولة، استغاثت إليه العامّة بلسان واحد، وقالوا: «نخسر بهذه المناداة ثلث أموالنا»، وسألوه في إبطال ذلك، فوعدهم بإبطاله، وأرسل إلى والده يسأله في إبطال ما نودي به، فأجابه السلطان، ونودي في الحال مناداة ثانية بإبطال ما نودي به.

قلتُ: وهذه فعلة العامّة الثانية من طلبهم عدم المناداة بإبطال هذه الفضّة المغشوشة خوفاً من الخسارة، فاحتاجوا بعد ذلك إلى المناداة، وخسروا أكثر مما كانوا يخسرونه عندما غلت الأسعار بسبب هذه الفضّة، ووصل صرف الدينار إلى أربعمائة درهم، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي يوم السبت أول شهر ربيع الآخر نودي في المماليك السلطانية المعينين إلى تجريدة البلاد الشامية لقتال ابن قَرَمان ـ قبل تاريخه ـ بأنّ النفقة فيهم في يوم الخميس الآتي. فلما كان يوم الخميس سادس ربيع الآخر المذكور جلس السلطان بالحوش السلطاني، وشرع في تفرقة النّفقة على المماليك المذكورين، لكل واحد منهم مائة دينار، وسعر الذهب يوم ذاك أربعمائة [درهم] الدينار، فوصل لكل واحد منهم ـ أعني المماليك المعينين ـ أربعون ألفاً؛ وهذا شيء لم نسمع بمثله، وأكثر ما فرّق الملوك السالفة في معنى النفقة مائة دينار، وسعر الدينار في ذلك الوقت ما بين مائتين وعشرين درهماً الدينار إلى مائتين وثمانين الدينار، لا بهذا السعر الزائد، فشكر كل أحد السّلطان على هذه الفعلة.

وكان عدّة من أخذ النفقة من المماليك المذكورين أربعمائة مملوك وثلاثة

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

مماليك. ثم أرسل السلطان بالنفقة إلىٰ الأمراء المُجَرّدين، فحمل إلى الأمير خُشْقَدم الناصري المؤيَّدي أمير سلاح ـ وهو مقدّم العسكر يوم ذاك ـ بأربعة آلاف دينار، ثم أرسل لكلٍّ من أمراء الألوف لكل واحد بثلاثة آلاف دينار، وهم: قَرْقَماس الأشرفي رأس نَوْبَة النُّوَب، وجَانِبَك القَرَماني الظاهري حاجب الحُجّاب، ويُونُس العلائي الناصري، ثم حمل لكل من أمراء الطبلخانات بخمسمائة دينار، ولكل أميرِ عشرة مائتي دينار. يأتي ذكر أسماء الجميع عند خروجهم من الديار المصرية إلى جهة ابن قَرَمان.

ثم في يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الآخر المذكور عزل السلطان عليّ بن إسكندر عن ولاية القاهرة، وأعاد خَيربَك القَصْرَوِي لولاية القاهرة كما كان أوّلاً.

ثم في يوم الخميس خامس جمادى الأولى برز الأمير خُشْقَدَم أمير سلاح ومقدّم العسكر بمَن معه من الأمراء والعساكر من القاهرة إلى الرَّيْدانِيَّة[١] خارج القاهرة، والأمراء هم:

الأربعة من مقدّمي الألوف المقدّم ذكرهم.

والطبلخانات: جانِبَك الناصري المُرْتَدّ، وخيربَك الأَشْقَر[٢] المؤيّدي الأمير آخور الثاني، وبُرْدبَك البَجْمَقْدار الظاهري رأس نَوْبَة.

ومن أمراء العشرات ستة أمراء وهم: تَمُرْبَاي من حمزة الناصري المعروف بطَطَر، وقَانْصُوه المحمدي الأشرفي، وقَلَمْطاي الإسْحاقي الأشرفي رأس نَوبَة،

---

(١) كانت محلة الريدانية خارج القاهرة ـ وهي عبارة عن بستان منسوب لريدان الصقلبي ـ محطة تنزل فيها جميع المواكب الخارجة من القاهرة أو العائدة إليها. فموكب الحاج كان ينزل فيها، وقد تحوّل فيها بعد إلى بركة الحاج، وكذلك كان ينزل فيها موكب السلطان أو التجاريد العسكرية. ـ انظر أيضاً ص ٨٨ من هذا الجزء.

(٢) ذكر المؤلّف في الحوادث أنه لم يسافر مع التجريدة بسبب المرض، فعادت خيمته من الريدانية.

وقانَم طاز الأشرفي[١] رأس نَوْبَة، وجَكَم النوري المؤيدي رأس نَوْبَة، وجَانَم[٢] المؤيدي المعروف بحرامي شَكَل.

وقد تقدَّم ذكر عدّة المماليك السلطانية فيما تقدم.

وأقاموا بالرَّيْدانِيَّة إلى ليلة الاثنين تاسعه، فاستقلوا فيه بالمسير من الرَّيْدانِيَّة إلى جهة البلاد الشاميّة.

ثم في يوم الخميس سادس عشرين جمادى الأولى المذكورة سافر الأمير نُوكَار الزَّرَدْكَاش، ومعه عدَّة من الرُّماة والنَّفْطِيَّة وآلات الحصار وهو مريض، ورسم له أن يأخذ من قلعة دمشق ما يحتاج إليه أيضاً من أنواع [الآلات وغيرها] للحصار، ويلحق العساكر المتوجهة لقتال ابن قَرَمان.

ثم في يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة استقرَّ الأمير أَسَنْدَمُر الجَقْمَقي أحد أمراء العشرات ورأس نَوْبَة أميرَ المماليك السلطانية المجاورين بمكّة المشرّفة عوضاً عن الأمير بِيبَرْس الأشرفي، خال الملك العزيز يوسف، ورُسم بمجيء بِيبَرْس المذكور عند توجّه أَسَنْدَمُر الجَقْمَقي في موسم الحج.

ثم في يوم الجمعة ثالث شهر رجب من سنة إحدى وستّين المذكورة ورد الخبر على السلطان بموت الأمير نُوكَار الزَّرَدْكَاش بمدينة غزّة، فأنعم السلطان بإقطاعه ـ وهو إمرة عشرة ـ ووظيفة الزَّرَدْكاشِيَّة على سُنْقُر الأشرفي الدوادار المعروف بقَرَق شَبَق.

وفي يوم الخميس تاسع رجب المذكور وقعت حادثة غريبة: وهي أن جماعة مِنْ العُربان قُطّاع الطريق [ـ وكانوا نحو خمسة عشر رجلاً أو أمثل ـ][٣] جاؤوا من جهة الشرقية حتى وصلوا إلى قُرْب باب الوزير، ثم عادوا من حيث جاؤوا وصاروا

(١) نسبة هؤلاء الثلاثة إلى الأشرف برسباي وليس إلى الأشرف إينال.

(٢) في الضوء اللامع: «جانبك».

(٣) زيادة عن حوادث الدهور.

في عودهم يسلبون مَن وقعوا به من الناس، فعرُّوا جماعةً كبيرة من بين فقهاء وأعيان وغيرهم، وكان الوقت بعد أذان العصر بدرجات وقت حضور الخَوانِق.

وفي يوم الأحد ثاني عشره، خلع السلطان عَلَى السيد الشريف حسام الدين محمد بن حُرَيز[1]، باستقراره قاضي قضاة المالكية بعد موت القاضي وليّ الدين السُّنبَاطِي[2].

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب المذكور ورد الخبر عَلَى السلطان بوصول العساكر المتوجهة لقتال ابن قَرَمان إلى حَلَب، وأنهم اجتمعوا في حلب بالأمِير قاني بَاي الحمزاوي نائب الشام هناك؛ لأن قاني باي المذكور كان خرج من دمشق قبل وصول العسكر إليها بثلاثة أيام، فتكلّم الناس بأنه ظن أن سفر العساكر ما هو إلاّ بسبب القبض عليه في الباطن، والتوجّه لابن قَرَمان في الظاهر.

قلت: وللقائل بهذا القول عذر بيِّن، وهو أن قاني باي المذكور من يوم تسلطن الملك الأشرف إينال هذا ـ وهو نائب حلب ـ لم يحضر إلى الديار المصرية ولا داس بساط السلطان، غير أنه يمتثل أوامر السلطان ومراسيمه حيث كان أولاً بحلب، ثم بعد انتقاله إلى نيابة دمشق؛ فعلم بذلك كلُّ أحد أن قاني باي المذكور يتخوَّف من السلطان ولا يحضر إلى الدّيار المصرية، ومتى طلبه السلْطان أظهر العصيان.

وفطن الملك الأشرف إينال لذلك، فلم يطلبه البتّة، وصار كلّ واحد منهما يعلم ما في ضمير الآخر في الباطن ويُظهِر خلاف ذلك: السلطان يخفي ذلك لتسكين الفتنة، وقاني باي لما هو فيه من النعمة بولاية نيابة دمشق، وكلٌّ منهما يترقب موت الآخر، فمات قاني باي قَبْلُ، حسبما يأتي ذكره في الوفيات بعد فراغ الترجمة. وقد خرجنا عن المقصود ولنعد إلى ما نحن بصدده فنقول:

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن محمد المتوفى سنة ٨٧٣ هـ. ـ ترجمته في الضوء اللامع: ١٩١/٧ ـ ١٩٤.
(٢) هو محمد بن محمد بن عبد اللطيف المتوفى سنة ٨٦١ هـ. ـ ترجمته في الضوء اللامع: ١١٣/٩.

وأخبر المخبر أن العساكر اجتمعوا بالأمير قاني باي الحمزاوي بحلب، وأنه اجتمع رأي الجميع عَلَى السير من حلب إلى جهة ابن قَرَمان في يوم السبت سادس عشرين جمادى الآخرة، فَسُرَّ السلطان بذلك، كون الذي أُشيع عن قاني باي الحمزاوي من العصيان ليس بصحيح، بل هو قائم بالمهمّ السلطاني أحسن قيام.

وفي يوم الجمعة سابع عشره سافر الأمير جانِبَك الظاهري نَائب جدّة إلى جهة جدّة عَلَى عادته في كل سنة، وسافر معه خلائق من الناس صفة الرّجَبيّة[1].

وفي يوم السبت ثامن عَشَر رجب المذكور ورد الخبر عَلَى السلطان بأنه كان بين حسن[2] الطويل بن علي بك بن قَرَايُلك صاحب آمد وبين عسَاكر جهان شاه بن قَرَا يوسف صَاحب العراقيْن ـ عراق العرب وعراق العجم ـ وقعة هَائلة، انكسر فيها عسكر جهان شاه وانتصر حسن المذكور، وأن حسن قتل من أعيان عساكر جهان شاه جماعة، مثل الأمير رُسْتم، وابن طَرخان، وعَرَبْشَاه، وغيرهم، فَسُرَّ السلطان بذلك غاية السرور، كون أن حسناً المذكور ينتمي إليه، ويُظهِر له الصَّداقة.

ثم في يوم الاثنين رابع شعبان وصل الخبر من الأمير خُشْقدَم أمير سلاح ومن رفقته النوّاب بالبلاد الشامية بأنهم وصلوا إلى بلاد ابن قَرَمَان، وملكوا قلعة دَوَالي[4]، ونهبوهَا وأخربوهَا، وأنهم جهّزُوا الأمير بُرْدبك البَجْمقْدار رأس نَوْبَة ومعه

---

(١) أي الذين يقصدون مكة في شهر رجب.

(٢) هو أوزون حسن بن علي بن قرايلك، الرابع من أمراء آق قيونلو (أصحاب الشاة البيضاء). وهؤلاء حلف من القبائل التركمانية قام في إقليم ديار بكر بعد أيام المغول واستمر حتى عام ٩٠٨ هـ. وقد اتخذوا من أمد قصبة لهم، ثم انتقل أوزون حسن بن علي المذكور هنا منذ سنة ٨٧٢ هـ إلى تبريز. وقد حكم أوزون حسن من سنة ٨٥٧ هـ إلى سنة ٨٨٢ هـ. (معجم زامباور: ٣٨٤؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ١٢٨/٤).

(٣) هو الخامس من أمراء قراقيونلو (أصحاب الشاة السوداء) من التركمان المنافسين لأمراء آق قيونلو. وسوف يقتل في سنة ٨٧٢ هـ على يد أوزون حسن وتنتهي بذلك سيطرة القراقيونلو وتمتد سيطرة الآق قيونلو إلى بغداد وهراة والخليج الفارسي. (معجم زامباور: ٣٨٣؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ١٣٥/٤).

(٤) قلعة دوالي (دولو ـ دوه لو) تقوم عند لحف جبل أرجاست. جدّد بناء أسوارها علاء الدين السلجوقي =

عدَّة من المماليك السلطانية والأمراء بالبلاد الشَامية إلى جهة من جهَات بلاد ابن قَرمان، فصدفوا في مسيرهم عسكراً من أصحاب ابن قَرَمان فواقعوهم وهزموهم، وأنه قتِل من المماليك السلطانية أربعة في غير المصَاف، بل من الذين صدفوهم في أثناء الطريق.

وفي يوم السبت أوّل شهر رمضان سافرت الأمراء المعينون إلى الجرون[1] ببرّ التركية، لأجل قطع الأخشاب، وسافروا من بولاق، ومقدّم العسكر الأمير يَشْبُك الفقيه المؤيّدي أحد أمراء الطبلخانات ورأس نَوْبة، ومعه الأمير أُزْبُك المؤيّدي أحد أمراء العشرات، والأمير نَوْرُوز الأعمش الأشرفي، وجماعة أُخَر من الخاصكية.

ثم في يوم الأحد تاسع شهر رمضان وصل نجّاب[2] من خير بَك نائب غزَّة يخبر بمجيء سُودون القَصْرَوي الدَّوادار بكتاب مقدّمي العساكر الأمير خُشْقَدَم المؤيّدي أمير سلاح وغيره من الأمراء. وحضر سُودون القَصْرَوي المذكور من الغد، وأخبر السلطانَ بأن العساكر المتوجهة إلى بلاد ابن قَرمان قصدت العود إلى جهة حَلَب بعد أن أخذوا أربع قلاع من بلاد ابن قَرمان، وأخربوا غالب قُرى ممالكه، وأحرقوا بلاده وسبوا ونهبوا وأمعنوا في ذلك، حتى إنهم أحرقوا عدَّةَ مدارس وجوامع، وذلك من أفعال أوباش العسكر، وأنهم لم يتعرّضوا إلى مدينة قُونية ولا مدينة قَيْصَرِيَّة لنفود زادهم، ولضجر العسكر من طول مدتهم بتلك البلاد، مع غلو الأسعار في المأكول وغيره من سائر الأشياء، ولولا هذا لاستولوا على غالب بلاد ابن قَرمان، وأن ابن قَرمان لم يقاتل العسكر السلطاني، بل إنه انحاز إلى جهة منيعة من جهاته وتحصّن بها هو وأعيان دولته، وترك ما سوى ذلك من المتاع والمواشي وغيرها مأكلةً لمَن يأكله، فحصل له بما أُخِذَ له وهنٌ عظيم في مملكته؛

= (بلدان الخلافة الشرقية: ١٨٣). وورد الاسم في صبح الأعشى: ١٤/١٧٣: «دوالو»، وفي الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: «دوالوا».

(١) في الأصل: «الجون» وهو خطأ. والتصحيح عن صبح الأعشى: ٣/٢٤٧. وهي قلعة خراب على ساحل الخليج مقابل القسطنطينية.

(٢) هو البريدي الذي يحمل الرسائل.

فدقَّت البشائر لهذا الخبر بالقاهرة أيَّاماً، ورسم السلطانُ من وقته بعوْد العسكر المذكور إلى الديار المصرية، وخرج النجّاب بهذا الأمر.

ثم في يوم الأحد سادس عشر شهر رمضان المذكور ركب المقام الشهابي أحمد ابن السلطان من داره ـ فصر بَكْتَمُر تجاه الكَبْش ـ النُّجُب كما هي عادة أمراء الحج في الركوب إلى المسايرة، وخرج من الصّلِيبَة، وشقَّ الرُّمَيْلة، وبين يديه هجَّانة السلطان أمراء العرب، بالأكوار الذهب، والكَنَابيش الزَّرْكَش المغشاة بالأطلس الأصفر، وركب معه جماعة من الأمراء غير مَن يسافر معه، مثل: الأمير بُرْدبَك الدوادار الثاني، وسُودون الإينالي المؤيّدي قَرَاقَاش ثاني رأس نَوْبَة، وجماعة أُخَر، ولم يركب معه أحدٌ من أمراء الألوف، ولا أعيان مباشري الدَّولة، حتى ولا كاتب السِّرِّ القاضي محبّ الدين بن الأشقر، وهو ممّن يسافر في هذه السّنة إلى الحج.

وسار ابن السلطان في موكبه المذكور من تحت القلعة إلى جهة خليج الزّعفران خارج القاهرة، ووصل هناك قُبَيْل المغرب، وأفطر هناك، ثم عاد بعد صلاة العشاء، وشقَّ الرُّمَيْلة ثانياً في عوده في زِيٍّ بهيج إلى الغاية.

ثم في يوم الجمعة ثاني عشر شوّال وصلت إلى القاهرة رِمَّة الأمير جَانِبَك القَرَماني الظاهري حاجب الحجّاب، وقد مات بالقرب من منزلة الصالحيّة في عوْده من تجريدة ابن قَرَمان. ثم عقب الخبر بموت جماعة كبيرة أيضاً من العسكر المذكور، من مرض فشا فيهم من مدينة الرَّمْلَة كالوباء، مات منه خلائق بمرض واحد، ولم يعلم أحد ما سبب هذا العارض.

ثم في يوم السبت ثالث عشره ورد الخبر بموت الأمير جَكَم النّوري المؤيّدي ـ المعروف بقَلقسيز ـ أحد أمراء العشرات ورأس نَوْبَة.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شوّال المذكور وصلت العساكر المجرَّدة لبلاد ابن قَرَمان على أسوأ حال من الضَّعف الذي حصل لهم في أثناء الطريق. وطلع مقدّم العسكر الأمير خُشْقَدَم المؤيّدي أمير سلاح، ورفقته من الأمراء المقدَّم ذكرهم عند توجّههم والمماليك السلطانية إلى القلعة، وقبّل الأرض، فأكرمه السلطان وخلع

عليه وعلى رفقته؛ فنزل الأمير خُشْقَدَم إلى داره وبين يَدَيْه أعيان الدّولة، وقد نقص من رفقته اثنان من المقدّمين: جاني بَك القَرماني المتوفى، ويونس العلائي لضعف بدنه، وقد دخل إلى القاهرة في مَحَفَّة.

ثم في يوم الاثنين هذا أنعم السلطان على الأمير بَايَزِيد التَمُرْبُغَاوِي أحد أمراء الطبلخانات بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضاً عن جَانِبَك القَرماني المقدّم ذكره، وأنعم بطبلخاناه بايَزِيد على الأمير بَرْسبَاي الإينالي المؤيَّدي.

ثم في يوم الخميس ثَامن عشر شوّال المذكور خرج المقام الشهابي أحمد ابن السلطان - وهو يومئذ أمير حاج المحمل - بالمحمل من القاهرة إلى بركة الحاجّ دفعة واحدة - وقد صار ذلك عادة - وترك النّزول بالمحل في الرّيْدَانيّة خارج القاهرة، وسافرت معه أُمّه خَوَنْد الكبرى زينب بنت البدري حسن بن خاص بَك، وإخوته الجميع الذكور والإناث، والإخوة الجميع الثلاثة: ذكر واحد وهو أصغر منه - يسمى محمداً - مراهق، وأُخته الكبرى زوجة الأمير بُردْبَك الدّوادار الثاني، والصغرى وهي زوجة الأمير يُونُس الدَّوادار الكبير. ورحلَ من البِركة في ليلة الاثنين ثاني عشرين شوّال، بعد أن رحل قبله أَسَنْدَمُر الجَقْمَقي رأس المجاورين[١]، وأمير الركب الأول يَشْبُك الأشقر الأشرفي، وقد استقرّ أمير عشرة قبل تاريخه.

ووصل من الغد في يوم الثلاثاء الأمير جَانِبَك الظاهري نائب جدّة من جدّة وقبّل الأرض، وحضر معه من الحجاز الأمير زين الدين الأستادار، وكان مقيماً بمكة.

وفي يوم الخميس خامس عشرين شوّال المذكور أنعم السلطان بإقطاع جَكَم النّوري المؤيّدي على الأمير جَانِبَك الإسماعيلي المؤيّدي المعروف بكوهِية، وعلى الأمير يَشْبُك الظاهري نصفيْن بالسويّة، لكل واحد منهما إمرة عشرة.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشرينه استقرّ الأمير بَرْسبَاي البَجَاسي أحد مقدّمي الألوف حاجب الحجّاب بالديار المصرية بعد وفاة الأمير جَانِبَك القَرماني.

---

(١) أي أمير المجاورين بمكة من المماليك السلطانية. وكانت العادة أن يعيّن السلطان عليهم أميراً يبعث به من القاهرة.

ثم في يوم السبت خامس عشرين ذي القعدة ثارت المماليك الأجْلَاب بالأطباق من قلعة الجبل، ومنعوا الأمراء ومُباشِري الدَّولة من النّزول من قلعة الجبل، فكلّموهم بسبب ذلك، فقَالوا: «نريد أن تكون تفرقة الأضحية لكل واحد منّا ثلاثة من الغنم» - أعني زِيَادة على ما كانوا يأخذونه قبل ذلك برأس واحد. وكان وقع في تلك المُدّة هذا القول، وسُكت عنه، فتوقَّف السلطانُ في الزِيَادة، ثم أذعن بعد أمور، واستمرَّ ذلك إلى يومنا هذا.

وفي يوم الاثنين سابع عشرين ذي القعدة استقرّ القاضي صلاح الدين أمير حاج بن بَرَكُوت المكيني في حِسْبَة القاهرة، بعد عزل يار علي الخُراساني العجمي الطويل، بمَالٍ كثير بذله صلاح الدين في ذلك.

وفي أوائل ذي الحجة ورد الخبر على السلطان من جهة مكّة أنه وقع في الحاج عطشة فيما بين منزلة أكرة والوجه[1]، ومات بالعطش خلائق كثيرة.

وفي يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة - الموافق لثامن هاتور - لبس السلطان القماش الصوف الملوَّن المعتدّ لأيام الشتاء، وألبس الأمراء على العادة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشر ذي الحجة المذكور وصلت الأمراء المتوجهون إلى بلاد الجرون[2] ببرِّ التركية، ومقدّمهم الأمير يَشْبُك الفقيه، ورفقته المقدّم ذكرهم عند سفرهم، وخلع السلطان عليهم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه وصل مبشّر الحاج دَمُرْداش الطويل الخاصكي، بعد ما قاسى شدائد من العرب قُطّاع الطريق، فضايقوه وأخذوا منه عدّة رواحل وغيرها، ثم أخبر دَمُرداش المذكور بسلامة ابن السلطان ووالدته وإخوته، فدقّت البشائر لذلك ثلاثة أيام بالديار المصرية.

وفي يوم الاثنين سادس عشرين ذي الحجة المذكور أخرج السلطان إقطاعَ الأمير

---

(١) أكرة والوجه: منزلتان من منازل السفر في طريق الحاج تقعان بين المخاطب ورأس وادي عنتر، وبها آبار للماء. (انظر صبح الأعشى ١٤/٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) راجع ص ٨٦ من هذا الجزء، حاشية (١).

طوخ من تِمْراز الناصري ـ المعروف ببني بازِق ـ أمير مجلس، لمرضٍ تَمَادَى به مدّة طويلة، وأنعم بإقطاع المذكور على الأمير بَرْسْبَاي البَجَاسي حاجب الحجّاب، وأنعم بإقطاع بَرْسَبَاي البجَاسي المذكور على الأمير بِيبَرْس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف [بالحجاز][١]، وكلاهما تقدمة ألف، غير أن الواحد يزيد عن الآخر في الخراج لا غير، وأنعم بإقطاع بِيبَرس على ولده الصغير محمد وهو في الحجاز أيضاً، وهذا أيضاً تقدمة ألف، [مضافاً لما كان بيده قبل من الإقطاعات][٢].

ثم في يوم الخميس تاسع عشرينه استقرّ الأمير جَرِباش المحمدي الأمير آخور الكبير أمير مجلس عوضاً عن طوخ المقدّم ذكره بحكم مرضه، واستقر عوضه في الأمير آخورية يُونُس العلائي أحد مقدّمي الألوف.

وفي هذه السنة كان فراغ الرَّبْع والحمـامَيْن اللذين بناهمـا السلطان الملك الأشرف إينال هذا بخط بين القصريْن.

وفرغتَ هذه السنة وقد انحلَّ أمر حكَّام الدّيار المصريّة أرباب الشرع الشريف والسياسة أيضاً، لعظم شوكة المماليك الأجْلاب، وصار مَنْ له حقٌّ عند كائنٍ مَنْ كان من الناس قَصَد مملوكاً من المماليك الأجلاب في تخليص حقّه، فما هو إلاَّ أن أعلم ذلك المملوكَ بقصده خلّص من غريمه في الحال؛ فإن هؤلاء المماليك صاروا في أبواب أعيانهم شكل رأس نَوْبَة ونقباء، ولبعضهم دوادار، فيرسل خلف ذلك الرجل المطلوب، ويأمره بإعطاء حق ذلك المُدَّعِي ـ حقّاً كان أو باطلاً ـ بعد أن يهدِّدَه بالضرب والنّكال، فإن أجاب وإلاّ ضُرب في الحال ونُكِّل به. وعلم بذلك كل أحد، فصار كلُّ أحدٍ يستعين بهم في قضاء حوائجه، وترك الناسُ الحكَّامَ، فقوي أمرُ الأجلاب، وضعفت شوكةُ الحكّام، وتلاشى أمرهُم إلى الغاية والنهاية.

وفي هذه السنة كانت زلزلة عظيمة بمدينة أَرْزَنْكان[٢]، هدَّمت معظمها.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) أرزنكان (أرزنجان): بلدة ببلاد أرمينية على قرب من ضفة الفرات اليمنى بين أرزن الروم وسيـواس. (بلدان الخلافة الشرقية).

وفي هذه السنة أيضاً كان بالشرق فتن كبيرة بين جهان شاه بن قَرا يوسف، وبين أولاد باي سُنْقُر بن شاه رُخّ بن تَيْمورلَنْك، أصحاب ممالك العجم.

ثم استهلّت سنة اثنتين وستّين وثمانمائة.

ففي يوم الاثنين ثالث محرّم من السنة المذكورة أنعم السلطان على قايِتْبَاي المحمودي الظاهري الدّوادار بإمْرَة عشرة، وعيَّن السلطان الأمير جَانِبَك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكُوهِية أن يتوجَّه إلى حلب، وعلى يده تشريف تَغْرِي بَرْدي بن يونس حاجب حلب بنيابة مَلَطْيَة، وتشريف جَانِبَك الجَكَمي نائب مَلَطْيَة إلى حجوبية حلب، كلٌّ منهما عن الآخر، وذلك لكلام وقع بين تَغْري بَرْدي هذا وبين الأمير جَانَم الأشرفي نائب حلب.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين المحرّم وصل أمير حاج المحمل بالمحمل إلى القاهرة، وهو المقام الشهابي أحمد ابن السلطان، وصحبته والدته وإخوته، وطلع إلى القلعة ومعه أخوه محمد، وبين يديهما وجوه الدّولة. وخلع السلطان عليه وعلى أخيه محمد المذكور، وكانت خلعة المقام الشهابي أطلسيْن مُتَمَّراً، وعلى الأطلسيْن فوقاني حرير بوجهيْن بطرز زَرْكَش. ثم خلع السلطان على مَن له عادة بلبس الخِلَع في عَوْدِ الحاج إلى الدّيار المصرية.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر صفر وصل الأمير أُزْبُك من طَطَخْ الظاهري الخازندار ـ كان ـ من القدس الشريف بطلب من السلطان، وطلع إلى القلعة، وخلع السلطان عليه سَلَّارِيّاً[1] من ملابيسه بفَرْوِ سِنْجاب، ووعده بكل خير، ثم رسم له بالمشي في الخدمة السلطانية بعد أيام.

وفي أوّل شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتين وستّين المذكورة نودي من قِبَل السلطان على الذّهب بأن يكون سعر الدينار الذهب بثلاثمائة درهم نُقْرَة، بعدما كان وصل سعر الدينار لأربعمائة وستّين درهماً الدينار، وأن يكون سعر الفضة المغشوشة كل درهم بستّة

---

(١) زيّ من الملابس ينسب إلى الأمير سلار. ـ راجع فهرس المصطلحات: السلاريّ.

عشر درهماً، وأن يكون سعر الدرهم من الفضة الطيبة التي رسم السلطان بضربها بدار الضرب بأربعة وعشرين درهم نُقْرَة، وحكم السلطان بذلك، ونفّذ حكمه القضاةُ، وسُرّ الناس بهذا الأمر غاية السرور؛ فإنه كان حصل بتلك الفضّة المغشوشة غاية الضرر في المعاملات وغيرها.

غير أنه ذهب للناس بهذا النقص في سعر الفضة المغشوشة مالٌ كثير، وصار كل أحد يخسر ثلث ما كان معه من المال من هذه الفضة المذكورة، فانحصر[١] كلّ مَن كان عنده من هذه الفضة لوقوع النقص في ماله، فرسم السلطان في اليوم المذكور بالمناداة بنقص ثلث ثمن جميع البضائع في المأكول والملبوس كما نقص سعر الدرهم الثلث، وكذلك في نقص الذهب، فهان عند ذلك على الناس ما وقع من خسارة الذهب والفضة بهذه المناداة الثانية التي هي بنقص ثلث أثمان جميع الأشياء، وقال كل واحد في نفسه: «كما نقص من مالي الثلث نقص من ثمن ما كنت أبتاعه الثلث»، فكأنه لم ينقص له شيء.

ثم في يوم الخميس سابع عشره عمل السلطان المولد النبوي بالحوش من القلعة على العادة في كل سنة.

ثم في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير أُزْبك مِنْ طَطَخْ الظاهري المقدَّم ذكره بإمرة عشرة، عوضاً عن الأمير جَانَم الأشرفي البهلوان، بحكم وفاته، كما سيأتي ذكر وفاته ووفاة غيره في ذكر الوفيات بعد فراغ الترجمة، على عادة هذا الكتاب.

وفي يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الآخر المذكور وجد السلطان نشاطاً في نفسه من مرض كان حصل له أياماً، وخرج إلى قاعة الدّهيشة، ودقّت البشائر لذلك بقلعة الجبل وغيرها ثلاثة أيام.

ثم في يوم الأحد سادس عشرين ربيع الآخر مات الأمير سودون السِّلَحْدَار[٢]

---

(١) كذا. ولعلّ المراد بذلك أن ضيقاً أصابه.

(٢) هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير. ومن وظيفته أيضاً الإشراف على السلاح خاناه. ـ راجع فهرس المصطلحات: سلحدار.

نائب قلعة الجبل، فأنعم السلطان من إقطاعه بنصف قرية كوم أُشْفين[(١)] على شريكه الأمير يَشْبُك الفقيه المؤيدي، ليكون من جملة أمراء الطبلخانات، وأنعم بباقي إقطاع سُودون المذكور على الأمير أرغون شاه الأشرفي ليكون من جملة أمراء العشرات، وأنعم بإقطاع أُرْغون شاه المذكور على شريكه الأمير تنبك الأشرفي ليكون تنبك أيضاً أمير عشرة، واستقر كَسْباي المؤيدي السمين نائب قلعة الجبل عوضاً عن سُودون المذكور على إمْرَة عشرة ضعيفة، واستقرّ الأمير جَانِبَك الإسماعيلي المؤيَّدي المعروف بكُوهِية من جملة رؤوس النُّوَب عوضاً عن كَسْباي المقدَّم ذكره، ولبسا الخلع بعد ذلك بأيام.

ثم في سلخ شهر ربيع الآخر المذكور خلع السلطان على الأمير بَرْسبَاي البجاسي حاجب الحجّاب باستقراره أمير حاج المحمل.

وفيه خلع السلطان على الحكماء لعافيته من مرضه، وحضر السلطان موكب القصر مع الأمراء والخاصكية على العادة.

ثم في يوم الاثنين رابع جمادى الأولى استقر [الطواشي][(٢)] مرجان [الحصكفي][(٣)] مقدَّم المماليك السلطانية أمير حاج الرّكب الأول، فحصل بتولية مرجان هذا إمرة الحاج الأول على أهل مكّة ما لا خير فيه، لأنه كان في نفسه وضيعاً، لم تشمله تربية مُرَبٍّ، لأنه نشأ ببلاد الحصن[(٤)]، وخرج منها على هيئة المكدِّين من فقراء العجم، ودار البلادَ على تلك الهيئة سنين كثيرة، إلى أن اتصل بخدمة جماعة كثيرة من الأمراء، ثم آل أمرُه إلى بيت السلطان، وغلط الدهر بولايته النيابة ثم التّقدمة، ثم

(١) كوم اشفين: إحدى قرى مركز قليوب حالياً.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع.

(٣) في الضوء اللامع: «الحصفي»، ولعلّ فيه تحريفاً من الناسخ. والصواب ما أثبتناه لأن النسبة هنا إلى حصن كيفا. ونسبته هذه لأنه كان في الأصل من خدّام العادل سليمان صاحب حصن كيفا، كما جاء في الضوء اللامع.

(٤) أي حصن كيفا، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر.

بولايته إمرة الركب الأول في هذه السنة، فلما سافر أخذ معه جماعة كبيرة من إنْياته[١] المماليك الأَجْلاب، ففعلوا في أهل مَكة أفعالاً ما تفعلها الخوارج، من الظلم وأخذ أموال الناس له ولأنفسهم، كما سيأتي ذكر ذلك عند عوده من الحج إن شاء الله تعالى.

وفي يوم الخميس سابع جمادى الأولى استقرَّ شمس الدين منصور بن الصَّفّي ناظرَ ديوان المُفْرد.

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشره ركب السلطان الملك الأشرف إينال من قلعة الجبل باكر النهار في أمرائه وأرباب دولته، وشقّ خط الصّليبية بغير قماش الموكب، وتوجّه إلى ساحل بولاق؛ ودام سيره بساحل بولاق إلى أن وصل إلى مدرسة السعدي إبراهيم بن الجيعان التي أنشأها على النيل، ورأى ما أنشىء بالجزيرة وساحل بولاق من العمائر والبيوت، ثم عاد إلى جهة القاهرة، ومرَّ من الشارع الأعظم إلى أن خرج من باب زُوَيْلة، وطلع إلى القلعة، [وقد غضب مما رأى من العمائر بساحل بولاق في طريق المسلمين][٢].

وأصبح من الغد في يوم الأربعاء أمر بالمناداة بأن أحداً من الناس لا يعمّر عمارة بجزيرة أَرْوَى المعروفة بالوسطى، ولا بساحل بولاق، لما رأى من ضيق الطريق من كثرة العمائر والأخصاص، وأمر أيضاً بهدم أماكن كثيرة فهدمت في اليوم المذكور. واستمر والي القاهرة بعد ذلك في الهدم[٣] أياماً كثيرة. وأما الأخصاص والدكاكين التي بالطريق فهدمت عن آخرها. وكلّم السلطانَ في الكفّ عن ذلك جماعة كثيرة فلم يسمع لأحد، واستمر على ما رسم به من هدم الأماكن المذكورة. قلتُ: لا بأس بهذه الفعلة؛ لأن كل أحد له في الساحل حق كحق غيره، فلا يجوز استقلال أحد به دون غيره.

وفي يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى المذكور خاشنت المماليك الأجلابُ

---

(١) جمع إنّي، وهو المملوك الصغير يربّى برعاية مملوك كبير فيكون إنْياً له. أما العلاقة التي تربط المماليك الكبار فتسمى الخشداشية، والواحد خشداش، ويجمع على خشداشين وخشداشية. ـ راجع فهرس المصطلحات: إنّي، خشداش.

(٢) زيادة عن حوادث الدهور.

(٣) في الأصل: «... بعد ذلك مستمراً للهدم».

الصاحبَ جمالَ الدين ناصر الجيش والخاصّ في اللفظ بسبب غلو سعر أثواب البعلبكي، فأجابهم «بأن هذا ليس هو داخل في حكمي ولا من تعلقاتي، بل ذلك راجع إلى محتسب القاهرة». وبلغ السلطان ذلك، فأصبح السلطان أمر بعزل صلاح الدين أمير حاج بن بَرَكوت المكيني عن حسبة القاهرة، واستقرَّ عوضه بالحاج خليل المدعو قاني باي اليوسفي المِهْمَنْدار، مضافاً إلى المِهْمَنداريَّة.

ثم في يوم الخميس ثامن عشرينه وصل إلى القاهرة قُصَّاد الصارمي إبراهيم بن قَرَمان، صاحب قُونية وغيرها، وعلى يدهم كتب ابن قَرمان المذكور تتضمن الترقّق والاستعطاف، وأنه داخلٌ تحت طاعة السلطان، وأنه إن كان وقع منه ما أوغر خواطر السلطنة، فقد جرى عليه وعلى بلاده من العساكر السلطانية ما فيه كفاية من النهب والسّبْي والإحراق وغير ذلك، وأنه يسأل الرِّضى عنه، وأشياء غير ذلك مما ذكرناه بالمعنى، فعفا السلطان عنه بعد توقّف كبير.

وفي يوم الجمعة تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور سافر الأمير بُرْدبَك الدّوادار الثاني صهر السلطان زوج ابنته إلى دمشق، لينظر جامعه الذي أنشأه بها.

ثم في يوم الاثنين عاشر جمادى الآخرة خلع السلطان على أُيْدكي الأشرفي الخاصكي ليسافر إلى ابن قَرَمان صُحْبَة قُصَّاده، لتقرير الصلح بين السلطان وبينه.

وفي يوم الجمعة رابع عشره ـ الموافق لثالث بَشَنْس، أحد شهور القبط ـ لبس السلطان القماش الأبيض البَعْلَبَكّي المعدّ لأيام الصيف على العادة في كل سنة.

ثم في يوم الخميس خامس شهر رجب من سنة اثنتين وستّين المذكورة شفع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص عند السلطان في الأمير تَمُرْبُغَا أن يفرج عنه من حبس الصُّبَيْبَة، فسمح السلطان له بذلك، ورسم له أن يتوجَّه من الصُّبَيْبَة إلى دمشق، ويقيم بها لعمل مصالحه لأيّام الحجّ، ويسافر إلى مكة ويقيم بها بطالاً، فوقع ذلك.

ثم في يوم الجمعة سادس شهر رجب المذكور كان الحريق العظيم بساحل

بُولَاق الذي لم نسمع بمثله في سالف الأعصار إلاّ قليلاً، بحيث إنه أتى على غالب أملاك بولاق من ساحل النيل إلى خط البوصة التي هي محل دفن أموات أهل بولاق، وعجزت الأمراء والحكّام عن إخماده.

وكان أمر هذا الحريق أنه لما كان صبيحة يوم الجمعة سادس رجب من سنة اثنتين وستّين المذكورة هبَّت ريح عظيمة مَريسيّ[١]، وعظمت حتى اقتلعت الأشجار وألقت بعض مبانٍ، واستمرت في زيادة ونُمُو إلى وقت صلاة الجمعة؛ فلما كان وقت الزّوال أو بعده بقليل احترق رَبْع الحاج عبيد البرددار بساحل البحر، وذهب الرَّبع في الحريق عن آخره ومات فيه جماعة من الناس، كلُّ ذلك في أقلّ من ساعة رمل. ثم انتقلت النار إلى رَبْع القاضي زين الدين أبي بكر بن مُزْهر وغيره. وهبّت الرّياح وانتشرت النيران على الأماكن يميناً وشمالاً. هذا وحاجب الحجَّاب وغيره من الأمراء والأعيان وكلُّ أحد من الناس في غاية الاجتهاد في تخميد النار بالطفي والهدم، وهي لا تزداد إلاّ قوّة وانتشاراً على الأماكن، إلى أن وصلت النار إلى رَبْع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص، وإلى الحواصل التي تحته، وأحرقت أعلاه وأسفله، وذهب فيه من بضائع الناس المخزونة فيه ما لا ينحصر كثيرة، وسارت النار إلى الدُّور والأماكن من كل جهة.

هذا وقد حضر الحريق جميع أمراء الدولة بمماليكهم وحواشيهم، شيئاً بعد شيء، والأمر لا يزداد إلاّ شدَّة، إلى أن صار الذي حضر من الناس لأجل طَفْي النار كالمتفرّج من عظم النار والعجز عن إخمادها، وصارت الناس إذا وقعت بمكان لا تزال به حتى يذهب جميعه، ويضمحل عن آخره. فعند ذلك فطن كل أحد أن النار تسير من دار إلى دار إلى أن تصل إلى القاهرة، لعظم ما شاهدوا من هولها، والريح المَريسي يتداول هبوبها من أول النهار إلى نصف الليل؛ ولشدّة هبوب الريح صارت رياحاً لأنها بقيت تارة تهبّ مَرِيسِيّاً، وهو الأكثر، وتارةً شمالاً، وتارةً غير ذلك من سائر الجهات. فيئس كلّ مَن كان له دار تحت الرّيح، وتحقّق

(١) الريح المريسي: هي ريح الجنوب التي تأتي من قبل مريس من بلاد النوبة.

زوالها، وشرع في نقل متاعه وأثاثه، وهو معذور في ذلك، لأننا لم نشاهد في عمرنا مثل هذا الحريق، لما اشتمل عليه من الأمور الغريبة، منها سرعة الإحراق، حتى إن الموضع القديم من الأماكن الهائلة يذهب بالحريق في أسرع وقت، ومنها أن المكان العظيم كان يحترق وبجانبه مكان آخر لم تلحقه شرارة واحدة؛ وربما احترق الذي كان بالبعد عن تلك الدار المحروقة من شرارها، والتي بالقرب سالمة. ووقع ذلك بعدّة أماكن، أعجبها وأغربها مسجد كان بالقرب من ساحل البحر وبه منارةٌ من غُرْدٍ[1] قصيرةٌ، وكان هذا المسجد في وسط الحريق والشرار يتطاير من أعلاه من الجهات الأربع من أوّل الحريق إلى آخره، لم تتعلق به شرارة واحدة، وفي المسجد المذكور قبر رجل صالح مدفون فيه قديماً يُعرَف بالشيخ محمد المغربي.

واستمر الأمراء والأعيان يشاهدون الحريق، ويطفئون ما قدروا عليه من أطراف المواضع المنفردة؛ وأمّا الحريق العظيم فلا يستجرىء أحد أن يقربه لعظمه، بل يشاهدونه من بعد. واستمروا على ذلك إلى بعد أذان عشاء الآخرة، ثم ذهب كل واحد إلى داره والنار عمّالة إلى نصف الليل، فأخذ أمر الريح في انحطاط.

فلما كان بَاكر نهَار السبت سَابع شهر رجب المذكور نزل المقَام الشهابي أحمد ابن السلطان من قلعة الجبل، وتوجّه إلى بولاق لأجل الحريق، فوجد جميع أمراء الدّولة هناك كما كانوا في أمسه، فلم يؤثّر حضور الجميع في النار شيئاً، غير أن الريح كان سكن وأخذت النار حدَّها في الإحراق من كل مكان كانت به؛ فعند ذلك اجتهد كل أحد في إخمادها، وهدم ما تعلّق به النار من الأماكن، وأقاموا على ذلك أيّاماً كثيرة، والنار موجودة في الأماكن والجدر والحيطان، والناس تأتي لبولاق أفواجاً للفرجة على هذا الحريق العظيم، حتى صارت تلك الأماكن كبعض المفترجات، وعملت الشعراء والأدباء في هذا الحريق عدّة قصائد وقِطَع. وقد

(١) أي إنها مصنوعة من الأشجار أو القصب.

أنشدني الشيخ علمُ الدين الإسْعَرْدِيّ الحِصني قصيدةً من لفظه لنفسه في هذا المعنى أولها: [مخلّع البسيط]

أتتهم الذاريات ذَرْوا وتَلَتْها العاصفاتُ عَصْفا

أثبتُّ هذه القصيدة في تاريخنا «الحوادث» كونه محل ذكر هذه الأشياء. والقصيدة المذكورة نظم عالِم لا شاعر. وقد حرّرنا أيضاً في تاريخنا «الحوادث» ما ذهب في هذا الحريق من الأماكن تخميناً، فكان عدّة ما احترق فيه من الأرباع زيادة على ثلاثين رَبْعاً، كلُّ رَبْع يشتمل على مائة سكن وأكثر، أعني أعاليه وأسفله، وما به من الحوانيت والمخازن ذكرناها في «الحوادث» بأسمائها، ما خلا الدُّور والأماكن والأفران والحوانيت وغير ذلك.

وقد اختلف في سبب هذا الحريق على أقوالٍ كثيرة. منهم مَن قال: إنها صاعقة نزلت من السماء والخطيب على المنبر. ومنهم مَن قال: إنه نزلت من جهة السماء نوع شرارة فاحترق المكان الأول منها. ومنهم مَن قال: إن الأرض كأنّ النار تنبع منها.

والأقوال كلُّها عَلَى أن سبب هذه النار آفة سماوية.

ثم بعد ذلك بأيام أُشيع أن الذي كان يفعل ذلك ـ أعني يُلْقِي النار في الأماكن ـ هم جماعةٌ من القَرَمَانيّة ممّن أحرق العسكرُ المصري أمكنتَهم لما توجّهوا إلى تجريدة ابن قَرَمَان، وشَاع القول في أفواه الناس.

ثم ظهر للناس بعد ذلك أن الذي صار يحرق من الأمكنة بالقاهرة وغيرها بعد حريق بولاق إنما هو مِنْ فعل المماليك الجلبان، لينهبوا ما في بيوت الناس عندمَا تُحرَق، فإنه تداول إحراق البيوت أشهراً ـ والله أعلم. [وغالب الأماكن التي احترقت كانت عُمِّرت بساحل بولاق في دولة الظاهر جقمق][1].

وقد افتقر من هذا الحريق خلائق كثيرة، وعَلَى الله العوض.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب المذكور وصل الأمير بُرْدبَك الدَّوَادار الثاني من الشَّام.

وفيه أيضاً نُوديَ بزينة القاهرة لِدَوَرَان المحمل، ونهى السلطانُ المماليك الأجْلاب عن أن يعمل أحدٌ منهم عَفاريت المحمل. وسببه أنهم فعلوا ذلك في السنة الخالية وأفحشوا في الطلب من الناس، وصاروا يدخُلون إلى دور الأمراء والأعيان، ويكلّفونهم الكلفة الزائدة، وما كفاهم ذلك حتى صار العفريت منهم إذا مرّ بالشَارع عَلَى فرسه بتلك الهيئة المزعجة يجبي الدكاكين، وإذا صدف رئيساً مِنْ بياض[1] النَاس أمسكه وأخذَ منه ما شاء غَصْباً، وإن لم يُعطِه أخرق به ورمَاه عن فرسه، حتى صار الرّجل إذا رأى واحداً من هؤلاء أسرع في مشيه بالدخول في زقاق من الأزِقّة، أو بيت من البيوت، فضرّ ذلك بحال الناس كثيراً، وتركوا فُرْجَةَ المحمل، بل صاروا يترقّبون فراغ المحمل، ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة.

فلما جاء أوان المحمل في هذه السّنة دخل على قلوب الناس الرّجيفُ بسبب ما وقع من المماليك في العام الماضي، فكلّم أعيانُ الدّولة السلطانَ في إبطال المحمل، أو نَهْي الجلبان عن تلك الفعلة القبيحة، فلهذا رسم السلطان في هذه السنة بإبطال عفاريت المحمل بالكليّة.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب هذا أُدِيرَ المحملُ على العادة في كل سنة، ولم يقع من الأجلاب شيء مما وقع منهم في السنة الماضية.

ثم تداول الحريق بعد ذلك بخط بولاق والقاهرة، وقَوِيَ عند الناس أن الذي يفعل ذلك إنما هو من تركمان ابن قَرَمان.

ثم وقع الحريقُ أيضاً في شعبان بأماكن كثيرة، وداخل الناس جميعاً الرُّعْبُ من هذا الأمر.

---

(١) أي الوجهاء والموسرين من تجّار وغيرهم. ويقابله تعبير «سواد الناس». ـ انظر أيضاً فهرس المصطلحات: بياض الناس، سواد الناس.

فلما كان يوم السبت ثاني عشر شعبان نُودِيَ بشوارع القاهرة ومصر بتوجّه كل غريب إلى أهله، وكذلك في يوم الأحد، فلم يخرج أحد لعدم التفات السلطان لإخراجهم.

ثم وقع حريق آخر وآخر، فنودي في آخر شعبان بخروج الغُرَبَاء بسبب الحريق من الدّيار المصرية، فلم يخرج أحد.

وتداول وقوع الحريق بالقاهرة في غير موضع.

ثم في أول شهر رمضان مرض السلطان مرضاً لزم منه الفراش، وأرجف بموته، وطلع إليه أكابر الأمراء، فتكلم معهم في العهد لولده أحمد بالسلطنة من غير تصريح، بل في نوع النكر[1] من ولده، ويقول ما معناه أنَّ ولده ليس كمَن مضى من أولاد الملوك الصغار، وأن هذا رجل كامل يعرف ما يراد منه، وما أشبه هذا المعنى؛ فصار هو يتكلم وجميع الأمراء سكوت، لم يشاركه أحد فيما هو فيه إلى أن سكت، وانفضَّ المجلس. ثم عُوفِيَ بعد ذلك، ودقَّت البشائر بقلعة الجبل وغيرها أياماً.

ثم في يوم الاثنين سادس شهر رمضان أخرقت المماليك الأجلاب بالأمير قانَم التاجر المؤيَّدي أحد مقدّمي الألوف، وهو نازل من الخدمة بغير قماش الموكب، وضربه بعضهم على رأسه وظهره، وجاؤوا بجموعهم إلى داره من الغد ليهجموا عليه، فمنعهم مماليكه من الدخول عليه، فوقع القتال بينهم، وجُرح من الفريقين جماعة. فأخذ قانم المذكور يتلافى أمرهم بكل ما تصل القُدرة إليه، فلم يفد ذلك، إلّا أنه صار يركب وحده من غير مماليك، ويطلع الخدمة وينزل على تلك الهيئة، واستمرَّ على ذلك نحو السنتين.

ثم في هذه الأيام أيضاً تداول الحريق بالقاهرة وظواهرها، وضرَّ ذلك كثيراً بحال الناس، وقد قَوِيَ عندهم أن ذلك من فعل القَرَمانية والمماليك الأجلاب:

(١) كذا في الأصل. ولعلّ المراد: «في نوع من التلميح والإيحاء».

يعنون بالقَرَمانية والأجلاب أن القرمانية إذا فعلوا ذلك مرة ويقع الحريق، فتنهب المماليك الأقمشة وغيرها لما يطلعون الدُّور المحروقة للطفي، فلما حسن ببال المماليك ذلك صاروا يفعلون ذلك.

قلتُ: ولا أستبعد أنا ذلك، لقلّة دينهم وعظم جبروتهم، عليهم من الله ما يستحقونه من العذاب والنكال ـ انتهى.

ثم استهلّ شوّال، أوّله الجمعة، فوقع فيه خطبتان، وتشاءم الناس بذلك على الملك، فلم يقع إلّا الخير والسلامة، وكذبت العادة.

ثم في يوم الجمعة خامس عشره ورد الخبر على السلطان بموت جاك الفرنجي صاحب قُبْرُس، وأنهم ملّكوا عليهم ابنته[1] مع وجود ولد ذكر، لأمْرٍ أجاز تقديم البنت على الصَّبي، على مقتضى شريعتهم، ووقع بسبب ذلك أمور وغزوات يأتي ذكرها في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد حرّرنا ذلك كله في «الحوادث».

وفي يوم الاثنين ثامن عشره خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من القاهرة، وهو الأمير بَرْسبَاي البَجاسي حاجب الحجّاب، وأمير الركب الأول [الطواشي] مَرْجان [الحصكفي] مقدّم المماليك السلطانية.

ثم في العشر الأخير من هذا الشهر ورد الخبر من الإسكندرية بموت الخليفة القائم بأمر الله حمزة بها، كما سيأتي ذكره في الوفيات إن شاء الله.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين ذي القعدة خلع السلطان على ولده المقام الشهابي أحمد باستقراره أتابَك العساكر بالديار المصرية، عوضاً عن الأمير الكبير تَنِبَك البُرْدبَكي بحكم وفاته، وأنعم السلطان بإقطاع ولده أحمد على ولده الصغير المقام الناصري محمد، وصار محمد أمير مائة ومقدّم ألف، وأنعم بإقطاع محمد المذكور ـ وهو إمرة طبلخاناه ـ على الأمير جَانِبَك الصُّوفي الناصري المرتد أحد

(١) انظر ما يأتي: ص ١٠٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

أمراء الطبلخانات، زيادة عى ما بيده، ليكون جَانِبَك أيضاً أمير مائة ومقدّم ألف.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحجة خلع السلطان على القاضي شرف الدين التتائي الأنصاري باستقراره ناظر الجيوش المنصورة، عوضاً عن الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جَكَم، بحكم وفاته في يوم الخميس ثامن عشر ذي الحجة.

وخلع السلطان أيضاً على الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكُوَيز، باستقراره ناظر الخاص الشريف، عوضاً أيضاً عن الصاحب جمال الدين يوسف المقدَّم ذكره.

ثم في يوم السبت سابع عشرين ذي الحجة أيضاً استقرَّ القاضي زين الدين أبو بكر بن مُزْهِر ناظر جوّالي دمشق، وأنه يتوجّه إلى دمشق لضبط تعلقات الجمالي ناظر الخاص، ثم بطل ذلك قبل أن يلبس الخلعة.

ودخلت سنة ثلاث وستّين وثمانمائة:

في أولها كانت الزلزلة المهولة بمدينة الكَرَك، أخربت أماكن من قلعتها ودُورها وأبراجها.

فكان أول المحرّم الأربعاء.

وفي يوم [الخميس] ثانيه استقر القاضي علاء الدين علي بن مُفْلِح[1] قاضيَ الحنابلة بدمشق وكاتبَ سرِّها، بعد عزل القاضي قطب الدين محمد الخَيْضري[2]، بمال كثير بذله في الوظيفتين.

ثم في يوم الثلاثاء استقر القاضي تاج الدين عبد الله بن المقْسي ناظر الدولة كاتب المماليك السلطانية، بعد عزل سعد الدين بن عبد القادر.

وفي رابع صفر استقرّ علي بن إسكندر محتسب القاهرة، بعد عزل بدْر الدين بن البوشِي.

---

(١) علي بن أبي بكر بن إبراهيم بن مفلح توفي سنة ٨٨٢ هـ. ـ ترجمته في الضوء اللامع: ٥/١٩٨.

(٢) محمد بن محمد بن عبد الله الخيضري. توفي سنة ٨٩٤ هـ. ـ ترجمته في الضوء اللامع: ٩/١١٧.

وفيه استقرَّ إياس البَجَاسي نائب القدس، بعد عزل البدري حسن بن أيوب، ثم عـزل إياس المـذكور في يـوم الاثنين ثالث شهـر ربيع الأوّل بشـاه منصـور بن شهري.

ثم في يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الأول المذكور ورد الخبر بموت الأمير يَشْبُك من جَانِبَك المؤيدي الصُّوفي أتابك دمشق بها، فاستقر في أتـابَكِيّة دمشق عوضه الأمير عَلّان شَلَق المؤيـدي أحد أمـراء دمشق، بمال بـذله في ذلـك نحو العشـرة آلاف دينار، وأنعم بتقـدمة عَـلَّان المذكـور على شادبـك السّيفي جُلُبَّان، مضافاً إلى دَوَادارية السلطان بدمشق، وذلك أيضاً بالبذل. ورسم بـإقطاع شـادبك المذكور للأمير قراجا الظاهري، وهو بالقدس ـ بطّالاً ـ ليكون بيده وهو طرخان[1]، ثم بطل ذلك.

ثم في يوم الخميس حادي عشر شهر ربيع الآخر رسم السلطان بنقل الأمير جـانَم الأشرفي نـائب حلب من نيابـة حلب إلى نيابـة دمشق، بعـد مـوت الأميـر قَاني بَاي الحمزاوي بحكم وفاته، وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير جَـانِبَك من أمير الظريف الأشرفي أحد أمراء الطبلخانات وخازندار.

ورُسم بانتقال الأمير حاج إينال اليَشْبُكي من نيابة طرابُلُس إلى نيـابة حلب، عوضاً عن جانَم الأشرفي المذكور؛ وصار مُسَفِّره الأميـر سُودون الإينـالي المؤيدي قَراقاش ثاني رأس نَوْبَة.

ورُسم باستقرار الأمير إياس المحمدي الناصري الطويل نائب حماة في نيابة طـرابُلُس، عوضـاً عن حاج إينـال؛ ومسَفِّره الأميـر جاني بَـك الإينـالي الأشـرفي، المعروف بقَلْقَسِيز، أحد أمراء العشرات ورأس نَوْبَة.

ورُسم باستقرار الأمير جَانِبَك التّاجي المؤيدي نَائب صَفَـد في نيابـة حماة،

---

(١) الطرخان: هو الأمير البطّال الذي يعجز عن الخدمة السلطانية بسبب كـبر السنّ فيُحال عـلى نوع من راتب التقاعد أو إقطاع التقاعد. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: الطرخان، البطّال.

عوضاً عن إياس المحمدي؛ ومُسَفِّره جانَم المؤيَّدي المعروف بحرامي شَكَل، أحد العشرات ورأس نَوْبَة.

ورُسم باستقرار خَيربَك النَّوْرُوزِيّ نائب غزة في نيابة صَفَد، عوضاً عن جَانِبَك التاجِي؛ ومُسَفِّره قانَم طاز الأشرفي أحد أمراء العشرات ورأس نَوْبَة.

ثم استقرَّ ـ بعد مدَّة ـ الأمير بُرْدبَك العبد الرحماني أحد أمراء الألوف بدمشق في نيابة غزة عوضاً عن خَيربَك النَّوْرُوزي المقدّم ذكره؛ وصار مُسَفِّره السَّيفي خَيربَك من حديد الأَجْرود أحد الدَّوادارية الخاصّكِيّة.

قلت: وجميع ولاية هؤلاء النوَّاب المذكورين بالبذل، ما خلا الأمير جانَم نائب الشام.

ثم أنعم السلطان بتقدمة بُرْدبَك العبد الرحماني الذي بدمشق على الأمير قَراجا الظاهريّ المقدَّم ذكره.

ثم في يوم الخميس عاشر جمادى الأولى استقرَّ الأمير بُرْدبَك الأشرفي الدَّوادار الثاني وصهر السلطان أمير حَاج المحمل، واستقر الأمير كَسبَاي الشِّشْمَاني المؤيّدي أحد أمراء العشرات أمير الركب الأول.

واستقر الأمير يَرشْباي الإينالي المؤيَّدي الأمير آخور الثاني ـ كان[1] ـ وأحد أمراء الطبلخانات الآن أميرَ المماليك المجاورين بمكة، ورسم لأسندمر الجَقْمَقي بالمجيء من مكة إلى مصر.

ثم في يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى المذكور استقر القاضي محبّ الدين بن الشحنة الحلبي الحنفي كاتبَ السرّ الشريف بالديار المصرية، بعد عزل القاضي محبّ الدين بن الأشقر.

ثم في يوم الثلاثاء خامس شهر رجب أمسك السلطان القاضي شرف الدين

(١) أي كان سابقاً. وهي عبارة شائعة الاستعمال في كتابات القرون الوسطى.

موسى الأنصاري ناظر الجيش، وسلَّمه إلى الطواشي فيروز النوروزي الزمام والخازندار، فدام عنده إلى أن صُودِر وأخذ منه جمل من الأموال بغير استحقاق، بعد أن عزل عن وظيفة نظر الجيش كما سيأتي ذكره.

ثم ورد الخبر على السلطان من حلب أن الطاعون فشا بها وكثر.

ثم في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب استقرَّ القاضي برهان الدين إبراهيم بن الدَّيْري ناظرَ الجيوش المنصورة عوضاً عن الأنصاري المقدَّم ذكره، بمال كثير بذله في ذلك.

ثم في يوم السبت سادس عشر رجب تعرَّض جماعة من المماليك الأجلاب للأمير زين الدين الأستادار، فهرب منهم، فضربوا الوزير وبهدلوه إلى الغاية، ولم ينتطح في ذلك عنزان، لقوّة شوكة الأجلاب في هذه الأيام، حتى تجاوزت الحدّ، وبطل أمر حكّام الدّيار المصرية قاطبة، وصار مَن كان له حق أو شبه حق لا يشتكي غريمه إلّا عند الأجلاب، ففي الحال يخلص حقه من غريمه، إمّا على وجه الحق أو غيره، فخافهم كلُّ أحد، لا سيما التجّار والبَيَعة من كل صنف. وترك غالب الناس معايشهم، خوفاً على رأس مالهم، فعزَّ بسبب ذلك وجود أشياء كثيرة، ووقع الغلاء في جميع الأشياء، لا سيما في الأصناف المتعلقة بالأجناد، مثل الشعير والتبن والدريس، وما أشبه ذلك من أنواع أقمشة الخيل والبِغال والمتعلقة بذلك، حتى صار لا يوجد بالكليَّة إلّا بعد عُسْرٍ كبيرٍ، وصار مَن له ضيافة من تبن أو دريس أو شعير من الأجناد يسافر من القاهرة ويلاقيه ويمشي معه حتى يصل إلى بيته إن قدر على ذلك، وإن كان أميراً أرسل إلى ملاقاته بعض مماليكه، وربما أخذوا ممّن استضعفوه من الأجناد أو مماليك الأمراء، وزاد هذا الأمر حتى أضرَّ بجميع الناس قاطبة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وفي يوم الأحد سابع عشر شهر رجب تعرَّض بعض المماليك الأجلاب للقاضي محبّ الدين ابن الشِّحْنَة كاتب السِّرّ، وهو طالع إلى الخدمة السلطانية، وضربه من غير أمر يوجِب ضربه أو الكلام معه.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره استقرَّ الأمير ناصر الدين بن محمد القَسَّاسي، المعروف بمخلع، دَوادار السلطان بحلب.

وفي يوم الخميس حادي عشرين رجب أيضاً استقر البدري حسن بن أيوب في نيابة القدس بعد عزل منصور بن شهري.

وفيه رسم السلطان بطلب أبي الخير النحَّاس من البلاد الشامية على يد ساعٍ.

وفي يوم السّبت أوّل شعبان وقع حريق عظيم ببندر جدَّة بالحجاز.

وفيه توفي خَيربك المؤيَّدي الأشقر الأمير آخور الثاني، وأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير بُرْدبَك المحمدي الظاهري المعروف بالهجين الأمير آخور الثالث، وأنعم بإقطاع بُرْدبَك المذكور على تَغْرِي بَرْدي الأشرفي، وأنعم بإقطاع تَغْري بَرْدي على قَراجا الأشرفي الأعرج؛ وتَغْري بَرْدي وقَراجا كلاهما من مماليك السلطان القديمة أيام إمْرَته.

ثم في يوم الاثنين ثالث شعبان المذكور استقرَّ الأمير يَلَباي الإينالي المؤيَّدي، أحد أمراء الطبلخانات، أمير آخور ثانياً عوضاً عن خَيربَك الأشقر المقدّم ذكره.

وفيه استقر دولات باي الظاهري، نائبُ رأس نَوْبَة الجَمدارِيَّة[1]، رأسَ نَوْبَة الجَمَدارِيّة عوضاً عن قَراجا الطويل الأعرج الذي تأمَّر.

واستقرَّ في نيابة رأس نَوْبَة الجَمَدارِيَّة شخصٌ يسمى قايتبَاي الأشرفي، فوثب شخص من الخاصّكيَّة الأجلاب يسمى بَرْسباي، وجذب سيفه بالقصر السلطاني، بسبب ولاية هذين لهاتين الوظيفتين، ولكونه لِمَ لاَ ولي هو[2] إحداهما، ثم وقع منه

---

(١) رأس نوبة الجمدارية: هو كبير الجمدارية الذين يتولّون مهمة إلباس السلطان أو الأمير ثيابه.
ـ والمصطلحات التي يجدها القارىء غير مشروحة في الحواشي نكون قد شرحناها سابقاً، فلينظر في ذلك فهرس المصطلحات لتعيين الجزء والصفحة حيث ورد الشرح المذكور.

(٢) كذا هي عبارة الأصل. والمراد واضح. ولا تخفى ركاكة التعبير.

أمور أضربنا عن ذكرها، خوفاً على نامُوس ملك مصر.

ثم في يوم السبت ثامن شعبان رسم بإطلاق القاضي شرف الدين الأنصاري مِنْ مكانه بقلعة الجبل بعد أن أخذ منه جملة مستكثرة من الذَّهب العين وغيره.

ثم في يوم الأحد تاسعه ضرب السلطان مملوكين من مماليكه الأَجلاب وحبسهما، لأجل قتلهما نَانَق الظاهري، ولم يقتلهما به كما أمر الله تعالى.

ثم في يوم ثاني شهر رمضان وصل أبو الخير النحّاس من البلاد الشامية إلى القاهرة وخلع السلطان عليه كامليَّة بمقلب سَمُّور.

وفي يوم الثلاثاء تاسعه قدّم أبو الخير النحّاس إلى السلطان اثنين وسبعين فرساً، وثلاثين بغلاً.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان المذكور نهبت العبيد والمماليك الأجلاب النسوة اللاّتي حضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ بمصر القديمة، وأفحشوا في ذلك إلى الغاية، وكل مفعول جائز.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر، استقر أبو الخير النّحاس ناظر الذخيرة السلطانية ووكيل بيت المال.

وفي يوم الأحد حادي عشرينه أغلقت المماليك الأجلاب بابَ القلعة، ومنعوا الأمراء والمباشرين من النزول إلى دورهم بسبب تعويق علّيق خيولهم، وفعلوا ذلك أيضاً من الغد إلى أن رُسِم لهم ـ عوضاً عن كل علّيقة ـ مائتا درهم.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين شهر رمضان المقدّم ذكره استقر خُشقدم السّيفي أردبُغا الذي كان دوادار القاني باي الحمزاوي [نائب الشام] في حجوبية طَرَابُلُس على سبعة آلاف دينار، بعد عزل شادبك الصارمي.

وفي يوم الأحد ثامن عشرينه وصل إلى الدّيار المصرية جَاكُم[1] الفرنجي ابن

(١) هو الأمير جيمس أسقف نيقوسيا، ابن الملك يوحنا (جوان) الثاني من أُسرة لوزينيان. وقد كانت جزيرة قبرص منذ سنة ٨٣٠ هـ (في عهد السلطان برسباي) خاضعة لسلطان مصر. وكان برسباي قد أكره=

جَوَان صاحب جزيرة قُبْرس، بطلب من السلطان، لِيَلِيَ - عوضاً عن أبيه - مُلْكَ قبرس؛ وكان أهل قبرُس ملَّكوا عليهم أُخته مع وجوده، كونه ابن زنا، أو غير ذلك، لأمر لا يجوِّز وليته في مِلَّتهم.

وفي هذا الشهر أخذ الطاعون في انحطاط من مدينة حلب، وانتشر فيما حولها من البلدان والقرى بعد أن مات منها نحو من مائتي ألف إنسان.

ثم في يوم الخميس ثالث شوّال ضربت المماليك الأجلاب أبا الخير النحّاس، وأخذوا عمامته من عَلَى رأسه، فتزايد ما كان به من الضعف؛ فإنه كان مستضعفاً قبل ذلك بمدَّة. وأُخذ أمره [من] يومئذ في انحطاط، ولزم الفراش، إلى أن مات حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي يوم السبت خامس شوّال عمل السلطان الموكب بالحوش السلطاني من قلعة الجبل، وأحضر جَاكُم بن جَوَان الفرنجي، وخلع عليه كامليَّة، وخلع على اثنين أُخَر من الفرنج الذين قَدِموا معه، وأعطاه السلطان فرساً بسرج ذهب، وكنبُوش زركَش، وركب الفرس المذكور وغيره مُدَّةَ إقامته بالديار المصرية، ووَلّاه نيابة قبرُس، ووعده بالقيام معه، وتخليص قبرس له.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شوّال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل، وهو الأمير بُرْدبك الدَّوَادار الثاني، وأمير الركب الأول الأمير كَسبَاي من ششمان أحد أُمراء العشرات.

= ملكها يانوس على الخضوع لسلطانه وثبته في ملكه على أن يؤدي الجزية، وبقيت في الجزيرة حامية مصرية صغيرة. وفي سنة ٨٦٢ هـ/١٤٥٦ م توفي يوحنا الثاني خليفة يانوس فخلفته في المُلْك ابنته شرلوت. وكان ابنه جيمس المذكور أسقفاً لنيقوسيا، ففرّ إلى مصر وظلّ فيها وهو يدّعي العرش لنفسه. وفي ذلك الصراع بين الأخوين انحاز أمير فرسان القديس يوحنا صاحب جزيرة رودس إلى صف شرلوت، فقرر السلطان إينال دعم موقف جيمس وأرسل معه أسطولاً إلى قبرص استعان به على فتح عاصمتها نيقوسيا من غير مقاومة، وأطال حصار مدينة كرينيس. ويظهر أن قائد الأسطول رشته الملكة شرلوت فعاد الأسطول إلى مصر وترك في قبرص حامية صغيرة استطاع جيمس أن يحتفظ بمساعدتها بالأراضي التي استولى عليها، دون أن يتيسّر له إجلاء شرلوت عن البلاد التي كانت في يدها. (دائرة المعارف الإسلامية: ٥/٤١٩).

وفي يوم الخميس أوّل ذي القعدة شرع السلطان في عمارة مراكب برسم الجهاد، وإرسال جَاكُم صحبتهم إلى قُبرس، وجعل المتحدّث على عمارة المراكب المذكورة سُنْقُر الأشرفي الزَّرَدْكاش، المعروف بقَرق شَبَق؛ فباشر سنقر المذكور عمل المراكب أقبح مباشرة، من ظلم وعسف، وأخذ الأخشاب بأبخس الأثمان، إن وزن ثمناً. وفعل هذا الشقيُّ أفعالاً لا يفعلها الخوارج، عليه من الله ما يستحق من الخزي والنكال، بحيث إنه جمع من هذا المال الخبيث جملة كبيرة خرجت منه بالمصادرة والنَّهب والحريق، ﴿ وما ربُّك بظلّامٍ للعبيد ﴾.

ثم في يوم الاثنين خامس ذي القعدة سافر تَغْري بردي الطيَّاري الخاصكي قاصداً قبرس، ليخبر أهلها أن السلطان يريد ولاية جَاكُم هذا على قبرس مكان والده، وعزل أُخته، ويلومهم على عدم ولاية جَاكُم هذا وتقديم أُخته عليه.

وفي يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة مات الأمير بايزيد التَّمُرْبُغاوي أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، وأنعم السلطان بتقدمته وإقطاعه على الأمير سُودون الإينالي المؤيدي رأس نوبة ثانٍ، بمال بذله سُودون في ذلك[1]، وأنعم بإقطاع سُودون المذكور وهو إمرة طبلخاناه على الأمير خُشْكَلْدي القَوامي الناصري.

واستهلّت سنة أربع وستّين وثمانمائة بيوم الأحد.

وفي يوم الثلاثاء سابع عشر المحرّم من السنة المذكورة وصلت الغزاة المتوجهة قبل تاريخه إلى بلاد الجرون[2] ببرِّ التركيّة لإحضار الأخشاب، وكان مقدَّم هذا العسكر أربعة من الأمراء العشرات، وهم: قاني باي قَراسُقل المؤيَّدي، والأمير جَانِبَك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية، والأمير مُغُلْباي طاز المؤيدي، والأمير بُردبَك اليشبكي المشطوب.

---

(١) اضاف المؤلّف في حوادث الدهور: «وهذا شيء لم نعهده من أمراء طبلخانات يسعون في إمرة مائة وتقدمة الف بمال. وأظنها صارت عادة لمن يكون من طبع سُودُون هذا. وأما من يكون شهماً وفيه مروءة فلا يرضى بذلك ولو أُعيد إلى الجندية».

(٢) راجع ص ٨٦ من هذا الجزء، والحاشية (١) من نفس الصفحة.

وفي يوم سابع عشرينه ـ الموافق لسادس عشر هاتور ـ لبس السلطان القماش الصُّوف[١] الملوّن، وألبس الأمراء على العادة في كل سنة.

وفي هذا الشهر عظم الطاعون بمدينة غَزَّة، وأباد الموت أهلها، [حتى تجاوز عدد الموتى بها في اليوم سبعمائة، وقيل أكثر وأقلّ][٢].

وفي يوم السبت ثاني عشر صفر خلع السلطان على فارس مملوك الطواشي فَيْروز الرّكني باستقراره وزيراً بعد تسحّب علي بن الأَهْنَاسي، فلم يحسن فارس المذكور المباشرة سوى يوم واحد، وعجز وكاد أن يهلك. وكان لولايته أسباب منها: أنه كان يبرق ويرعد ويوسِع في الكلام في نوع المباشرة وغيرها، فحسب السامع أن «في السويداء رجالاً»، واسْتسمن وَرَمَه فولّاه؛ فما هو إلّا أن أرمى الخلعة على أكتافه [حتى] ظهر عليه العجز الفاضح في الحال، وضاق عليه فضاء الدنيا، وخسر في اليوم المذكور جملاً مستكثرة. واستعفى، وترامى على أكابر الدَّولة، وكاد أن يهلك لولا [أن] أُعفي وعزل، بعد أن أُلزم بشيء له جرم[٣] على ما قيل، ووَلِيَ الصاحب شمس الدين منصور الوَزَر عنه.

قلتُ: ما أحسن الأشياء في محلها، وحينئذ أُعطي القوس لرامِيه.

وفي يوم الخميس سابع عشر صفر ورد الخبر من الشام بموت الأمير عَلَّان شَلَق المؤيّدي أَتابَك دمشق.

وفي يوم ثامن شهر ربيع الأول استقرَّ الحاج محمد الأَهْنَاسِي البُرْددار وزيراً، بعد عزل الصاحب شمس الدين منصور من غير عجز بل لمعنًى من المعاني. والحاج محمد هذا هو والد علي بن الأَهْنَاسِي المقدّم ذكره في الوزر والأستادارية، ووَلِيَ الوزر قبل أن تسبق له رئاسة في نوع من الأنواع، لأن كِلا الوالد والولد عارٍ

---

(١) هو لباس الشتاء. وكان في الصيف يلبس القماش البعلبكّي. وكان من عادته أن يصدر إلى امرائه أمراً بلباس نوع القماش الذي يلبسه.

(٢) زيادة عن حوادث الدهور.

(٣) كثيراً ما يستعمل المؤلّف هذه العبارة، وهي عنده بمعنى: مال كثير.

عن الكتابة ومعرفة قلم الدَّيْوَنة(١)، ولم يكن لهما صنعة غير الرَّسْلِيَّة(٢) والبُرْدداريَّة لا غير، فباشر الحاج محمد هذا الوزير أحد عشر يوماً وعزل، وأُعيد الصاحب شمس الدين منصور للوزر ثانياً.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول استقرّ الأمير تَغْري بَرْدي الأشرفي، أحد أمراء العشرات، نائبَ الكَرَك، وأنعم بإقطاعه على ابن الأمير بُرْدبَك الدَّوادار الثاني، والمنعم عليه هو ابن بنت السلطان.

ثم في يوم الخميس ثاني عشرينه استقر الأمير تَمُرْباي طَطَر الناصري، أحد أمراء العشرات، أميرَ حاج المحمل.

ثم في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور عمل السلطان المولد النبوي بالحوش السلطاني على العادة في كل سنة، وأحضر السلطان جاكُم الفرنجي ابن صاحب قُبْرُس، وأجلسه عند أعيان مُباشِري الدَّولة، فعظم ذلك على الناس قاطبة.

قلتُ: ولعلّ السلطان ما أحضره في هذا المجلس إلّا ليُريه عِزَّ الإسلام وذُلّ الكفر.

ثم في أول شهر ربيع الآخر ظهر الطاعون بمدينة بُلْبيس وخانقاه سِرْياقوس من ضواحي القاهرة.

وكان أول الشهر يوم الجمعة الموافق لأول طوبة من شهور القبط، فتخوَّف كلُّ أحد من مجيء الطاعون إلى القاهرة. هذا مع ما الناس فيه من جهد البلاء من غُلُوّ الأسعار وظلم المماليك الأجلاب الذي خرج عن الحدّ، وعَدَم الأمن، وكثرة المخاوف في الأَزِقَّة والشوارع، بحيث إن الشخص صار لا يقدر على خروجه من داره بعد أذان عشاء الآخرة، حتى ولا لصلاة الجماعة، ولو كان جار المسجد. وإنْ

---

(١) قلم الديونة، أو فنّ الديونة، هو عمل الكتابة في الدواوين.
(٢) أي عمل الذين يحملون الرسائل. ويقال لهم أيضاً: النجّابة. وقد سبق التعريف بالبردار.

أذَّن مؤذن العشاء والشخص خارج عن داره هَرْوَل في مشيه وأسرع لئلا تُغلَق عليه الدروب التي عمّرتها رؤساء كلِّ حارة، خوفاً على بيوتهم من المناسر[1] والحرامية، لأن والي القاهرة خيربَك القَصْرَوي حَطَّ عنه أمورَ الناس، وانعكف على ما هو عليه من المفاسد؛ وسببه أنه علم أن الذي يتعبث على الناس أو يسرق إنما هو من المماليك الأجلاب أو من أتباعهم، وعلم مع ذلك ميل السلطان إلى الأجلاب، واتفق بعد ذلك كثرة السُرَّاق، وفتح البيوت، وهجم المناسر على الحارات، وكَلَّمَهُ السلطان في ذلك بكلام خشن، ووبَّخه في الملأ، وكان أن يفتك به، فأوهم الوالي السلطان ـ بالتلويح في كلامه ـ أن الذي يفعل ذلك إنما هو من المماليك الأجلاب؛ وكان الذي لوَّحه الوالي إلى السلطان قوله: «يا مولانا السلطان أنا ما لي شغل ولا حكم على مَن يلبس طاقية ـ يعني المماليك ـ وما حكمي إلّا على العوّام والحرامية»، فسكت السلطان، ولم يكلّمه بعد ذلك إلّا في غير هذا المعنى، فوجد الوالي بذلك مندوحة لسائر أغراضه، وحطَّ عنه واستراح، وانحلّ النظام، وضاعت حقوق الناس، وأخذ كلّ مُفسِد يتزيّا بزيّ الجند، ويفعل ما أراده، وصار الوالي هو كبير الحراميّة، ولا قوة إلّا بالله.

وفي يوم السبت تاسع شهر ربيع الآخر اختفى الصاحب شمس الدين منصور، وتعطَّل ـ بسبب غيابه ـ رواتب المماليك السلطانية، فاستغاثوا المماليك الأجلاب، ومنعوا الأمراء يوم الأربعاء من طلوع القلعة، وامتنعوا من طلوع الخدمة يوم الخميس أيضاً رابع عشره. وطلع الأميرُ يُونُس الدّوادار إلى القلعة بغير قماش الخدمة، فلما وصل إلى باب القلعة احتاطت به المماليك الأجلاب، وسألوه أن يُكلم السلطانَ في أمرهم، فدخل الأميرُ يُونُس المذكورُ إلى السلطان، وذكرَ له ذلك. ثم تردّدت الرّسل بين السلطان وبينهم إلى أن آل الأمر إلى طلب سعد الدين فرج بن النحّال، واستقرّ وزيراً على عادته أولاً على شروط، ونزل من وقته، وباشر

---

(١) هم اللصوص وقطّاع الطرق. وكان يطلق عليهم أيضاً تسميات أخرى مثل الشطّار والعيّارين. ـ راجع فهرس المصطلحات: الشطّار، العيّارون.

الوَزَر، وسكن الأمرُ. وقد ذكر لي الصاحب شمس الدين أنه لم يختفِ إلّا بإذن السلطان.

وفي هذه الأيام فشا الطاعون بالقاهرة، وكان عِدَّة مَنْ ورد اسمه الديوان(١) من الأموات في يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر المذكور ـ الموافق لسابع عشر أمشير، وهو يوم تنتقل الشمس إلى برج الحوت ـ خمسة وثلاثين نفراً، ولها تفصيل، وذلك خارج عن البيمارستان المنصوري والأوقاف والقرافتين والصحراء وبولاق ومصر القديمة.

وأمّا ضواحي القاهرة وإقليم الشرقية والغربية من الوجه البحري فقد تزايد الطاعون فيها حتى خرج عن الحدّ، وهو إلى الآن في زيادة.

وكان أمر الطاعون في القرى أنه إذا وقع بقرية يفني غالب مَنْ بها، ثم ينتقل إلى غيرها، وربما اجتاز ببعض القرى ولم يدخلها، فسبحانه يفعل في مُلكه ما يريد.

وفي يوم الخميس حادي عشرينه ضرب المماليك الأجلابُ الأميرَ زينَ الدين الأستادار بسبب عليق الخيول ضرباً مبرحاً، وانقطع بسبب ذلك عن الخدمة أياماً كثيرة.

وفي يوم السبت ثالث عشرينه وقع من بعض المماليك الأجلاب إخراقٌ في حق الأمير يونس الدَّوادار ـ والشخص المذكور يسمى قانصوه، وكان ذلك في الملأ من الناس ـ ونزل الأمير يُونس إلى داره وهو في غاية ما يكون من الغضب، فما كفى قانصوه المذكور ما وقع منه في القلعة في حق الأمير يونس، حتى نزل

(١) أي ديوان المواريث الحشرية. وقد جرت عادة هذا الديوان أن كاتبه يكتب في كل يوم تعريفاً بمَن يموت بمصر والقاهرة ممّن لا وارث له، أو له وارث لا يستغرق ميراثه. وهؤلاء الأموات من هذا النوع كانوا يسمّون «الحشرية» ويعود ميراثهم إلى الدولة. كما كان هذا الديوان يُعنى بتسجيل أسماء جميع الوفيات من المسلمين وغير المسلمين وتُكتَب منه نسخ إلى بعض الدواوين الأخرى في الدولة. وكان هذا الديوان يغلق من وقت العصر، فمَن مات بعد العصر أُضيف إلى النهار القابل. (انظر صبح الأعشى: ٥٣٢/٣، و٣٣/٤؛ وخطط المقريزي: ١١١/١).

إليه بداره وأساء عليه ثانياً بحضرة مماليكه وحواشيه، فلم يسع الأمير يونس المذكور إلّا أن قام من مجلسه وعزل نفسه عن الدَّوادارية، ودخل إلى داره من وقته، وأقام بها من يومه.

ثم في الغد لم يقع من السلطان على قَانْصُوَه المذكور ـ بسبب ما وقع منه في حق الأمير يونس ـ كبير أمر، ولا كَلّمه الكلامَ العُرْفيَّ؛ غير أن ابن السلطان الشهابي أحمد أرسل سأل الأمير يونُس في الطلوع إلى القلعة وحضور الخدمة.

ثم إنّ بعض الأمراء أخذ قانصوه المذكور وأتى به إلى الأمير يونس حتى قبَّل يده؛ ولا زال ذلك الأمير وغيره بالأمير يونس حتى رضي عنه، بعد أن أوسعه سبّاً وتوبيخاً، وذلك حيث لم يجد يونس له ناصراً ولا مُعيناً.

وأغرب من هذا أنه بلغني أن قانصوه لمّا أفحش في أمر الأمير يونس أولاً ربما أضاف إليه السلطانَ في بعض الإساءة، والسلطان يسمع كلامه.

قلتُ: إن صحّ هذا فهو مما يهوِّن علي الأمير يُونس ما وقع في حقه من قانصوه.

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه عجز الأمير زين الدين الأستادار عن القيام بجامكية المماليك السلطانية، فقام إلى السلطان شخص من الخاصكية الأجلاب يسمى جانبيه المجنون، وقال للسلطان: «الملوك التي كانت قبلك كانوا ينفقون الجوامك، لأيّ شيء أنت ما تعطي مثلهم؟». فغضب السلطان من كلامه، وطلب العصي ليضربه، فخرج جماعةٌ من الأجلاب من خجداشيته، وجذبوه من بين يدي السلطان، وتوجّهوا به إلى الطبقة، ولم يتكلم السلطان بكلمة واحدة.

هذا والطاعون أمره في زيادة. فلما استهلَّ جمادى الأولى الموافق لتاسع عشرين أمشير كَان في التعريف (أعني عدّة مَن يرد اسمه الديوان من الأموات) ستّين نفراً، وهذا خلاف الأماكن المقدّم ذكرها من البيمارستان والطرحى[١]

(١) أي الجثث المطروحة في الطرقات.

والقرافتين والصحراء ومصر وبولاق. وأما نواحي أرياف الوجه البحري ففي زيادة، حتى قيل إنه كان يموت من خانقاه سرياقوس في اليوم ما يزيد على مائتي نفر. ووصل في هذه الأيام عدّة مَن يموت بالمحلّة الكبرى - إحدى قرى القاهرة[1] - كل يوم زيادة على مائتين وخمسين إنساناً؛ وهذا أمر كبير، كون أن المحلّة وإن كانت مدينة هي قرية من القرى، ومثلها كثير من أعمال الديار المصرية.

غير أن ذلك كان نهاية الطاعون بها وابتداءه بالقاهرة؛ فإن الطاعون كان وقع بالأرياف قبل القاهرة بمدّة، فلما أخذ الطاعون في انحطاط من الأرياف أخذ في الزيادة بالقاهرة ومصر وضواحيها، كما هي عادة الطاعون وانتقاله من بلد إلى أخرى.

وفي يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة أربع وستّين المذكورة أنعم السلطان على سُودون الأَفْرم الظاهري الواصل قبل تاريخه من البلاد الشامية بإمرة عشرة بعد موت الأمير أَسَنْدَمُر الجَقْمَقي.

وفي هذا اليوم أيضاً كان عدة مَن ورد التعريف بهم من الأموات بالقاهرة فقط مائة وعشرة نفر، ولها تفصيل - ما بين رجال ونساء وصبيان ومَوَالٍ - وليس لذكر التفصيل هنا محل.

وكان من شأن هذا الطاعون أنه ينقص في اليوم نقصاً قليلاً عن أمسه، ثم يزيد في الغد كثيراً، إلى أن انتهى ونقص وهو على هذه الصفة.

وفي هذه الأيام بلغ عدّة مَن يموت في اليوم بخانقاه سرياقوس أكثر من ثلاثمائة نفر، ويقول المُكثِر أربعمائة، وبالمحلة ثلاثمائة، وفي مدينة منف في يوم واحد نحواً من مائتين، وقس على هذا في سائر القرى، وهذا نهاية النهاية الآن.

وفي يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى - يوم تنتقل الشمس فيه إلى برج

---

(١) في حوادث الدهور: «من أعمال الغربية». وهي قريبة من القاهرة. وبهذا المعنى يجب فهم عبارة المؤلف هنا.

الحمل ـ كان فيه عدّة مَن ورد اسمه التعريف مائة وسبعين نفراً؛ وجاء في هذا اليوم عدّة مَن صُلِّي عليه من الأموات بمصلاة باب النصر على حدّتها مائة نفر، فكيف يكون التعريف كله مائة وسبعين، وبالقاهرة مصلوات كثيرة نذكرها بعد ذلك في محلها؟!.

وأبلغ من هذا أن الأمير زين الدين الأستادار ندب جماعة من الناس بأُجرة معينة إلى ضبط جميع مصلوات القاهرة وظواهرها، وكان ما حرّروه ممّن صُلّي عليه في اليوم ستمائة إنسان، فعلى هذا لا عبرة بذكر التعريف المكتتب من ديوان المواريث، غير أن فائدة ذكر التعريف تكون لمعرفة زيادة الوباء ونقصه لا غير، ففي ذكره فائدة ما.

وفي يوم الجمعة عشرين جمادى الأولى كان فيه التعريف مائتين وتسعة نفر.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه أنعم السلطان على قاني باي الأشرفي المعروف بأخي قانْصُوَه النّورُوزِي بإمرة عشرة بعد موت الأمير يَشْبُك الظاهري.

ثم في يوم الخميس سادس عشرينه استقر الأمير بَرْسبَاي البجاسي حاجبُ الحجَّاب أمير آخور كبيراً بعد موت يونس العلائي بالطاعون، واستقر سُودون الإينالي المؤيدي المعروف بقراقاش في حجوبية الحجّاب عوضاً عن بَرْسبَاي البجاسي المقدّم ذكره.

وفيه أيضاً أنعم السلطان بإقطاع يونس العلائي على الأمير جَرِباش المحمدي أمير مجلس، وأنعم بإقطاع جَرِباش المذكور على الأمير جَانِبَك الظاهري نائب بندر جدَّة، وصار جَانِبَك من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، وذلك زيادة على ما بيده من التحدّث على بندر جدَّة، بل على جميع الأقطار الحجازية؛ والإقطاع الذي استولى عليه الأمير جَرِباش والذي خرج عنه كلاهما تقدمة ألف، لكن متحصّل خراجهما يتفاوت.

وفي يوم الخميس هذا كان عدّة مَن ورد اسمه الديوان من الأموات نحواً من

مائتين وخمسة وثلاثين نفراً، وكان عدّة المضبوط بالمصلاة[١] ألفاً ومائة وثلاثة وخمسين نفراً، وذلك خارج عمّا ذكرنا من مصر وبولاق والقرافتين والصحراء والأوقاف وزاوية الخُدَّام خارج الحُسَيْنية.

وفي يوم السبت ثامن عشرين جمادى الأولى المقدّم ذكرها استقرّ الشهابي أحمد بن قُلَيْب أستادار السلطان بمدينة طرابُلُس في حجوبية حجّاب طرابُلُس، زيادة على ما بيده من الأستادارية وغيرها؛ وكانت ولايته للحجوبية بعد موت خشقدم الأردبغاوي[٢] دَوادار قاني باي الحمزاوي.

ثم استهلّ جمادى الآخرة ـ أولها يوم الثلاثاء ـ وقد كثر الوباء بالديار المصرية، وانتشر بها وبظواهرها، هذا مع الغلاء المفرط في الأسعار وظلم المماليك الأجلاب، فصارت الناس بين ثلاثة أمور عظيمة: الطاعون، والغلاء، والظلم، وهذا من النوادر ـ وقوع الوباء والغلاء معاً في وقت واحد ـ فوقع ذلك وزيد ظلم الأجلاب، ولله الأمر.

وكان التعريف في هذا اليوم ثلاثمائة وستّة عشر نفراً؛ وكان الذي حرّروه في السبع عشرة مصلاة ألف إنسان وتسعمائة إنسان وعشرة. وأنكر ذلك غير واحد من الناس استقلالاً، بل قال بعضهم وبالغ بأن عدّة مَن يموت في اليوم بالقاهرة أكثر من ثلاثة آلاف نفر، واعتلّ بقوله إن الذين ندبوا لضبط المصلوات اشتغل كلٌّ منهم بنفسه وبمَن عنده وبغلمانه.

قلت: الصواب بل الأصحّ مقالة الثاني لما شاهدناه من كثرة الجنائز، وازدحام الناس بكل مصلاة ـ والله أعلم.

وأما أمر الغلاء ففي هذا الشهر بيع فيه القمح كل إردب بستمائة درهم،

---

(١) كذا في الأصل. والصواب «المصلوات» بصيغة الجمع. والواضح أن بيانات ديوان المواريث لم تعد تعطي فكرة صحيحة عن عدد الوفيات الحقيقي بسبب تفشّي الطاعون وكثرة الموتى وتعدّد المصلوات في القاهرة وضواحيها، الأ.. الذي لم يعد يسمح بالتصريح بجميع الوفيات وعجز الديوان عن ضبط ذلك.

(٢) في الضوء اللامع: «الأرنبغاوي». وفيه أنه ينسب لأرنبغا نائب قلعة صفد.

والبطّة[١] من الدقيق العلامة بمائة وسبعين درهماً، والرطل الخبز بأربعة دراهم، وهو عزيز الوجود بالحوانيت في كثير من الأوقات، والشعير والفول كلاهما بأربعمائة درهم الإردب، وهما في قلّة إلى الغاية والنهاية، والحمل التبن بأربعمائة درهم ولا بُدَّ له من حارس من الأجناد يحرسه من المماليك الأجلاب، هذا والموت فيهم بالجريف[٢] ـ وصلوات الله على سيدنا عزرائيل ـ وما سوى ذلك من المأكل فسعره متحسّن، لا كسعر كالشعير والتبن والقمح والفول، كون هذه الأشياء يحتاج إليها الأجلاب، فيأخذونها بأبخس الأثمان، فترك الناس بيع هذه الأصناف إلاّ المحتاج، فعزّ وجودها لذلك.

ووقع للأجلاب في هذا الوباء أمور عجيبة؛ فإنهم لمّا فرغوا من أخذ بضائع الناس ظهر منهم في أيام الوباء أخذ إقطاعات الأجناد، فصاروا إذا رأوا شخصاً على حانوت عطّار أخذوه، وقالوا له: «لعلّ الضعيف يكون له إقطاع»، فإن كان له إقطاع عرّفهم به، وإن لم يكن للضعيف إقطاع طال أمره معهم إلاّ أن يخلّصه منهم أحد من الأعيان.

ثم بدا لهم بعد ذلك أن كل مَن سمعوا له إقطاعاً من أولاد الناس أو الأجناد القرانيص أخذوا إقطاعه، فإن كان صحيحاً يرتجون مرضه، وإن كان ضعيفاً ينتظرون موته؛ فعلى هذا الحكم خرج إقطاع غالب الناس ـ الحيّ والميت ـ حتى إنهم فعلوا ذلك بعضهم مع بعض. فصار السلطان والناس في شغل شاغل، لأن الأجلاب صاروا يزدحمون عليه لأخذهم إقطاعات الناس، وعندما يتفرّغ من المماليك الأجلاب يتظلّم كل أحد إليه ممّن خرج إقطاعه وهو في قيد الحياة، فلم يسعه إلاّ ردّه عليه؛ فصار الإقطاع يخرج اليوم ويُرَدّ إلى صاحبه في الغد، فصار يكتب في اليوم الواحد عدّة مناشير ما بين إخراج وردّ، واستمر الناس على ذلك من أوّل الفصل إلى آخره.

---

(١) البطّة: وعاء على شكل البطّة (الطائر المعروف) يستعمل عادة للزيت ونحوه.
(٢) أي بالكثرة.

وأغرب من هذا أن بعض الأجلاب اجتاز في عِظَم أيّام الوباء بالصحراء، فحاذى جنازة امرأة على نعشها طرحة زَرْكَش، فاختطفها وساق فرسه فلم يوقف له على أثر.

ووقع لبعض الأجلاب أيضاً أنه صدف في بعض الطرقات جنازة وهو سكران، فأمره المدير بالوقوف لتمرّ الجنازة عليه، فحنق منه، وأراد ضرب المدير، فهرب منه، فضرب الميت على رأسه، وقد شاهد ذلك جماعةٌ كثيرةٌ من الناس.

وفيما حكيناه كفاية عن فعل هؤلاء الظَّلَمَة ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾.

وفي يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة وصل إلى القاهرة تَغْري بَرْدي الطيَّاري الخاصكي المتوجّه في الرّسلية[1] إلى جزيرة قُبْرُس، وصحبته جماعة كثيرة من ملوك الفرنج وأهل قُبْرُس. والقادمون من الفرنج على قسمين: فرقة تسأل إبقاء مُلك قُبْرُس على الملكة المتولية، وفرقة تسأل عزلها وتولية أخيها جاكُم الفرنجي الذي قَدِمَ إلى القاهرة قبل تاريخه، فلم يبتّ السلطان الأمر من ولاية ولا عزل في هذا اليوم، وأحال الأمر إلى ما سيأتي ذكره.

وفي يوم الخميس ثالث جمادى الآخرة المذكورة عظم الطاعون بالقاهرة وظواهرها، واختلفت كلمة الحُسَّاب، لاشتغال كل أحد بنفسه وبمَن عنده؛ فمنهم مَن قال: يموت في اليوم أربعة آلاف إنسان، ومنهم مَن قال: ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقاس صاحب القول الثاني على عِدَّة مَن صُلِّي عليه في هذا اليوم المذكور بمصلاة باب النصر، وقال: إن كل مائة ميت بمصلاة باب النصر بثلاثمائة وستّين ميتاً، وجاءت مصلاة المؤمني في هذا اليوم أربعمائة وسبعة عشر ميتاً؛ وهذا كله تقريباً لا تحريراً على الأوضاع.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة عمل السلطان الموكب بالحوش

---

(١) كان قد أرسله السلطان إلى أهل قبرس ليعلمهم برغبة السلطان إينال تعيين جيمس أسقف نيقوسيا ملكاً على قبرس بدلاً من أُخته شرلوت التي استولت على العرش. ـ راجع ص ١٠٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

السلطاني لأجل قُصَّاد الفرنج، وحضرت الفرنج وقبلوا الأرض ونزلوا أيضاً على غير طائل.

وفي يوم الجمعة حادي عشره كان فيه التعريف مائتين وثمانين، وجاءت مصلاة باب النصر على حدتها خمسمائة وسبعين.

وفيه ضربت المماليكُ الأجلابُ الوزيرَ سعدَ الدين فرج بن النحّال ضرباً مبرحاً، لكونه لم يزد راتب لحمهم.

وفي يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة كان فيه التعريف نحو ثلاثمائة إنسان، منهم مماليك خمسة وسبعون: منهم خمسة وثلاثون من مماليك الأمراء وغيرهم، ومَن بقي سلطانية. وأما الذي ضبط في هذا اليوم ممّن صُلّي عليه من الأموات باثنتي عشرة مصلاة أربعة آلاف إنسان، وفي ذلك نظر؛ لأن مصلاة باب النصر وحدها جاءت في هذا اليوم خمسمائة وسبعين، ومصلاة البياطرة أربعمائة وسبعين، وجامع الأزهر ثلاثمائة وستّة وتسعين، فمجموع هذه المصليات الثلاث من جملة سبع عشرة مصلاة أو أكثر ألف وأربعمائة وستّة نفر، فعلى هذا كيف يكون جميع مَن مات في هذا اليوم أربعة آلاف؟! فهذا مُحال، وهذا خارج عن القرافتين والحسينية والصحراء وبولاق ومصر القديمة، إلّا أن غالب مَن يموت صغار وعبيد وجَوَارٍ.

غير أن هذا الطاعون كان أمره غريباً، وهو أن الذي يُطعن فيه قلَّ أن يسلم، حتى قال بعضهم: لعلّ إن من كل مائة مريض يسلم واحد، فأنكر ذلك غيره وقال: ولا كل ألف ـ مبالغة.

وفي يوم الأربعاء سادس عشره ـ الموافق لرابع عشر برمودة ـ ارتفع الوباء من بولاق، وكان الذي مات بها في اليوم ثلاثة نفر، وقيل سبعة، وقيل عشرة. هذا بعد أن كان يموت في اليوم ثلاثمائة وأربعمائة، ويقول المُكثِر خمسمائة ـ فسبحانه وتعالى فاعلاً مختاراً يفعل في ملكه ما يشاء.

وأخذ الطاعون في هذه الأيّام يخفّ من ظواهر القاهرة، مثل الحسينيّة

وغيرها، وعظم في القاهرة وما حولها من جهة الصليبة والقلعة وقناطر السّباع.
وكان الذي مات من المماليك الأجلاب الإينالِيّة في هذا الطاعون - إلى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة - ستمائة مملوك وثلاثين مملوكاً. إلى لعنةِ اللّهِ وسقر، إلى حيث ألقت...

ومما وقع لي من أوائل هذا الفصل قولي على سبيل المجاز: [السريع]

قد جاءنا الفصلُ على بَغْتَةٍ مُستَجْلِباً حَلَّ مُجِدَّ الطلب
من كثرةِ البغي وظُلْمٍ بدا يخصّه الله بمَن كان جلب

وفي يوم الاثنين حادي عشرين جمادى الآخرة - الموافق لتاسع عشر برمودة، وهو أول خمسين النصارى - فيه ظهر نقص الطاعون بالقاهرة؛ وكان ابتداء النقص من يومي الخميس والجمعة.

وفي يوم الاثنين هذا كان عدّة مَن صُلّي عليه بمصلاة باب النصر ثلاثمائة وخمسين إنساناً، وبجامع الأزهر ستمائة إنسان، وهو أكثر ما وصل إليه العدّة بالجامع المذكور، لأن غالب الطاعون الآن هو بالقاهرة، وكان عدّة مَن صُلّي عليه بمصلاة البياطرة مائتين وأربعة، وهو بحكم النصف مما كان صُلّي عليه بها قبل ذلك، وكان عدّة مَن صُلّي عليه بمصلاة المؤمني مائتين وثمانين نفراً، وهو أقلّ من النصف أولاً. ونحن نذكر - إن شاء الله تعالى - عدّة هذه المصلوات في يوم الاثنين القابل، ليعلم الناظر في هذا الكتاب كيفية انحطاط الطاعون عند زواله من اليوم إلى مثله.

فلما كان يوم الاثنين(١) ثامن عشرينه الموعود بذكره كان فيه عدّة مَن صلّي عليه بمصلاة باب النصر مائة وتسعين، وبالجامع الأزهر زيادة على مائة وثلاثين، وبمصلاة البياطرة مائة وأربعة عشر، وبمصلاة المؤمني مائة وسبعة وثلاثين؛ ونذكر - إن شاء الله تعالى - في يوم الاثنين الآتي عدّة ذلك أيضاً.

---

(١) في الأصل: «الخميس». والتصحيح يقتضيه السياق التاريخي.

وفي يـوم الخميس[١] تاسـع شهر رجب فيـه فشـا الـطاعـون، وانحطّ سعـر الغلال، وظهر الشعير والتبن والدريس لموت تلك الجبابرة والأجلاب.

وفيه طُعن جامعه[٢]، ثمَّ منَّ الله تعالى بالعافية بعد أمـور، ولله الحمد عَلَى المهلة.

وفي يوم الجمعة ثالث شهر رجب المـذكور - المـوافق لسلخ برمـودة - لبس السلطانُ القماش الأبيض البعلبكي المعتاد لبسه لأيام الصيف.

ثم في يوم الاثنين سادسه كان فيه عدّة مَن صُلّي عليه من الأموات بمصلاة باب النصر مائة، وقيل تسعين، وبمصلاة البياطرة زيادة عَلَى الخمسين، وبمصلاة المؤمني زيادة على التسعين.

ثم فـي يوم السبت حادي عشره استقر الأمير أرغون شاه الأشرَفي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة أستادار الصحبة السلطانية، بعد موت يَشْبُك الأشرفي الأشقر.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب كَـان فيه عـدّة مَن صُلّي عليه من الأموات بمصلاة باب النصر نحواً من خمسة وعشرين نفراً، وبمصلاة البياطرة ثلاثة وعشرين، وبالجامع الأزهر خمسة نفر، وبمصلاة المؤمني نيّفاً وثلاثين نفـراً. هذا والعلّة موجودة في الأكابر والأعيان إلى آخر رجب.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشـره استقر القـاضي تقي الدين بن نصـر الله ناظـر ديوان المفرد عوضاً عن الصاحب شمس الدين منصور [بن الصفيّ][٣].

وفيه استقر الشيخ سراج الدين [عمر][٤] العبادي الشافعي ناظر الأَحْبَاس بعد موت القاضي زين الدين عبد الرحيم العَيْنيّ.

---

(١) في الأصل: «الأربعاء». والتصحيح يقتضيه السياق التاريخي.
(٢) إشارة إلى إصابة المؤلّف بالطاعون في تلك السنة ثم شفائه منه.
(٣) زيادة عمّا سبق ذكره للمؤلّف.
(٤) زيادة عن الضوء اللامع.

واستهلّ شعبان يوم الخميس، وقد خفّ الطاعون من الديار المصرية بالكلية، فكان عدّة مَن مات في هذا الطاعون من المماليك الأجلاب الإينالية فقط ألفاً وأربعمائة نفر ـ فالله يلحق بهم مَن بقي منهم ـ وهذا خلاف مَن مَات في هذا الطاعون من المماليك السلطانية الذين هم من سائر الطوائف(١).

ثم في يوم الثلاثاء سادس شعبان المذكور من سنة أربع وستّين وقع في المملكة(٢) أمر شنيع؛ وهو أن السلطان جمع أعيان الفرنج القبارسة في الملأ بالحوش السلطاني، وأراد بقاء الملكة صاحبة قُبْرُس على عادتها، وخلع عَلَى قصّادها أعيان الفرنج، واستقر تَغْري بَرْدي الطيّاريّ مسفرها(٣)، وعَلَى يده تقليدها وخلعتها.

وكان الفرنجي جَاكُم أخوها حاضر الموكب، وقد جلس تحت مقدّمي الألوف، فعزّ عليه ولاية أُخته وإبقاؤها عَلَى ملك الأفقسية(٤) من جزيرة قُبْرُس مع وجوده، فقام عَلَى قدميه واستغاث وتكلم بكلام معناه أنه قد جاء إلى مصر، والتجأ إلى السلطان، ودخل تحت كنفه، وله عنده هذه المدّة الطويلة، وأنه أحقُّ بالملك من أُخته، وبكى، فلم يسمع السلطان له، وصمّم عَلَى ولاية أُخته، وأمره بالنزول إلى حيث هو سكنه. فما هو إلاّ أن قام جَاكُم المذكور وخرج من باب الحوش الأوسط. ثم خرج بعده أخصامه حواشي أُخته، وعليهم الخلع السلطانية، فمَدَّت

(١) أي سائر طوائف المماليك. وقد أوضح المؤلّف في حوادث الدهور أنواع هؤلاء المماليك بحسب نسبة كل طائفة إلى أستاذهم، أي السلطان السابق الذي كان يمتلكهم، وهم: الظاهرية برقوق ـ أي مماليك الظاهر برقوق ـ والناصرية فرج، والمؤيدية شيخ، والأشرفية برسباي، والظاهرية جقمق، والسيفية وهم مماليك الأمراء السابقين.

(٢) المراد: في القلعة، كما يُفهم من السياق وحوادث الدهور.

(٣) المسفِّر: هو الذي يرافق عادة صاحب الولاية الجديدة إلى مقرّ ولايته، وهو تقليد من مراسم التشريف والتكريم. والملاحظ هنا أن المسفِّر يمكن أن يذهب بالتقليد والخلعة دون أن يصاحبه صاحب الولاية، إذا كان هذا الأخير غير موجود في القاهرة. ونستطيع أن نلاحظ أيضاً أن هذه هي المرّة الأولى التي يستعمل فيها المؤلّف عبارة «المسفِّر» عندما لا يكون صاحب الولاية حاضراً. وكان من عادته في هذا الكتاب أن يقول: «وتوجَّه إليه بالتقليد والخلعة فلان...».

(٤) أي نيقوسيا.

الأجلاب أيديها إلى أخصام جَاكُم من الفرنج، وتناولوهم بالضرب والإحراق، وتمزيق الخلع، واستغاثوا بكلمة واحدة، أنهم لا يريدون إلّا تولية جَاكُم هذا مكان والده. وعظمت الغوغاء، فلم يَسَع السلطان إلّا أن أذعن في الحال بعزل الملكة وتولية جاكُم، فتولّى جاكُم على رغم السلطان، بعد أن أمعنوا المماليك الأجلاب في سبِّ الأمير بُرْدبك الدَّوَادار الثاني، وقالوا له: «أنت إفرنجي[1] وتحامي للفرنج». فاستغاث بُردبك المذكور، ورمى وظيفة الدّوادارية، وطلب الإقالة من المشي في الخدمة السلطانية، فلم يسمع له السلطان، وفي الحال خلع على جاكُم، ورسم بخروج تجريدة من الأمراء إلى غزو قبرس، تتوجّه مع جاكُم المذكور إلى قبرس، حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى في وقته.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره رسم السلطان باستقرار الأمير قَراجا الظاهري الخازندار حاجب الحجّاب ـ كان ـ أتابَكَ عساكر دِمَشْق، بعد موت الأمير عَلّان المؤيّدي، بمالٍ وعد به نحو عشرة آلاف دينار.

وفي يوم السبت سابع عشره استقرَّ القاضي وليّ الدين أحمد ابن القاضي تقي الدين محمد البلقيني قاضي قضاة دمشق الشّافعيّة بعد عزل القاضي جمال الدين يوسف الباعوني.

وفيه استقرَّ القاضي زين الدين أبو بكر بن مزهر ناظر الجيوش المنصورة بعد عزل القاضي برهان الدين إبراهيم الدّيري.

وفي يوم الأحد ثامن عشره عرض السلطان المماليك السلطانية بالحوش،

---

(١) إشارة إلى أن بعض الأمراء المماليك كانوا من أصل أوروبيّ.
على أن المؤلّف هنا لا يوضح السبب في انحياز المماليك الأجلاب إلى جانب جاكم (جيمس) بدلاً من أخته شرلوت. وعلى الرغم من أن السياق الذي يأتي به المؤلّف يُظهر تصرّف هؤلاء الأجلاب على أنه ضرب من الغوغاء والفوضى، فإننا نعتقد أن هؤلاء كانوا يعبّرون عن رأي عدد كبير من الأمراء الذين كانوا يرون المصلحة في دعم جيمس، خاصة وأن حكّام جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا (الأسبتارية) كانوا يدعمون موقف الملكة شرلوت.

وعيَّن منهم جماعة للجهاد، أعني للسفر صحبة جاكُم الفرنجي إلى قُبْرُس، وقد تعيّن مَن يسافر إلى قُبْرُس من الأمراء قبل ذلك.

وفيه ورد الخبر من مكّة المشرّفة بموت الأمير يَرْشْباي الإينالي المؤيدي رأس المماليك المجاورين بها، فأنعم السلطان بإقطاعه في يوم الثلاثاء على دُولَات باي الأشرفي السّاقي، وعلى خير بَك من حديد الأشرفي الدّوادار، نصفيْن بالسّويَّة، لكلٍّ منهما إمرة عشرة.

واستهلَّ شهر رمضان ـ أوله الجمعة ـ في يوم السبت ثانيه خلع السلطان على الأمير جانِبَك الظاهري أحد أمراء مقدّمي الألوف بسفره إلى بندر جدَّة على عادته في كل سنة، وخرج من الغد متوجهاً إلى جدَّة في غاية التجمّل والحُرمة.

وفي يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان المذكور عيَّن السلطان الأمير خُشْقَدَم الناصري المؤيدي أمير سلاح إلى سفر الوجه القبلي، لقتال العرب الخارجة عن الطاعة، وعيَّن معه مائتي مملوك، وسافروا يوم الثلاثاء ثاني عشره.

وفي هذا الشهر قوي الاهتمام بسفر المجاهدين، وقاست الناس من أعوان سُنْقُر الزَّرَدْكَاش شدائد يطول الشرح في ذكرها، حتى قال بعض الشعراء الموالة[1] بلّيقاً، تعرَّض فيه لظلم سُنْقُر الزَّرَدْكَاش وحواشيه، بقوله:

قبل الغزا جاهد في الناس
فصار الظلم أنواع وأجناس
مَن طلب هذا الغزا واحتاج لواس

ووقع بسبب عمارة هذه المراكب[2] مظالم لا تُحصى، من قطع أشجار الناس عسفاً، وأخذهم ما يحتاجون إليه ظلماً. وزاد ظلم سُنْقُر هذا على الناس

(١) أي الذين يقولون المواليا، وهو نوع من الشعر العامّي نشأ في العصر العباسي، وهو من بحر البسيط. (المعجم الوسيط). والبليق أو البليقة نوع من الشعر العامّي انتشر بمصر، وكثيراً ما يعتمد على الإفحاش في القول. (فوات الوفيات: ١/١٢٦، حاشية: ٢).

(٢) أي المراكب المتوجهة إلى قبرص.

حتى جاوز الحدّ، فلا جرم أن الله تعالى عامله بعد ذلك من جنس فعله في الدنيا، بما قاساه من النفي والحبس وأخذ المال، مع الذل والهوان والصغار، وحلّ به كل مصيبة، حتى أحرقت داره بجميع ما فيها، ثم نهب ما فضل من الحريق، وتشتّت في البلاد على أقبح وجه؛ هذا في الدنيا وأما الأخرى فأمره إلى الله تعالى.

وفي يوم الأحد أول شوّال عيَّن السلطان الأمير كُزُل السودوني المعلِّم، والأمير بَرْسْبَاي الأشرفي الأمير آخور للتوجّه إلى الإسكندرية وصحبتهما مائة وخمسون مملوكاً من المماليك السلطانية، لأخذ ما هناك من المراكب، والتوجّه بها إلى ثغر دِمْيَاط من البحر الملح(١)، ليكون سفر جميع المجاهدين من مينة واحدة، وهي مينة دمياط.

ثم في يوم الأربعاء رابع شوّال أنفق السلطان في المجاهدين من المماليك السلطانية، للفارس والراجل سواء، لكلِّ واحد مبلغ خمسة عشر ديناراً، وأنفق على كل مملوك من المماليك الذين يتوجّهون مع كُزُل وبَرْسْباي المقدّم ذكرهما عشرة دنانير الواحد.

ثم في يوم الاثنين تاسعه نزل السلطان الملك الأشرف إينال في موكب هائل من قلعة الجبل بأمرائه وخاصكيته وأعيان دولته إلى جزيرة أروى المعروفة بالوسطى بساحل النّيل، لينظر ما عُمّر من المراكب، فسار إلى هناك في موكب عظيم، ونظر المراكب، وخلع على سُنْقُر قَرَق شَبَق الزَّرَدْكَاش المقدَّم ذكره، وعلى جماعة أُخَر ممّن باشر عمل المراكب، ثم عاد من حيث جاء من قناطر السّباع، فلم يبتهج الناس لنزوله، لعظم ما قاسوه من الظلم في عمل هؤلاء المراكب، من قلّة الإنصاف والجور في حقّ العمّال من أرباب الصنائع وغيرهم. ولولا أن الأمر منسوب إلى نوع من أنواع الجهاد لذكرنا من فعل سُنْقُر هذا ما هو أقبح من أن نذكره.

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشر شوّال سافر المجاهدون في بحر النيل إلى ثغر

(١) أي البحر الأبيض المتوسط.

دمياط، ومقدّم العساكر يوم ذاك في البرّ الأمير يُونُس الأَقْبائي الدوادار الكبير، وفي البحر الأمير قانم[1] من صَفَر خَجا المؤيدي التاجر أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، ومعهما بقية الأمراء، ومنهم[2] الأمير سُودون الإينالي المؤيدي المعروف بقراقاش حاجب الحجّاب وغيره. وخلع السلطان على هؤلاء الثلاثة المذكورين، وخلع أيضاً على جاكُم الفرنجي خلعة نُخّ[3] بقاقُم، ونزل جميع الغزاة في خدمتهم إلى بحر النيل، وسافر هؤلاء الأمراء الثلاثة إلى دمياط من يومهم، وبقي مَن عداهم يسافرون أرسالاً في كل يوم، إلى يوم الثلاثاء القابل، لكثرة عدّة العساكر.

وأما مقدار عدد مَن سافر في هذه الغزوة من الأمراء والجند فعدَّة كبيرة. فأوّلهم أمراء الألوف الثلاثة المقدّم ذكرهم. ثم من أمراء الطبلخانات ثلاثة أيضاً، وهم: الأمير برْدبَك البجمقدار الظاهري ثاني رأس نَوْبَة، وجانِبَك من أمير الخازندار الأشرفي، ويشبك من سَلْمان شاه الفقيه المؤيّدي رأس نوبة. ومن أمراء العشرات جماعة، وهم: جَكَم الأشرفي خال الملك العزيز يوسف، ودُقماق اليَشْبكي، وكَسْباي الشِّشْماني المؤيدي، وطوخ الأبوبكري المؤيدي رأس نوبة، وقانم نعجة الأشرفي رأس نوبة، وسنقر قرق شبق الأشرفي الزردكاش المقدّم ذكره، وقَراجا الأعرج الطويل أحد مماليك السلطان القديمة. وأما المماليك السلطانية فعدّتهم تزيد على خمسمائة نفر تخيمناً. وهذا خلا المطوِّعة وغيرهم من الخدم والمراكبية وأنواعهم.

وفي يوم الخميس تاسع عشر شوّال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل، وهو الأمير تَمُرْباي من حمزة الناصري المعروف بطَطَر أحد أمراء العشرات، وأمير الركب الأوّل تَنم الحسيني الأشرفي رأس نوبة.

---

(١) أي إن هذا الأمير يبقى مع جنوده مرابطاً في البحر قبالة جزيرة قبرص، ويكون الأمير يونس مقدّم العساكر التي تنزل إلى برّ الجزيرة، كما أوضح المؤلّف في حوادث الدهور.

(٢) في الأصل: «وهم». وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٣) النخّ: بساط مستطيل، ولعلّ المراد خلعة من نسيج يشبه البساط. والقاقم أو القاقوم نوع من بنات عرس يطلب لجودة فِرائه.

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه أمسك السلطان زين الدين الأستادار، وجَنْزَرَه وحبسه بالبحرة من الحوش السلطاني، وندب الصاحب شمس الدين منصور [بن الصفي] لمحاسبته، فقامت المماليك الأجلاب على منصور حمية لزين الدين، فراج أمر زين الدين لذلك، لعلم الناس أن السلطان مسلوب الاختيار مع مماليكه الأجلاب. واستمر زين الدين بالبحرة إلى يوم الأحد، فأخرجه السلطان واستقرَّ به أستاداراً على عادته، ولبس خلعة الأستادارية من الغد في يوم الاثنين أول ذي القعدة.

ثم في يوم الأربعاء ثالث ذي القعدة وصل الأميل خُشْقَدم أمير سلاح من الوجه القبلي بمَن معه من المماليك السلطانية.

وفي يوم الأربعاء سابع عشره قُتل ابن غريب البدوي.

وفي يوم الاثنين هرب زين الدين الأستادار واختفى بحيث إنه لم يُعرف له مكان، واستقرَّ الصاحب شمس الدين في الأستاداريّة عوضه.

ثم استهلّت سنة خمس وستّين وثمانمائة.

فكان أول المحرّم الخميس.

ثم في يوم السبت ثالثه وصل الأمير جانِبَك الظاهريّ أحد مقدّمي الألوف من بندر جدَّة إلى الديار المصرية، بعد أن حَجَّ وحضر الموسم بمكة، وبات بتربة الملك الأشرف إينال بالصحراء، وطلع إلى القلعة من الغد في يوم الأحد، وخلع السلطانُ عليه ونزل إلى داره في موكب عظيم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين المحرّم وصل أمير الرّكب الأوّل الأمير تَنَم الحسيني الأشرفي، وخلع عليه السلطان، وأصبح في يوم الجمعة وصل أمير حاج المحمل تَمُرْباي طَطَر بالمحمل، وخلع السلطان عليه أيضاً.

وفي يوم الجمعة سلخ المحرّم وصل إلى القاهرة جماعة من الغزاة وأخبروا أن العساكر الإسلامية بأجمعها خرجوا من جزيرة قبرس في يوم الجمعة ثالث

عشرين المحرّم وساروا على ظهر البحر الملح يريدون السواحل الإسلامية، فهبَّت عليهم ريح عظيمة شَتّتت شملهم، وتوجّهوا إلى عِدَّة جهات بغير إرادة. وكانت مركب هؤلاء وصلت إلى ساحل الطينة، وأخبروا أيضاً بموت الأمير سُودُون قراقاش حاجب الحجّاب. ثم وصل من الغد بردبك عَرَب الأشرفي الخاصكي، وأخبر بنحو ما أخبر به هؤلاء المماليك، وأعلم السلطان أيضاً أن الأمير يونس الدّوادار تَرَك بجزيرة قبرس جماعةً من المماليك السلطانية ومماليك الأمراء قوة لجاكُم صاحب قبرس، وجعل مقدمهم جانِبَك الأَبلق الظاهري الخاصكي، وأن جماعة كبيرة توفّوا إلى رحمة الله تعالى من عظم الوخم[١].

واستهلّ صفر يوم السبت.

ثم في يوم الأربعاء خامسه استقر الأمير كَسباي المؤيدي السمين نائب القلعة في نيابة الإسكندرية بعد الأمير جانِبَك ـ نائب بعلبك ـ النَّوْرُوزي، فاستقر خير بك القصروي والي القاهرة نائب القلعة عوضاً عن كَسباي المذكور، بمال بذله في ذلك.

ثم في يوم الخميس سادس صفر استقرَّ علي بن إسكندر والي القاهرة، واستقر تَنم من بخشاش[٢] الظاهري الخاصكي المعروف برصاص في حِسبة القاهرة، عوضاً عن علي بن إسكندر، وكلاهما وَلِيَ بالبذل؛ وتَنَم هذا هو أوّل تركي وَلِيَ الحِسبة بالبذل، ولم نسمع ذلك قبل تاريخه، لا قديماً ولا حديثاً.

وفي يوم الجمعة سابعه ـ الموافق لخامس عشرين هاتور ـ لبس السلطانُ القماشَ الصّوف الملوّن، المعتاد لبسه لأيام الشتاء، وألبس الأمراءَ على العادة.

ثم في يوم السبت خامس عشره وصل المجاهدون جميعاً إلى ساحل بولاق، وباتوا بالميدان الكبير عند بركة الناصرية، وطلعوا إلى القلعة من الغد في يوم

---

(١) ورد في دائرة المعارف الإسلامية: «ويظهر أن قائد الأسطول رشته الملكة شرلوت فعاد الأسطول إلى مصر». ـ راجع ص ١٠٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) في طبعة كاليفورنيا: «نخشايش»، وفي طبعة الهيئة المصرية: «نخشباي». وما أثبتناه عن الضوء اللامع.

الأَحد، وقبلوا الأرض، وخلع السلطان على الأَمير يُونُس الدّوادار أطلسين مُتَمَّراً، وفوقانياً بطرز زركش، كما هي عادة خلعة الأَتابكية، فتعجّب[١] الناس من ذلك، وقَيِّد له فرساً بسرج ذهب، وكُنْبوش زركش.

ثم خلع [السلطان] على الأَمير قانَم المؤيدي أحد مقدّمي الألوف فوقانياً بطرز زركش. وكذلك خلع على جميع الباشات[٢] من الأمراء. ونزل الجميع في خدمة الأمير يونس الدّوادار إلى بيته تجاه الكبش، ثم عاد كل واحد إلى داره.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين صفر أنعم السلطان على الأمير يَلَبَاي الإينالي المؤيدي الأَمير آخور الثاني بإمرة مائة وتقدمة ألف، بعد موت سُودون قراقاش بقبرس، وأنعم بإقطاع يَلَبَاي المذكور ـ وهو إمرة طبلخاناه ـ على الأمير تَمُرباي من حمزة المعروف بطَطَر، وأنعم بإقطاع تَمُرباي طَطَر على جانِبَك الأشرفي قلقسيز، فلم يقبله جانِبَك المذكور، وأنعم به على الأمير قاني بك السيفي يَشْبُك بن أَزْدَمُر، وأنعم بإقطاع قاني بك المذكور ـ وهو إمرة عشرة أيضاً ـ على دُولاَت بَاي الخاصكي الأشرفي المعروف بدولات باي سكسن، أعني ثمانين، ولم يكن دُولاَت هذا أهلاً لذلك، وإنما هي أرزاق مقسومة إلى البرّ والفاجر.

وفي يوم الخميس سابع عشرين صفر استقر الأمير بِيبَرس الأَشرفي خال

---

(١) لعلّ تعجّب الناس من هذا الأمر يعود إلى علمهم بفشل الغزوة وتقصير الغزاة. ويشير أبو المحاسن إلى ذلك في حوادث الدهور بقوله: «ولم يبتهج الناس لقدوم العساكر على هذا الوجه، بل ربما أسمعهم العوّامّ التوبيخ لعودهم إلى القاهرة بغير طائل».
واهتمام الناس بهذا النوع من النشاط العسكري (الغزو) مُلفِت للنظر. فقد أشار المؤلّف في غير مكان من هذا الكتاب إلى عدم اهتمام الناس بصراعات المماليك ومعاركهم الداخلية في ذلك الوقت، حتى في حال وصول المعارك إلى القلعة ورأس السلطنة. وهذا يدلّ على أن عامّة الناس لم يكونوا على هامش الأحداث السياسية، وأن عدم التفاتهم إلى المعارك الداخلية إنما هو تعبير عن موقف عميق وأصيل.

(٢) الباشات: جمع باش، وهي كلمة تركية بمعنى الرأس. واستعملت بمعنى الرئيس. وسوف تستعمل في العصر العثماني مُضافة إلى اسم الصنعة أو الوظيفة في أول الكلمة مثل «باشكاتب» أو في اخرها مثل «حكيمباشي». ويلزم في الحالة الأخيرة أن تلحق بالشين ياء هي ياء الإضافة في اللغة التركية. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ٣٦).

الملك العزيز يوسف حاجب الحجَّاب بالديار المصرية، عوضاً عن سُودُون قَرَاقَاش بحكم وفاته بقُبْرُس، واستقر الأمير بُرْدبَك المحمدي الظاهري الهجين الأُمي آخور الثالث أمير آخور ثانياً عوضاً عن الأمير يَلَباي المقدّم ذكره، واستقر قَراجا الطويل الأعرج الأَشرفي أمير آخور ثالثاً عوضاً عن بُرْدبك الهجين.

ثم في يوم الخميس رابع شهر ربيع الأَول استقرّ الأمير مُغُلْباي طاز الأَبو بكري المؤيدي أمير حاج المحمل، واستقر تَنِبَك البوّاب الأشرفي الخاصكي أمير الرّكب الأوّل.

ثم في يوم الأحد سابع شهر ربيع الأوّل المذكور عمل السلطانُ المولد النبوي على العادة في كل سنة بالحوش السلطاني.

ثم سافر المقام الشهابي أحمد ابن السلطان إلى السّرحة، ومعه أخوه محمد من الغد في يوم الاثنين ثامنه إلى جهة الوجه البحري شرقاً وغرباً، وسافر معه جماعة من الأعيان وأمراء العشرات.

ثم في يوم الخميس سادس عشره استقرّ علي بن الأهناسي وزيراً بعد استعفاء الصاحب فرج بن النحّال.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه حبس السلطان القاضي صلاح الدين أَمير حاج المكيني بحبس الرحبة؛ وسبب ذلك أنه كان استبدل وقفاً، فشُكِيَ عليه بسبب ذلك الوقف، فرسم السلطان بحبسه فَحُبس إلى آخر النهار، ثم أطلق مِنْ يومه بعد أن قُرِّرَ عليه مبلغ من الذهب.

ثم في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر نُودِيَ بزينة القاهرة لقدوم أولاد السلطان من السَّرحة، ووصلا في يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر المذكور، وشقَّا القاهرة في موكب هائل، وطلعا إلى القلعة، وخلعَ عليهما والدهما السلطانُ الملك الأشرف إينَال، ثم نزلا في وجوه الدّولة إلى بيت المقام الشهابي أحمد، وهو الأخ الأكبر، وأتابك العساكر بالديار المصرية.

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه استقرّ إينَال الأشقر الظاهري الخاصكي واليَ القاهرة بعد عزل علي بن إسكندر.

واستهلّ جمادى الأولى يوم الخميس.

في ثالثه يوم السبت مرض السلطان الملك الأشرف إينال مَرض الموت، وَلزم الفرَاش.

فلما كان يوم الاثنين خامسه وصل الأمير بُرْدبك الدّوَادار الثاني، والأمير ناصر الدين نقيب الجيش من الطِّينة، وكانا توجّها قبل تاريخه لينظرا مكان البُرج الذي يريدون عمارته هناك.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشره أرْجِف بموت السلطان، ولم يصحّ ذلك، وأصبح الناس في هرج، وماجوا ووقف جماعة من العامّة عند باب المدرّج ـ أحد أبواب القلعة ـ فنزل إليهم الوالي وبدّد شملهم.

ثمَّ نُودِيَ في الحال بالأمان والبيع والشراء، وأن أحداً لا يتكلم بما لا يعنيه، فسكن الأمرُ إلى يوم الأربعاء رابع عشره.

فلما كان ضحوة يوم الأربعاء المذكور طُلِب الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة، وطَلعت الأمراء والأعيان، واجتمعوا الجميع بالدهيشة، فلم يشك أحد في موت السلطان، فلم يكن كذلك، بل كان الطلب لسلطنة المقام الشهابي أحمد قبل موته.

فلما تكامل الجمع خلعَ السلطان نفسه من السلطنة بالمعنى، لأنه ما كان إذ ذاك يستطيع الكلام، بل كلّمهم بما معناه أن الأمر يكون من بعده لولده، فعلموا من ذلك أنه يريد خلع نفسه وسلطنة ولده، ففعلوا ذلك كما سيأتي ذكره في محله، في أوّل ترجمة الملك المؤيد أحمد إن شاء الله تعالى.

ومات الأشرف إينال في الغد حسبما نذكره.

وكانت مدة تحكّم الملك الأشرف إينال هذا ـ من يوم تسلطن بعد خلع

الملك المنصور عثمان إلى هذا اليوم، وهو يوم خلع نفسه من السلطنة ـ ثماني سنين وشهرين وستّة أيام.

ومات في يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى بعد خلعه [نفسه] بيوم واحد بين الظهر والعصر، فجُهِّز من وقته، وغُسِّل وكُفِّن، وصُلّي عليه بباب القلّة من قلعة الجبل، ودُفن من يومه بتربته التي عمَّرها بالصحراء، وقد ناهز الثمانين من العمر. وكان جاركسي الجنس، وقد تقدَّم الكلام على أصله، وجالبه إلى القاهرة، وكيفية ترقّيه إلى أن تسلطن في أول ترجمته من هذا الكتاب.

وكانت صفته ـ رحمه الله ـ أخضر اللون للسُّمرة أقرب، طوالاً، غالب طوله من وسطه ونازل، قصير البِشْت[١]، رقيق الوجه[٢] نحيف اليد، لحيته في حنكه، وهي شعرات بيض، ولهذا كان لا يعرف إلّا بإينال الأجرود، وفي كلامه رخو، مع خنث كان في لهجته، ولهذا لمّا لبس السَّواد خلعة السلطنة كان فيها غير مقبول الشكل، لكونه أسمر اللون، والخلعة سوداء، فلم تبتهج الناس برؤيته؛ ولذلك أسباب: السبب الأول، ما ذكرناه من صفته وسواد الخلعة، والسبب الثاني وهو الأغلب، لقرب عهد الناس من شكل الملك المنصور عثمان، الشكل الظريف البهيّ، والفرق واضح، لأن المنصور كان سنُّه دون العشرين سنة من غير لحية، وهو في غاية الحُسْن والجمال ـ أحسن الله عونه ـ والأشرف إينال هذا سنُّه فوق السبعين، وقد علمت صفته مما ذكرناه، فلا لوم على مَن لا يعجبه شكل الأشرف إينال ولا عتب. وكان له محاسن ومساوىء، والأول أكثر.

فأما محاسنه، فكان ملكاً جليلاً، عاقلاً رئيساً سيوساً، كثير الاحتمال، عديم الشَّر، غير سبَّاب ولا فحَّاش في حال غضبه ورضاه. وكان عارفاً بالأمور والوقائع والحروب، شجاعاً مِقداماً، كثير التجارب للخطوب والقتال، عظيم التروّي في

---

(١) البشت: كساء من صوف غليظ النسج لا كمّين له. ولعلّ المراد الجزء الذي يغطّيه البشت من الجسم وهو الجذع.

(٢) عبّر ابن إياس في بدائع الزهور عن هذا بقوله: «عربي الوجه».

أفعاله، ثابتاً في حركاته ومهماته، له معرفة تامّة بملوك الأقطار في البلاد الداخلة في حكمه، وفي الخارجة عن حكمه أيضاً، عارفاً بجهات ممالكه شرقاً وغرباً، وفهماً بفنون الفروسية وأنواعها، لا يحبّ تحرّك ساكن ولا إثارة فتنة، وعنده تؤدة في كلامه واحتمال زائد، يؤدّيه ذلك إلى عدم المروءة عند مَن لا يعرف طباعه. ومن محاسنه أنه منذ سلطنته ما قتل أحداً من الأمراء ولا من الأجناد الأعيان، على قاعدة مَن تقدّمه من الملوك، إلا مَن وجب عليه القتل بالشرع أو بالسياسة، وأيضاً أنه كان قليلاً ما يحبس أحداً أو ينفيه، سوى مَن حبس في أوائل دولته من أعيان الأمراء كما هي عوائد أوائل الدولة. ثم بعد ذلك لم يتعرّض لأحد بسوء، إلاّ أنه نفى جماعة عندما ركبوا عليه ثانياً في حدود سنة ستّين، وخلع الخليفة القائم بأمر الله حمزة بسبب موافقته لهم على قتاله، ثم حبسه بالإسكندرية، وهو معذور في ذلك، ولو كان غيره من الملوك لفعل أضعاف ذلك، بل وقتل منهم جماعة كثيرة. وبالجملة فكانت أيامه سكوناً وهدوءاً ورياقة وحضور بال، لولا ما شانَ سؤدده [من] مماليكه الأجلاب، وفسدت أحوال الديار المصرية بأفعالهم القبيحة، ولولا أن الله تعالى لطف بموته، لكان حصل الخلل بها، وربما خربت وتلاشى أمرها. هذا ما أوردناه من محاسنه، بحسب القوة والباعثة.

وأما مساوئه، فكان بخيلاً شحيحاً مسيكاً، يبخل ويشحّ حتى على نفسه. وكان عارياً من العلوم والفنون المتعلقة بالفضائل. كان أُمّيّاً لا يعرف القراءة والكتابة حتى كان لا يُحسِن العلامة على المناشير والمراسيم إلاّ برسم الموقع له بالنقط على المناشير، فيُعيد هو على النقط بالقلم.

هذا مع طول مكثه في السعادة والرياسة والولايات الجليلة ثم السلطنة. ومع هذا لم يهتدِ إلى معرفة الكتابة على المناشير ولا غيرها، فهذا دليل على بَلادَة ذهنه وجمود فكره. ولعلّه كان لا يُحسِن قراءة الفاتحة ولا غيرها من القرآن العزيز فيما أظن. وكانت صلاته للمكتوبات صلاة عجيبة، نقرات[١] ينقر بها، لا يعبأ الله بها.

---

(١) التعبير مأخوذ من الحديث الشريف أنه (ﷺ) نهى عن نقرة الغراب، أي تخفيف السجود، لأن المصلّي لا يمكث فيه إلاّ قدر وضع الغراب منقاره فيما يريد أكله. (لسان العرب).

وكان مع هذه الصلاة العجيبة لا يحبّ التملّق، ولا إطالة الدّعاء بعد الصلاة، بل ربما نهى الداعي عن تطويل الدعاء. ولم يكن بالعفيف عن الفروج، بل ربما اتّهمه بعض الناس بحبّ الوجوه والمِلاح والصباح من الغلمان ـ والله تعالى أعلم بحاله ـ إلّا أنه كان يعفّ عن تعاطي المنكرات المسكِرات.

وكان ـ في الغالب ـ أموره وأحكامه مناقضة للشريعة، لا سيما لمّا أُنْشِئَت مماليكه الأجلاب؛ فإنهم قلبوا أحكام الشريعة ظهراً لبطن، وهو راضٍ لهم بذلك، وكان يمكنه إرداعهم بكل ممكن، ومَن قال غير ذلك فهو مردود عليه، وأحد أقوال الردّ عليه قول مَن يقول: فكيف سطوة السلطنة مع عدم قوّته لردّ هؤلاء الشرذمة القليلة مع بُغض العالم لهم، وضعفهم عن ملاقاة بعد العوّام؟! فكيف أنت بهم وقد ندب لهم طائفة من طوائف المماليك؟! ومثل هذا القول فكثير. وأيضاً رضاه بما فعله سُنْقُر قَرَق شَبَق الزردكاش عند عمارته لمراكب الغزاة، لأن سنقر فعل أفعالاً لا يرتضيها مَن له حظٌّ في الإسلام، وكان يمكنه ردّه عن ذلك بكل طريق، بل كان يخلع عليه في كل قليل، ويشكر أفعاله؛ فرضاه بفعل مماليكه الأجلاب، وبفعل سنقر هذا وأشباه ذلك هو أعظم ذنوبه. وما ساءَ منه الناس وأبغضته الخلائق وتمنُّوا زوال مُلكه إلّا هذا المعنى، ومعنى آخر ـ وهو ليس بالقوي ـ وهو ثقل وطأة ولده وزوجته ومملوكه بُرْدبَك الدوادار.

قلتُ: والأصحّ عندي هو الذنب الأوّل. وأما هؤلاء فكان ثقلهم على مُباشِري الدولة أن على مَن يسعى عندهم في وظيفة من ولاية أو عزل، أو أمر من الأمور، فعلى هذا كان ضررهم خصوصاً لا عموماً، وأيضاً لا يشمل ضررهم إلّا لمَن جاء إلى بابهم أو قصدهم في حاجة دنيويّة، فهو أحقّ بما يحلّ به، لأنه هو الساعي في إيذاء نفسه، والمثل يقول: «مَن قتلته يديه[1] لا بكاء عليه».

نعم وكان من مساوئه مخافة السُّبل في أيامه بالقاهرة والأرياف، حتى تجاوز الحدّ، وعمّرت الناس على بيوتهم الدروب لعظم خوفهم من دقّ المناسر وقطّاع

(١) كذا. وعدم مراعاة قواعد النحو هنا لضرورة التسجيع.

الطريق بالأرياف، مع أنه كان قاطعاً للمفسدين، غير أن الحمايات[1] كانت كثيرة في أيامه، وهذا أكبر أسباب خراب الدّيار المصرية وقراها، ومن يوم تجدّدت هذه الحمايات فسدت أحوال الأرياف قبليها وبحريها؛ وهذا البلاء ما كثر وفشا في الدّولة إلّا بعد الدّولة المؤيديّة شيخ، واستمرت هذه السّنة القبيحة إلى يومنا هذا. والعجب أنه ليس لها نفع على السلطان ولا على بلاده، وإنما هي ضرر محض على السلطان والناس قاطبة، والملك لا يلتفت إلى إزالتها، مع أنه لو منع ذلك لم يُضَرّ أحد من الناس، وانتفع الناس جميعاً بمنعها، وعمرت غالب البلاد، وتساوت الناس، وبالمساواة تعمر جميع الممالك، غير أن الفهم والعقل والتدبير منح إلاهيّة، فلا يفيد الكلام في ذلك، ولله درّ القائل[2]: [الوافر]

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ولكن لا حياةَ لمَن تنادي
ونار لو نفختَ بها أضاءتْ ولكن أنت تنفخُ[3] في الرمادِ

وقد خرجنا عن المقصود.

ولما كثر فساد المماليك الأجلاب عمل بعض الظرفاء بَلِّيقاً، ذكر فيه أفعال الأجلاب ومساوئهم، واستطرد إلى أن قال في آخره:

حاشا لله دوام هذي النقمه ونحن أفضل بريّة من أمه
نَبِينا ما حَدّ مِثْلو
أزاح عنّا كيد الكفّار وقد رُمينا بيد الأشرار
فكل حَدّ ماسك ديلو

(١) الحمايات: هي مكوس يفرضها الأمير أو السلطان على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاق. وقد أطلق عليها هذا الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرّر. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١١٠).

(٢) الشعر لأبي العلاء المعرّي.

(٣) الرواية المشهورة: «ولكن ضاع نفخك في الرماد».

متى يــزيـح عنّــا هـذي الـدولـه ويحكـم النــاس مَـنْ لُـوصَـوْلـه
وتــرتــاح الـبــريّــة فـي عَــدْلُــو

فــالله بــجــاه ســيــد عــدنــان عــوّض لـنـا مـنـك بـإحـســان
هــذا الـجـمـيـل إنـتـا أهْــلُو

فوالله العظيم لم تمضِ عليه سنة بعد ذلك، بل ولا ستة أشهر حتى مرض ومات.

فهذا ما ذكرناه من محاسن الملك الأشرف إينال ومساوئه، ونرجو الله تعالى أن يكون ذلك على الإنصاف لا على التحامل[1].

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الأشرف إينال على مصر

وهي سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

على أن الملك المنصور عثمان حكم منها إلى ثامن شهر ربيع الأول.

وفيها ـ أعني سنة سبع وخمسين المذكورة ـ تُوُفِّيَ الشهابي أحمد ابن الأمير فخر الدين عبد الغني بن عبد الرّزّاق بن أبي الفرج متولّي قَطْيا، في أوائل المحرم، وهو في الكهولية.

وتُوُفِّيَ السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جَقْمَق العلائي الظاهري في ليلة الثلاثاء، ثالث صفر، ودفن من يومه حسبما تقدّم ذكره في ترجمته مستوفاة في هذا الكتاب، فلتنظر في محله.

وتُوُفِّيَ الأمير أَسَنْبُغا بن عبد الله الناصري الطيّاري رأس نَوبَة النوب في ليلة السبت سادس شهر ربيع الأول، في أيام الفتنة، وهو في بيت الأمير قَوْصُون،

---

(١) أضاف ابن إياس في بدائع الزهور: «وخلّف من الأولاد أربعة وهم: الأتابكي أحمد الذي تسلطن بعده، والناصري محمد أخوه الصغير، وابنته خوند بدرية زوجة بردبك، وابنته خوند فاطمة زوجة يونس البوّاب الدوادار الكبير... ولم يتزوج إينال غير أم أولاده خوند زينب بنت خاصبك».

وعليه آلة السلاح، شبه الفُجاءة. وكانت مدة مرضه يوماً واحداً، وصلّى عليه الأتابك إينال العلائي بدار قوصون المذكورة، وجميع الأمراء وعليهم آلة السلاح، ثم حُمل ودفن من يومه في الصحراء، ومات وهو في عشر الثمانين تخميناً، وكان من محاسن الدّنيا كَرَماً وعَقْلاً وشجَاعَةً وتواضعاً ومعرفةً. كان كامل الأدوات، قلَّ أن ترى العيونُ مِثْلَه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير جَانِبَك بن عبد الله اليَشْبُكي والي القاهرة، ثم الزردكاش، في ليلة الخميس ثامن عشر شهر ربيع الأوّل، وهو في أوائل الكهولية، ودفن من الغد. وكان أصله من مماليك الأمير يشبك الجكمي الأمير آخور، ثم اتصل بعد موته بخدمة السلطان، ثم صار خاصِّكِيّاً في الدولة الأشرفية بَرْسبَاي، وصحب الصاحب جمال الدين يوسف ابن كاتب جَكَم ناظر الخواص، فروّجه في المملكة، حتى صار ساقياً في الدولة الظاهرية جقمق، ثم تأمّر عشرة بعد مدة طويلة، وصار من جملة رؤوس النوب، ثم استقر واليَ القاهرة، ثم أُضيف إليه حِسْبَة القاهرة في سنة أربع وخمسين، ثم انفصل من الحِسبة، واستمر في الولاية سنين كثيرة، إلى أن نقل إلى وظيفة الزَّرْدْكَاشِيَّة في الدولة المنصورية عثمان، بعد انتقال الأمير لاجين الظاهري إلى شدّ الشراب خاناه، وتولّى عوضه ولاية القاهرة يشبك القرمي الظاهري، فلم تطل أيّامُه زَرَدكَاشاً، ومات في أوائل الدولة الأشرفية إينال، حسبما تقدّم ذكره. وكان مليح الشكل متجمّلاً، حسن المحاضرة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين أَرَنْبُغا اليُونُسِيّ الناصري أحد مقدّمي الألوف بالدّيار المصريّة في ليلة الجمعة تاسع عشر شهر ربيع الأوّل، وسِنُّه زيادة على السبعين، وأنعم السلطان بتقدمته على الأمير دُولاَت بَاي المحمودي الدَّوَادار بعد مجيئه من السّجن بمُدَّة. وكان أَرَنْبُغا هذا تَتَرِيَّ الجِنس من مماليك الملك الناصر فَرَج، وهو أخو سَونْجبُغا الناصري، وأَرَنْبُغا هذا هو الأكبر. وتنقلت بأَرَنْبُغا هذا الأحوالُ إلى أن تأمّر في دولة الملكِ الأشرف بَرْسْبَاي عشرة، وصار من جملة رؤوس النّوَب، وطالت أيّامه، وحجَّ وجاور في مكّة غير مرّة، ثم نقل في الدّولة الظاهريّة جَقْمَق

إلى إمْرَة طبلخاناه، ثم صار في أوائل دولة الأشرف إينال أمير مائة ومقدّم ألف، فلم تَطُل مدّتُه، ومات في التاريخ المقدّم ذكره. وكان أميراً شُجَاعاً مِقْداماً عارفاً بالحروب وأنواعها، إلاّ أنه كان مُسْرِفاً على نفسه مع قِلَّة تجمّلٍ في ملبسه ومماليكه وخدمه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين سمام الحسني الظاهري الحاجب الثاني، وأحد العشرات، في ليلة الاثنين سادس شهر ربيع الآخر، ودُفِنَ من الغد، وسنُّه نيّف على السبعين. وكان رجلاً ساكناً قليل الخير والشر، لا للسيف ولا للضيف.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ المعتقد الواعظ [أبو السيادات يحيىٰ ابن الشيخ المعتقد الواعظ][1] شهابُ الدين أحمد ابن الشيخ الإمام العارف بالله محمد وفاء، الشاذلي المالكي المعروف بابن أبي الوفاء، في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر، ودفن بتُرْبَتهم بالقرافة الصغرى. وكان جلس للوعظ والتذكير على عادتهم[2]، وصار على وعظه أُنسٌ وقبول من الناس إلى أن مات ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن القاضي ناصر الدِّين محمد ابن العلاَّمة شرف الدين عبد المنعم البغدادي الحنبلي، قاضي الديار المصرية ورئيسها، في ليلة الخميس سابع، جُمَادى الأولى، ودفن من الغد، وحضر الخليفةُ القائم بأمر الله حمزةَ الصلاةَ عليه بمصلاّة باب النصر، ودُفن بالتُّربة الصُّوفية، وكانت جنازته مشهودة. كثر أسف الناس عليه، لحُسْن سيرته ولعفّته عمّا يُرْمَى به قضاة السوء. ومات وهو في أوائل الكهولية. وكان له اشتغال ومعرفة تامّة بصناعة القضاء والشروط والأحكام، وأما سياسة الناس ومحبته لأصحابه وكرمه وسؤدده فكان إليه المنتهى في ذلك. وكان قامعاً لشهود الزّورِ والمناحيس. وبالجملة فكان بوجوده نفع للمسلمين ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير الوزير سيف الدين تغري بَردي القلاوي الظاهري قتيلاً في واقعة

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور والضوء اللامع.

(٢) أي على عادة أبيه وأخيه قبله، كما يُفهَم من ترجمته في الضوء اللامع.

كانت بينه وبين سَونْجبُغَا الناصري؛ وهي واقعة عجيبة، لأنهما تماسكا على الفرسين، فقتل الواحد الآخَر، ثم قتل الآخر في الحال، كلاهما مات على فرسه، وذلك في يوم السبت سادس عشر جمادى الأولى، وقد ذكرنا واقعتهما في تاريخنا «حوادث الدهور» مفصّلاً، فلينظر هناك. وكانت نسبته بالقلاوي إلى ناحية قلا، لما كانت إقطاعاً لأستاذه الملك الظاهر جَقْمَق لما كان أميراً، ولم يكن تَغري بردي هذا مشكور السّيرة في ولايته ـ عفا الله تعالى عنّا وعنه.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سونجبغا اليونسي الناصري ببلاد الصعيد في وقعته مع تَغري بردي القلاوي في يوم واحد حسبما تقدّم ذكرُه، وسنُّه زيادة على السّتّين. وهو أخو أَرَنْبُغَا المقدّم ذكره، غير أن أَرَنْبُغا كان مشهوراً بالشجاعة والإقدام، وسونجبغا هذا لا شجاعة ولا كرماً.

وتُوُفِّيَ الشيخ عزّ الدين محمد الكتبي، المعروف بالعزّ التَّكروري، في يوم الأربعاء سابع عشرين جمادى الأولى. وكان معدوداً من بياض الناس، له حانوت يبيع فيه الكتب بسوق الكتبيين، وكانت له فضيلة بحسب الحال.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين دُولَات باي المحمودي المؤيدي الدوادار كان، وهو أحد مقدّمي الألوف، في يوم السبت أوّل جمادى الآخرة، ودفن بالصحراء خارج القاهرة من يومه، وسنُّه أزيد عن خمسين سنة. وكان جاركسي الجنس جلبه خواجا محمد إلى الإسكندرية، فاشتراه منه نائبها الأمير آقبردي المنقار، وبلغ الملك المؤيَّد شيخا ذلك، فبعث طلبه منه، فأرسله إليه، فأعتقه المؤيد ـ أن كانَ آقبردي ما كانَ أعتقه ـ وجعله خاصكياً ثم ساقياً في أواخر دولته. فلما تسلطن الملك الأشرف برسباي عزله عن السِّقاية. ودام خاصكياً دهراً طويلاً، إلى أن صحب الأمير جانم الأشرفي قريب الملك الأشرف برسباي، ثم صاهره فتحركَ سعدُه بصهارة جانم المذكور. ولا زال جانم به إلى أن نفعه بأن توجَّه بتقليد نائب صَفَد وخلعته، بعد أن كان خلص له إمرة عشرة من الملك الأشرف، مع بغض الأشرف في دُولات باي هذا. فلما أمسك جانم مع مَن أمسك من أمراء الأشرفية لم ينفعه

دُولات باي المذكور بكلمة واحدة، هذا إن لم يكن حطّ عليه في الباطن، ولا أستبعد أنا ذلك لقرائن دلّت على ذلك.

ولمّا تسلطن الملك الظاهر جقمق استقر بدُولات باي هذا أمير آخور ثانياً، بعد مسك الأمير نَخْشَبَاي الأشرفي وحبسه. ثم نقل [دولات باي] بعد أيام إلى الدوادارية الثانية، بعد الأمير أَسَنْبُغا الطَّيَّاري، بحكم انتقاله إلى إمْرَة مائة وتَقْدِمَة ألف، كلُّ ذلك في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة. فباشر [دولات باي] الدَّوادَارِيَّة بحُرْمَةٍ وافرة، ونالته السعادة، وأثرى وجمع الأموال الكثيرة، وعمَّر الأملاك الهائلة، إلى أن أنعم عليه السلطان بإمْرَة مائة وتَقْدِمَة ألف في صفر سنة ثلاث وخمسين، بعد موت الأمير تِمْراز القَرْمشي الظاهري، فلم تَطُل أيامه في التقدمة. ووَلِيَ الدَّوادَارِيّة الكبرى ـ بمال بذله، نحو العشرة آلاف دينار ـ عوضاً عن قاني بَاي الجركسي، بحكم انتقاله إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد موت الأمير قَرَاخَجا الحسني. ولمّا وَلِيَ الدَّوادَارِيَّة الكبرى خمدت ريحُه، وانحطّت حُرْمَتُه، بالنسبة إلى ما كانت عليه أيام دَوَادَارِيَّته الثانية؛ والسببية واضحة، وهي أنه كان أوَّلاً مطلوباً، والآن صار طالباً.

ثم سافر [دولات باي] أمير حاج المحمل بعد مُدّة ـ وكان وَلِيَها مَرَّةً أُولَى في سنة تسع وأربعين، فهذه المرّة الثانية في سنة ست وخمسين ـ وعاد في سنة سبع وخمسين، وقد خلع الملك الظاهر جَقْمَق نفسه من المُلك وسَلْطَنَ ولدَه الملك المنصور عثمان، فأقام في دولة المنصور دَوَادَاراً على حاله، وقد خاف من صفير الصافر. فلم يكن بعد أيام إلاّ وقُبض عليه في يوم الخميس ثاني عشر صفر من السنة المذكورة، وحُمل إلى الإسكندرية، فحُبس بها شهراً وأياماً. وأطلقه الملكُ الأشرفُ إينال، وأحضره إلى القاهرة، ثم أنعم عليه بعد مدة بإقطاع الأمير أَرَنْبُغا اليونسي، فلم تطل أيّامه إلاّ نحو الشهر، ومرض ومات في التاريخ المقدّم ذكره.

ولقد قال لي بعضُ الحذّاق إن سبب موته إنما كانت طَرْبَة[1] يوم أُمْسِكَ،

(١) الطُّرْبة عند العامّة بمصر هي حالة من الاضطراب وفقدان التوازن نتيجة تعرّض صاحبها لحادث مرعب. ولا زالت العادة جارية عندهم بأن يُسقى صاحب هذه الحالة ماءً من إناء خاص (طاسة) معروف باسم=

ودامت الطَّربة إلى أن قتلته. قلت: وأنا لا أستبعد هذا، لما كان عنده من الجُبْن والحَذَر، وعدم الإقدام. على أنه كان مليح الشكل، متجمّلاً في ملبسه ومركبه، وقوراً في الدول، إلّا أنه لم يُشهر بشجاعةٍ ولا كرم في عمره.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين قَانْصُوَه بن عبد الله النَّوْرُوزي أحد أمراء دمشق بها في أواخر جمادى الأولى، وله من العمر نحو الستين سنة تخميناً. وكان أصله من مماليك الأمير نَوْرُوز الحافظيّ نائب الشّام، وصار خَاصِّكِيّاً بعد موته في الدولة المؤيّديّة شيخ، ثم تأمَّر عشرة بعد موت المؤيَّد، ثم صار أمير طَبْلخاناه في دولة الظاهر طَطَر، ودام على ذلك سنيناً كثيرة إلى أن أخرجه الملك الأشرف بَرْسباي إلى نيابة طَرَسُوس، ثم نقله إلى حجوبية حَلَب، ثم تقدّمة ألف بدمشق. ثم خرج على الملك الظاهر جَقْمَق، ووافق الأمير إينال الجَكَمي على العصيان؛ فلما كُسر الجَكَمي اختفى قَانْصُوَه مدة، ثم ظهر وتنقَّل أيضاً في عدة أماكن، وهو في جميع ما يتحرّك فيه مخمول الحركات إلى أن مات. وكان مليح الشكل، وعنده شجاعة ومعرفة برَمْيِ النشّاب، إلّا أنه كان خاملاً، ما أظنه ملك في عمره ألف دينار، ولولا الحياء لقلتُ ولا سَلّاريّاً[1] ثانياً، وفي هذا كفاية.

وتُوُفِّي الأميرُ سيف الدين قَشْتم بن عبد الله المحمودي الناصري نائب البحيرة قتيلاً في واقعة كانت بينه وبين العُرْبَان الخارجة عن الطاعة في أواخر شهر رجب، وقد ناهز الستّين من العمر. وكان أميراً جليلاً عاقلاً حشماً وقوراً شجاعاً مِقداماً كريماً متواضعاً مليح الشكل، وهو ممّن جمع بين الشجاعة والكرم والتواضع - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين يَبْغُوت بن عبد الله من صَفَر خَجَا المؤيَّدي الأعرج

= طاسة الطربة أو طاسة الخضّة. والخضّة بالعاميّة المصرية هي الاضطراب الناتج عن الخوف أو المفاجأة. ونعتقد أن لفظ «الطربة» مشتق محرّفاً من الاضطراب. وفي بلاد الشام يسمّون تلك الحالة الرعبة، ويُسقى المُصاب بها من إناء يسمى طاسة الرعبة.

(١) السلّاري: نوع من اللباس منسوب إلى الأمير سلّار. - راجع فهرس المصطلحات.

نائب صَفَد بها في أواخر شعبان، وقد جاوز السّتين. وكان أصله من مماليك المؤيَّد شَيْخ في أيام إمْرَته، وصار خاصِّكِيّاً بعد موته، إلى أن نفاه الملك الأشرف بَرْسبَاي إلى الشام، ثم أنعم عليه بإمْرَة طبلخاناه بدمشق، ثم وَلِيَ نيابة حِمْص في أوائل دولة الملك الظاهر جَقْمَق مُدَّةً، ثم نقل إلى نيابة صفَد دفعة واحدة، بعد الأمير قَانِي بَاي الأَبوبكري الناصري البهلوان، بحكم توجّهه إلى نيابة حماة، ثم نقل بَيْغُوت هذا إلى نيابة حماة، ووقع له مع أهل حماة أمور وشكاوٍ آلتْ إلى تَسَحُّبِهِ من حماة وتوجُّهِهِ إلى ديار بكر، بعد أن أُمسك ولدُه إبراهيم بالقاهرة وحُبس. ووقع له أيضاً بديار بكر أمورٌ ومِحَنٌ، وأُمْسِكَ وحُبس بقلعة الرُّها، ثم أُطلق وعاد طائعاً إلى السلطان الملك الظاهر جَقْمَق، وقَدِمَ القاهرة، ثم عاد إلى دمشق بطّالاً، إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بها، بعد موت الأمير بُرْدبَك العجمي الجَكَمي، فدام على ذلك إلى أن نقله الظاهر إلى نيابة صَفَد ثانياً، بعد موت يَشْبُك الحمزاوي، فدام بصَفَد إلى أن مات ـ رحمه الله ـ في التاريخ المقدَّم ذكرُه. وكان رجلاً ديِّناً مشهوراً بالشجاعة والإقدام، وقوراً في الدُّوَل. وتولّى نيابة صَفَد بعده إياس المحمدي الناصري الطويل.

وتُوُفِّيَ الشيخُ المعتقدُ الصالح درويش ـ وقيل محمد، وقيل غَيْبي ـ الرومي، بظاهر خانقاه سِرْياقوس، في يوم الاثنين ثالث ذي القعدة، ودُفن شرقي الخانقاه المذكورة. وكان أصله من آقْصَراي[1]، وكان مليح الشكل، مُنوَّر الشَّيْبة، لا يَدَّخر شيئاً وحجَّ غير مرة من غير زاد ولا راحلة، وهو أحد مَن أدركناه من الفقهاء الصلحاء ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين حَطَط بن عبد الله الناصري أتابَك طرابُلُس بها في أوائل ذي الحجة. وكان وَلِيَ نيابة قلعة حَلَب، ثم نيابة غزَّة، كل ذلك بالبذل، فإنه كان لا للسيف ولا للضيف.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين علي بَاي من طَرَابَاي العجمي المؤيَّدي أتابك حلب

---

(١) آقصراي: مدينة ببلاد الروم بناها السلطان قليج أرسلان سنة ٥٦٦ هـ. (بلدان الخلافة الشرقية).

بها في أواخر ذي الحجة، وهو في عشر الستين. وكان أصله من مماليك المؤيَّد شيخ، وبقي خاصّكِيّاً أيام المؤيّد، ودام خاصّكيّاً عِدّة دُوَل إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جَقْمَق في أوائل دولته بإمْرَة عشرة، وجعله من جملة رؤوس النوب، وصار له كلمة في الدولة، وتوجَّه في الرَّسْلِيَّة من السلطان إلى أَصْبهان بن قَرَا يوسف صاحب بغداد، ثم بعد عوده إلى القاهرة بمدّة نفاه الملكُ الظاهرُ إلى حلب على إمْرَة مائة وتَقْدِمَة ألف، ثم نُقل على أتابَكِيّة حلب بعد سُودون الأبوبكري المؤيّدي لمّا وَلِيَ نيابة حماة، فدام علي بَاي على ذلك إلى أن تُوُفّي. وكان مليح الشكل، فصيح العبارة، عارفاً بأنواع الفروسية، كريماً جواداً، إلاّ أنه كان مُجازفاً كذوباً مسرفاً على نفسه ـ عفا الله عنه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ـ أعني القاعدة ـ ثمانية أذرع وخمسة أصابع. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً واثنان وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الأشرف إينال على مصر

وهي سنة ثمانٍ وخمسين وثمانمائة.

فيها تُوُفّي الأميرُ سيف الدين يَلْبُغَا بن عبد الله الجاركسي، أحد أمراء الطبلخانات ـ بطّالاً ـ بعد مرض طويل في يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر. وكان تركي الجنس، أصله من مماليك جاركس القاسمي المصارع، ثم صار بعد موت أُستَاذه خاصكيّاً، ودام على ذلك سنين طويلة لا يلتفت إليه في الدولة، وقد شاخ وصار يخضب لحيته بالسواد، إلى أن تحرّك سَعْدُه وسَعْدُ خجدَاشِهِ قَاني بَايْ الجاركسي بسلطنة الملك الظاهر جَقْمَقْ، فإنه كان أخا جاركس أستاذ هؤلاء المخاميل. فلما تسلطن جَقْمَق أمّر يلْبُغا هذا إمْرَةَ عشرة، وجعله رأس نَوبة لولده المقَام الناصري محمد، ثم ولاّه نيابة دِمْيَاط، ثم عزله وجعله أمير طَبْلخاناه، فدام

على ذلك إلى أن أخرج الملك الأشرف إينَال إقطاعه ـ فَنِعْمَ ما فعل ـ فاستمرّ بطّالاً إلى أن مات كما تقدّم ذكرُه. وكان من مساوىء الدهر ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ القاضي ناصِرُ الدين محمد ابن قاضي القضاة فخر الدين أحمد بن عبد الله الشهير بابن المخلِّطة، أحد أعيان فقَهاء المالكية ونوّاب الحكم، وناظر البِيمَارَستان المنصوري، في يوم الأحد تاسع عشرين شهر ربيع الآخر. وكان فقيهاً عالماً بمذهبه، عارفاً بصناعة القضاء والشروط والأحكام، ناب في الحكم من سنة سبع عشرة وثمانمائة إلى أن مات، وحمدت سيرته ـ رحمه الله تعالى.

وتوفي المقام الغَرْسي خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر برقوق ابن الأمير آنص الجاركسي الأصل، بثغر دِمْياط في يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأولى. ومولده بقلعة الجبل في سنة أربع عشرة وثمانمائة، وأُمه أُم ولد تُسَمى «لاَ أَفْلَحَ مَنْ ظَلَم» مُوَلَّدة، وبقي بقلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المؤيد شَيخ مع أخيه محمد ابن الناصر فرج إلى الإسكندرية فحُبِسا بها إلى أن سألت عمّتهما خوَند زينب بنت الملك الظاهر بَرْقوق زوجها الملك المؤيد شَيخاً في إحضارهما من الإسكندرية إلى قلعة الجبل لتخْتِنَهما فحضرا إلى الديار المصرية، وختنا بقلعة الجبل، ثم أُعيدا إلى الإسكندرية، وداما بها بسِجْنها إلى أن مات أخوه محمد في طاعون سنة ثلاث وثلاثين، فأخرج خليل هذا من السجن، ورُسِمَ له بأن يسكن حيث شاء بثغر الإسكندرية، وأن يركب لصلاة الجمعة لا غير، فبقي على ذلك إلى أن رسم له الملك الظاهر جقْمق ـ بعد أن تأهّل بكريمتي ـ أن يركب إلى جهة باب البحر، ويسير، ثم أذِنَ له بعد ذلك بالحج. وقَدِمَ القاهرة في شوّال سنة ست وخمسين، وحجّ في موسم السنة المذكورة، ثم عاد وقد خلع الملك الظاهرُ نفْسَه، وتسلطن ولدُه الملك المنصور عثمان، فرسم له المنصور في يوم دخوله من الحج بالتوجّه إلى الإسكندرية، فطلب هو دمياط، فرسم له بها. وخرج إليها من يومه قبل أن يحلّ عن أحماله، فلم تطل مُدّته بثغر دِمْيَاط ومات في التاريخ المذكور، ودُفن بدِمْياط أيّاماً، ثم نقل إلى بولاق. ثم نقل إلى القاهرة، ودُفن عند جدّه الملك الظاهر برقوق بالصحراء. وكان في نفسه أمور توفّاه الله قبل

أن ينالها، وأنا أعرف بحاله من غيري، غير أنني لا أشكر ولا أذمّ، وفي هذا كفاية.

وتُوُفِّيَ القاضي شمس الدين محمد بن عامر قاضي قضاة المالكية بصفد، في أوائل جمادى الآخرة. وكان معدوداً من فقهاء المالكية، وناب في الحُكمِ بالقاهرة سنين كثيرة، ووَلِيَ قضاء الإسكندرية غير مرة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشريف معزّى [بن هجار بن وبير][1] أمير الينبع في أواخر جمادى الآخرة، وتولّى بعده ابن أخيه مُقْبِل[2].

وتُوُفِّيَ الأمير جَانِبَك بن عبد الله الزِّيني عبد الباسط بالقاهرة في يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر رجب. وكان من مماليك الزَّيْني عبد الباسط بن خليل، ووَلِيَ الأستادارية في أيام أستاذه حسًّا[3]، ومعناه أستاذه. ولولا أنه في الجملة وَلِيَ الأستادراية لما ذكرناه في هذا المحل.

وتُوُفِّي قاضي القضاة الحنابلة بحلب، مجد الدين سالم بن سلامة الحنبلي خنقاً بقلعة حلب بـ[حكم] الشرع في الظاهر، لكونه قتل رجلاً[4] بيده ممّن اتّهم بالزندقة، والقَتْل من قبْل الحُكم ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سليمانُ بن ناصر الدين بَك بن دُلْغَادر نائب أبلستين بها في باكر يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان، وتولى أُبُلسْتَين بعده ابنه ملك أَصْلان.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سُودون بن عبد الله الجكمي، أحد أمراء العشرات، بطّالاً بالقاهرة في يوم السبت رابع ذي القعدة. وهو أخو إينال الجَكَمي نائب الشام، وهو الأصغر، وبسببه تُخومل حتى مات، وكان من أعيان الدّولة، وممّن له ذكر وسُمعة ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) في الضوء اللامع: «واستقرّ عوضه مخدم بن عقيل بن وبير».

(٣) أي تولّاها ظاهراً، وتولّاها أُستاذه معنًى، أي حقيقة.

(٤) هو ابن قاضي عينتاب، كما في حوادث الدهور.

وتُوُفِّي قاضي القضاة الحنفية بدمَشْق قوامُ الدين محمد [بن قوام](١) الدمشقي المولد والوفاة، الحنفي المذهب، بدمشق في ثامن ذي القعدة. ومولده في ثامن ذي القعدة سنة ثمانمائة. وكان فقيهاً فاضلاً ديِّناً خيِّراً مشكور السيرة، وهو من القضاة الذين ولّوا من غير بذل، ومات غير قاضٍ ـ رحمه الله.

وتوفِّي المعلم ناصر الدين محمد الصغير القازاني، المعروف بمحمد الصغير، معلّم رمي النشاب، في ليلة الجمعة ثالث عشرين ذي الحجة، وقد زاد سنُّه على الثمانين. ومات ولم يخلف بعده مثله في حُسْن الرمي وتعليمه وعلومه. وهو أحد الأفراد الذين أدركناهم من أرباب الكمالات ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع وخمسة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وأحد عشر إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف إينال على مصر

وهي سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير سيف الدين مُغُلْبَاي بن عبد الله الشهابي، أحد أمراء العشرات، بطّالاً بالقاهرة، في ليلة الخميس عاشر المحرّم. وكان أصله من مماليك الشهابي أحمد بن جمال الدين الأستادار، ثم أعتقه الملك الناصر فرج، ثم صار خَاصكِيّاً في الدولة الأشرفية بَرْسباي، ثم تأمر في دولة الملك الظَاهر جَقْمق، وصار من حزب ولد الملك المنصور في الفتنة مع الأشرف إينال، فأخرج إينال إقطاعه بهذا المقتضى ودام بطَّالاً إلى أن مات. وكان عاقلاً ساكناً لا بأس به ـ رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جُلُبَّان بن عبد الله الأمير آخور نائب الشام بها في

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

يوم الثلاثاء سادس عشر صفر، وقد ناهز الثمانين من العمر تخميناً. وفي مُعْتقه وجنسه أقوال كثيرة؛ أما معتقه فقيل إنه من عتقاء الأمير تنبك الأمير آخور الظاهري، وقيل سُودون طاز، وقيل إينال حطب، وأما جنسه فالمشهور أنه جاركسي الجنس، وقيل غير ذلك. ثم خدم جُلُبَّان المذكور عند الأمير جاركس القاسمي المصارع، ثم عند الوالد[١]، ثم عند الملك المؤيَّد شيخ أيام إمْرَته، فلما تسلطن المؤيد جعله أمير آخور ثالثاً، ثم أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالدّيار المصريّة. ثم خرج إلى البلاد الشّاميّة مجرّداً إليها مع مَن خرج من الأمراء، صُحْبَة الأتابَك أَلْطُنْبُغا القَرْمَشي، وقُبض عليه مع مَن قبض عليه من الأمراء المؤيّدية، وحُبس بالبلاد الشّامية إلى أن أطلقه الملك الأشرف بَرْسبَاي، وجعله أمير مائة ومقدّم ألف بدمشق. ثم نقله إلى نيابة حماة بعد الأمير جَارْقُطْلوا بحكم انتقاله إلى نيابة حلب بعد الأمير تَنِبَك البَجاسي المنتقل إلى نيابة الشّام، بعد موت الأمير تَنَبك ميق العلائي، في رجب سنة ست وثلاثين وثمانمائة. ودام جُلُبَّان على نيابة حماة سنين كثيرة إلى أن نقله الملك الأشرف بَرْسباي إلى نيابة طرابُلُس بعد مَوت الأمير طَرَباي في شعبان سنة ثمانٍ وثلاثين وثمانمائة، وتولّى بعده الأميرُ قاني باي الحمزاوي. ثم نقله الملك الظاهر جَقْمق إلى نيابة حلب بعد عصيان الأمير تغْري بَرْمُش التركماني في سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، وتولّى بعده طرابُلس قاني باي الحمزاوي أيضاً، فلم تطل مدَّةُ جُلُبَّان بحلب، ونقل إلى نيابة دمشق بعد موت الأتابك آقْبُغا التِّمْرَازي في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين، وتولّى بعده حلبَ الأميرُ قاني باي الحمزاوي، فدام في نيابة دمشق عِدّة سنين إلى أن مات في التاريخ المذكور، وتولّى بعده نيابة دمشق قاني باي الحمزاوي. وكانت مدة نيابته على دمشق خمس عشرة سنة؛ وهذا شيءٌ لم يقع لغيره من نوّاب دمشق بعد الأمير تَنْكُز الناصري.

وفي ترجمته غريبة أخرى، وهي أنه لم ينتقل من نيابة إلى الأخرى في هذه

(١) أي والد المؤلف، وهو الأمير تغري بردي اليشبغاوي الأتابكي المتوفى سنة ٨١٥ هـ.

المدة التي تزيد على ثلاثين سنة إلّا ويستقرّ بعده قاني باي الحمزاوي. ومع أن قاني باي الحمزاوي لم تطل مدته في الولايات، وحضر إلى الديار المصرية أميراً، وأقام بها سنين، ثم عاد إلى نيابة حلب بعد أن وَلِيَها غير واحد بعده، فلما تولّى قاني باي الحمزاوي حَلَب ثانياً مات جُلُبَّانُ هذا بعد مدّة، فنُقِلَ قاني باي إلى نيابة دمشق بعده على العادة، فهذا اتفاق غريب لعلّه لم يقع لغيرهما في هذه السنين الطويلة والولايات الكثيرة. وكان جُلُبَّان المذكور من أجلّ الملوك، طالت أيامه في السعادة، وتنقل في ولايات جليلة، إلى أن مات ـ رحمه الله تعالى.

وتـوُفِّيَ الصاحب أمين الـدين إبراهيم ابن الـرئيس مجد الـدين عبد الغني بن الهَيصم ـ بطَّالاً ـ في ليلة الخميس مستهل شهر ربيع الآخر، وقد قارب السّتّين من العمر. وكان معدوداً من رؤساء الدّيار المصرية، من بيت رئاسة وكتابة؛ وجدّهم الهيصم يُنْسب إلى المُقَوْقِس صاحب مصر. وقد وَلِيَ الصاحب أمين الدين هذا الوَزَرَ غير مرة، وحجّ وتفقّه على مذهب الحنفية، وكان مُحبّاً للفقراء وأهل الخير محبّة زائدة، وكان مشهوراً بالصلاح، وكان يتجنّب النصارى، ولا يتزوج إلّا من المسلمات، وبالجملة فإنه نادِرَة في أبناء جنسه، وله محاسن كثيرة ـ رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير يَشْبُك بن عبد الله الناصري أحد أمراء الطبلخانات ورأس نَوْبة ثانٍ، في يوم الأحد ثامن عشر صفر، وقد ناهز السبعين. وكان من مماليك الناصر فرج، وخدم في أبواب الأمراء بعد موت أستاذه، وانحطّ قدرُه إلى أن عاد إلى خدمة السلطان بعد موت الملك المؤيّد شيخ، وصار خَاصّكيّاً إلى أن تأمّر عشرة في أوائل سلطنة الملك الظاهر جَقْمق، وصار من جملة رؤوس النُّوب. ودام على ذلك إلى أن نقله الملك المنصور عثمان إلى إمرَة طَبلخاناه، بعد انتقال جانِبَك القرماني إلى طبلخاناه الأمير يونس الأَقبائي المشد بحكم انتقال يونس إلى تقدمة ألف، ثم صار في دولة الملك الأَشرف إينال ثاني رأس نوبة النُّوب، فدام على ذلك إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره. وكان يشبك المذكور من مساوىء الدهر، لا دنيا ولا ديناً، وَلا ذاتاً ولا أدوات ـ عفا الله عنّا وعنه.

وتوفي الأمير سيف الدين خَيِر بك بن عبد الله المؤيدي الأجرود، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، في يوم الاثنين تاسع عشرين شهر ربيع الآخر، وهو في حدود الستّين، وحضر المقام الشهابي أحمد ابن السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني. وكان أصله من مماليك الملك المؤيّد شيخ، وترقّى بعده حتى صار خاصِّكيّاً في دولة الملك الأشرف بَرْسبَاي. ثم نفاه الأشرف إلى الشّام، وأنعم عليه بإمرَة طبلخانَاه. ثم صار أمير مائة ومقدّم ألف بدمشق. ثم صار أتابكاً بها. ثم مسك وحُبس إلى أن أطلقه الأشرف إينال، فقَدِمَ القاهرة. ثم صار أمير مائة ومقدّم ألف بها إلى أن مات، واسْتُريح منه، لأنه كان أيضاً من مقولة يَشْبُك المقدّم ذكره، بل يزيده سوء الخلق والجنون.

وتُوُفِّي شَاعر العصر الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن علي بن عثمان الشافعي الفقيه النَّواجي، الشاعر المشهور، في يوم الأربعاء سادس عشرين جمادى الأولى. ومولده بالقاهرة في سنة ثمانٍ وثمانين وسبعمائة، وأصله من نَوَاج ـ قرية بالغربية، مَن عمل الوجه البحري من القاهرة ـ ونشأ بالقاهرة، وقرأ واشتغل إلى أن مهر وبرع في عدة علوم وفنون، وغلب عليه نَظم القريض، حتى قال منه أُحسنه، وأنشدني كثيراً من شعره؛ ومما أنشدني من لفظه لنفسه ـ رحمه الله تعالى قوله: [الوافر]

طلبتُ وِصالَه، فدنَا لحربي ... يهزُّ من القوام اللَّدْن رمحَا
وسَلَّ من اللواحظِ مشْرَفيّاً ... ليضربَ، قلت: لا بالله صَفْحَا

ومما أنشدني لنفسه أيضاً: [الطويل]

خَليليَّ هذا رَبْع عَزّة، فاسْعيَا ... إليه وَإنْ سالتْ به أدمعي طُوفانْ
فجَفْنِي جَفَا طِيبَ المنَام وَجَفْنُهَا ... جفَاني، فيَا لله مِنْ شَرَكِ الأَجْفَانْ

وقد استوعبنا من لفظه وشعره قطعةً جيدة في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، وأيضاً في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» إذ هما محل الإطناب ـ انتهى.

وتُوُفِّيَ الشيخُ المعتقدُ المجذوب محمد المَغرِبي في صبيحة يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة، ودُفن من يومه قَبل صلاة الجمعة بتربة السلطان الملك الأشرف إينال التي أنشأها بالصحراء. وكان يجلس داخل باب النصر على باب قاعة البغاددة تحت الساباط[١]، تجاه الرَّبْع المعروف قديماً بدار الجاولي، بالقُرْب من باب جامع الحاكم. وأقام بالموضع سنين كثيرة، لا يقوم منه صَيْفاً ولا شتاءً وهو جالس على مكانٍ عالٍ، وتَحته حجارة، وتأتيه الناسُ بالمأكل والمشرب، ولهم فيه اعتقاد حسن. وكنت أزورُه من بُعْد، خوفاً مما كان حوله من النجاسة. وكانت جَذْبَتُه[٢] مُطْبِقة. والغريب أنه وُجِدَ له بعد موته في المكان الذي كان يجلس عليه جملة كبيرة من الذهب والفضة؛ وهذا من الغريب العجيب، فإنه لم يكن في جَذْبته شكّ، فكيف يهتدي لجمع المال؟!. وأنا أقول شيئاً، وهو أن المغاربة في الغالب يميلون لجمع المال، فلعلّه كان هو أيضاً يميل لجمع المال بالطبع على قاعدة المغاربة، والله أعلم.

وتُوُفِّي القاضي الرئيس صلاح الدين محمد المعروف بابن السابق الحموي الشافعي، كاتب سرّ حلب ثم دمشق، وبها مات بطّالاً بعد مَرَض طويل في يوم الأحد ثامن عشرين جمادى الآخرة عن أربع وثمانين سنة. ومولده بحماة، وبها نشأ، وتنقّل لعدّة وظائف سَنِيّة. وكان مشكور السيرة في ولايته مع الدين والتقوى والأدب والحشمة والرياسة ـ رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي محبُّ الدين محمد ابن الشيخ الإمام زين الدين أبي بكر القمني الشافعي، في يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب ـ رحمه الله.

وتوفيت خوند شاه زاده بنت الأمير أرخن بك بن محمد بك كرشجي [بن يلدرم بايزيد][٣] بن عثمان ملك الروم. [وكانت قدمت مع أخيها سليمان من بلاد الروم

(١) الساباط: سقيفة بين حائطين أو دارين تحتها طريق نافذ.

(٢) أي الانجذاب، وهي من حالات الصُّوفية. وتتميز بانجذاب المتصوّف الكلّي باتجاه الله وانصرافه الكامل عمّا حوله إلى درجة الذهول عنه.

(٣) زيادة عن حوادث الدهور ومعجم زامباور.

هرباً من مراد بك بن عثمان][1] فلما كبرت تزوجت الملك الأشرف برسباي، ثم تزوّجها بعده الملك الظاهر جقمق، ثم تزوّجها بعده الأمير برسباي البجاسي، فماتت تحته ـ رحمها الله تعالى.

وتوفي السيد الشريف زينُ الدين أبو زهير بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن منجد بن أبي نُميّ محمد بن أبي سعيد حسن بن علي بن أبي غرير قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله المحض بن موسى بن الحسن بن علي بن أبي طالب المكّي الحسني أمير مكّة في بطن مَرّ خارج مكة، في يوم الاثنين تاسع شعبان، وحُمل إلى مكة فصلّي عليه بالحرم، وطِيفَ به على النعش أسبوعاً على عادة أشراف مكة، ودفن بالمعلاة ووَلِيَ إمرة مكة بعده ابنه الشريف محمد.

وكان مولد بركات بمكة سنة إحدى وثمانمائة، وأُمه أُم كامب بنت النصيح من ذوي عمر. ووَلِيَ إمرة مكة شريكاً لأبيه وأخيه أحمد سنة عشر وثمانمائة، ثم استقل بإمرة مكة في سنة تسع وعشرين من قبل الملك الأشرف بَرْسْباي، فدام على إمرة مكة إلى أن عزله الملك الظاهر جقمق بأخيه علي بن حسن في سنة خمس وأربعين.

وخرج بركات هذا إلى البرّ من جهة اليمن، ووقع له أمور ذكرناها في «الحوادث»، ثم عزل علي عن إمرة مكة بأخيه أبي القاسم بن حسن بن عجلان ـ كلّ ذلك وبركات مخرج ـ إلى أن قَدِمَ بركات الديار المصرية، وولّاه الملك الظاهر جَقْمَق إمرة مكة على عادته.

وكان لقدومه القاهرة يوم مشهود، وأقام بالقاهرة مدة ثم عاد إلى مكة، فدام بها إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان رجلاً عاقلاً ساكناً شجاعاً مشكور السيرة، أهلاً للإمرة ـ إن لم يكن زيدياً على عادة أشراف مكة ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) زيادة بالمعنى عن حوادث الدهور.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين جانِبَك بن عبد الله الشمسي المؤيدي أحد أمراء دمشق، في أواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة. وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ، اشتراه قبل سلطنته وأعتقه، وصار بعد موت أستاذه من جملة أمراء طرابلس، ثم نقل إلى حجوبية حجّاب حلب، ثم عزل، وصار من أمراء الطبلخانات بدمشق إلى أن مات.

وتُوُفِّي الشيخ الإمامُ العالِم العلاّمة محبّ الدين محمد ابن العلاّمة زادة ـ واسم زادة أحمد ـ بن أبي يزيد محمد السيرامي الحنفي المصري سبط الأقصرائي المعروف بابن مولانا زادة، إمام السلطان، وشيخ المدرسة الأيْتَمُشِية بمكة المشرّفة، في يوم الجمعة ثالث ذي الحجة. ومولده بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ـ هكذا ذكر لي، وكتب بخطه.

قلت: ونشأ بالقاهرة، وقرأ القرآن الكريم وعدّة مختصرات في فنون كثيرة، وتفقّه بجماعة من علماء عصره، مثل الشيخ عزّ الدين بن جماعة وغيره، ذكرنا غالبهم في تاريخنا «الحوادث»، وبرع في عدّة علوم، وأفتى ودرَّس، وتولّى الوظائف الدينية، ثم وَلِيَ [وظيفة] إمام السلطان الملك الأشرف بَرْسَباي، فدام على ذلك مدة سنين. وأَمَّ بعدّة ملوك إلى أن رغب هو عن ذلك وتركه، وقعد بداره مُلازِماً الأشغال والاشتغال إلى أن قصد المجاورة في هذه السنة بمكة المشرّفة، وكانت منيّته بها بمرض البطن ـ رحمه الله تعالى. وهو ابن أُخت العلاّمة فريد عصره أمين الدين الأقصرائي الحنفي.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين آقْبَرْدي بن عبد الله الساقي الظاهري نائب مَلَطْية بها في يوم الخميس خامس عشري ذي الحجة، وحُمل من مَلَطْيَة إلى حلب، ودُفن بتربته التي عمَّرها، ومات وله من العمر نحو ثلاثين سنة. وأصله من مماليك الملك الظاهر جَقْمَق الصِّغار، وصار ساقياً في أيّامه، ثم نائب قلعة حلب دفعة واحدة، فدام على ذلك إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى أتابَكِيَّة حلب في سنة ثمانٍ وخمسين، ثم نقل إلى نيابة مَلَطْية، فمات بها في التاريخ المقدّم ذكره.

وكان لا بأس به، ولم تطل أيّامه لتُشْكَرَ أفعاله أو تُذَمَّ ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماءُ القديم سبعة أذرع وخمسة أصابع. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وأربعة عشر إصْبَعاً.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الأشرف إينال العلائي على مصر

وهي سنة ستّين وثمانمائة.

فيها تُوُفّيَ القاضي شهابُ الدين أحمد [بن محمد بن علي][1] المحلّي الشافعي قاضي الإسكندرية بقرية إدكو بالمزاحمتين في ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، ودُفن برشيد، وهو في عشر السبعين. وكان كثير المال قليل العلم ـ رحمه الله.

وتُوُفّي القاضي ظهير الدين محمد ابن قاضي القضاة أمين الدين عبد الوهاب ابن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أبي بكر الطرابلسي الحنفي أحد نوّاب الحكم بمصر ـ معزولاً ـ بعد مرض طويل، في يوم الجمعة سادس عشرين شعبان، ودفن من الغد. وكان مشكور السيرة في أحكامه، مُحبّاً لأصحابه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الأمير أَسِنْباي بن عبد الله الجمالي الظاهري الدَّوَادَار الثاني كان، بطَّالاً بالقدس في شعبان، وسِنّه دون الأربعين. وكان الملك الظاهر جَقْمَق اشتراه في أيام سلطنته، وجعله خاصكياً، ثم سِلاحداراً، ثم ساقياً، ثم أَمَّره عشرة، ثم صار في الدولة المنصورية عثمان دواداراً ثانياً عوضاً عن تَمُرْبُغا الظاهري، فلم تطل مدّته غير أيام، ووقعت الفتنة بين المنصور وبين الأتابَك إينال، وهرب أَسِنْباي

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

واختفى، ثم ظهر ورُسم له بالتوجّه إلى القدس، فدام بالقدس بطّالاً إلى أن مات. وهو من مقولة آقْبَرْدِي المقدَّم ذكرُه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الأمير قاني باي بن عبد الله الناصري الأعمش نائب قلعة الجبل بها في ليلة الخميس سابع عشري ذي القعدة، وعُمْرُه زيادة على الستّين. وكان أصله من مماليك الناصر فرج، وصار خَاصِّكِيّاً بعد موت المؤيَّد شَيْخ، ثم تأمّر عشرة في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، وصار من جملة رؤوس النوب، إلى أن ولّاه الملك الأشرف إينال نيابة القلعة بعد توجّه يُونُس العلائي الناصري إلى نيابة الإسكندرية في شهر ربيع الأوّل سنة سبع وخمسين، فدام في نيابة القلعة إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان من المهملين المرزوقين.

وتُوُفّي الأميرُ سيفُ الدين جَانِبَك بن عبد الله المحمودي المؤيَّدي، أحد أمراء طرابُلُس بها في أواخر ذي القعدة وقد قارب الستّين من العمر. وهو أخو قاني بك المحمودي المؤيَّدي. كان من عتقاء الملك المؤيَّد شَيْخ، وصار خَاصِّكِيّاً في دولة المظفر أحمد أو في دولة الظاهر طَطَر، ثم تأمّر عشرة في أوائل دولة الملك الظاهر جَقْمَق، وصار من جملة رؤوس النوب، وبقي له كلمة في الدّولة، وزادت حرمته إلى أن كان منها زوال نعمته. وأُمسِكَ وحُبس بقلعة الجبل، ثم أُخرج أميراً بحلب، ثم حُبس أيضاً بحلب ثانياً مُدَّةً، ثم أُطْلِق وأُعْطِيَ إمْرَة طبلخاناه بطرابُلُس، فدام بطرابُلُس إلى أن مات. وأحواله وأخلاقه مشهورة لا حاجة لنا في ذكر شيء من ذلك ـ عفا الله عنّا وعنه.

وفي هذه السنة زالت دولةُ بني رسول ملوك اليمن من اليمن بعد ما حكموا ممالك اليمن نحواً من مائتيْن وثلاثين سنة؛ وقد ذكرنا أسماء جميع ملوك اليمن منهم [في كتابنا حوادث الدهور][1]، من أولهم الملك المنصور أبي الفتح عمر بن علي بن رسول إلى آخر مَنْ مَلَكَ منهم، وهو الملك المسعود [بن إسماعيل]. وقد

---

(١) زيادة للإيضاح يقتضيها السياق.

ملك اليمنَ جميعَه الآن شخصٌ من العرب يسمى عبد الوهاب [بن داود][1] بن طاهر، واستوثق أمره بها.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع وستّة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً واثنا عشر إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الأشرف إينال العلائي على مصر

وهي سنة إحدى وستّين وثمانمائة.

فيها تُوُفّي الأميرُ سيفُ الدين جَانَم بن عبد الله المؤيَّدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في يوم الخميس رابع المحرّم، وقد جاوز السبعين من العُمر. وكان أصله من مماليك الملك المؤيَّد شيخ قبل سلطنته، وصار رأس نوبة السقاة بعد موت أستاذه المؤيّد، ثم تأمّر عشرة في دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار من جملة رؤوس النوب، فدام على ذلك إلى أن مات. وكان هيناً ليناً حشماً ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفّيَ الأميرُ سيفُ الدين جَرِباش بن عبد الله الكريمي الظاهري أمير سلاح بطالاً بداره بسُويقة الصاحب داخل القاهرة في ليلة السبت ثالث عشر المحرّم، وقد شاخ وكبر سنّه حتى عجز عن الحركة إلّا بعُسْر، ودُفن بتربته التي أنشأها بالصحراء. وكان يُعرف بقاشق، وكان أصله من مماليك الظاهر بَرْقوق، أعتقه قبل واقعة الناصري ومِنْطَاش في سلطنته الأولى ـ هكذا ذكر لي من لفظه ـ ثم صار سلاحداراً في دولة الناصر فرج، ثم أمير عشرة ورأس نوبة، ثم صار أمير طبلخاناه

(١) زيادة عن معجم زامباور. وفيه أن عبد الوهاب هذا حكم على عدن وزبيد من سنة ٨٨٣ هـ إلى سنة ٨٩٤ هـ. والذي حكم على عدن من بني طاهر من سنة ٨٥٣ هـ إلى سنة ٨٨٣ هـ هو الملك المجاهد شمس الدين علي بن طاهر.

في دولة الملك المؤيَّد شَيْخ، ثم أمير مائة ومقدّم ألف، ثم صار في دولة الأشرف بَرْسباي حاجب الحجّاب بالديار المصرية، بعد انتقال الأمير جَقْمَق العلائي إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد توجّه قَصْرُوَه من تِمْراز إلى نيابة طرابُلُس، بعد عزل إينال النَّوْرُوزي وقدومه إلى القاهرة أمير مائة ومقدّم ألف، كل ذلك في سنة ست وعشرين وثمانمائة. ثم نقله الأشرف إلى إمرة مجلس في يوم الاثنين خامس عشر شوّال سنة تسع وعشرين، عوضاً عن الأمير إينال الجَكَمي، وقد انتقل الجَكَمي إلى إمرة سلاح بعد انتقال الأتابَك يَشْبُك الساقي الأعرج إلى أتابَكية العساكر، بعد موت الأتابَك قُجَق، واستقرَّ الأمير قَرْقَماس الشَّعْباني حاجب الحجّاب بعد موت جَرِباش هذا. ثم وَلِيَ جَرِباش هذا نيابة طَرَابُلُس، بعد انتقال قَصْرُوَه إلى نيابة حلب، بعد عزل الأمير جَارْقُطْلو وقدومه إلى مصر أمير مائة ومقدّم ألف وأمير مجلس عوضاً عن جَرِباش المذكور، فلم تطل مدّة جَرِباش بطرابُلُس، وعُزل عنها بالأمير طَرَابَاي الظاهري، وقَدِمَ إلى القاهرة في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة أمير مجلس على عادته أولاً.

وقد انتقل جَارْقُطْلو عن إمرة مجلس إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية، بعد موت الأتابك يَشْبُك الساقي الأعرج، فلم تطل مُدّة جَرِباش بالقاهرة، وقُبض عليه، ونُفي إلى ثغر دِمياط بطَّالاً، فدام بالثغر دهراً طويلاً إلى أن طلبه الملك الظاهر جَقْمَق في أوائل سلطنته، وجعله أمير مجلس ثالث مَرّة، عوضاً عن الأمير يَشْبُك السُّودوني المنتقل إلى إمرة سلاح، بعد انتقال الأمير آقْبُغا التِمْرازي إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد عصيان قَرْقَماس الشَّعْباني والقبض عليه وسجنه بالإسكندرية، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، فدام على إمرة مجلس إلى سنة ثلاث وخمسين، فنقل إلى إمْرَة سلاح بعد موت الأمير تِمْرَاز القَرْمَشي. وتولّى بعده إمرة مجلس تَنَم من عبد الرزّاق المؤيدي المعزول عن نيابة حلب، فلم يزل على ذلك إلى أن أخرج الملك المنصور عثمان إقطاعه إلى الأمير قَرَاجَا الخازندار الظاهري ـ ووظيفته إمرة سلاح ـ إلى الأمير تَنَم المقدّم ذكره، فلزم جَرِباش من يوم ذلك داره إلى أن مات. وكان رحمه الله تعالى وقوراً في الدول، طالت أيامه في

السعادة، ودام أميراً أكثر من خمسين سنة، بما فيها من العطلة. وكان منهمكاً في اللذّات التي تهواها النفوس، مع عدم شُهرته بالشجاعة، وذلك خَرْجُ الملوك لطلب الراحة - انتهى.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين يَشْبُك بن عبد الله حاجب حُجّاب طرابُلُس في يوم الأربعاء ثالث المحرّم. وكان من مماليك الأمير قاني باي البَهْلوان، وسعى بعد موت أُستاذه إلى أن وَلِيَ حجوبيّة طرابُلُس بالبذل، فلم تطل أيامه، ومات ولم تكن فيه أهلية لتُشكر أفعاله أو تُذَمّ.

وتُوُفِّيَ الأمير الطواشي الرومي زين الدين عبد اللطيف المَنْجكي ثم العثماني، مقدَّم المماليك السلطانية - كان - بطّالاً، في ليلة الجمعة رابع عشرين صفر وقد أَسَنَّ. وكان من خُدَّام الستّ فاطمة بنت الأمير مَنْجَك اليوسفي وعتيقها، ثم اتّصل بخدمة الأتابك أَلْطُنْبُغا العثماني، وبه عُرف بالعثماني، ثم صار من جمدارية السلطان الخاص [بخدمة السلطان][1] إلى أن ولّاه الملك الظاهر جَقْمَق تقدمة المماليك السلطانية بعد القبض على الأمير الطواشي خشْقَدم اليَشْبكي، فدام على ذلك عدّة سنين، وحجَّ مرتين أمير الركب الأوّل، ولمّا عاد من الثانية في سنة اثنتين وخمسين عَزَلَه السلطان بنائبه الأمير جَوْهَر النَّوْرُوزِي الحبشي، فدام بطّالاً إلى أن مات. وكان دَيِّناً خَيِّراً لا بأس به، رحمه الله تعالى.

وَتُوُفِّي قاضي القضاة سراجُ الدين عمرُ بن موسى الحمصي الشافعي في صفر بطّالاً، وقد أناف على الثمانين. وكان مولده بحمص وبها نشأ وطلب العلم، وقَدِمَ القاهرة وحضر دروس السّراج البُلْقيني، وناب في الحُكْم عن ولده قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن سنين كثيرة، ثم وَلِيَ القضاء بالوجه القبلي، ثم نقل إلى قضاء طرابُلُس، ثم قضاء حلب، ثم قضاء دمشق غير مرّة، ورَشَّحَ هو نفسه لقضاء الديار المصرية وكتابة السرِّ بها فلم يقع له ذلك. ثم وَلِيَ في أواخر عمره تدريس مقام الإمام الشافعي، ثم عُزل وأُخرج إلى البلاد الشامية فمات بها. وقد كان

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

يستحضر من فروع مذهبه طُرَفاً، وله نظم بحسب الحال. وهو الذي كان نظم صداق كريمتي[(١)] على قاضي القضاة جلال الدين البُلْقيني أكثر من ثلاثمائة بيت ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي قاضي قضاة مكة وعالِمها جلال الدين أبو السعادات محمد بن أبي البركات محمد بن أبي السعود محمد بن الحسين بن علي بن أبي أحمد بن عطية بن ظَهيرة المكّي المخزومي الشافعي بمكة، وهو قاضٍ، في تاسع صفر، ودفن من الغد، وتولى قضاء مكة بعده ابنُه محبّ الدين محمد. وكان مولده في سلخ شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وسبعمائة بمكة، وبها نشأ وتفقّه بعلماء عصره، إلى أن برع في عدّة عُلوم، وشارك في عدّة فنون، ونُعت بعالم الحجاز، وتولى قضاء مكة غير مرّة. وقد ذكرنا مشايخه وعدّة وقائعه في تاريخنا «حوادث الدهور»، وذكرنا أيضاً مصنّفاته. وكان له نظم جيد. ومما أنشدني من لفظه لنفسه في القاضي كمال الدين ابن البارزي كاتب السّرّ الشريف بالديار المصرية: [السريع]

أبرزه الله بلا حاجبٍ يحجبه عنّا ولا حاجزِ
فكلُّ فَضْل من جميع الورى مُكتَسَبٌ من ذلك البارزي

وتُوُفِّيَ الأَميرُ سيفُ الدين إينال بن عبد الله الأشرفي الطويل أحد أمراء الخمسات، في يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأَمير سيف الدين نوكار بن عبد الله الناصري، أحد أمراء العشرات، والزَّرَدْكَاش، في أواخر جمادى الآخرة ـ مجرّداً إلى بلادِ ابن قَرَمان ـ بمدينة غزة. وكان من مماليك الناصر فرج وتخومِل من بعده، واحتاج إلى أن خَدَمَ في أبواب الأمراء، وقاسى خطوب الدهر ألواناً، إلى أن عاد إلى باب السلطان بعد موت الملك المؤيد شيخ وصار خاصكياً، وأقام على ذلك سنين كثيرة إلى أن أنعم عليه

(١) هي أُخت المؤلّف الشقيقة خوند هاجر بنت تغري بردي، وقد توفيت سنة ٨٤٦ هـ بعد زوجها القاضي جلال الدين البلقيني الذي توفي سنة ٨٢٤ هـ.

الملك الظاهر جَقْمَق بإمرة عشرة بعد سؤال كثير، ثم صار حاجباً ثانياً، فدام على ذلك لا يلتفت إليه في الدول إلى أن ولّاه الملك الأشرف إينال الزردكاشية بعد موت جانِبَك بعد موت جانِبَك الوالي، فاستمر على ذلك إلى أن مات. وكان مهملاً يعيش بين الأكابر بالدعابة والمضحكة، وليس فيه أهلية لحرب ولا ضرب، ولا لنوع من الأنواع سوى ما ذكرناه ـ رحمه الله.

وتُوُفِّي قاضي القضاة وليّ الدين محمد [بن محمد بن عبد اللطيف][1] السنباطي المالكي قاضي قضاة الديار المصرية في يوم الجمعة عاشر شهر رجب، ودفن من يومه، وقد زاد سنُّه على السبعين. وكانت لديه فضيلة مع لين جانب وتديّن، ومع هذا لم تُشكَر سيرته في القضاء، لسلامة باطنه، ولحواشيه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي شيخ الإسلام، علّامة زمانه، كمال الدين محمد ابن الشيخ همّام الدين عبد الواحد ابن القاضي حميد الدين عبد الحميد ابن القاضي سعد الدين مسعود الحنفي السيرامي[2] الأصل المصري المولد والدار والوفاة، العالِم المشهور بابن الهمّام، في يوم الجمعة سابع شهر رمضان، ودفن من يومه، وكانت جنازته مشهودة. ومات ولم يخلف بعده مثله في الجمع بين علميّ المنقول والمعقول، والدين والورع والعفّة والوقار في سائر الدول. ومولده في سنة ثمانٍ أو تسع وثمانين وسبعمائة بالقاهرة، وبها نشأ، واشتغل على علماء عصره إلى أن برع، وصار أعجوبة زمانه في علوم كثيرة بلا مدافعة، ووَلِيَ مشيخة المدرسة الأشرفية بَرْسباي من الأشرف قبل سنة ثلاثين وثمانمائة، ثم تركها رغبة منه، ودام ملازماً للأشغال، وحجّ وجاور مرة غيره، إلى أن ولّاه الملك الظاهر جَقْمَق مشيخة خانقاه شَيْخون، واستمر بها مدة طويلة من السنين، ثم تركها أيضاً وسافر إلى مكة، وقد قصد المقام بها إلى أن يموت. فلما حصل له ضعف في بدنه عاد إلى مصر ولزم الفراش إلى

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) في الضوء اللامع: «السيواسي».

أن مات. وقد ذكرنا من مصنّفاته وأحواله ما هو أطول من هذا في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» إذ هو محل الإطناب ـ رحمه الله تعالى.

وتُـوُفِّي الأميرُ سيفُ الـدين جَانِبَـك بن عبد الله القـرماني الـظاهـري حـاجب الحجَّاب بالديار المصـرية، بعـد عوده من تجـريدة ابن قـرمان بـالقرب من منـزلة الصالحية، فحمل إلى القاهرة ودُفن بالقرافة الصغرى، في يوم الجمعة ثاني عشر شوّال، وقد أناف على الثمانين. وكان من عتقاء الملك الظاهر بَـرْقُوق، ووقـع له مِحَن في الدولة الناصرية فرج إلى أن تأمّر بعد الملك المؤيد شيخ عشرة، وصار من جملة معلّمي الرمح، إلى أن نقله الملك الظاهر جَقْمَق إلى إمرة طبلخاناه. وصار بعد ذلك رأس نوبة ثانياً، واستمر على ذلك إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى إمرة مائة وتقدمة ألف، ثم ولّاه حجوبية الحجَّاب. ثم تجرّد من جملة مَن تجرّد من الأمراء إلى بلاد ابن قرمان، فمات في عوْدِه حسبما تقدّم. وكان ساكناً عاقلاً إلّا أنه كان لا يتجمّل في نفسه ولا في مركبه ـ رحمه الله تعالى.

وتُـوُفي الأمير سيف الـدولة جَكَم بن عبـد الله النُّورِي المؤيـدي، أحد أمـراء العشرات ورأس نوبة بمدينة غزة، وهو عائد من تجريدة ابن قرمان في يوم الاثنين ثامن شوّال، وقد قارب الستّين. وكان من مماليـك المؤيد شيـخ، وتأمّـر في دولة الأشـرف إينال عشـرة وصار من جملة رؤوس النـوب، وكـان من المهملين يعيش تحت ظلّ خُجْدَاشِيّته.

وتُوفِّي القاضي زينُ الدين أبو العـدل قاسمُ ابن قـاضي القضاة جـلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمـر البُلْقيني الشافعي في يـوم الأحد حادي عشرين شوّال، وهو في عشر السبعين. وكان نشأ تحت كنف والده، غير أن اشتغاله كان بالفقيري[1]، وناب في الحكم سنين، وتولّى نظر الجوالي. وكان فيه كرمٌ أفقره في أواخر عمره، واحتاج منه إلى تحمّل ديون والحـاجة للنـاس، فكان حاله كقول القائل: [السريع]

(١) كذا في الأصل. وفي الضوء اللامع: «واشتغل بالفقه على أبيه والبيجوري».

كم من فتًى أفقره جودُه ... وعاش في الناس عَيْشَ الذليل
فاشدد عُرى مالِكَ واسْتَبْقِهِ ... فالبخلُ خيرٌ من سؤالِ البخيل

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين أُزْبُك بن عبد الله الشِّشْماني المؤيّدي أحد أمراء الخمسات في يوم السبت رابع عشرين ذي الحجة، وسنُّه نحو الثمانين. وكان أصله من مماليك الملك المؤيَّد شَيخ قبل سلطنته، وطالت أيامه في الجندية إلى أن تأمّر خمسة في دولة الملك الأشرف إينال، ومات بعد سنين. وكان مكفوفاً عن الناس إمّا لخيره أو لشرّه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي خُشْكَلْدي الزيني عبد الرحمن بن الكُوَيْز أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق. وكان أصله من مماليك صاحبنا الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكُوَيْز، ثم صار من جملة دَوَادَارِيَّة السلطان، ثم سعى في دوادارية السلطان بدمشق حتى وَلِيَها بمال بذله في ذلك، فلم تطل مدته، فعُزل وقَدِمَ القاهرة، وسعى ثانياً إلى أن أُعطي إمرةً بدمشق، فتوجّه إليها ودام بها إلى أن مات. وكانت لديه فضيلة في الفقه على قدر حاله ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع وثمانية أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وإصبع واحد.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الأشرف إينال العلائي على مصر

وهي سنة اثنتين وستّين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ القاضي شهابُ الدين أحمدُ بن يوسف الشيرجي الشافعي أحد نوّاب الحُكْم بالدِّيَار المصرية في يوم الجمعة رابع عشر المحرّم، ودفن من يومه بعد صلاة الجمعة، وقد أناف عن الثمانين. وكان حضر دروس السِّراج البُلْقِيني، وله إلمام بعلم الفرائض، وناب في الحكم سنين، وأفتى ودرَّس، وكان غير محبّب إلى أصحابه.

وتُـوُفِّيَ الأميرُ سيف الـدين أُزْبُك بن عبـد الله الأشرفي البـوّاب، أحـد أمـراء العشرات ورأس نوبـة، في يوم الثـلاثاء ثـامن عشر المحـرّم. وأصله من مماليـك الأشرف بَرْسبَاي، ثـم امْتُحِن بعد مـوت أستاذه وحُبس، ثم أُطْلِق، وقَـدِمَ القاهـرة وتأمَّر في أول دولة الأشرف إينال خمسة، شـريكاً لأُزْبُـك الشِّشْماني المقـدّم ذكر وفاته في السنة الخالية، فما مـات أُزْبُك المـذكور أُنعم بنصيبـه من الإقطاع على شريكه أُزْبُك هذا لِتَتِمَّةِ إقطاعه إمْرَة عشرة، فعاش أُزْبُك هذا بعد ذلك دون الشهر ومات، فكان حاله كالمثل السائر: «إلى أن يسعد المعثر فرغ عمره».

وتُوُفِّيَ القاضي عـلاءُ الدين علي بن محمـد بن آقْبَرْس الشـافعي أحد نـوّاب الحكم، في يوم الأحد خامس عشر صفـر بطّالاً، وهـو في عشر السبعين. وكـان مولده بالقاهرة، وبها نشأ، وتكسَّب بعمل العَنْبَر في حانوت بالعنبريين مدّة سنين، ثم اشتغل بالعلم، وناب في الحكم، وصحب الملك الظاهر جَقْمَق قبل سلطنته، فلما تسلطن قَرَّبَه، أو هو قرَّب نفسه، ووَلِيَ نظر الأوقاف، ثم حِسْبَة القاهرة، ثم نظر الأحباس. وتحرّك له بُعَيْضُ سَعْد، إلاّ أنه تَبَهْدَلَ غير مَـرَّة من السلطان لسُوءِ سيرته؛ فإنه لمّا وَلِيَ ما وَلِيَ ما عفَّ ولا كفَّ، بل مدَّ يداً للأخذ، إلى أن ساءت القـالة فيـه، وانحطَّ قدرُه لـذلك كثيـراً، فلما مـات الملك الظاهـر امتُحن وصُودِر وتُخُومل، ولزم داره إلى أن مات. وكان له نظم أحسنه في الهجو. ومما هجـا به عبد الرحمن ابن الدَّيْري ناظر القدس: [الطويل]

أقـولُ لمَن وافى إلى القدسِ زائـراً ... وصلتَ إلى الأقصى من الفضلِ والخيرِ
تـقـرَّب إلى مـولاك فـيـه عبـادة ... وبع بِيَعَ الرهبانِ وابعُدْ عن الدَّيْري

وتُوُفِّي عبدُ الكريم [بن علي بن محمد](1)، شيخ مقام الشيخ أحمد البـدوي بظاهر القاهرة، في صبيحة ثامن عشر صفر: وجد ميتاً؛ وقـد اختلفت الأقوال في موتته، فمنهم مَن قال: تردَّى من سطح وهو ثَمِل، ومنهم مَن قال: دسَّ عليه شيخ العرب حسن بن بغداد مَنْ قتله، وهو الأشهر، وأنـا أقول: قتله سـرُّ الشيخ أحمـد

(1) زيادة عن الضوء اللامع.

البدوي لانهماكه على المعاصي وسوء سيرته، فأراح الله الشيخ أحمد البدوي منه ولله الحمد، وتولى عوضه شيخ المقام صبيٌّ [من] أقاربه دون البلوغ.

وتُوُفِّي الشيخُ العارفُ بالله القدوةُ المسلِّك[1] مَدْيَنُ الصُّوفي المالكي بزاويته بخُط المَقْس بظاهر القاهرة، في يوم الأربعاء تاسع شهر ربيع الأول بزاويته. وكان له شُهرة عظيمة، وللناس فيه اعتقاد ومحبة، لم يتّفق لي مجالسته، غير أنني رأيته غير مرّة ـ رحمه الله ونفعنا ببركته.

وتُوُفِّي الأمير جَانَم بن عبد الله الأشرفي البهلوان، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في يوم الاثنين سادس شهر ربيع الآخر، ودفن من يومه، وهو في الكهولية. وكان من مماليك الملك الأشرف بَرْسباي وخاصكيته، وَتأمّر بعد أمورٍ في الدَّولة الأشرفية إينال. وكان مليح الشكل مشهوراً بالشجاعة والإقدام ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأميرُ سَيْفُ الدين طُوخ[2] بن عبد الله من تِمْراز الناصري أمير مجلس بطَّالاً بعد مرض طويل، في ليلة الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر، ودفن من الغد. وكان من مماليك الناصر فرج، وتأمّر في أوّل الدولة الأشرفية بَرْسباي عشرة، وصار من جملة رؤوس النّوب. وكان يُعرَف بيني بازِق، أي غليظ الرّقبة، وكان قليل الخير والشرِّ مَكْفُوفاً عن الناس، ليس له كلمة في الدّولة. وكان السلطان أنعم بإقطاعه قبل موته على الأمير بَرْسباي البَجَاسي حاجب الحجَّاب، وبوظيفته إمرة مجلس على الأمير جَرِباش المحمدي المعروف بكرد[3] الأمير آخور.

وتُوُفِّي القاضي شهاب الدين أحمد [بن علي بن محمد][4] الدماصي[5] الحنفي قاضي بولاق، وكان يُعْرَف بقَرْقَماس، في يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر، ودفن من الغد ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) المسلّك: من ألقاب الصوفية، نسبة إلى تسليك المريدين في طرائق التصوّف.

(٢) ذكر السخاوي في الضوء اللامع أن وفاته كانت في سنة ٨٧٢ هـ.

(٣) في الضوء اللامع: «كرت». وسُمّي بذلك لكونه كثير الشعر.

(٤) زيادة عن الضوء اللامع.

(٥) نسبة إلى دماص، قرية من قرى الشرقية.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين سُودون بن عبد الله النَّوْروزي المعروف بالسلاحدار، نائب قلعة الجبل بها، في ليلة الأحد سادس عشرين شهر ربيع الآخر، ودفن من الغد، وله نحو سبعين سنة. وكان من مماليك نوْرُوز الحافظي نائب الشام، وصار بعد موته سلاحداراً فبي الدولة الأشرفية برسباي، ثم تأمّر عشرة في دولة الملك الظاهر جَقْمق، وصار من جملة رؤوس النوب، ثم جعله الملك الأشرف إينال نائب قلعة الجبل بعد موت قاني باي الناصري الأعْمش، فدام في نيابة القلعة إلى أن مات. وكان لا بأس به، لولا إسراف كان فيه على نفسه ـ عفا الله عنه.

وتُوُفِّي الأستاذ المادح المغنّي ناصر الدين محمد المازوني[١] الأَصل، المصري، أحد الأفراد في إنشاد القصيد وعمل السماع، في ليلة الجمعة ثامن جمادى الأولى، بعد أن آبتلي بمرض الفالج، وبطل نصفه وسكت حسّه. وكان من عجائب الدنيا في فنونه. كان صوته صوتاً كاملاً أوازاً[٢] وبمّاً، مع شجاوة ونداوة وحلاوة، كان رأساً في إنشاد القصيد على الضروب والحدود. سافر غير مرة إلى الحجاز حادياً في خدمة الأكابر، وكان له تسبيح هائل على المآذن؛ ففي هذه الثلاثة كان إليه المنتهى، وكان يشارك في الموسيقى جيداً، ويعظ في عقود الأنكحة، وليس فيه بالماهر. وفي الجملة إنه لم يخلف بعد مثله، وفي شُهرته ما يُغني عن الإطناب في ذكره.

وتُوُفِّي الشرفي موسى ابن الجمالي يوسف بن الصفّي الكركي ناظر جيش طرابلس بها، في ليلة الأحد ثامن شهر رجب، وخلف مالاً كثيراً وعدّة أولاد. وكان من مساوىء الدهر دميم الخلْق مذموم الخلُق.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالِم العلاّمة شرف الدين يحيىٰ [بن صالح بن علي بن محمد بن عقيل][٣] العجيسي المغربي الأصل والمولد والمنشأ، المصري الدار

(١) في الضوء اللامع: «المغربي الأصل. . . ويُعرف بالمازوني».

(٢) كذا في الأصل. ولعلّه: زير وبَمّ. والزير هو الوتر الدقيق في العود، ويقابله البَمّ وهو الوتر الغليظ. والمراد أن صوته يجمع الطبقتين.

(٣) زيادة عن حوادث الدهور. وفي الضوء اللامع: «يحيىٰ بن عبد الرحمن بن محمد بن صالح بن علي بن عمر بن عقيل».

والوفاة، المالكي، في يوم الأحد سابع عشرين شعبان. ومولده في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. وكان إماماً في النحو والعربية ومعرفة تاريخ الصحابة، وله مشاركة في فنون كثيرة، مع حدّة كانت فيه وسوء خلق ـ رحمه الله.

وتُوُفِّي الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد العباسي المصري بثغر الإسكندرية مخلوعاً من الخلافة، في سابع عشر شوّال. وقد مرَّ ذكر نسبه في تراجم أسلافه في عدّة مواطن من مصنّفاتنا، مثل «مورد اللطافة في ذكر مَن وَلِيَ السلطنة والخلافة» وغيره. وكان القائم بأمر الله هذا وَلِيَ الخلافة بعد موت أخيه المستكفي سليمان بغير عهد ـ اختاره الملك الظاهر جَقْمَق ـ فدام في الخلافة إلى أن خرج الأتابك إينال العلائي صاحب الترجمة عَلَى الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جَقْمَق، فقام الخليفة هذا مع إينال على الملك المنصور عثمان أشدّ قيام. فلما تسلطن إينال عرف له ذلك، ورفع قدره ومحله إلى الغاية، ونال في أيامه من الحرمة والوجاهة ما لا يقاربه أحد الخلفاء من أسلافه. فاتفق بعد ذلك ركوب جماعة من صغار المماليك الظاهرية على الأشرف إينال، وطلبوه فحضر عندهم، ووافاهم أفضل موافاة، فلم ينتج أمرهم، وسكنت الفتنة في الحال، وقد ذكرناها في أصل هذه الترجمة مفصّلة. فلما سكن الأمر طلبه السلطان إلى القلعة، ووبّخه على فعله وحبسه بالبحرة بقلعة الجبل، وخلعه من الخلافة بأخيه المستنجد يوسف، ثم أرسله إلى سجن الإسكندرية فحبس به مدة ثم أُطلق من السجن، ورُسِمَ له بأن يسكن حيث شاء من الثغر، فسكن به إلى أن مات ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الحاج خليل المدعو قاني باي اليوسفي المِهْمَنْدار محتسب القاهرة بها، في عشرين شوّال، وهو مناهز السبعين. وكان أصله من مماليك قَرَا يوسف بن قَرَا محمد، صاحب بغداد على ما زعم، ثم قَدِمَ القاهرة في دولة الأشرف برْسباي، وسأله الأشرف عن أصله وجنسه فقال: «أنا من مماليك قَرا يوسف، جنسي جاركسي، واسمي الأَصلي قاني باي»، فمشى ما قاله على الأَشرف، لضعف نقده، وعدم معرفته، وسمّاه قاني باي اليوسفي، وجعله خاصكياً؛ ثم امتحن بعد

موت الأشرف بَرْسبَاي، وحُبِس، إلى أن عاد إلى رتبته في الدولة الأشرفية إينال، وجعله مهمنداراً، ثم محتسباً إلى أن مات.

وتُوُفِّيَ يَارعلي بن نصر الله العجمي الخراساني الطويل، محتسب القاهرة، بطالاً، بعد مرض طويل، في سادس عشرين ذي القعدة، ودُفن من الغد، وسنّه نيّف على الثمانين؛ وكان هو يَدَّعِي أكثر من ذلك، وليس بصحيح. وكان أصله فقيراً مكدياً على عادة فقراء العجم، وخدم الأمير سُودون من عبد الرحمن نائب الشام لما كان هارباً من الملك المؤيَّد شَيْخ بالعراق، فلما عاد سُودون إلى رتبته بالديار المصرية، وصار دواداراً كبيراً في دولة الأشرف بَرْسبَاي، قَدِمَ عليه يارعلي هذا ماشياً على قدميه من بلاد العجم، فأحسن إليه سُودون، ولمّا عمَّر مدرسته بخانقاه سِرْياقوس جعله شيخاً، ودام على ذلك وقد حسنت حاله، وركب فرساً بحسب الحال، إلى أن تسلطن الملك الظاهر جَقْمق، فتحرّك سعده لا لأمر أوجب ذلك بل هي حظوظ وأرزاق، تصل لكل أحد. ولا زال جقمق يرقّيه حتى ولّاه حِسبَة القاهرة غير مرّة، ثم نكبه وصادره، وأمر بنفيه، لسوء سيرته، ولقبيح سريرته؛ فإنّه لمّا وَلِيَ حِسبَة القاهرة سار فيها أقبح سيرة، وفُتِحَ له أبواب الظلم والأخذ، فما عفَّ ولا كفَّ، وجدَّد في الحِسبَة مظالم تُذكَر به، وإثمُها وإثْمُ مَن يعمل بها عليه إلى يوم القيامة، وصار يأخذ من هذه المظالم ويخدم الملوك بها، فانظر إلى حال هذا المسكين الذي ظلم نفسه، وظلم الناس لغيره، فلا قُوَّة إلّا بالله! اللّهمَّ اغنِنَا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عن سواك.

وَتُوُفِّيَ الشيخُ المعتقدُ المجذوبُ إبراهيم الزيّات بحيث هو إقامته بقنطرة قُدَيْدار[1]، ودفن من يومه، وهو اليوم الذي مات فيه الشيخ على المحتسب المقدَّم ذكره، وكان للناس فيه اعتقاد، ويُقصد للزيارة، وكانت جذبته مطبقة، لا يصحو، ويكثر من أكل الموز ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) قنطرة قديدار: كانت تقع على الخليج الناصري ويتوصل إليها من اللوق، وتُعرَف بالأمير سيف الدين قدادار والي القاهرة في بعض أيام حكم الناصر محمد بن قلاوون. (خطط المقريزي: ١٤٧/٢).

وتُوُفِّيَ الأميرُ الكبير سيف الدين تَنِبَك [بن عبد الله][1] البُرْدبَكي [الظاهري][2] أتابك العساكر بالديار المصرية، في يوم الاثنين رابع عشرين ذي القعدة، ودُفن من الغد، وقد ناهز التسعين من العمر. وكان[3] من مماليك الظاهر بَرْقُوق، وتزوّج في أيامه، وكان من إنيات[4] الوالد، وتَرَقَّى في أوائل دولة الأشرف بَرْسباي إلى أن صار أمير عشرة ـ أو في أيام دولة الملك المظفّر أحمد ـ ومن جملة رؤوس النوب، ثم صار في سنة سبع وعشرين نائب قلعة الجبل بعد تَغْري بَرْمُش البَهْسَنِي التركماني، بحكم انتقاله إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وأنعم على تَنِبَك بإمرة طبلخاناه عوضاً عن تَغْري بَرْمُش المذكور أيضاً، فدام على ذلك مدة طويلة إلى أن نقل إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في أواخر الدولة الأشرفية.

ثم وَلِيَ نيابة قلعة الجبل ثانياً في أوائل دولة الملك الظاهر جَقْمَق، وهو أمير مائة ومُقدّم ألف، ثم صار أمير حاج المحمل، ثم وَلِيَ حجوبية الحجّاب بالديار المصرية، ودام على ذلك سنين كثيرة، وحجَّ أمير حاج المحمل غير مرّة، إلى أن أمسكه السلطان الظاهر ونفاه إلى ثغر دِمياط، وأنعم بإقطاعه وحجوبيته على الأمير خُشْقَدَم الناصري المؤيَّدي، أحد أمراء الألوف بدمشق، فأقام بدِمياط مدّة.

ثم طلبه الملك الظاهر إلى الديار المصرية، ورسم له بالمشي في الخدمة السلطانية، فمشى إلى الخدمة أياماً كثيرة من غير إقطاع، إلى أن مات الشهابي أحمد بن علي بن إينال، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، فأنعم بإقطاعه على تَنِبَك هذا، ثم صار أمير مجلس في دولة الملك المنصور عثمان بعد انتقال تَنَم المؤيدي إلى إمْرَة سلاح، بعد جَرِبَاش الكريمي بحكم لزومه بيته لكبر سنّه وضعف بدنه، فلم تطل أيامُه.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.
(٢) زيادة عن حوادث الدهور.
(٣) في الأصل: «لأنه كان».
(٤) أي المماليك الصغار الذين يتربّون برعايته وعهدته. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

واستقرَّ أمير سلاح في ثاني يوم من سلطنة الملك الأشرف إينال، عوضاً عن تَنَم المذكور، بحكم القبض عليه وحبسه بسجن الإسكندرية، فلم يتمّ له ذلك غير يوم واحد، وأصبح استقر أتابك العساكر لمّا كَثُرَت القالةُ في تولية الشهابي أحمد ابن الملك الأشرف إينال أتابَك العساكر عوضاً عن أبيه، فعَزَله وجعله من جملة أمراء الألوف واستقر تَنِبَك هذا عوضه، فدام في الأتابَكية مدّة طويلة إلى أن مات في التاريخ المذكور، وتولّى المقامُ الشهابي أحمد عنه الأتابكية ثانياً.

وكان [من] أمر تَنِبَك هذا في ولايته الأتابكية غريبة، وهو أن الذي أُخَذَ عنه وُلِّيَ عنه، ولعلّ هذا لم يقع لأحد أبداً. وكان تَنِبَك المذكور رجلاً ديِّناً خيِّراً، هيِّناً ليِّناً، سليم الفطرة، شحيحاً، لا يتجمّل في بَرْكِهِ[1] ولا حواشيه ـ رحمه الله تعالى.

وتُـوُفِّيَ عظيمُ الدّولة الصاحبُ جمالُ الدين أبو المحاسن يوسف ـ مدبّر المملكة، وصاحب وظيفتي نظر الجيش والخاص معاً ـ ابن الرئيس كريم الدين عبد الكريم ناظر الخاص ابن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب جَكَم، في ليلة الخميس ـ وقت التسبيح ـ الثامن عشر من ذي الحجة، ودفن من الغد بالصحراء في تربته التي أنشأها. وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية، وحضر المقامُ الشهابي أحمد أتابَك العساكر الصلاةَ عليه بمصلاة باب النصر، وحضر دفنه أيضاً؛ ومات وسنّه زيادة على أربعين سنة، لأن مولده في سنة تسع عشرة وثمانمائة، هكذا كتب لي بخطّه ـ رحمه الله.

ومات ولم يخلف بعده مثله رئاسةً وسؤدداً بلا مدافعة، وهو آخر مَن أدركنا من رؤساء[2] الديار المصرية، لأنه كان فرداً في معناه، لعظم ما ناله من السعادة

---

(١) البَرْك: لفظ فارسي معناه الثوب المصنوع من وبر الجمال، ثم أصبح في كتب المؤرّخين لفظاً اصطلاحياً يطلق على أمتعة المسافر. وأُطلق أيضاً على متاع البيت من أثاث ورياش والمتاع الخاص من ثياب الأمراء والسلاطين وقماشهم. وأُطلق أيضاً على طقم الحصان وعدّة لجامه. ويقال أيضاً: الرخت، وهما بنفس المعنى. (خطط المقريزي: ٨٦/١؛ وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ٩٢، ١١٣).

(٢) أي كبار الأمراء من رتبة أمير الأمراء، وهو نائب السلطنة أو النائب الكافل أو مدبّر المملكة. ويطلق =

والوجاهة ووفور الحرمة، ونفوذ الكلمة والعظمة الزائدة، وكثـرة ترداد النـاس إليه، وأعيان الدولة وأكابرها إلى بابه، بل الوقوف في خدمته، وهذا شيء لم ينله غيـره في الدولة التركية[1]، مع علمي بمنزلة كريم الـدين الكبير عنـد الناصـر محمد بن قلاوون، وبما ناله سعـد الدين إبـراهيم بن غراب في الـدولة النـاصريـة فرج، ثم بعـظمة جمـال الدين يـوسف البيري الأستـادار في دولة النـاصـر فـرج أيضـاً، ثم بخصوصية عبد الباسط بن خليل الدمشقي في دولة الأشرف بَرْسبَاي، ومع هذا كله ليس فيهم أحد وصل إلى ما وصل إليه جمال الدين هذا؛ وقد برهنّا عمّا قلناه في تاريخنا «حوادث الدهـور»، وأيضاً في تـاريخنا «المنهـل الصافي»، فلْيُنـظَر هناك، وليس هذا الموطن محل إطناب ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعـة أذرع وثمانيـة أصابـع. مبلغ الزيـادة ثمانيـة عشر ذراعـاً وخمسة عشر إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الأشرف [إينال] على مصر

وهي سنة ثلاث وستين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّي الأميـر يَشْبُك بن عبـد الله النَّوْرُوزي نـائب طرابُلُس ـ كـان ـ بطّالاً بالقدس، في يوم الاثنين تاسع المحرّم، وهو في عشر السبعين تخميناً. وهو من عتقاء الأمير نَوْرُوز الحافـظي، وتنقّل بعـد موت أستـاذه في خدم الأمـراء، وقاسى خطوب الدهر ألواناً، إلى أن صار في أواخر دولة الأشرف بَرْسباي من صغار أمراء دمشق. ثم تنقـل في دولـة الملك الـظاهـر جَقْمَق إلى أن صـار حـاجب حجّـاب

= عليهم المؤلّف أحياناً لقب الملوك. وكان يُعدّ أيضاً من الرؤساء كلّ من نـاظر الجيـوش وكاتب السرّ أو رئيس ديوان الإنشاء.

(١) هذا المصطلح يطلق عادة على دولة المماليك الأولى البحرية، لأن عنصر الأتراك كان الغالب فيها. أمـا الدولة الثانية البرجية فهي دولة الجراكسة.

طرابُلُس بالبذل. ثم نقل إلى حجوبية دمشق، ثم إلى نيابة طرابلس بعد عزل يَشْبُك الصُّوفي عنها ـ كل ذلك ببذل المال ـ فدام على نيابة طرابُلُس إلى أن أمسكه الملك الأشرف إينال في حدود سنة ستّين، وحبسه بقلعة المرقب إلى أن أطلقه في سنة اثنتين وستّين وثمانمائة، ورسم له بالتوجّه إلى القدس بطالاً، فاستمر بالقدس إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره.

وكان وضيعاً في الدول، لم تسبق له رئاسة بالدولة المصرية[1]، حتى إنه لم يخدم في باب سلطان أبداً، بل كان يخدم بأبواب الأمراء، إلى كان من أمره ما كان. وكان مع ذلك عنده طيش وخفّة وتكبّر، ولم أدرِ لأيّ معنى من المعاني ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالِم العامل المحقّق الفقه الصُّوفي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل البَلاَطُنُسي الشافعي، نزيل دمشق بها في ليلة سابع عشرين صفر، ودُفِن في صبيحة يوم الأربعاء، وكانت جنازته مشهودة، وكثر أسف الناس عليه. ومولده ببَلاَطُنُس من أعمال طرابُلُس، بعد سنة تسعين وسبعمائة، ونشأ بها، وقرأ العربية واشتغل، ثم قَدِمَ طرابُلُس، ولازم الشيخ محمد بن زهرة وبه تفقّه، وأخذ الأصول عن الشيخ سراج الدين[2]، وقرأ الحديث أيضاً بطرابُلُس على ابن البدر، ثم رحل إلى دمشق قبل سنة عشرين، واشتغل بها على العلماء، ثم عاد إلى طرابُلُس. ثم قَدِمَ إلى دمشق ثانياً بأهله واستوطنها، ولازم علاّمة زمانه ووحيد دهره الشيخ علاء الدين محمد البخاري الحنفي، وأخذ عنه فنوناً كثيرة، إلى أن برع في الفقه والتصوُّف، وجلس للإفادة والتدريس والأشغال إلى أن مات. وكان قوّالاً بالحق، قائماً في أمر الملهوفين، لا تأخذه في الله لومة لائم؛ وقد استوعبنا من أحواله نبذة كبيرة في تاريخنا «الحوادث» وغيره ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) المراد: بالديار المصرية. وهي إشارة إلى أفضلية الوظائف والولايات في الديار المصرية على غيرها من أنحاء المملكة.

(٢) في الضوء اللامع: «عن التقي ابن قاضي شهبة».

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين يَشْبُك بن عبد الله من جَانِبَك المؤيدي الصُّوفي أتابَك دمشق بها، في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر، وهو اليوم الذي مات فيه البَلاَطُنُسي المقدّم ذكره، وقد ناهز السّتين من العمر. كان من صغار مماليك الملك المؤيَّد شَيْخ، وصار خاصكيّاً بعد موت أُستاذه، وامتُحن في دولة الملك الأشرف بَرْسبَاي بالضرب والعصر والنفي، بسبب الأتابَك جَانِبَك الصُّوفي.

ثم عاد بعد سنين إلى رتبته، وصار خاصكياً على عادته إلى أن تأمَّر عشرة في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، وصار من جملة رؤوس النوب، وسافر إلى مكة مقدّم المماليك السلطانية بمكة، ثم عاد إلى القاهرة، ودام بها مُدَّةً، ثم نفي إلى حلب بعد سنة خمسين وثمانمائة، ثم نقله الملك الظاهر جَقْمَق إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بحلب، ثم نقله بعد ذلك إلى نيابة حماة ببذل المال، ثم إلى نيابة طرابُلُس كذلك، بعد انتقال الأمير بَرْسباي الناصري إلى نيابة حلب في سنة اثنتين وخمسين، فدام على نيابة طرابُلُس إلى سنة أربع وخمسين، فطُلِب إلى القاهرة، فلما حضر أمسكه السلطانُ الملكُ الظاهر، وأرسله إلى دِمياط بطالاً، ثم نقل بعد مدّة من دِمياط إلى سجن الإسكندرية، لأمر بلغ السلطان عنه، فلم تطل مُدَّتُه بسجن الإسكندرية وأُطْلِق وأرسل إلى دِمياط ثانياً، ثم نقل إلى القُدْس، ثم طلب إلى الديار المصرية، فأنعم عليه بأتابَكيّة العساكر بدمشق، بعد القبض على الأتابَك خير بك المؤيدي الأجرود. فدام يَشْبُك هذا على أتابَكية دمشق إلى أن حَجّ أمير حاج المحمل الشامي في سنة اثنتين وستّين، وعاد إلى دمشق، ومات بعد أيّام. وكان رجُلاً طوالاً، حسن الشكل، حُلو اللسان، بعيد الإحسان، عادِلاً في الظاهر، ظالماً في الباطن، متواضعاً لمَن كانت حاجته إليه، مترفِّعاً على مَن احتاج إليه، كثير الخَدْع والتَّمَلُّق لأصحاب الشَّوْكَة، بألف وجه وألف لسان، مع كثرة أَيْمان الله والطلاق، وشُحٍّ وبخل.

وتُوُفِّيَ الشيخ بهاء الدين أحمد بن علي التّتَائي الأنصاري الشافعي نزيل مكّة بها في ليلة الثلاثاء سابع عشرين صفر، وحضرتُ أنا الصلاة عليه بالحرم بعد صلاة الصُّبح، ودفن بالمعلاة؛ وهو أخو القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الأكبر.

كان مولده بِتِتا ـ قرية بالمنوفية بالوجه البحري من أعمال القـاهرة ـ في سنـة ثمانٍ وثمانمائة. وكان فيه محاسن ومكارم أخلاق، وخط منسوب، وفضيلة ـ رحمه الله تعالى. قلتُ: وكانت وفاة بهاء الدين هذا ويَشْبُك الصُّوفي والبَلَاطُنُسِي المقدَّم ذكرهما في ليلة واحدة، وهذا من النوادر ـ رحمهم الله.

وتِتَا بتاء مثناة مكسورة وتاء مثناة أيضاً مفتوحة، وبعدهما ألف ممدودة.

وتُوُفِّيَ الأمير سيفُ الدين قانِي بَاي بن عبد الله الحمزاوي نائب دمشق بها في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر، وقد قارب الثمـانين، ودفن من الغد في يـوم الخميس. وكان أصله من مماليك سُودُون الحمزاوي الظاهري الدّوادار، ثم خدم بعد موته عند الوالد هو وجماعة كثيرة من خُجْداشِيته مُدّةً طويلة، ثم صار في خدمة الملك المؤيَّد شَيخ المحمودي قبل سلطنته، فلما تسلطن أمَّره عشرة، ثم صار أمير طبلخاناه، ثم صار أمير مائة ومقدّم ألف بعد موت الملك المؤيَّد شَيخ، وتولّى نيابة الغَيْبَة[1] بالدّيار المصريّة للملك المظفّر أحمد بن شَيخ لمّا سافر مع الأتابَك طَـطَر إلى دمشق، ثم قبض عليه الملك الظاهر طَطَر لَمَّا عاد من دمشق وحبسه مُدَّةً، إلى أن أطلقه الملك بَرْسَبَـاي، وجعله أتابَـك دمشق، ثم طلبه بعـد سنين إلى الدّيـار المصريّة، وجعله بها أمير مائة ومقدّم ألف.

واستقرَّ الأمير تَغْرِي بَرْدي المحمـودي بعده أتـابَك دمشق، فـدام قانِي بَـاي بالقاهرة إلى أن ولّاه الأشرف نيابةَ حماة بعد انتقال الأمير جُلُبَّان إلى نيابة طرابُلُس، بعد موت الأتابَك طَرَباي في سنة سبع وثلاثين، ثم نقل بعد مُدَّة إلى نيابة طَرَابُلُس بعد الأمير جُلُبَّان أيضاً، بحكم انتقـاله إلى نيـابة حلب بعـد عصيان تَغْـري بَرْمُش [التركماني البَهَسْني][2] وخروجه عن الطاعة في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، فلم تطل مدته بها.

---

(١) نـائب الغيبة: هـو الذي يحكم في حـال غياب السلطان والنـائب الكافـل عن الحضرة، أي عـاصمـة السلطنة. وحكمه ينحصر في إخماد النَّوائر وخلاص الحقوق. (التعريف بالمصطلح الشريف: ٩٢).

(٢) زيادة عن حوادث الدهور.

ونُقل إلى نيابة حلب بعد انتقال جُلُبّان أيضاً إلى نيابة دمشق بعد موت الأتابَك آقْبُغَا التِّمْرازي في سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة، فدام في نيابة حلب إلى سنة ثمانٍ وأربعين وثمانمائة، فطلبه الملك الظاهر جَقْمَق إلى الديار المصرية، وعزله عن نيابة حلب بالأمير قانِي بَاي البهلوان الناصري، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، عوضاً عن الأمير شادبَك الجكَمي المتولّي نيابة حماة بعد انتقال قانِي بَاي البهلوان المقدَّم ذكره إلى نيابة حلب.

فاستمرّ قانِي بَاي الحمزاوي من أمراء الدِّيار المصريّة إلى أن أعاده الملك الظاهر جَقْمَق ثانياً إلى نيابة حلب، بعد عزل الأمير تنم من عبد الرزّاق المؤيّدي وقدومه إلى مصر على إقطاع قانِي بَاي هذا، فدام في نيابته هذه على حلب إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى نيابة دمشق بعد موت الأمير جُلُبّان في سنة ستّين وثمانمائة. فاستمرَّ على نيابة دمشق إلى أن مات بها، وهو عاصٍ على السلطنة في الباطن، مقيم على الطاعة في الظاهر.

وقد وقع في أمر قانِي بَاي هذا غرائبُ منها: أنه من يوم خرج من مصر إلى ولاية حَلَب ثانياً في دولة الملك الظاهر جَقْمَق عصى على السّلطان في الباطن، وعزم على أنّه لا يعود إلى مصر أبداً؛ فلما مات الظاهر وتسلطن ابنُه المنصور عثمان، ثم الأشرف إينال، قَوِيَ أمرُ قانِي بَاي هذا بحلب، وفشا أمرُه عند كل أحد، فلم يكشف الأشرف إينال ستر التغافل بينه وبين قانِي بَاي المذكور، بل صار كلٌّ منهما يَتَجَاهل على الآخر، فذاك يُظْهِرُ الطاعةَ وامتثالَ المراسيم من غير أن يَطَأَ بساط السلطان، أو يحضر إلى القاهرة، وهذا يرضى منه بذلك، ويقول: «هذا داخل في طاعتي»، ولا يرسل خلفه أبداً، بل يغالطه، حتى لو أراد قانِي بَاي الحضور إلى القاهرة ما مكّنه إينال، لمعرفته منه أن ذلك امتحان، وصار كلٌّ منهما يترقّب موتَ الآخر إلى أن مات قانِي بَاي قبل، وولّى الأَشْرفُ إينالُ عوضه في نيابة دمشق الأمير جَانَم الأشرفي.

ومن الغرائب التي وقعت له أيضاً أن قانِي بَاي هذا لم يَلِ ولايةَ بلدٍ مثل حماة وطرَابُلُس وحلب والشام إلّا بعد الأمير جُلُبّان، مع طول مُدّة جُلُبّان في نياباته

الشّاميّة أزيد من ثلاثين سنة؛ فهذا من النوادر الغربية، كون أن قاني باي يعزل عن نيابة حلب ويصير أميراً بمصر مُدّة سنين ويلي حَلَب بعده غير واحد، ثم يعود إلى نيابة حلب، ويقيم بها إلى أن ينتقل منها إلى نيابة الشام بعد موت جُلُبّان، كما انتقل قبل ذلك بعده في كل بلد، فهذا هو الاتفاق العجيب.

وتُوُفّيَ الأميرُ شرف الدين عيسى بن عمر الهوّاري أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد في ليلة الخميس رابع شهر ربيع الآخر، بعد عوده من الحج، وَوَليَ بعده ابنُه، ثم عُزِل بعد أمور. وكان عيسى هذا مليحَ الشكل، ديِّناً خيِّراً بالنسبة إلى أبناء جنسه، وله مشاركة بحسب الحال، ويتفقّه على مذهب الإمام مالك ـ رضي الله عنه.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ الفقيهُ العالمُ أبو عبد الله محمد بن سليمان بن داود الجَزُولي المغربي المالكي نزيل مكة، بها في يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الآخر، وحضرتُ الصلاة عليه بحرم مكة، ودفن بالمعلاة. وكان مولده في سنة سبع وثمانمائة بجَزولة من بلاد المغرب. وكان فقيهاً عالماً بفروع مذهبه، عارفاً بالنحو، مشاركاً في التفسير والحديث، وسَمِعَ ببلاده أشياء كثيرة، وحدَّث ببعضها في مكة، ودرَّس وأفتى، وانتفع أهل مكة بدروسه، وكان كريم النفس بخلاف المغاربة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ القاضي محبُّ الدين أبو البركات محمد بن عبد الرحيم الهيتمي الشافعي، أحد نوَّاب الحكم الشافعية بالديار المصرية، في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى، وحضرتُ الصلاة عليه بحرم مكة، ودفن بالمعلاة، وقد زاد عمره على الستّين. وكان فقيهاً نحوياً، مُشارِكاً في فنون كثيرة، كان يحفظ التوضيح لابن هشام في النحو، وكان مستقيم الذهن، جيّد الذكاء، ناب في الحكم [بالديار المصرية][1] أزيد من ثلاثين سنة، ودرَّس وخطب، وجاور بمكة غير مرّة إلى أن

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور. ونيابة الحكم، أو نيابة الحكم العزيز، هي وظيفة نائب قاضي القضاة. وكان لكل قاضي قضاة على أيّ مذهب من المذاهب الأربعة عدّة نوّاب يعدّون أيضاً بالعشرات.

مات في مجاورته هذه الأخيرة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ القاضي ناصرُ الدين محمد بن [أحمد بن حسين][١] النبرَاوي الحنفي أحد نوّاب الحكم بالقاهرة، في يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى الأولى. وكان عارياً من العلم، عارفاً بصناعة القضاء.

وتُوُفِّيَ القاضي محبُّ الدين محمد ابن الإمام شرف الدين عثمان بن سليمان بن رسول بن أمير يوسف بن خليل بن نوح الكَرَادي[٢] ـ بفتح الراء المهملة ـ القَرْمشي الأصل، الحنفي، المعروف بابن الأشقر، شيخ شيوخ خانقاه سِرْياقوس، ثم ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية، ثم كاتب السِّر بها، في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر رجب بالقاهرة بطَّالاً، ودُفن من الغد بتربته بالصحراء خارج القاهرة. وكانت وفاته بعد عزله من كتابة السِّر بشهرين، وبعد وفاة ولده إبراهيم بدون الشهر.

وكان مولده بالقاهرة قبل سنة ثمانين، ونشأ بها واشتغل في مبدأ أمره قليلاً، ثم وَلِيَ مشيخة خانقاه سِرْياقوس في سنة أربع عشرة وثمانمائة، ثم بعد سنين كثيرة وَلِيَ كتابة السِّرّ بمصر في دولة الملك الأشرف بَرْسباي، عوضاً عن القاضي كمال الدين بن البارِزي، بحكم عزله في رجب سنة تسع وثلاثين، وباشر الوظيفة إلى أن عُزِل عنها بالقاضي صلاح الدين بن نصر الله في ذي الحجة من سنة أربعين، فلزم داره بطّالاً، إلى أن ولّاه الملك الظاهر جَقْمَق ناظر الجيوش المنصورة عوضاً عن الزيني عبد الباسط بحكم القبض عليه ومصادرته في سنة اثنتين وأربعين، ثم عزل عن وظيفة نظر الجيش غير مرّة، ثم وَلِيَ كتابة السرّ ثانياً بعد وفاة القاضي كمال الدين ابن البارِزي في سنة ست وخمسين، فباشر الوظيفة إلى أن عُزل عنها بالقاضي محبّ الدين ابن الشِّحنة، ثم أُعيد إليها بعد أشهر، ودام بها مُدَّةً طويلة إلى أن عُزل عنها ثانياً بابن الشِّحْنة في سنة ثلاث وستّين وثمانمائة، ومات بعد ذلك بشهرين حسب ما تقدم ذكره. وكان معدوداً من رؤساء الديار

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) نسبة إلى كراد ـ بفتح الراء الخفيفة ـ قبيلة من التركمان. (الضوء اللامع).

المصرية، وكان عنده حشمة وأدب وتواضع ومحاضرة حسنة، إلّا أنه كان رأساً في البخل - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ القاضي محبّ الدين محمد ابن القاضي ناصر الدين محمد الفاقوسي، أحد أعيان موقّعي الدَّسْت[١] بالديار المصرية، في ليلة الاثنين خامس عشرين شهر رجب - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين خير بك بن عبد الله المؤيَّدي الأَشقر الأَمير آخور الثاني، في يوم السبت مستهل شعبان [وقد جاوز السبعين][٢]. وكان من مماليك المؤيَّد شَيخْ، وصار خَاصّكِيّاً في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، ومن جملة الدَّوَادَارِية الصِّغَار، إلى أن أنعم عليه بإمرَة عَشرة، بعد مسك جَانِبَك المحمودي المؤيَّدي، وجعله جقمق من جملة رؤوس النوب، وحجَّ أمير الركب الأول، ثم نقل إلى الأمير آخوريّة الثانية في أوائل دولة الملك الأشرف إينال، عوضاً عن سُنْقُر العايق الظاهري، فباشر الوظيفة بغير حُرْمَة، وصار فيها كل شيء[٣] إلى أن مات، وتولّى الأمير يَلَبَاي الإينَالِي المؤيّدي الأمير آخورية الثانية من بعده. وكان خَير بَك هذا كثير الفتن بين الطوائف، وليس عنده هِمَّة لإثارة الحَرْب إلّا بالكلام.

وتُوُفِّي الإمامُ شهاب الدين أحمد [بن محمد بن أحمد][٤] الإخميمي أحد أئمة السلطان[٥] في يوم السبت تاسع عشرين شعبان - رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الأمير زين الدين قاسم بن جمعة القساسي الحلبي نائب قلعة حلب بها في شهر رمضان، وكان وَلِيَ قبل ذلك حجوبية حلب وغيرها، الجميع بالبذل.

وتُوُفِّيَ القاضي معين الدين عبد اللطيف بن أبي بكر [بن سليمان سبط][٦] ابن

---

(١) موقع الدست أو كاتب الدست هو الذي يكتب بين يدي السلطان. - راجع فهرس المصطلحات.

(٢) زيادة عن حوادث الدهور.

(٣) كذا. وسياق العبارة يقتضي أن تكون: «كلا شيء».

(٤) زيادة عن الضوء اللامع.

(٥) المراد السلطان الظاهر جقمق، كما في الضوء اللامع.

(٦) زيادة عن حوادث الدهور والضوء اللامع.

العجمي نائب كاتب السرّ بالديار المصرية، يوم الجمعة رابع شوّال وعمرهُ نيّف عن خمسين سنة. وكان وَلِيَ في الدولة الأشرفية كتابة سرّ حلب، ثم وَلِيَ نيابة كتابة السرّ بمصر بعد وفاة أبيه القاضي شرف الدين إلى أن مات، وكان هو القائم بأعباء ديوان الإنشاء، لمعرفته بصناعة الإنشاء، ولِمَا فيه من الفضيلة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيفُ الدين سُودون بن عبد الله من سيدي بك الناصري القَرَماني أتابَك حلب بطريق الحج في شوّال. وكان من مماليك الناصر فرج، وانحطّ قدره، وخدم في أبواب الأمراء إلى أن صار خاصكيّاً في دولة الملك الظاهر طَطَر، ثم صار ساقياً في دولة الملك الظاهر جَقْمق، ثم تأمَّر عشرة، ثم نقل إلى تقدمة ألف بحلب، ثم صار أتابكاً في دولة الأشرف إينال، ثم نقل إلى أتابكية طرابُلُس، ثم أُعيد بعد مُدّة إلى أتابكية حلب إلى أن مات. وكان مهملاً مسرفاً على نفسه، وعنده فُشار(١) كبير ومُجَازفات في كلامه ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ الشيخ الإمامُ الفقيه الواعظ الصُّوفي شمس الدين محمد [بن محمد بن إبراهيم](٢) الحموي الأصل الحلبي الشافعي المعروف بابن الشماع، في ذي القعدة بالمدينة الشريفة قاصداً الحج، ودفن بالمدينة يوم دخول الحاج الشامي إليها. وكان حلو اللسان، مليح الشكل، طلق العبارة والمحاضرة، ولكلامه طلاوة ورونق وموقع في النفوس ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين قاني باي المؤيدي المعروف بقَرَاسقل، أحد أمراء العشرات، بمدينة طرابلس في توجّهه من الديار المصرية في البحر إلى الجرون(٣) صحبة الأمراء المصريين وقد ناهز الستّين من العمر أو جاوزها بيسير. وكان من مماليك الملك المؤيد شيخ، ممّن صار خاصكياً في دولة الظاهر جقمق وساقياً، ثم

(١) الفُشار: كثرة الكلام مع الكذب والمبالغة. ـ قال في معجم متن اللغة: «وهو عامّي ليس من كلام العرب وأصله سرياني فيما أحسب».

(٢) زيادة عن الضوء اللامع. غير أن السخاوي جعل وفاته في سنة ٨١٣ هـ.

(٣) في الأصل: «الجون». ـ راجع ص ٨٦ من هذا الجزء، حاشية (٢).

تأمَّر عشرة إلى أن مات. وكان ساكناً مهملاً مع إسراف على نفسه ـ عفا الله عنّا وعنه.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين بايزيد(١) بن عبد الله التَمُربُغَاوي أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، في يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة، ودفن من يومه، وقد ناهز السبعين. وكان من مماليك الأمير تمربغا المشطوب الظاهري [برقوق] وخدم بعده عند جماعة من الأمراء، [وتشتّت فى البلاد](٢) إلى أن اتصل بخدمة الملك الظاهر طَطَر قبل سلطنته، فلما تسلطن جعله خاصكياً، ثم ساقياً في أوائل دولة الأشرف بَرْسباي، ودام على ذلك دهراً طويلاً، إلى أن أمَّره الأشرف [عشرة](٣) في أواخر دولته، فدام على تلك العشرة أيضاً دَهراً طويلاً إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف إينال بإمرة طبلخاناه، ثم نقله إلى تقدمة ألف في حدود سنة ستّين، للين جانبه لا لمحله الرفيع، ولا لعظم شوكته، فدام على ذلك سُنَيَّات ومات. وكان رجلاً ساكناً عاقلاً، لم يشهر في عمره بشجاعة ولا كرم، وكان إذا توجّه في مهم إلى السلطان مع مَن سافر من الأمراء ووقع الحرب يَدّعونه في الوطاق(٤) ليحرس الخيم، وكذلك جعله الأشرف إينال في يوم الواقعة مع الملك المنصور عثمان يجلس على الباب ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يحرّر لغيابي بمكة المشرّفة، مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وأصابع.

* * *

---

(١) في الأصل: «بايزير» بالراء، وما أثبتناه من حوادث الدهور.

(٢) زيادة عن حوادث الدهور.

(٣) زيادة يقتضيها السياق بقرينة ما سيأتي.

(٤) الوطاق: هو الخيمة الكبيرة، والمعسكر المكوّن من خيام. وأصل اللفظ تركي: أوطاق وأوتاغ. ـ راجع فهرس المصطلحات.

السنة الثامنة من سلطنة الملك الأشرف إينال على مصر

وهي سنة أربع وستّين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخ الإمام المحقّق الفقيه العلاّمة جمال الدين محمد بن أحمد المحلّي الشافعي المصري بالقاهرة في يوم الأحد مستهل المحرم، وسنة نحو السبعين تخميناً. وكان إماماً علاّمة متبحّراً في العلوم. كان بارعاً في الفقه والأُصلين والعربية وعلميّ المعاني والبيان، وأفتى ودرّس عدّة سنين، وانتفعت الطلبة به، وله عدّة مصنّفات، ولم يكمِل بعضها، ورشّح لقضاء الديار المصرية غير مرة. وكان في طِباعه حِدَّة، مع عدم التكلّف في ملبسه ومركبه إلى الغاية، بحيث إنه كان إذا رآه مَن لا يعرفه يظنه من جملة العوّام ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين قيز طوغان العلائي الأستادار، ثم نائب مَلَطْيَة، ثم أتابك حَلَب، ثم أحد أمراء دمشق ـ بطّالاً ـ بدمشق بالطاعون وقد شاخ، في العشر الأوسط من محرّم. وكان من عُتَقَاء الأمير عَلَّان شَلَق الظاهري، وخدم بعده عند الملوك إلى أن اتصل بخدمة السلطان، وصار في دولة المؤيد شَيْخ رأس نوبة الجمدارية دَهْراً طويلاً، إلى أن تأمّر عشرة في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، وصار أمير آخور ثالثاً. ثم وَلِيَ الأستادارية بعد عزل الناصري محمد بن أبي الفرج، فباشر أشهراً، ثم عُزل وأُخرج إلى البلاد الشامية، وتنقل فيها إلي ما أشرنا إليه. ثم حجّ [وسافر أمير][١] حاج المحمل الشامي، فوقع منه بالمدينة الشريفة ما أَوْغر خاطر السلطان عليه، وأُمسك بعد عوده وحُبس مدة بقلعة دمشق أو غيرها، ثم أُطلق ودام بطّالاً إلى أن مات. وكان أميراً جليلاً عارفاً شجاعاً مِقداماً، وفيه حشمة وأدب ومكارم ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخ المقرىء إمام جامع الأزهر في يوم الأحد خامس عشر المحرّم، وكان ديِّناً خيِّراً من بيت قراءة وفضل ودين ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

وتُوُفِّيَ زينُ الدين أبو الخير محمد ابن المُعَلِّم شمس الدين محمد ابن المعلّم أحمد، المعروف بالنحّاس، شُهْرَةً وصناعةً ومكسباً، في يوم الجمعة العشرين من المحرّم، ودُفن من يومه بالصحراء. وقد تقدَّم من ذكره في أصل هذا الكتاب ما يُغني عن التعريف به في هذا المحل ثانياً، وسقنا أمرَه مُحَرَّراً من ابتداء أمره إلى آخره باليوم والشهر من تاريخنا «المنهل الصافي»، ثم في مصنّفنا أيضاً «حوادث الدهور»، وذكرنا كيفيته، وكيف كان تَقَرُّبه إلى الملك الظاهر جَقْمَق، وعرَّفنا بحاله وتكسّبه في دكان النحّاسين، ثم ما وقع له مع أبي العباس الوفائي، ثم ترقّيه وتولّيه الوظائف السَنِيّة شيئاً بعد شيء، ثم انحطاط قَدْرِه، ونكبته ومصادرته، وضربه ونفيه بعد حبسه بحبس الرَّحْبة مُدَّةً طويلة، والإخراق به من العوّامّ والمماليك السلطانية، ثم خروجه من الديار المصرية على أقبح وجه، بعد أن ادُّعِيَ عليه عند القاضي المالكي بالكفر، وأُشِيعَ ضربُ رقبته، ووُضِع الجنزيرُ في رقبته، ثم ما وقع له من الإخراق بمدينة طَرَسُوس في مُدَّة طويلة، ثم حضوره إلى الدّيار المصرية بغير إذن الملك الظاهر جَقْمَق خفْيَةً، ثم طلوعه إلى السلطان، وضَرْب السلطان له ثانياً بالحوش في المَلأ العامّ ذلك الضرب المُبَرِّح، ثم إخراجه ثانياً من القاهرة على أقبح وجه [منفياً][1] إلى طرابُلُس، ثم إقامته بطرابُلُس إلى أن مات الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكَم، ثم طلبه الحضور إلى الدِّيار المصريّة غير مرّة إلى أن حضر. وظن المخمولُ أن الذي مضى سيعود، وقدَّم عدّة كبيرة من الخيول، وَوُلِّيَ الذخيرة ووظائف أُخرى، فلم يتحرّك له سعد ولا نتجَ أمره، بل صار كلما قام أقعده الدهر، وكلما أراد القوة ضعف. وزاد به القهر إلى أن مرض واشتدّ مرضه، وترادفت رُسُل السلطان إليه بطلب المال، فعظم ما به من المرض من الخالق ومن المخلوق، إلى أن مات واستراح وأراح بعد أن قاسى أهوالاً في مرضه، وحُمِلَ على فقص حمّال على رأس رجل للمحاسبة لمّا ثقل في الضعف، وقد حَثَّهُ الطلبُ، كلّ ذلك تأديباً من الله عزّ وجل، لتعلم أن الله على كل شيء قدير.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

وكانت صفته رجلاً طوالاً، أسمر جسيماً عامِّياً: كانت صفته مشبهة لصناعته وأهلها في الكثافة، إلّا أنه كان يكتب المنسوب بحسب الحال، ليس فيه بالماهر، ويحفظ القرآن على طريق قرّاء الأجواق من مواظبته لليالي جُمَع الإمام الليث، لا يحفظه على طريق القرّاء. وبالجملة فإن ابتداء تَرَقِّية كان عجيباً، وانْحِطَاطه كان أعجب - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين عَلَّان بن عبد الله المؤيّدي أتابَك دمشق المعروف بعلّان جِلِّق بدمشق، في يوم الأربعاء تاسع صفر وقد زاد سنُّه على السَّبعين تخميناً. وكان أصله من مماليك الملك المؤيَّد شَيْخ، وصارَ في أيّامِه من جملة الأمير آخورية الأجناد، ثم صار بعد موت أستاذه من جملة أمراء دمشق، ثم بعد مُدَّة نُقِل إلى نيابة البيرة، ثم إلى حجوبيَّة حلب الكبرى، ثم عُزل من حلب بسبب شكوى نائبها قانِي بَاي الحمزاوي عليه، وتوجّه إلى طرابُلس بطالاً، ثم أُنْعِم عليه بإمْرَة مائة وتقدمة ألف بدمشق بعد انتقال الأمير خُشْقَدَم الناصري المؤيدي عنها إلى حجوبيّة الحجَّاب بالدّيار المصريّة، ثم نقل إلى أتابَكيّة دمشق بعد موت يَشْبُك الصُّوفي المؤيّدي في سنة ثلاث وستّين، فلم تطل مُدَّتُه ومات. وكان مشهوراً بالشجاعة والإقدام - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين طوغان من سَقْلَسِيز التركماني أمير التركمان، في شهر ربيع الأول، واستقرَّ ولده في إمْرَة التُّركمان من بعده.

وتُوُفِّيَ القاضي سعدُ الدين إبراهيم بن فخر الدين عبد الغني بن علم الدين شاكر بن رَشيد الدين خطير الدِّمْيَاطي المصري القبطي المعروف بابن الجَيْعان، ناظر الخزانة الشريفة، في ليلة الجمعة ثالث عشرين شهر ربيع الأول، وسنُّه نيّف عن خمسين سنة. وكان حَشِماً وَقوراً، وَجِيهاً عند الملوك، وهو باني الجامع على بحر بولاق بالقرب من المنظرة الحجازية - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ عبدُ الله التركماني البَهَسْنِي[1] كاشف الشرقيّة بالوجه البحري من

(١) أي من تركمان بهسنة، كما في حوادث الدهور.

أعمال القاهرة ـ بطّالاً ـ في يوم الأحد ثالث شهر ربيع الآخر، وقد كبر سنُّه وشاخ. وكان في أوّل قدومه إلى الديار المصرية يخدم شادّاً في قُرَى القاهرة إلى أن اتصل بخدمة الملك الظاهر جَقْمَق قبل سلطنته، فلما تسلطن ولاّه كشف الشرقية، فلما وُلِّي ما كَفَّ عن قبيح ولا عفَّ عن حرام إلّا فعلهما، فساءت سيرته في ولايته، وحصل للناس منه شدائد، لا سيما أهل بُلْبَيْس وفلاّحي الشرقية، فإنه كان عليهم أشدَّ من إبليس، وشكاه غير واحد مرّات عديدة إلى الملك الظاهر، فلم يسمع فيه كلاماً. وبالجملة فإنه كان من أوخاش[1] الظَّلَمَة ـ ألا لعنة الله على الظالمين.

وتُوُفِّيَ الشيخُ أبو الفتح [محمد][2] الكاتب المجوِّد صاحب الخط المنسوب وأحد نوّاب الحكم الشافعية وإمام الشهابي أحمد ابن الملك الأشرف إينال في يوم الأحد عاشر شهر ربيع الآخر ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ الأميرُ أَسَنْدَمُر بن عبد الله الجقمقي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بعد عَوْده من مجاورته بمكة بمرض البطن، في يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى وقد ناهز الستّين من العمر. وكان روميّ الجنس، وكان أصله من مماليك جَقْمَق الأرغون شاوي الدَّوادار نائب الشام، وكان أَسَنْدَمُر هذا يُجيد الرَّمي بالنشاب، وفيه إسراف على نفسه ـ سامحه الله تعالى بفضله.

وتُوُفِّيَ سيفُ الدين خُشْقَدَم بن عبد الله الأردبغاوي حاجب حجّاب طرابُلُس في جمادى الأولى. وكان أصله من مماليك أُرْدُبُغا نائب قلعة صَفَد، ثم خدم عند قاني بَاي الحمزاوي، وصار في أواخر عمره دواداراً، ثم سعى بعد الحمزاوي في حجوبيّة طرابُلُس حتى وَلِيَها، فلم تَطُل مدّته، ومات في التاريخ المذكور. وكان من الأوباش الذين لا أعرف لهم حالاً.

وتوفي الأمير سيف الدين يَشْبُك بن عبد الله الظاهري أحد أمراء العشرات بالطاعون في يوم السبت حادي عشرين جمادى الأولى، وأخرج هو وولده معاً في

(١) جمع وخش، وهو الرديء من كل شيء والدنيء من الرجال.

(٢) زيادة عن حوادث الدهور.

جنازة واحدة. وكان أصله من مماليك الملك الظاهر جَقْمَق، اشتراه في سلطنته، وتأمّر في أيامه عشرة ثم نكب، ثم تأمّر ثانياً في دولة الملك الأشرف عشرة إلى أن مات. وكان لا بأس به ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين يُونُس بن عبد الله العلائي الناصري الأمير آخور الكبير بالطاعون في باكر يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الأولى، وقد جاوز السبعين من العمر، ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء. وكان أصله من مماليك الظاهر بَرْقُوق الكتابية، ثم مَلَكَهُ الملك الناصر فرج وأعتقه، ودام من جملة المماليك السلطانية سنين كثيرة لا يُلْتَفَت إليه في الدول إلى أن تأمّر عشرة في أوائل دولة الملك الظاهر جَقْمَق، مراعاة لخاطر الأمير إينال العلائي الأجرود ـ أعني عن الأشرف هذا صاحب التَّرْجَمَة ـ لكونه كان خُجْدَاشَه من تاجر واحد، ودام من جملة أمراء العشرات أياماً كثيرة، إلى أن نقله الملك الظاهر إلى نيابة قلعة الجبل بعد عزل تَغْري برمُش الفقيه وإخراجه إلى القُدْس في سنة تسع وأربعين.

قلتُ: وبئس البديل! وهذا من عدم الإنصاف. كيف يكون هذا المهمل العاري من كل علم وفن موضع ذلك العالِم الفاضل الذكي العارف بغالب فنون الفروسية مع ما حواه من العلوم. وقد أذكرتني هذه الواقعة قول بعض الأدباء المؤّالة، حيث قال:

شاباش يا فلك شاباش ... تحطّ عالي وترفع في الهوا أوباش
وتجعل الحرّ الذكي الوشواش ... يحكم عليه رديء الأصل يبقى لاش

واستمر يونس هذا في نيابة القلعة إلى أن تسلطن خُجْدَاشُهُ الملك الأشرف إينال صاحب الترجمة، وخلع عليه في صبيحة يوم السلطنة بنيابة الإسكندرية، فتوجّه إليها وأقام بها مدة، ثم عُزل وقَدِمَ إلى القاهرة على إمرته. ثم بعد مدة من قدومه، صار أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية بعد خروج الأمير جانم الأشرفي إلى نيابة حلب وذلك في أواخر صفر سنة تسع وخمسين، وتوجّه لتقليد الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب بنيابة دمشق بعد موت الأمير جُلُبَّان فقلّده وعاد،

وقد استغنى يونس بما أعطاه قاني بَاي الحمزاوي في حَقِّ طريقه من الذهب اثني عشر ألف دينار، ومن القماش والخيول نحو خمسة آلاف دينار، ثم نُقل بعد ذلك إلى الأَمير آخورية الكبرى بعد انتقال الأَمير جَرِباش المحمدي إلى إمرة مجلس، بعد تعطُّل الأَمير طوخ من تِمراز ولزومه داره من مرض تمادى به، وذلك في أوائل ذي الحجة سنة إحدى وستّين وثمانمائة.

وعظم يونس عند خچداشه الملك الأَشرف، لكونه كان خُچْدَاشه. وأنا أقول: ما كانت محبته له إلّا لجنسية كانت بينهما في الإهمال، لأن الجنسية علّة الضمّ. فلم يزل يونس المذكور في وظيفته إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره. قلتُ: وما عسى أذكر من أمره، والسكوت والإضراب عن الذكر أجمل، وفي التلويح ما يُغني عن التصريح.

وتوفي الأَميرُ زين الدين هلال بن عبد الله الرومي الطواشي الظاهري الزمام بطّالاً بالطاعون، في يوم الأَحد تاسع عشرين جمادى الأولى، وقد شاخ وناهز عشر المائة من العمر. وكان من خُدَّام الملك الظاهر بَرْقُوق ومن أعيان طواشيته، ثم صار شادّ الحوش السلطاني مُدَّةً طويلة، إلى أن بدا له أن يبذل المال في وظيفة الزِّمامِيَّة، فوَلِيَها بعد موت الأمير جوهر القَنْقَبائي، فباشر الوظيفة بقِلَّة حُرْمَة، فلم ينتج أمره، وعزل وتُخُومِل إلى أن مات، وهو مجتهد في الزراعة والدولاب لتحصيل المال، فلم ينل من ذلك شيئاً، ومات فقيراً ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ القاضي زين الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة بدر الدين محمود ابن القاضي شهاب الدين أحمد العَيْني الحنفي ناظر الأحباس، في يوم الثلاثاء ثاني عشرين جمادى الآخرة بالطاعون، وهو في الكهولية. وكان من بيت علم ورئاسة.

وتوفيت خَوَنْد زينب بنتُ الأمير جَرِباش الكَريمي المعروف بقاشق، في يوم السبت سادس عشرين جمادى الآخرة، بالطاعون، وسنُّها فوق الثلاثين. وكان الملك الظاهر جَقْمَق تزوّجها في أوائل سلطنته، في حدود سنة اثنتين وأربعين أو التي بعدها، ومات عنها فتزوجها القاضي شرفُ الدين موسى الأَنصاري ناظر

الجيوش المنصورة، فماتت عنده [ودفنت بمدرسة الظاهر برقوق ببين القصرين لكون أُمها ابنة قانباي ابن أُخت الظاهر برقوق][1] - رحمها الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ قرم خَجَا بن عبد الله الظاهري، أحد أمراء العشرات بطّالاً في العشر الأول من شهر رجب، وهو في عشر المائة من العمر. كان من مماليك الظاهر بَرْقُوق وخاصكيته، وكان فقيهاً ديِّناً خيِّراً تُركِيَّ الجنس - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ السيفي يَشْبُك بنُ عبد الله الأَشرفي الأَشقر أستادار الصّحبة وأحد الخاصكية بالطاعون، في يوم الثلاثاء سابع شهر رجب، ومستراح منه، لأنه كان مهملاً مسرفاً على نفسه، لا يُرتجى لدين ولا لدنيا - عفا الله عنه.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين يَشْبُك بن عبد الله الساقي الظاهري بالطاعون، في يوم الأَحد تاسع عشر شهر رجب بعد أن تأمّر بأيام. وكان مشهوراً بالشجاعة والإقدام. قُلعت عينه في واقعة الملك المنصور عثمان مع الأشرف إينال، وكان من حزب ابن أُستاذه الملك المنصور - رحمه الله وعفا عنه.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين يَرْشْباي بن عبد الله الإينالي المؤيدي الأَمير آخور الثاني - كان - وأحد أمراء الطبلخانات الآن، وهو مجاورٌ بمكّة المشرّفة، في شهر رجب، وقد ناهز السّتين من العمر. وكان من مماليك الملك المؤيَّد شَيْخ، اشتراه بعد سلطنته، وصار خاصكياً بعد موته إلى أن تأمّر عشرة في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، وصار أمير آخور ثالثاً، ثم نقل بعد مُدّة إلى الأَمير آخوريّة الثانية وإمرَة طبلخاناه بعد مَوْت خُجْداشه سُودُون المحمدي المعروف بأتمكجي، فدام على ذلك إلى أن قَبضَ عليه الملك المنصور عثمان مع دُولاَت بَاي الدَّوَادَار ويَلَبَاي الإينالي المؤيَّديَّيْن، وحُبس يَرْشْباي هذا بسجن الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأَشرف، وأرسله مع خُجْداشِه يَلَباي إلى دِمْياط، ثم استقدمهما بعد أيّام يسيرة إلى القاهرة، وأنعم على يَرْشْباي المذكور بإمْرَةِ عشرة، ثم بإمْرَةِ طبلخاناه بعد انتقال

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

الأمير بايزيد التَّمُرْبُغاوي إلى تقدمة ألف، ثم سافر إلى مكّة رأساً على المماليك السلطانية بها في سنة ثلاث وستّين فمات بمكة ـ رحمه الله تعالى. وكان رجلاً طوالاً مليحَ الشكل والهيئة، حشماً وقوراً، مع إسراف على نفسه ـ عفا الله عنه بِمنّهِ وكَرَمِه.

وتُوُفِّي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن ظَهِيرة المكّي المخزومي الشافعي، قاضي جدَّة، وهو معزول عنها بعد مرض طويل بالمدينة الشريفة. وكان من خيار أقاربه، ولديه فضيلة ومشاركة حسنة ومحاضرة جيّدة بالشعر وأيام الناس، وكان محبوباً في قومه وأهل بلده ـ رحمه الله تعالى ـ ولقد عزَّ علينا موتُه.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين يَشْبُك بن عبد الله المؤيّدي أتابَك دمشق بها في شعبان، وقد جاوز الستّين. وكان يُعرف بيَشْبُك طاز، وكان مشكور السيرة، لا بأس به ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العالِمُ الفقيه زين الدين عبد الرحمن بن عنبر الأبوتيجي الشافعي، أحد فقهاء الشافعية في صبيحة يوم الاثنين ثالث عشرين شوّال، وقد زاد سنّه عن التسعين. وكان عالماً، وله اليد الطولى في علمي الفرائض والحساب، وتصدَّر للإقراء بجامع الأزهر مدة طويلة، وكان يعجبني حاله، إلّا أنه ما حجَّ حجّة الإسلام ـ عفا الله تعالى عنه.

وتوفيت خَوَنْد آسية بنت الملك الناصر فَرَج ابن الملك الظاهر بَرْقُوق في أوائل ذي الحجة [وهي في عشر الستّين وهي عزباء][1]، وأُمها أم ولد حبشية تسمى ثُرَيّا.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع سواء. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وخمسة عشر إصبعاً.

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

ذكر سلطنة الملك المؤيد أبي الفتح أحمد[1] [بن إينال] على مصر

هو السلطان السابع والثلاثون من ملوك التُّرك وأولادهم بالديار المصرية، والثالث عشر من الجراكسة وأولادهم.

تسلطن في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى من سنة خمس وستّين وثمانمائة الموافق لأول برمهات. فلما كان ضَحْوة النهار المذكور نزل الزيني خُشْقَدم الأحمدي الطواشي الساقي الظاهري بطلب القضاة الأربعة إلى القلعة، ونَزَل غيره إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف، فبادر كلٌّ منهم بالطلوع إلى القلعة، حتى تكامل طلوعُ الجميع، وجلس الكلّ بقاعة دهليز الدهيشة من قلعة الجبل، وجلس الخليفة والمقامُ الأتابكي[2] أحمد المذكور في صَدْر المجلس، وجَلَس كلٌّ من القضاة في مراتبهم، ودار الكلام بينهم في سلطنة الملك المؤيد هذا، لكون أن والده الملك الأشرف إينال ما كان عَهِدَ إليه قبل ذلك بالسلطنة. فتكلم القاضي كاتبُ السرّ محبّ الدين ابن الشِّحْنَة في أن تكون ولايته في السلطنة نيابة عن والده مدة حياته، ثم استقلالاً بعد وفاته، أو معناه، فلم يحسن ذلك ببال مَن حضر. وقام الجميع ودخلوا إلى قاعة الدهيشة، وبها الملك الأشرف إينال مستلقٍ على خطة[3] ليسمعوا كلامه بالعهد لولده أحمد هذا، فكلّمه الأمير يونس الدوادار غير مرة في معنى العهد، وهو لا يستطيع الردّ، وطال وقوف الجميع عنده وهو لا يتكلم،

(١) ترجمته وأخباره في بدائع الزهور: ٣٧١ - ٣٧٥؛ وحوادث الدهور: ٦١٢ - ٦٢٢؛ والضوء اللامع: ١/٢٤٦؛ والأعلام: ١/١٠٢.

(٢) كان السلطان الجديد هذا أتابك العساكر قبل توليته.

(٣) يقال: هو على خطة، أي على حافة الموت.

فخرجوا إلى وَلده المؤيد هـذا وهو جـالس بدهليـز الدهيشـة عند الشبـاك وعرفـوه الحال، ثم رَجَعُوا إلى الملك الأشرف ثانياً، وكرّروا عليـه السؤال، وهو سـاكت، إلى أن تكلم بعـد حين، وقـال بـاللغـة التـركيـة: «أُغلم، أُغلم»، يعني: «ابني، ابني»، فقال مَن حضر: «هذا إشارة بالعهد لولده، فإنه لا يستطيع من الكلام أكثر من هذا»، وخرجوا من وقتهم إلى الدهيشة. وانتدب كاتب السِّرِّ لتحليف الأمراء، فحلف مَن حضر من الأمراء الأَيمان المؤكدة، ولم ينهض أحد منهم أن يُوَرِّي في يمينه ولا يدلس، لأنهم أجانب من معرفة ذلك، وأيضاً المحلّف له فَطِنٌ وكاتب سِرِّه رجل عالِم؛ وكان من جملة اليمين: المشي إلى الحاج كذا كذا مرة، والطلاق والعتق وغير ذلك[١].

فلمـا انقضى التَّحْلِيفُ وتَمَّت البيعة قـام كل أحـدٍ من الأمـراء والخـاصكيـة والأعيان وبادر إلى لبس الكلفتاة والتتري الأَبيض، كما هي العادة، وأحضرت خلعة السلطنة الخليفتية السوداء، ولُفّت له عمامة سوداء حرير[٢]. وقام المقـام الشهابي المذكور ولَبِسَ الخلعة والعمامة على الفور، وركب من باب الدهيشة فرس النـوبة بسرج ذهب وكنبوش زركش، ومشت الأُمراء والأَعيان بين يـديه من بـاب الحوش إلى أن اجتاز بباب الـدور السلطانية فتلقتـه الجاووشيـة[٣] والزردكـاش ومعه القبّـة

---

(١) ذكر ابن إياس في بدائع الزهور صفة المبايعة باختـلاف في التفصيلات. قـال: «وكانت صفـة مبايعتـه بالسلطنة أن أباه لمّا أشرف على الموت طلع الأمير بردبك صهر السلطان واجتمع بخوند زوجة السلطان وذكر لها أن الأحوال فاسدة والأمور في اضطراب، ومن الرأي أن السلطان يعهد إلى ولده بـالسلطنة. فدخلت خوند على السلطان وذكرت له ذلك، فأمـر بإحضـار الخليفة والقضـاة الأربعة. . . فحضروا، وحضر أرباب الدولة من أرباب الحلّ والعقد. ولّما تكامـل المجلس دخل بعض الشهـود على السلطان وشهدوا عليه بخلع نفسه من السلطنة وتولية ولده».

(٢) كانت خلعة السلطنة عبارة عن عمامة سـوداء، وجبّة سـوداء مطرّزة بـالذهب، وسيف بـداوي (بدائـع الزهور) وبعد أن يلبس السلطان الخلعة يقدّم له فرس خاص يسمى فرس النوبة فيركبه في موكب حافل بـالأعيان والأمـراء ومعهم الخليفة ويتـوجّه إلى القصر السلطاني بقلعـة الجبل حيث يجلس عـلى عـرش السلطنة.

(٣) الجاووشية والجاويشية: هم أربعة من الجند يتقدمون الموكب للنداء وتنبيه المارّة. ـ راجـع أيضاً فهـرس المصطلحات: الجاويشية.

والطير[(١)] وأُبّهة السلطنة، فتناول الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أمير سلاح القبّة والطير بإذن السلطان وحملها على رأسه وهو ماشٍ، وسار في موكب[(٢)] الملك بعظمة زائدة خارجة عن الحدّ، وصار جميع الأُمراء والقضاة مشاة بين يديه إلاّ الخليفة المستنجد بالله فإنه ركب فرساً من خيل السلطان، ومشى بها خطوات، ثم نزل عنها لقوتها عليها. ولا زال [السلطان] على تلك الهيئة، حتى نزل على باب القصر السلطاني من قلعة الجبل، ودخل وجلس على سرير الملك، فلم ترَ العيون فيما رأت أحسن ولا أجمل منه في الخلعة السوداء، لأنه كان أبيض اللون، والخلعة سوداء، مع حُسْن سمته، وطول قامته، حتى إنه لعلّه لم يكن أحد في العسكر يوم ذاك يُدانيه في طول القامة.

ولما جلس على تخت الملك قبّلت الأمراء الأرضَ بين يديه، ودقّت الكوسات[(٣)]، ونودي في الحال بالدعاء للملك المؤيد أبي الفتح أحمد بشوارع القاهرة.

ثم في الوقت خلع على الخليفة فوقاني حرير بوجين أبيض وأخضر بطرز زَرْكَش، وأنعم عليه بفرس بسرج ذهب، وكنْبوش زركش، وأُنعم عليه بقرية منبابة بالجيزة.

ثم خلع على الأمير خُشْقَدَم أمير سلاح أطلسين مُتَمَّراً، وفوقانياً بطرز زَرْكَش، بسرج ذهب وكنْبوش زَرْكَش.

وأقام الملك المؤيَّد يومه وليلته بالقصر، وأصبح حضر الخدمة حسبما يأتي ذكره، بعد أن نذكر وقت سلطنته.

---

(١) القبّة والطير: هي المظلّة التي ترفع فوق رأس السلطان. وشاع التعبير عنها باسم القبّة والطير، لأنها كانت عبارة عن قبّة من حرير أصفر مزركش بالذهب، في أعلاها طائر من فضة مطليّة بالذهب. وهي من بقايا مراسم الدولة الفاطمية. (صبح الأعشى: ٤/ ٦).

(٢) في الأصل: «دست».

(٣) الكوسات: نوع من الصنوج النحاس، شبه الترس، يدقّ بها بإيقاع مخصوص.

وكان الطالع وقت مبايعته ولبسه خلعة السلطنة وجلوسه على سرير الملك السرطان، وصاحب الطالع بالسنبلة ـ وهو القمر ـ قطع اثنتين وعشرين درجة وخمسين دقيقة، والرأس بالسرطان أيضاً ستّ عشرة درجة وثلاثين دقيقة راجعاً، والمشتري بالقوس صفراً وسبعاً وعشرين دقيقة، وزُحَل بالجدي أيضاً ثمانياً وعشرين درجة وستّاً وأربعين دقيقة، والذنب بالجدي أيضاً ستّ عشرة درجة وثلاثين دقيقة، والزُّهرة في الدلو ثلاث درجات وتسع عشرة دقيقة، والليلة بالدلو أيضاً ثماني درج وثمانياً وخمسين دقيقة، وعطارد أيضاً بالدلو اثنتين وعشرين درجة وخمسين دقيقة، والشمس في الحوت خمس عشرة درجة وأربعاً وخمسين دقيقة، والساعة السادسة، وهي للزُّهرة ـ انتهى.

ولمّا كان صبيحة نهار الخميس المقدَّم ذكره، وهو ثاني يوم من يوم سلطنته، وهو عشر جمادى الأولى، وقد عمل السلطان فيه الخدمة السلطانية، وخلع على جماعة كثيرة من الأمراء بعدّة وظائف، فاستقرَّ بالأمير خُشْقَدَم أمير سلاح أتابك العساكر عوضاً عن نفسه(١)، ولكن لم يجد له في ذلك اليوم خلعة الأتابكية، لكونه كان لبسها في أمسه، لما حمل القبّة والطير على رأس السلطان، فجُدّدت له أخرى لم يفرغ عملها في هذا اليوم.

ثم أنعم السلطان على الأمير خُشْقَدَم المذكور بإقطاع نفسه، وهو إقطاع الأتابَكيّة. ثم خلع على الأمير جَرِباش المحمدي أمير مجلسه باستقراره في إمرة سلاح عوضاً عن الأمير خُشْقَدَم بحكم استقراره أتابَك العساكر. واستقر الأمير قَرْقَماس الأَشرفي رأس نوبة النُّوَب أمير مجلس عوضاً عن جَرِباش المقدَّم ذكره. واستقرَّ الأَمير قانم من صَفَر خَجَا المؤيَّدي التاجر رأس نوبة النُّوَب عوضاً عن قَرْقَماس المذكور. وأنعم السلطان بإقطاع الأتابَك خُشْقَدَم على الأمير بِيبَرْس الأَشرفي خال الملك العزيز يوسف حاجب الحجّاب، لكون متحصّل هذا الإقطاع يزيد عن متحصّل الإقطاع الذي كان بيده أولاً، وطلب الأمير جَانِبَك من أمير

(١) أي عن نفس السلطان.

الأشـرفي الخازنـدار إقطاع بِيبَـرْس، فتـوقَّف السلطان فيـه، ووقـع ـ بسبب تَـوَقُّفِ السلطان في الإنعـام على جَانِبَـك به ـ بين جـانِبَك المـذكـور وبين الأَميـر يُـونُس الدَّوادار الكبير كلام، فأفحش الدَّوَادَار في الرَّدّ على جَانِبَك، ودام الإقطاع موقوفاً لم ينعم به على أحد، وانفضّ الموكب.

وقام السلطان الملك المؤيد أحمد من القصر، وتوجّه إلى الدهيشة، وجلس بالشباك المطل على الحوش، وأمر المنادي فنادى بين يديه بالحوش بأن النفقة في المماليك السلطانية تكون لكل واحد مائة دينار، وتكون أول التفـرقة يـوم الثلاثـاء عشرين الشهر، فضـجّ الناس لـه بالـدعاء. ثم قـام ودخل إلى عنـد أبيه وهـو في السياق، فمات في اليوم، وهو يوم الخميس المقدّم ذكره بين الظهر والعصر، فجهّز من وقته، وصلّى عليه بباب القُلَّة من قلعة الجبـل، ثم حُمل حتى دفن من يـومه بتربته التي أنشأها بالصحراء خارج القاهرة ـ حسبما تقدّم ذكر ذلك كله في ترجمته.

ثم أصبح الملك المؤيد يوم الجمعة صلّى الجمعة بجامع الناصري بالقلعـة مع الأمراء على العادة، وخلع بعد انقضـاء الصلاة على الأميـر خُشْقَدَم النـاصري المؤيدي خلعة الأتابكية على العادة. واستمر السلطان إلى يـوم الأحد ثـامن عشره ـ أعني جمـادى الأولى ـ فـأنفق على الأمـراء نفقـة السلطنـة، فحمـل إلى الأَميـر الكبير[1] أربعة آلاف دينـار، تفصيلها: ألف دينـار بسبب حملة القبّة والـطير على رأس السلطان يوم سلطنته، والبقية نفقة السلطنة، وحمل إلى أمير سلاح جَـرِباش وغيره من أمراء الألوف من أصحاب الوظائف لكلٍّ واحد ألفين وخمسمـائة دينـار، وإلى غير أرباب الوظائف من مقدّمي الألوف لكلٍّ ألفي دينار فقط، وحمل لكلّ أمير من أمراء الطبلخانات خمسمائة دينار، ولكل أمير من أمراء العشرات مائتي دينار.

ثم في يـوم الاثنين تاسـع عشر جمـادى الأولى خلع السلطان على الأَتابـك خشقدم، وعلى قانم رأس نـوبة النـوب خِلع الإنظار[2] المتعلقـة بوظـائفهما على

(١) الأمير الكبير أو أمير الأمراء، أو أتابك العساكر.

(٢) راجع ص ١٣ من هذا الجزء، حاشية (١).

العـادة. وأنعم السلطان على الأَمير يشبـك البجاسي الأَشـرفي إينال أحـد مقدّمي الألوف بحلب بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، وهو إقطاع بيبرس الذي وقع بين يونس الدوادار وبين جَانِبَك [الظريف][1] الخازندار بسببه، وأنعم بتقدمة يَشْبُك المـذكور التي بحلب على الأمير تِمْراز [الأشـرفي][1] الـدَّوادار، [كـان][1] وأنعم بإقطاع تِمْراز، وهو إمرة طبلخاناه بطرابُلُس، على الأمير لاچين الظاهري؛ ويَشْبك هذا المنعَم عليه بالتقدمة كان أصله من مماليك الأمير تَنِبَك البَجاسي نائب الشام، وملكه بعد موت تَنِبَك الأَشرفُ إينالُ، وهـو من جملة الأمراء، وأعتقـه ورقَّاه حتى صار دَوَاداره، ثم أخذ له من الملك الظاهر جَقْمَق إمرةً بصَفَد، فلما تسلطن رفـع قدره إلى أن صار من جملة أمـراء الألوف بحلب، واتفق مجيئـه إلى مصر لينـظر أستاذه، فاتفق في مجيئه ضعف أستاذه ثم موته.

وفيه أيضاً خَلَع السلطانُ على جماعة من الأمراء والخاصكية لتوجههم بحمل تقاليد نُوَّابِ البلاد الشّاميّة: فكـان الأمير مُغُلْبـاي الأبو بكـري المؤيَّدي المعـروف بـطاز، أحد أمـراء العشرات ورأس نـوبة، يتـوجّه إلى نـائب الشـام الأَميـر جـانَم الأشرفي. والأَمير بيبَرْس الأشرفي الأَشقر أحد أمراء العشرات ورأس نـوبة يتـوجّه إلى الأَمير حاج إينـال اليَشْبُكي نائب حلب. والسيفي بـرقوق النـاصري الـظاهري الساقي [يتوجه] إلى إياس المحمـدي الناصـري نائب طـرابُلُس. والسيفي آقْبَرْدي السـاقي الأَشرفي [يتـوجه] لجَـانِبَك التـاجي المؤيَّـدي نـائب حمـاة. وتَنَم الفقيـه الأبو بكري المؤيَّـدي [يتوجّـه] لخير بـك النَّوْرُوزي نـائب صَفَد، ولبـرْدبَك العبـد الرحماني نـائب غزَّة معـاً. وخلع على جماعـة أُخَر من الخـاصكية بتـوجّههم إلى جماعة أُخَر إلى البلاد الشامية، والجميـع خاصّكِيَّـة ما عـدا مُغُلْباي طـاز وبيبَرس الأَشقر.

ثم في يـوم الثلاثـاء العشرين من جمـادى الأولى المـذكـورة ابتـدأ السلطان بالنفقة في المماليك السلطانية من غير تسوية، فأعلى مَن أخذ مائة دينـار، وأدنى

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

مَن أخذ ثلاثين ديناراً، وأعطى لكل مملوك من الكتابية عشرة دنانير[١]، فاستمرت النفقة على المماليك السلطانية في كل يوم سبت وثلاثاء إلى ما يأتي ذكره.

ثم بعد أيام وصل القاهرة كتاب جَانِبَك الأَبْلَق الظاهري من قُبرس أنه هو ومَن معه من المماليك السلطانية وغيرهم من الفرنج واقعوا أهل شرينة في عاشر شهر ربيع الآخر، وحصروا قلعتها، وقتلوا من الفرنج بشرينة[٢] ثمانية نفر، وأسروا مثلهم. ثم ذكر أيضاً أنه واقع ثانياً أهل شرينة، وقتل صاحب الشرطة بقلعتها، وآخر من عظمائها أرمى نفسه إلى البحر فغرق. قلت: «مما خطاياهم[٣] أغرقوا فأدخلوا ناراً».

ثم ذكر جَانِبَك أيضاً أنه قبض على خمسة منهم، وأن الملكة صاحبة شرينة أُخت جَاكُم صاحب قبرس قد تَوَجَّهت من شرينة إلى رودس تستنجد بهم. ثم ذكر أيضاً أنه ظفر بِعدّة مراكب ممّن كان قَدِمَ من الفرنج نَجدة للملكة المذكورة، وأنه أسر منهم خلائق تزيد عدّتهم على مائة نفر، وأنه أخذ بالحصار عدّة أبراج من أبراج قلعة باف بعد أن قاسوا منه شدائد، وأنه يستحثّ السلطان في إرسال عسكر بسرعة قبل مجيء نجدة لهم من الفرنج أهل الماغوصة[٤] الجنوية، وإلى أهل شرينة من غير الجنوية ـ انتهى.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرينه استقر عميرة بن جميل بن يوسف شيخ عربان السخاوة بالغربية بعد موت أبيه.

---

(١) نضيف هنا ما ذكره المؤلّف في حوادث الدهور لأهميته في إعطاء فكرة عن كيفية تفرقة النفقة على المماليك السلطانية عند بداية حكم السلطان الجديد: «فأما الكتابية فلهم عادة بذلك، وأما تفرقة المائة وأقلّ فهذا شيء يتجدّد من سلطنة الأشرف والده لعجز الخزانة عن التسوية بين الجميع، وإلا فالعادة القديمة تسوية الكل في مائة دينار، الشريف والضعيف، فصارت العادة الآن: مَن خافوا غائلته أعطوه العادة القديمة ومَن استضعفوا جانبه أعطوه ما أرادوا».

(٢) في بدائع الزهور: «شيرينة». وهي مدينة كيرينيا kirinia شمالي قبرص.

(٣) كذا في الأصل. وصوابه: «خطيئاتهم» إذا كان المؤلّف يستشهد بالآية ٢٥ من سورة نوح.

(٤) هي فماغوسطا.

قلت: والشيء بالشيء يُذكر، وقد أذكرني ولاية عميرة هذا حال أرياف الديار المصرية الآن؛ فإنه من يوم تسلطن الملك المؤيد أحمد هذا حصل الأمن في جميع الأعمال بَرّاً وبحراً، شرقاً وغرباً، من غير أمر يوجب ذلك، ووقع رعب السلطان في قلوب المفسدين حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يخرج من داره فكيف يقطع الطريق، فانطلقت الألسن بالدعاء للملك المؤيد هذا، وتبارك كل أحد بقدومه واستيلائه على الأمر، ومالت النفوس إلى محبته ميلاً زائداً خارجاً عن الحدّ؛ فإنه أول ما تسلطن قمع مماليك أبيه الأجلاب عن تلك الأفعال التي كانوا يفعلونها أيام أبيه، وهدّدهم بأنواع النكال إن لم يرجعوا، فرجع الغالبُ منهم عن أشياء كثيرة مما تقدّم ذكرها، وعلم الناس من السلطان ذلك، فطمع كل أحد في الأجلاب فانحطَّ قدرهم، حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يزجر غُلاَمَه، ولا خدمه[١]، فزاد حبُّ الناس للملك المؤيَّد لذلك، فكلٌّ مَن أحبّه فهو معذور، لما قاست الناس منهم أيام أبيه من تلك الأفعال القبيحة. على أن الملك المؤيَّد أيضاً كان له في أيام والده مساوىء كثيرة من جهة حماياته[٢] البلاد والمراكب بساحل النيل، وأشياء أُخر غير ذلك، فقاست الناس من حماياته أهوالاً، فلما تسلطن ترك ذلك كله كأنه لم يكن، وأقبل على العدل وإرداع المفسدين، فبدّل في أيامه الجور بالعدل، والخوف بالأمن، والراحة بعد التعب ـ ولله الحمد.

وفيه عزل السلطان الصاحب شمس الدين منصوراً عن الأستادارية، وخلع من الغد على مجد الدين أبي الفضل البقري كامِلِيَّة بمقلب سَمُّور، باستقراره في الأستادارية، عِوَضاً عن الشمسي منصور، ووعد بأنه يلبس خلعة وظيفة الأستادارية في يوم السبت أول جمادى الآخرة، فوقع ذلك.

ثم في يوم الخميس سادس جمادى الآخرة خلع السلطان على الصفوي

(١) ولعلّ هذا يأتي في رأس الأسباب التي دفعت المماليك الأصلاب إلى التخلّي عن ابن أستاذهم (إينال) ومساعدة الأمراء على عزل السلطان الجديد قبل أن تتجاوز مدة حكمه أربعة أشهر وثلاثة أيام.

(٢) راجع ص ١٣٦ من هذا الجزء، حاشية (١).

جَوْهَر النَّورُوزيّ الطواشي الحبشي بإعادته إلى تقدمة المماليك السلطانية، بعد موت الطواشي مَرْجان الحصني الحبشي.

وفي هذه الأيام أُشيع بين الناس بركوب المماليك السلطانية على السلطان بعد النفقة، ولم يعلم أحد مَنْ هو القائم بالفتنة، فلم يلتفت السلطان لهذا الكلام.

ثم في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة قُرِىءَ تقليدُ السلطان الملك المؤيد بين يديه بالقصر الأبلق، تولى قراءته القاضي محبُّ الدين ابن الشِّحْنة كاتب السِّرِّ، وهو من إنشائه، وحضر الخليفةُ المستنجدُ القراءَة والقضاةُ الأربعة، وغالب أركان الدّولة وأمرائها، فلما تمّت القراءة خلع السلطان على الخليفة فوقاني حرير [بوجهين][1] أخضر وأبيض بطرز زَرْكَش، وقَيَّدَ له فرساً بسرج ذهب، وكُنْبوش زَرْكَش، ثم خلع على القضاة كوامل بمقالب سمور، وانفضّ الموكب.

وفي يوم السبت خامس عشر وصل إلى القاهرة قاصد الأمير جَانَم الأشرفي نائب الشام، وعلى يده كتاب مرسله يتضمن أنه حصل له سرور زائد بسلطنة الملك المؤيد، وأنه مستمرٌّ على طاعته، ممتثلٌ أوامره.

وفيه أيضاً ورد الخبرُ بأن عَرَب لبيد العصَاة نزلوا البحيرة، ونهبوا الأموال، [وشنّوا الغارات][1]، فعيّن السلطان تجريدة من الأمراء، وأمرهم بالتجهيز والسفر إلى البحيرة.

ثم في يوم الأربعاء رابع شهر رجب وصل الأمير تمراز الإينالي الأشرفي الدوادار ـ كان ـ من طرابُلُس إلى الديار المصرية بغير إذن السلطان، ولم يجتز بمدينة قطيا، ونزل عند الأَتابك خُشقَدم، وأرسل دَوَادَاره إلى الملك المؤيد، أعلمه بمجيء تمْراز المذكور، فقامت قيامة السلطان لمجيئه على هذه الصورة، وغضب غضباً شديداً، ورسم بإخراجه من القاهرة لوقته، فأخذ تمراز في أسباب الردود والخروج إلى خانقاه سرياقوس، فشفعت الأمراء فيه في عصر يومه بالقصر، فقبِلَ

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

السلطانُ شفاعتهم على أنه يقيم بالقاهرة ثلاثة أيام لعمل مصالحه، ثم يسافر إلى حيث جاء منه، فعاد تمراز من جهة الخانقاه إلى القاهرة. فترقَّب كلُّ أحد وقوع فتنة، لأن تمراز هذا شرٌّ مكاناً، ودأبه الفتنة وإثارة الفتن، وهو من أوخاش بني آدم. فأقام تمراز إلى يوم الجمعة سادسه فطلع إلى القلعة، وقبَّل الأرض بين يدي السلطان، وأخذ في الاعتذار الزائد لمجيئه بغير إذن، فقبل السلطان عذره، وخلع عليه كاملية بمقلب سمُّور، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، ورسم له أن يقيم بالقاهرة ثلاثة أيام من يومه هذا ويسافر، فنزل إلى داره، والناس على ما هم عليه من أن تمراز هذا لا بدّ له من إثارة فتنة وتحريك ساكن. هذا والأمراء تكرّر الشفاعة فيه ليقيم بالديار المصرية، وخُجْداشيته الأشرفية في غاية ما يكون من الاجتهاد في ذلك، والسلطان مصمّم على سفره، إلى أن سافر حسبما يأتي ذكره.

وفي يوم الجمعة هذا ـ الموافق لثاني عشرين برمودة ـ لبس السلطان القماش الأبيض [البعلبكي] المعدّ للبس الصيف كما هي العادة.

وفي يوم الثلاثاء عاشر شهر رجب المذكور خلع السلطان الملك المؤيد على تمراز المذكور خلعة السفر، وسافر من يومه إلى دمشق، بعد أن أنعم السلطان عليه بخمسمائة دينار وعدّة خيول وبِغال، وتوجَّه تمراز ولم يتحرّك ساكن.

وفي يوم الخميس ثاني عشره استقر القاضي شرف الدين الأنصاري ناظر الجوالي بعد عزل [ناصر الدين محمد بن أحمد بن][1] أصيل.

وفيه وصل الأمير مُغُلْباي طاز الأبوبكري المؤيدي بعد أن بشَّر الأمير جانَم نائب الشام بسلطنة المؤيد وعاد.

وفيه وصل السّيفي شاهين الطواشي الساقي الظاهري المتوجّه قبل تاريخه لإحضار تَرِكَة زوجة الأمير قاني باي الحمزاوي من دمشق، وأحضر شيئاً كثيراً جدّاً من الجواهر واللآلىء والأقمشة وغير ذلك، حتى إنه أُبيع في أيام كثيرة.

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

ثم في يوم الجمعة العشرين من شهر رجب المذكور نزل السلطان الملك المؤيد أحمد من قلعة الجبل إلى جهة العارض [بالقرافة الصغرى][(١)] خلف القلعة، وعاد بسرعة إلى القلعة؛ وهذا أول نزوله من يوم تسلطن. قلتُ: وآخر نزوله؛ فإنه لم ينزل بعدها إلّا بعد خلعه إلى الإسكندرية.

وفيه أمطرت السماء بَرَداً، كل واحد مقدار بيضة الحمام، فأتلفت غالب الزرع، وأهلكَت كثيراً من ذوات الجناح؛ وكان معظم هذا المطر بقُرى الشرقية من أعمال القاهرة، وببعض بلاد من المنوفية والغربية، وقليلاً بإقليم البحيرة.

وفي يوم الخميس سادس عشرينه رسم السلطان بنفي سَنْطَباي قرا الظاهري إلى البلاد الشامية؛ وسببه أن سَنْطَبَاي هذا كان من المنفيين إلى طرابُلُس في دولة الملك الأشرف إينال، فلما سمع بموت الأشرف قَدِمَ القاهرة بغير إذن واختفى بها نحو الشهر عند بعض خُجداشيته، ففطن السلطان به فرسم بنفيه، فاجتهدت خُجداشيته الظاهريّة في إقامته، فلم تقبل فيه شفاعة، فخرج من يومه، وعظم ذلك على خجداشيته الظاهرية في الباطن. قلتُ: ولا بأس بما فعله السلطان في إخراج سنطباي المذكور على هذه الهيئة، فإنه أخرج قبله تمراز من الأشرفية، ثم أخرج هذا من الظاهرية، فكأنه ساوى بين الطائفتين. هذا والناس في رجيف من كثرة الإشاعة بوقوع فتنة.

ثم في يوم الاثنين سابع شعبان استقر شاد بك الصارمي ـ أحد أمراء الألوف بدمشق ـ أتابكاً بحلب، على مال بذله في ذلك، نحو العشرة آلاف دينار.

وفيه وصلت رسُلُ السلطان إبراهيم بن قَرَمان إلى القاهرة بهديَّة إلى السلطان، وقبل هديّة مرسلهم، ورحّب بهم.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شعبان وصل إلى القاهرة الشرفي يحيىٰ ابن الأمير جانم نائب الشام، وطلع إلى السلطان من الغد، وقبّل الأرض نيابة عن أبيه،

---

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

وسأل السلطان في إطلاق الأمير تَنَم من عبد الرزّاق المؤيدي أمير سلاح ـ كان ـ والأمير قاني باي الچاركسي الأمير آخور ـ كان ـ من سجن الإسكندرية، فلم يقبل السلطان شفاعته، وسوّف به إلى وقت غير معلوم. وعلم السلطان أن مجيء ابن جانَم هذا ليس هو بصدد الشفاعة فقط، وإنما هو لتجسّس الأخبار وعمل مصلحة والده مع خچداشيته الأشرفية، وغيرهم من الظاهرية والمؤيدية. وكذا كان، ولم يظهر الملك المؤيد لأحد، وإنما أخذ في حساب جانم نائب الشام في الباطن، والتدبير عليه بكل ما تصل القدرة إليه، ولم يسعه يوم ذلك إلّا أن تجاهل عليهم.

وهذا الأمر أحد أسباب حضور جانم إلى الديار المصرية حسبما يأتي ذكره مفصّلاً ـ إن شاء الله تعالى ـ في ترجمة الملك الظاهر خُشْقَدَم، لأن يحيىٰ ولد جانم لما حضر هذه الأيام إلى الديار المصرية اتفق مع أعيان المماليك الظاهرية بعد أن اصطلحوا مع المماليك الأشرفية ـ على عداوة كانت بينهم قديماً وحديثاً ـ ورضوا الظاهرية بسلطنة جانم عليهم، وهم أكره البرِيّة فيه، حيث لم يجدوا بدّاً من ذلك؛ وما ذاك إلّا خوفاً من الملك المؤيد هذا، فكان أمرهم في هذا كقول القائل: [الوافر]

وما مِنْ حُبِّه أحنو عليه ولكن بُغْض قومٍ آخرين

وسافر الشرفي يحيىٰ من مصر إلى جهة أبيه في يوم الجمعة خامس عشرين شعبان، بعد أن خلع عليه السلطان، وأنعم عليه بخمسمائة دينار، وقد مهّد لأبيه الأمور بالدّيار المصرية مع الظاهرية. وأما الأشرفية خچداشيته فهم من باب أولى لا يختلف على جانم منهم اثنان، وما كان قصد جانم إلّا رضاء الظاهريَّة، وقد رضوا.

وسار يحيىٰ وهو يظن أن أمر أبيه قد تمّ في سلطنة مصر، ولم يفطن إلى تقلبات الدهر. فلما أن وصل يحيىٰ إلى والده حدَّثه بما وقع له بمصر مع زيد وعمرو، وكان عند جانم ـ رحمه الله تعالى ـ خفّة لما كان أوحى إليه الكذّابون من أقوال الفقراء، ورؤية المنامات، وعبارات المنجّمين، فتحقّق المسكينُ أنه لا بدّ له

من السلطنة، ووافق ذلك صغر سنّ ولده يحيىٰ، وعدم معرفته بالمكايد والتجارب، وحاله كقول عمن قال: [الطويل]

ويــا دارهـا بــالخَيْف إنّ مَـزَارَهَــا قــريبٌ، ولكن دون ذلـك أهــوالُ

وقوّى أمر يحيىٰ وخفّة جانم اجتماع تمراز الأشرفي الدَّوادار المقدّم ذكره بجانم في دمشق، وقد صدق هذا الخبر لما في نفسه من الملك المؤيد هذا، ومن أبيه الأشرف إينال لما عزله من الدَّوادَارية الثانية، وأخرجه من مصر بطّالاً إلى القدس، ثم وقع له معه ما حكيناه، هذا مع كثرة فتن تمراز، وقلّة عقله، وسوء خلقه، وشؤم طلعته، فوافق تمراز يحيىٰ، وتسلطا معاً على جانم، ولا زالا به حتى وافقهما في الباطن، وأخذ في أسباب ذلك. فلم يمضِ إلّا القليل، ووقع لجانَم ما سنذكره مع عوّام دمشق من النهب والفتك به، وإخراجه من دمشق على أقبح وجه، حسبما هو مقول في ترجمة الملك الظاهر خُشْقَدَم بعد خلع المؤيَّد.

وأما أمر الملك المؤيد هذا فإنه بعد خروج يحيىٰ بن جانم، أخذ يوسع الحيلة والتدبير في أخذ جَانَم بكل طريق، فلم يرَ أحسن من أن يرسل يكاتب أعيان دمشق بالقبض على جانم المذكور إن أمكن؛ وهذا القول لم أذكره يقيناً، ولكن على قول مَن قال عنه ذلك، وليس هو ببعيد لأن أهل دمشق وحكّامها ما في قدرتهم القيام على نائب الشام إلّا بدسيسة من السلطان، والله أعلم بحقيقة الأمر.

واستمر الملك المؤيَّد على ما هو عليه بالديار المصرية، وأمره في انحطاط من عدم تدبيره في أواخر أمره، وأيضاً من قلّة المساعدة بالقول والفعل، وإلّا فتدبيره هو كان في غاية الحُسْن في أوائل أمره، غير أنه كان لا يعرف مداخلة الأتراك، ولا رأى تقلّب الدُّول، ولا حوله من رأي، لأنه أبعد الناسَ عنه قاطبة، وقرّب الأمير بردبك الدوادار الثاني، لكونه صهره زوج أُخته، مملوك أبيه، بل قيل إن تقريبه لبردبك أيضاً ما كان على ألْيَتِه[1]، فعلى هذا ضَعُفَ الأمر من كل جهة. ونفرض أنّ أمر بردبك كان على حقيقة، فما عساه كان يفعل، وهو أيضاً أجنبيٌّ عن

(١) مراده أن هذا التدبير لم يكن عن نفاذ بصيرة ومعرفة بالأمور.

معرفة ما قلناه؟ فإنه ما رُبّيَ إلّا عند أستاذه الأشرف إينال وهو أمير، فلا يعرف أحوال المملكة إلّا بعد سلطنة أستاذه أيام الأمن والسعادة ـ انتهى.

وفي يوم الخميس تاسع شهر رمضان خلع السلطان الملك المؤيد على شرف الدين البقري باستقراره ناظر الإصطبلات السلطانية، بعد عزل محمود بن الديري.

وفي يوم الجمعة عاشره أُخذ قاع النيل، فجاءت القاعدة ـ أعني الماء القديم ـ ستّة أذرع ونصفاً.

وفي ليلة الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان المذكور خسف جميع جرم القمر، وغاب في الخسف تسعين درجة، وصارت النجوم في السماء كليلة تسع وعشرين الشهر، ولعلّ ذلك يكون نادراً جدّاً، فإني لم أرَ في عمري مثل هذا الخسف.

هذا وأمر الملك المؤيد آخذ في اضطراب من يوم عيّن تجريدة إلى البحيرة. ولم تخرج التجريدة، وخالفه مَن كُتِب إليها من المماليك السلطانية؛ فإنه لمّا عيّن التجريدة إلى البحيرة لم يعيّن من المماليك السلطانية أحداً من مماليك أبيه الأجلاب، فعظم ذلك على مَن عيّن من غيرهم، وعلى مَن لم يعيَّن أيضاً، لمعرفتهم أنه كلّموه في أمر مماليك أبيه واستمالوه لهم؛ فإنه استفتح سلطنته بإبعادهم ومقتهم وإرداعهم، فأحبّه كلّ أحد، فلما فطنوا الآن بميله إليهم، نفرت القلوب منه، وخافوا من أفعال الأجلاب القبيحة التي فعلوها في أيام أبيه أن تعود، فصمّمت المماليك المعينةُ إلى البحيرة في عدم الخروج إلّا إن عيّن معهم جماعةً من أجلاب أبيه، وساعدهم في ذلك المماليكُ السلطانية من كل طائفة، مخافة من تقريب الأجلاب. فأساء المؤيد التدبير من أنه لم يبتّ أمراً لا بقوة ولا بلين، بل سكت وسمع قول مَن أملاه المفسود من قوله: إذا أرسلت مماليك أبيك مَن يبقى حولك، وإذا أبعدت مماليك والدك فمَن تقرّب؟ فكأنه مال لهذا القول الواهي واستحسنه؛ وهذا نوع مما كنّا فيه أولاً من أنه ما كان عنده مَن يرشده إلى الطريق.

ثم كلّم الملك المؤيد المماليك أيضاً في السفر، فاعتلّوا بطلب الجِمال،

فأراد تفرِقَة الجِمال، فلم يأخذوها. واستمروا على ذلك، وسكنت حركة السفر بسُكات السلطان، وبذلك فشا انحطاط قدره وتلاشى أمره، بعد أن كان له حُرمة عظيمة، ورعب في القلوب.

فلقد رأيت في تلك الأيام شخصاً من أوباش المماليك الظاهرية يكلّم الأمير بردبك الدوادار الثاني بكلام لو كلَّمه لمَن يكون فيه شهامة لحمل السلطان على شنقه في الحال، وكان ذلك هو الحزم على قول بعض النّهابة: «إما إكديش، أو نشّابة للريش»؛ وتلافي الأمور إمّا يكون بها أو عليها، والحزم إنما هو الشدُّ على مَن عيّن وتسفيرهم[1] غصباً، فإن تمّ ذلك فقد هابه كلّ أحد، وقد قيل: «مَن هاب خاف»، أو اللين والتلطّف بمَن كُتِب[2] والاعتذار لهم عن عدم كتابته لمماليك أبيه الأجلاب، بقوله: «ما منعني أن أكتب هؤلاء معكم إلاّ أنهم ليسوا بأهل لمرافقتكم، فحيثما أحببتمو ذلك فأنا أكتب منهم جماعة»، ثم يكتب منهم عدّة؛ فإن تمّ ذلك ومشى فالأمر إليكَ[3] بعد سفرهم، دبِّر ما شئت، وإن لم يتمّ فبادر للفعل الأول بكل ما تصر قدرتك إليه، واستعمل قول المتنبي في قوله من قصيدته المشهورة: [الكامل]

لا يخدعنَّكَ مِنْ عَدُوّك دَمْعُه وآرحم شبابكَ من عدوٍّ ترحم
لا يسلم الشرفُ الرفيع من الأذى حتى يُراقَ على جوانِبِه الدمُ

فلم يقع منه ذلك، ولا ما يشبهه، ولا أشار عليه أحد من أصدقائه بشيء يكون فيه مصلحة لثبات ملكه، بل سكت كلّ أحد عنه، وصار كالمتفرّج، إمّا لبغض فيه، أو لقلّة معرفة بالأمور.

* * *

(١) في الأصل: «وسفرهم».
(٢) أي بمَن عينّ للسفر في التجريدة إلى البحيرة.
(٣) يتحدّث الكاتب عن السلطان أحمد بصيغة المخاطبة.

ذكر نكبة الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف إينال وخلعه من الملك

لمّا كان آخر يوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان من سنة خمس وستّين المذكورة، رسم السلطان الملك المؤيد أحمد لنقيب الجيش الأمير ناصر الدين محمد بن أبي الفرج أن يَدُورَ على الأمراء مقدّمي الألوف، ويعلمهم أن السلطان رسم بطلوعهم من الغد في يوم السبت إلى الحوش السلطاني من قلعة الجبل بغير قماش الموكب، ولم يعلمهم لأي معنى يكون طلوعهم واجتماعهم في هذا اليوم بالقلعة، وهو غير العادة، فدارَ دَوَادَارُ نقيب الجيش على الأمراء وأعلمهم بما رسم به السلطانُ من طلوعهم إلى القلعة. وأخذ الأمراء من هذا الأمر أمرَ مريج[1]، وخلا كل واحد بمَن يثق به، وعرفه الخبر، وهو لا يشك أن السلطان يريد القبض عليه من الغد. وماجت الناس وكثر الكلامُ بسبب ذلك، وركبت الأعيانُ بعضها على بعض. وأما الأمراء فكلٌّ منهم تحقّق أنه مقبوض عليه من الغد، ووجد لذلك مَن كان عنده كمينٌ من الملك المؤيَّد أو يريد إثارة فتنة فرصةً، وحرَّض بعضُهم بعضاً، إلى أن ثارت المماليكُ الظاهريّةُ في تلك الليلة، وداروا على رفقتهم وإخوانهم وعلى مَن له غرض في القيام على الملك المؤيَّد، وداموا على ذلك ليلتهم كلها.

فلما كان صبح نهار السبت تفرَّقوا على أكابر الدّولة والأمراء في بيت الأتابك خُشْقَدَم لعمل المصلحة، فداروا على الأمراء، وأمسكوا منهم جماعة كبيرة، وأحضروهم إلى بيت الأتابَك خُشْقَدم، على كُرْهٍ من خُشْقَدَم، وسارَت فرقةٌ في باكر النهار إلى بيت الأمير بُردْبَك الأشرفي الدّوادار الثاني الملاصق لمدرسة السلطان حسن، وأحضروه إلى بيت الأمير الكبير خُشْقَدَم، بعد أن أخرقوا به.

هذا وقد اجتمعت طوائف المماليك، مثل الناصريّة فرج، والمؤيدية شيخ، والأشرفية بَرْسْباي، والظاهرية جَقْمَق، والسيفية، والجميع في بيت الأمير الكبير، ولم يطلع إلى القلعة في هذا اليوم أحد من الأمراء والأعيان إلّا جماعة يسيرة جداً.

---

(١) أي ظنوا فيه السوء. والمريج من الأمر: المختلط الملتبس.

فلما تكامل جمعُهم في بيت الأمير الكبير ـ وأكثرُ الطوائفِ يوم ذاك الأشرفيةُ والظاهريةُ، وكبيرُ الأشرفية الأميرُ قَرْقَماس أمير مجلس، ولا كلام له، بل الكلامُ لجانِبَك القَجْماسي الأشرفي المشدّ، ولجانِبَك من أمير الخازندار، والظاهرية كبيرُهُم جانِبَك نائبُ جدَّة، أحد مقدّمي الألوف، وقد صارت خُجْداشِيته يوم ذاك في طَوْعِ يده وتحت أوامره، لحُسْنِ سياسته وجَوْدَةِ تدبيره، فانضمّت كلمةُ الظاهريّة به، حتى صارت كلمة واحدةً، وهم جِسٌّ وهو المعنى، وهذا بخلاف الأشرفية، فإنهم وإن كانوا هم أيضاً متّفقين فالاختلافُ بَيْنَ أكابرهم موجودٌ بالنسبة إلى هؤلاء، وعدم اكتراثهم بهذا الأمر المهم، ولِتَطَلُّعِهم على مجيء خجداشهم الأمير جانَم نائب الشام، ولو أنَّ أمرَ المؤيد طَرَقَهم على بغتة ما طاوعوا على الرّكوب في مثل هذا اليوم قبْلَ مجيء خُجْدَاشهم ـ فأخذ الأميرُ جانِبَك نائب جدَّة المذكور في تأليف الأشرفية على الظاهرية بحُسْن تدبير، حتى تمَّ له ذلك، وصاروا على كلمةٍ واحدة. ثم شرعوا في الكلام بحضرة الأمراء في الاجتماع بسببه، فتكلم بعض مَن حضر من الأمراء بأن قال: «أيش المقصود بهذا الجمع؟» أو معنى هذا الكلام، فأجاب الجميعُ بلسان واحد: «نريد خلعَ الملك المؤيد أحمد من السلطنة، وسلطنة غيره».

وكان الباعث لهذه الفتنة ما قدَّمناه، وأيضاً الظاهرية، فإن الملك المؤيد لمّا تسلطن لم يحرّك ساكناً ولم يتغيّر أحد مما كان عليه، فشقَّ ذلك على الظاهريّة، وقال كلٌّ منهم في نفسه: كأنَّ الملك الأشرف إينال ما مات، فإن الغالب منهم كان أُخِذَ ما بيده من الإقطاعات، وحُبِسَ ونُفِيَ في أوّل سلطنة الأشرف إينال، كما هي عادة أوائل الدّول، وبقي منهم جماعة كثيرة بلا رِزق ولا إمْرَة ولم يجدوا عندهم قوة ليخلعوا الملك المؤيد هذا ويسلطنوا غَيْرَه وَحْدَهم، فكلّموا الأشرفيّة في هذا المعنى غير مَرَّة، وترفقوا لهم، فلم يقبلوا منهم ذلك، لنَفْرَةٍ كانت بين الطائفتين قديماً وحديثاً، وأيضاً فلسانُ حال الأشرفية يقول عندما سألوهم الظاهريّة: نحن الآن في كفاية من الأَرْزَاق والوظائف، فعلاَمَ نحرّك ساكناً، ونخاطر بأنفسنا؟ فعجزوا فيهم الظاهريّة، وقد ثقل عليهم الملك المؤيد، وكثر خوفهم منه، فإنه أوّل ما

تسلطن أَبْرَقَ وأَرْعَدَ، فانخزى كلّ أحد، وحَسِبُوا أَنَّ في السويداء رجالاً، ولهذا قلتُ فيما تَقَدَّم: لو فعل ما فعل لمشى له ذلك، لمعرفتي بحال القوم وشجاعتهم(١).

وكان دخولُ المؤيد السلطنة بحُرْمَةٍ وافرة، لأن سِنّه كان نحو الثلاثين سنة يوم تسلطن، وكان وَلِيَ الأتابَكية في أيّام أبيه، وأخذ وأعطى، وسافر أمير حاج المحمل، وحَجَّ قبل ذلك أيضاً وسافر البلادَ، ومارَس الأمور في حياة والده. وهذا كله بخلاف مَن تقدَّمه من سلاطين أولاد الملوك، فإن الغالبَ منهم حَدَثُ السِّنِّ يريدُ له مَن يُدَبِّرُه، فإنه ما يَعْرِفُ ما يُرادُ منه، فيصير في حكم غيره من الأمراء فتتعلّقُ الآمالُ بذلك الأمير، وتتردَّدُ الناسُ إليه، إلى أن يُدَبِّر في سلطنة نفسه، بخلاف المؤيّد هذا، فإنه وَلِيَ السلطنة وهو يقول في نفسه إنه يدبّر مع مملكة مصر ممالك العجم زيادة على تدبير مصر.

قلتُ: وكان كما زعم؛ فإنه تقدّم أنه كان عارفاً عاقلاً مباشراً، حسن التدبير، عظيم التنفيذ شهماً، وكان هو المتصرف في الأمور أيّام أبيه في غالب الولايات والعزل وأمور المملكة، فلما تسلطن ظنَّ كل أحد أن لا سبيل في دخول المكيدة على مثل هذا، لمعرفة الناس بِحذْقِهِ وفطنته.

وكان مع هذه الأوصاف مليح الشكل، وعنده تؤدة في كلامه، وعقل وسكوت خارج عن الحد، يؤدّيه ذلك إلى التّكَبُّر، وهذا كان أعظم الأسباب لنفور خواطر الناس عنه؛ فإنه كان في أيام سلطنته لا يتكلم مع أحد حتى ولا أكابر الأمراء إلا نادراً، ولأمر من الأمور الضروريات، وفعل ذلك مع الكبير والصغير، وما كفى هذا حتى صار يَبْلُغُ الأمراءَ أنّه في خلوته يسامِرُ الأطراف الأوباش الذين يُسْتَحَى من تسميتهم، فعظم ذلك على الناس؛ فلو كان علم الكلام مع الناس قاطبة لهان عَلى مَنْ صعب سُكَاتُه عليه، من كون الرفيع يكون مُبعَداً والوضيع مقرّباً، فهذا أمر عظيم لا تحمله النفوس إلاّ غَصْباً، فلما وَقَعَ ذلك وجد مَن عنده عقدُ فرصةٍ،

(١) المراد أن سلطنة الملك المؤيد أحمد لم تغيّر شيئاً في حال المماليك الظاهرية جقمق لجهة حرمانهم السابق من الإقطاعات والإمرة.

وأشاع عنه هذا المعنى وأمثالَه، وبَشّع في العبارة وشنّع، وقال هذا وغيرُه: إنه لا يلتفت إلى المماليك ويزدريهم، وهو مستعزٌّ بمماليك أبيه الأجلاب وأصهاره وحواشيه وخچداشية أبيه وبالمال الذي خلَّفه أبوه، ومنهم مَن قال أيضاً: إنما هو مستعز بحُسْن تدبيره، فإنه قد عبَّا لكل سؤال جواباً، ولكل حرب ضَرْباً. وكان مع هذا قد قمع مُباشِري الدَّولة وأبادهم، وضيَّق عليهم، ودقَّق في حسابهم كما هو في الخاطر وزيادة، فما أحسن هذا لَوْ كَانَ دَامَ واستمر!! فنفرت قلوبُ المباشرين أيضاً منه، وحقّ لهم ذلك، واستمرت هذه الحُرْمَةُ من يوم تسلطن إلى مجيء يحيىٰ بن جانَم نائب الشام إلى القاهرة، ثم إلى أن عَيَّن التجريدة إلى البُحَيْرة، فأخذ أمره في إدبار، لعدم مثابرته على سير طريقه الأوَّلِ من سلطنته، فلو جسر لكسر، لكنه هَاب فَخَاب، ولِكُلِّ أجَلٍ كتاب ـ ولنعد إلى ذكر ما كنّا بصدده:

فلما تكامل الجمع في بيت الأمير الكبير خُشْقَدَم الناصري المؤيدي، ومتكلّم الأشرفية جانِبَك المشدّ، وجانِبَك الظريف الخازندار، ومَنْ معهم من خُچْداشِيتهم الأعيان، ومتكلّم الظاهرية الأمير جانِبَك نائب جدَّةَ أحد مقدّمي الألوف، وأعيان خُچداشِيته، مثل: الأمير أُزْبُك من طَطَخ الظاهري، والأمير برْدبَك البَجْمَقدار ثاني رأس نوبة جدَّة، وقد وافقه الأشرفيَّةُ، وهم يظنون أن الجَمْعَ ما هو إلّا لسلطنة الأمير جانَم الشام، لأنهم كانوا اتفقوا على ذلك حسبما تقدّم ذكره؛ وهو أن الظاهريّة كانوا إذا شرعوا في الكلام مع الأشرفيّة في معنى الركوب[1]، يقولون: «بشرط أن لا يكون السلطان منّا ولا منكم»، وإنما يكون من غير الطائفتيْن، فيقع بذلك الخلف بينهم، ويتفرّقون بغير طائل، إلى أن استرابت الظاهريَّة من الملك المؤيَّد أحمد هذا، وعظم تخوّفُهم منه، فوافقوهم على سلطنة جانَم لما جاء ولدُه يحيىٰ كما تقدّم ذكره.

ثم وقع هذا الأمر بغتة، وعلم جانِبَك نائب جدّة أن الأمر خرج عن جانَم لغيابه، ولا بد من سلطنة غيره لأن الأمير ما فيه مُهْلَة، فلم يُبْدِ للأشرفية شيئاً من

(١) أي بمعنى الركوب على السلطان والانقلاب عليه.

ذلك، وأخذ فيما هو بصدده إلى أن يتمَّ الأمر لغير جانَم، ثم يفعل له ما بدا له؛ وكذا وقع حسبما يأتي ذكره في مجيء جانَم، وفي سلطنة الملك الظاهر خُشقَدَم.

هذا وقد جلس جميع الأمراء بمقعد الأمير الكبير خُشْقدَم. فعندما تكامل جلوسُهُم قامَ الأمير جانِبَك نائب جدَّة إلى مكان بالبيت المذكور، ومعه الأمير جانِبَك الأشرفي المشدّ، والأمير جانِبَك الأشرفي الظريف الخازندار، والأمير أُزْبُك من طَطَخ الظاهري، والأمير بِرْدبَك البَجْمَقْدار الظاهري، وجماعة أُخَر من أعيان الطائفتين، وتكلموا فيمن يولّونه السلطنة ـ وغرض جانِبَك نائب جدَّة في سلطنة الأتابك خُشْقَدَم، لا في سلطنة جانَم نائب الشام، غير أنه لا يسعه الآن إظهار ما في ضميره، خوفاً من نفرة الأشرفية ـ وقال لهم ما معناه: «نحن قد كتبنا للأمير جانَم بالحضور، وبايعناه بالسّلطنة، وأنتم تعلمون ذلك عن يقين، وقد دَهَمَنا هذا الأمرُ على حين غفلة، فما تكون الحيلة في ذلك، ولا بُدَّ من قتال الملك المؤيَّد في يومنا، والسلطانُ ما يُقَاتَل إلّا بسلطان مثله، ومتى تهاونّا في ذلك ذهبَت أرواحُنَا». فعلم كلُّ أحد ممّن حضر أن كلام جانِبَك نائب جدَّة صواب، وطاوعه كلُّ مَن حضر على مقالته هذه، فلما وقع ذلك أجمع رأيُ الجميع على سلطنة أحد من أعيان الأمراء.

ثم تكلموا فيمن يكون هذا السلطان، فدار الكلام بينهم في هذا المعنى، إلى أن قال بعضهم: «سلطنوا الأمير جَرِباش المحمدي الناصري أمير سلاح»، فلم تَحْسُن هذه المقالةُ ببال الأمير جانِبَك، ولم يَقْدِر على منعه تصريحاً وقال: «جَرِباش أهل لذلك بلا مدافعة، غير أنه متى تسلطن لا يمكنكم صرفه من السلطنة بغيره ـ يعني بالأمير جانَم ـ تَلْويحاً ـ لأنه رجل عظيمٌ، ومن الجنس[1]، وصِهْرُ خُجْدَاشنا بُرْدبَك البَجْمَقْدار، وصهْر خُجْدَاشِكم خير بك البهلوان الأشرفي وغيره، وقد قارب مجيء الأمير جانَم من الشام، والأمر إليكم، ما شئتم افعلوا».

فكان هذا كله إبعاداً لجرباش المذكور، وأخذاً بخواطر الأشرفية، فمال كلُّ

---

(١) أي من الجراكسة ذوي الشوكة والعصبية القوية.

أحـد إلى كلامـه، ثم قال جـانِبَك: «الـرأي عندي سلطنـة الأمير الكبيـر خُشْقَـدَم المؤيدي، فإنه من غير الجنس (يعني كونه رومي[1] الجنس) وأيضاً إنه رجل غريب ليس له شوكة، ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك، وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب».

فأعجب الجميعَ هذا الكلامُ، وهم لا يعلمون مقصوده ولا غرضه؛ فإن جُلّ قصد جانِبَك كان سلطنـة خُشْقَدَم، فـإنه مؤيَّـدي[2]، وخُجْدَاشِيَّتُـه جماعـةٌ يسيرةٌ، وأيضاً يستريح من جانَم نائب الشام وتحكُّم أعدائه الأشرفية فيـه وفي خُجْدَاشِيتـه الظاهريّـة، ويعلم أيضاً أنـه متى تمَّ سلطنة الأتـابَك خُشْقَـدَم، وأقام أيـاماً، عَسُـرَ خلعُه، وبعدت السلطنةُ عن جانَم وغيره، فدبَّر هذه المكيدة على الأشرفية، فمشت عليهم أولاً، إلى أن ملكوا القلعة، وخُلِع الملك المؤيَّد بسرعة فتنبَّهُوا لها.

وكانت الأشرفية لمّا سمعوا كلام جانِبَك، وقالوا: «نعم نرضى بالأمير الكبير» كان في ظنهم أن قتالهم يطول مع الملك المؤيَّد أيّامـاً كثيرة، كمـا وقع في نـوبة المنصور عثمان، ويأتيهم جانَم وهم في أشد القتال، فلا يعدلـون عنه لخُشْقَـدَم، فيتمّ لهم ما قصدوه فاتفقت كل طائفة مع الأخرى في الظاهر، وبـاطن كل طـائفة لواحد، فساعد الدَّهْرُ الظاهريَّة، وانهزمَ الملكُ المؤيَّد في يوم واحد حسبما نذكره الآن.

فلما وقع هذا الكلام جاءت الطائفتان الأشرفيّة والظاهـريّة إلى الأمـراء وهـم جلوس بمقعد الأمير الكبير خُشْقَدَم، والجميع جلوسٌ بين يدي خُشْقَـدَم، فافتتـح الأمير جَانِبَك نائب جدَّة الكلام وقال:

«نحن ـ يعني الظاهرية والأشرفية ـ نريد رجلاً نسلطنه، يكون لا يُمَيِّزُ طائفـة على أخرى، بل تكون جميع الـطوائف عنده سـواء في الأخذ والعـطاء، والولايـة والعـزل، وأن يُطْلِقَ الأمـراء المحبوسين من سـائر الـطوائف، ويرسم في سلطنتـه

---

(١) كان خشقدم أول سلطان رومي الجنس في الدولة المملوكية الثانية، كما كان برقوق أول الجراكسة.

(٢) هذه النسبة إلى المؤيد شيخ المحمودي وليس إلى المؤيد أحمد بن إينال.

بمجيء المنفيّين من البلاد الشّامِيَّة وغيرها إلى البلاد المصريّة، ويطلق الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برْسْباي، والملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جَقْمَق مِن بُرْجَي الإسكندرية، ويسكنا الإسكندرية في أيّ دار شاءا، ويأذن لهما في الرّكُوب إلى الجامع وغيره بثغر الإسكندرية من غير تحفُّظٍ بهما».

وكان كلام الأمير جَانِبَك لجميع الأمراء، لم يخصّ أحداً منهم بكلام دون غيره، فبادر الأتابَك خُشْقَدَم بالكلام وقال: «نعم» ثم التفت جَانِبَك إلى الجميع، وقال: «فمَن يكون السلطان على هذا الحكم؟» فبدأ سُنْقُر قرَق شَبَق الأشرفي الزَّرَدْكَاش، وقال ما معناه: « ما نرضى إلّا بالأمير جانَم نائب الشام، أنتم كتبتم له بالحضور، وأذعنتم بسلطنته ، فكيف تسلطنوا غيره؟ فنهره الأمير خيربك من جديد الأشرفي لنفس كان بينهما قديماً، وقال:

«لستَ بأهلِ الكلامِ في مثل هذا المجلس». فعند ذلك قال الأمير قانم التاجر المؤيَّدي أحد مقدّمي الألوف ما معناه: «يا جماعة إن كنتم كاتبتم الأمير جانَم نائب الشام فلا تسلطنوا غيره إلى أن يحضر وسلطنوه، فإنه لا يسعكم من الله أن تسلطنوا غيره الآن ثم تخلعوه عند حضور جانَم، فهذا شيء لا يكون» فلم يسمعوا كلامه، وسُمع في الغوغاء قول قائل لا يُعرف: «سلطِنوا الأمير جَرِباش!».

فامتنع جَرِباش من ذلك وقال ما معناه: «إن هذا شيء راجع إلى الأمير الكبير»، وقبَّل الأرض من وقته. فقام الأمير جَانِبَك الأشرفي الظريف الخازندار وبادر بأن قال: «السلطان الأمير الكبير»، وقبَّل الأرض. ثم فعل ذلك جميعُ مَن حضر من الأمراء، ونودي بالحال بسلطنته بشوارع القاهرة، ثم شرعوا بعد ذلك في قتال الملك المؤيَّد أحمد هذا.

كلّ ذلك والملك المؤيَّد في القلعة في أُناس قليلة من مماليكه ومماليك أبيه الأجلاب، ولم يكن عنده من الأمراء أحد غير مملوك والده قَرَاجا الطويل الأعرج، أحد أمراء العشرات، وهو كلا شيء، والأمير آخور الكبير بَرْسْباي البَجَاسي، وليته لا كان عنده، وخيربك القَصْرَوِي نائب قلعة الجبل، وكان أضرَّ عليه من كل أحد

حسبما يأتي ذكر فعله. كلُّ ذلك والملك المؤيد لا يعلم حقيقة ما العزم فيه، غير أنه يعلم باجتماع المماليك والأمراء في بيت الأمير الكبير خُشْقَدَم، وأنهم في أمر مريج، غير أنه لا يعرف نصّ ما هم فيه. وصار الملك المؤيَّد يسأل عن أحوالهم، وينتظر مجيء أحد من مماليك أبيه إليه، فلم يطّلع إليه أحدٌ منهم، بل العجب أن غالبهم كان مع القوم عند الأمير الكبير مساعدة على ابن أستاذهم، وليتهم كانوا من المقبولين، وإنما كانوا من المذبذبين لا غير. على أن الملك الظاهر خُشْقَدَم لمّا تسلطن أبادهم، وشوَّش عليهم بالمَسْك وإخراج أرزاقهم أكثر مما عمله مع الذين كانوا عند المؤيد ـ فلا شُلَّت يداه. وبقي الملك المؤيد كلما فحص عن أَمْرِ الفتنة لا يأتيه أحدٌ بخبرٍ شافٍ، بل صارت الأخبار عنده مضطربة، وآراؤه مفلوكة، وهو في عدم حركة، ويُظْهِرُ عدم الاكتراث بأمر هذا الجمع، إلى أن تزايد الأمر، وخرج عن الحدّ، وصار اللعبُ جدّاً، فعند ذلك تأهَّب مَن كان عنده من المماليك، وقام الملكُ المؤيّدُ من قاعة الدهيشة، ومضى إلى القصر السلطاني المطلّ على الرُّميلة، ثم نزل بمَن معه إلى باب السلسلة، وقَبْلَ أن يصل إلى الإسطبل جاءه الخبرُ بأن القومَ أخذُوا بابَ السلسلة، وملكوا الإسطبل السلطاني، وأخذوا الأمير بَرْسْباي البَجَاسي الأمير آخور الكبير أَسيراً إلى الأمير الكبير خُشْقَدَم ـ وكان أخذُ باب السلسلة مكيدةً من بَرْسْباي المذكور. فلما سمعت الأجلابُ أخذَ باب السلسلة نزلَ طائفةٌ منهم وصدَمُوا مَنْ بها من عساكر الأتَابَك خُشْقَدَم صدْمَةً هزموهم فيها، واستولوا على باب السلسلة ثانياً، وهو بلا أمير آخور.

وجلسَ السلطانُ الملك المؤيد بمقعد الإسطبل المطل على الرُّميلة، وكان عدم نزول المؤيّد إلى الإسطبل بسرعة له أسباب، منها: أنه كان مطمئن الخاطر على باب السلسلة، لكون الأمير آخور بَرْسْباي ليس هو من غَرَضِ أحد من الطائفتين، وأيضاً كونه صهره زوج بنت أُخته من الأمير بُرْدبَك الدّوادار الثاني، وقد صار بُرْدبَك من الممسوكين عند الأتابَك خُشْقَدَم، وأيضاً أن والده إينال هو الذي رقّاه وخوَّله في النّعم، فلم يلتفت بَرْسْباي لشيء من ذلك، وأنشد قول مَن قال: [الوافر]

لــعــمــرك والأمــورُ لــهــا دواعٍ لقــد أبعــدت يــا عتب الـفــرارا

ومنهـا: أنه صـار ينتظر مَنْ يـأتيه من أصحـابه وحـواشيـه وخچـداشيـة أبيـه ومماليكه، فلم يأته أحد منهم. فلما يئس منهم قام من الدّهيشة بعد أن جاءه الخبرُ بأخذ باب السلسلة واسترجاعها بيـد ممالـيك أبيه الأجـلاب. ولما جلس بـالمقعد ورأى القوم قد تكاثف جمعهم وكثر عـددهم، وهو فيمـا هو فيـه من قلّة العساكـر والمقاتلة، لم يكترث بذلك، وأخذ في الدفع عن نفسه بمَنْ عِنْدَه. غير أن الكثرة غلبت الشجاعة، وما ثَمَّ شجاعة ولا دربة بمقاومة الحروب، وصار كذلك خـذلاناً من الله تعالى: فإنه لم يطلع إليه في هذا اليوم واحدٌ من مماليك أبيه القديمة ولا خچـداشيته، ومـا كان عنـده من الأمراء غيـر قَـرَاجـا المقـدّم ذكـره، ومن أعيـان الخـاصكية فـارس البَكْتَمُري أحـد الدَّواداريـة الأجناد، ومُقْبـل دَوَادَاره قديمـاً قبل سلطنته، وهؤلاء الثلاثة كلا شيء، ولـولا ذكر أسمـاء مَن كان عنـده عِلْم خَبرٍ مـا ذكرتُ مثل هؤلاء الأصاغر. وكان عنده مع هؤلاء أجلابُ أبيه الذين بالأطباق، وهم عدّة كبيرة نحو الألف أو دونها بيسيـر، أو أكثر منهـا بقليل، وهم الـذين اشتراهم والدُه الأشرف بعد سلطنته من التجّار، وأما الذين اشتراهم من تَرِكَة الظاهر جقمق ومن مماليك ولده الملك المنصور عثمان ـ وعدّتهم تزيد على المائتين، وهم أعيان مماليك الأشراف إينال وأصحاب الوظائف والإقطاعات ـ فقد استمالهم الأمير جَانِبَك نائب جدَّة قبل ذلك، وقال لهم: «أنتم ظاهرية وشراء الأشرف لكم غيـر صحيح» فمالوا إلى كلامه وإحسانه وعطاياه الخارجة عن الحدّ في الكرم، وصاروا من حزب الظاهرية. وركبت الجميع معـه في هذا اليـوم، وقاتلوا ابن أستـاذهم أشدَّ قتـال، وصاروا هم يوم ذلك أعيان العسكر بالشبيبة والإمكان والكثرة، هذا مع مَن كان مع الأتابَك خُشْقَدم من الناصرية والمؤيديّة والظاهرية والسيفية.

فلما رأى الملكُ المؤيّدُ كثرةَ هذه العساكر وميل مماليك والده معهم تعجَّب غايَة العجب، وعلم أن ذلك أمر ربّانيٌّ ليس فيه حيلة، وما هو إلّا بذنبٍ سَلَفَ من دعوةِ مظلومٍ غَفَلُوا عنها لم يَغْفُل اللَّهُ عنها، أو للمجازاة، لأن الجـزاء من جنس العمل؛ وقد ركب أبوه الملكُ الأشرفُ إينال على الملك المنصور عثمـان بعد أن

تخوَّل في نعم الظاهر جَقْمَق، فإنه هو الذي رقَّاه وولّاه الأتابَكية، فغدر به وخلعه من المُلْك، وتسلطن مكانه، وحبسه إلى أن مات.

وأغربُ من هذا كله أن الملك المؤيد هذا كان له أيام والده جماعة كبيرة من أعيان الظاهريّة والأشرفيّة والسيفية يصحبونه ويمشون في خدمته، ويتوجهون معه في الرِّمَاياتِ والأسفار، وإحسانُه متصلٌ إليهم من الإنعام والمساعدة في الأرزاق والوظائف، فلم يطلع إليه واحد منهم، وأيضاً فاؤوا الجميع للأتابك خُشْقَدم ومَن معه قبل أن يستفحل أمر خشقدم ويضعف أمرُ المؤيد، فما ذاك إلّا عدم موافاة لا غير.

وأعجب من هذا أن أصحاب المؤيد ومماليك أبيه الذين تقدّم ذكرهم مِمَّن انضافَ مع الأتابَك خُشْقَدم كانوا يوم الواقعة من الممقوتين لا من المتأهلين، وذلُّ الإبعاد لائح عليهم، وكان يمكنهم تلافي الأمر والطلوع إلى الملك المؤيد ومساعدته، فلم يقع ذلك، فهذا هو السبب لقولي: إن هذا كله مجازاة لفعل والده السّابق، وقد ورد في الإسرائيليات: «يقول الرّب: يا داود، أنا الرّب الودود، أُعامل الأبناء بما فعل الجدود».

ثم التحم القتالُ بين الطائفتين مُنَاوَشَةً لا مصاففة، غير أن كُلًّا من الطائفتين مصرٌّ على قتال الطائفة الأخرى، والملكُ المؤيد في قلّةٍ عظيمةٍ من المقاتلة ممّن يعرف مواقع الحرب وليس معه إلا أجلابٌ، وهذا شيء لم يقع لأحد غيره من السلاطين أولاد السلاطين؛ فإن الناس لم تزل أغراضاً، ووقع ذلك للعزيز مع الملك الظاهر جَقْمَق، فكان عند العزيز جماعة كثيرة من الأمراء والأعيان لا تدخل تحت حصر، وكذلك للمنصور عثمان مع الملك الأشرف إينال، وكان عنده خلائق من أعيان الأمراء، مثل الأمير تَنَم المؤيدي أمير سلاح، ومثل الأمير قانِي بَاي الچاركسي الأمير آخور الكبير، وغيرهما من أعيان أمراء أبيه، ولا زالت الدنيا بالغرض، فقوم مع هذا، وقوم مع هذا. غير أن الملك المؤيد هذا لم يكن عنده أحد البتّة، فانقلب الموضوع في شأنه؛ فإنه كان يمكن الذي وقع له يكون للعزيز والمنصور، فإنهما كانا حديثي سنٍّ، والذي وقع لهما ـ أعني العزيز والمنصور ـ كان

يكون للمؤيد، لأنه كبير سن، وصاحب عقل وتدبير - فسبحان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

قلت: ولهذا لم تطل وقعة المؤيد هذا، فإنه علم بذلك زوال ملكه، وتركه بَرْسْبَاي البجاسي الأمير آخور، وخيربك القَصْرَوِي نائب قلعة الجبل، ونزلا إلى الأتابك خشقدم؛ فإن العادة في الحروب إذا كان كلٌّ من الطائفتين يقابل الأخرى في القوة والكثرة يقع القتال بين الطائفتين، وكلٌّ من الطائفتين يترجَّى النُّصْرَة، إلى أن يؤول النصر لإحدى الطائفتين، وتذهب الأخرى، إلاّ هذه الوقعة لم يكن عند المؤيَّد إلاّ مَن ذكرناه. وأما عساكر الأتابَك خُشْقَدَم فانتشرت على مفَارِق الطرق، فوقف الأميرُ جَانِبَك الظاهري نائب جدَّة بجماعة كثيرة من خُجْدَاشِيته ومماليكه برأس سويقة منعم، وتلقَّى قتال الملك المؤيد بنفسه وبحواشيه المذكورين، وعظم أمر الأمير الكبير خُشْقَدَم به حتى تجاوز الحدَّ، واجتهد جانِبَك المذكورُ في حرب المؤيد حتى أباده.

وكان الملك المؤيّد أولاً يقرِّب جانِبَك هذا في ابتداء سلطنته تقريباً هيّناً مع عدم التفات إليه ولا إلى غيره، لأنه كان يقول في نفسه: إن ابتداءه كانتهاء أبيه في العظمة، ولمّا تسلطن أخذ في الأمر والنهي أولاً بغير حساب عواقب، استعزازاً بكثرة مالِهِ وبحواشيه ومماليك أبيه، فسار في الناس بعدم استمالَةِ خَوَاطِرِهم، وسار على ذلك مُدّةَ أيام، وجعل جَانِبَك هذا في أُسوة مَن سلك معهم هذه الفعلة، فاستشارني جانِبَك في أن يداخله لعلّه يُرَقِّع عليه أمره، فإنه ما كان حمولاً للذّل، وإنما كان طبعه أن يَبْذُلَ المالَ الجزيلَ في القدر اليسير في قيام الحُرْمة، فأشرتُ عليه بالمداخلة، فداخله. وكنت أنا قبل ذلك داخلته أياماً، فإذا به جامد نفور بعيد الاستمالة إلاّ لمَن ألفه، وحدَّثته بما رأيته منه قبل أن أُشير عليه بصحبته، فقال ما معناه: إني أنا آخذ الشيء بعزّة وتمهّل، وهو يدور مع الدهر كيفما دار. ثم اجتمع بي بعد مُدَّة أيام في يوم الجمعة بعد أن صلّى معه الجمعة، وقلع ما عليه من قماش الموكب، ودخل إليه في الخلوة بقاعة الدهيشة، ثم خرج من عنده وهو غير

منشرح الصدر، وقال لي: «القول ما قلته». ثم شرعنا فيما نحن في ذكره مَجْلِساً طويلاً، وقمنا على غير رضاء من الملك المؤيّد.

وَوَقَع في أثناء ذلك ما ذكرناه من أمر الوقعة والفتنة، ووقوف جَانِبَك ومَن معه برأس سويقة منعم، هذا مع ما كان بلغ المؤيد في هذا اليوم وفي أمسه أن القائم بهذا الأمر كله جانِبَك نـائب جدّة، وأنـه هو أكبـر الأسباب في زوال مُلْكِـه، وفي اجتماع الناس عَلَى الأتابَك خُشْقَدَم. ثم رأى في هذا اليوم بعينه من قَصْر القلعة وقوفَ جانِبَك على تلك الهيئة، فعلم أن كل ما قيل عنه في أَمْسِهِ ويومه صحيح، فأخذ عند ذلك يعتذر وكتب كتاباً للأمير جانِبَك بخطِّه يَعِدُه فيه بأمور، منهـا: أنه يجعله إن دخل في طاعته أتابَـك العساكـر بالـدّيار المصـريَّة، وأنـه لا يخرج عن أوامره، وأنه يكون هو صاحب عقده وحلّه، ويترقّق له، وبسطَ الكلامَ في معنى ما ذكرناه أَسْطُراً كثيرة، وهو يكرِّرُ السؤال فيه، ويحلفُ له فيما وعده بـه ـ ورأيت أنا الكتـاب بعيني، وفيه لحنٌ كثيـر، كأنـه كـان مـا مـارس العـربيّـة، ولا لـه إلمـام بالمكاتبات، على أنه كان حاذقاً فطناً، غير أن الفضيلة نوع آخر، كما كانت رُتْبَة المقام الناصري محمد ابن الملك الظاهر جَقْمَق ـ رحمهما الله تعالى ـ فلم يَـرْثِ جانِبَك لما تضمن هذا الكتاب، ودام على ما هو عليه، ونهر قاصدَه الحامِلَ لهذا الكتاب، وقال له: «إن عدت إليّ مَرَّةً أخرى أرسلتك إلى الأمير الكبير». واستمر على مـا هو عليـه من الاجتهاد في القتـال، وصار أمـرُ الملك المؤيد في إدبـار، وعساكر الأتَابَك خُشْقَدَم في نُمُوٍّ وزيادة.

هذا والمنَاوشة بالقتال مستمرَّة بين الطائفتين، وقد أفطر في هذا اليوم خلائق من شدّة الحرّ، وتعاطي القتال من الطائفتين، وجرح جمـاعة كثيـرة من الفريقين، فلم ينقضِ النهار حتى آل أمرُ الملك إلى زوال، وهو مع ذلك ينتظر مَن يجيء إليه لمساعدته، وهو بين عسى ولَعَلَّ، وكاتب جماعةً من أصحابه ممّن كان عند الأتابك خُشْقَدَم، فلم يلتفت إليه أحد لتحقق الناس زوال مُلكه.

وبينما الناسُ في ذلك وإذا بخير بك القَصْرَوِي نائب قلعة الجبـل تَرَكَ بـابَ

المدرَّج، ونزل إلى الأمير الكبير خُشْقَدَم، وصار من حِزْبِه، فعلم كلُّ أحدٍ أنه قد ذهب أمرُ الملك المؤيّد، ولو كان فيه بقية ما نزل نائب القلعة منها وانضاف إلى جهة الأمير الكبير. وبقي باب القلعة بغير ضابط، فأرسلَ الملكُ المؤيد في الحال بعض أصحابه وجلس مكان خير بك هذا، فلم يشكر أحدٌ خير بك المذكور على فعلته هذه.

كلّ ذلك وأمر المؤيّد في انحطاط فاحش، وصارت العامّةُ تُسْمِعُهُ المكروهَ من تحت القلعة، لا سيما لمّا دخل الليلُ، فإنه بات بالقصر في قِلَّةٍ من الناس إلى الغاية، لأن غالب مَن كان عنده تركه ونزل إلى تحت، وكانوا في الأصل جمعاً يسيراً، وبات مَن هو أسفل وقد استفحل أمْرُهم، وتأهبوا للقتال في غَد، وهِمّتهم قد عظمت من كثرة عددهم، وتكاثف عساكرهم من كل طائفة، حتى مَن ليس له غرضٌ عند أحد بعينه جاء إلى الأمير الكبير مَخَافَةً على رزقه ونفسه، لما علم من قوّة شوكة الأمير الكبير ومَا يؤول أمره إليه. هذا مع حضور الخليفة والقضاة الأربعة عند الأمير الكبير وجميع أعيان الدولة من المباشرين وأرباب الوظائف وغيرهم، والملك المؤيد في أُناس قليلة جداً.

ومضت ليلة الأحد المذكور، والملك المؤيد في أقبح حال. هذا وقد علم تَرَجّي مَن كان عنده بالقلعة من نُصْرَتِهِ، وَتقاعدَ غالبُ مَن كان عنده عن القتال، وهم الأجلاب من مماليك أبيه لا غير.

فلما أصبح نهار الأحد تاسع عشر شهر رمضان من سنة خمس وستّين وَثمانمائة ظهر ذلك عليهم، وَبردت همّتهم، وَركضت ريحُ عزائمهم، وَأخذ كلُّ احد من أصحابه في مصلحة نفسه، إما بالإذعان للأمير الكبير خُشْقَدَم، أو بالتّجهّز للهرب وَالاختفاء. وَظهر ذلك للملك المؤيد عَيَاناً، فأراد أن يُسَلِّمَ نفسه، ثم أمْسَك عن ذلك من وَقته.

كلُّ ذلك وأصحاب الأمير الكبير لا يعلمون بذلك، فقد أصبحوا في أفحل

أمر، وَأقوى شوكة، وَأكثر عدد، وَقد تهيؤوا في هذا اليوم للقتال وَمحاصرة قلعة الجبل، زيادةً على ما كانوا عليه في أمْسِه، وَفي نفوسهم أن أمْرَ القِتَالِ يَطُولُ بينهم أيّاماً. وبينا هم في ذلك ورد عليهم خبر الملك المؤيد مفصّلاً، وحكي لهم انحلال بَرْمِه وانفلاك أمره، وما هو فيه من أنه أراد غير مَرَّة تسليم نفسه، وزاد الحاكي وأمعن لغرض ما، فقَوّى بذلك قلوب مَن هو أسفل، وتشجَّع كلُّ جبان، فطلب المبارزة كلُّ مُوَلٍّ، وتقدّم كلّ مَن كان خاف هذا من هؤلاء، فكيف أنت بالشجاع المِقدام؟!.

فعند ذلك اجتمعوا على القتال، وزحفوا على القلعة بقلب رجل واحد، فقاتلهم عساكر الملك المؤيد قتالاً ليس بذاك ساعة هيِّنة. فلما رأى الملك المؤيد أن ذلك لا يفيده إلّا شدّة وقَسْوَة أمَرَ عساكره ومقاتلته بالكفِّ عن القتال، وقام من وقته وطلع القلعة بخواصه، وأمر أصحابه بالانصراف إلى حيث شاؤوا.

ثم دخل هو إلى والدته خَوَنْد زينب بنت البدري حسن بن خاص بك، وترك باب السّلسلة لمَن يأخذه بالتسليم، وتمزَّقت عساكره في الحال كأنها لم تكن، وزال مُلكه في أقلّ ما يكون، فسبحان مَن لا يزول مُلكه وبقاؤه الدائم الأبدي.

فلما بلغ الأميرَ الكبيرَ خُشْقَدَم الخبرُ قام من وقته بمَن معه من أصحابه وعساكره، وطلع إلى باب السّلسلة، واستولى على الإسطبل السلطاني، وملك قلعة الجبل أيضاً في الحال من غير مقاتل ولا مدافع، وأمر الأمير الكبير في الحال بقلع السّلاح وآلة الحرب، وسكن الأمر، وخمدت الفتنةُ كأنها لم تكن. ثم أرسل الأتابَك خُشْقَدَم في الحال جماعةً من أصحابه قبضوا على الملك المؤيد أحمد هذا من الدُّورِ السلطانية، فأمسك من غير ممانعة، وسلّم نفسه، وأُخْرِجَ من الدُّور إلى البحرة من الحوش السلطاني، وحُبس هناك بعد أن قُيِّدَ واحْتُفِظَ به. وأُمْسِك أخوه محمد أيضاً، وحُبس معه بالبَحْرَة، فَخَرَجَت والدتُهما خَوَنْد زينب المقدَّمُ ذكرها معهما، وأقامت عندهما بالبَحْرَةِ المذكُورَة، وقد عَلِمَت وعلِمَ كلُّ أحد أيضاً بأن الذي وقع لهم من زوال مُلكهم في أسرع وقت إنما هو بدَعْوَةِ مَظْلُوم غَفَلُوا عَنْهَا، لم يَغْفُل الله عنها، ولله درّ القائل: [الوافر]

أرَى الـدُّنْيَـا تَقُـولُ بِمِـلْءِ فِيهَـا حَـذارِ حَـذَارِ تَـوْبِيخي وَفَتْكِي
وَلَا يَـغْـرُرْكُـمُ مِـنِّـي ابْـتِسَـامٌ فَقَـوْلِيَ مُضْحِكٌ، وَالْفِعْـلُ مُبْكِي

قلتُ: «على قَدْرِ الصُّعُود يَكُون الهُبُوط، وكما تَدِينُ تُدَان، وما رَبُّكَ بظلّامٍ للعبيد، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمل». وكأنَّ لِسَانَ حَالِ إسكندرية قَبْلَ ذلك يقول: «كل ثانٍ لا بُدّ لَهُ مِنْ ثالِث». فالأوّل مِمّنْ كانَ فيها من السّلاطين أوْلادِ الملوك: المَلِكُ العـزيزُ ابنُ الملك الأشـرف بَرْسْبـاي، وقد خلعـه الملكُ الـظاهـر جَقْمَق، وتسلطن مكانه، ثم الملك المنصورُ عُثمَانُ ابنُ الملك الظاهر جَقْمَق، خَلَعَهُ الملكُ الأشرفُ إينَالُ، وتسلطن عوضه، وهو الثاني، فـاحتاجت الإسكنـدرية إلى ثـالث، لِيُجازى كلٌّ على فعله، فكان المؤيدُ هذا، خَلَعَهُ الملك الظّاهرُ خُشْقَدَم، وتسلطن مكانه، واستَوْلَى على جميع حواصل الملك المؤيد وذخائـره، فلم يَجِدُوا فيهـا ما كان في ظنِّهم، فطلبوا منه المالَ، فَذَكَرَ أنّهُ أصْرَفَ جميعَ ما كانَ في خِزَانَةِ والده في نفقةِ المماليك السّلطانية لما تسلطن، ولم يبقَ في الخزانة إلّا دون المائة ألف دينار.

ثم تَتَبَّعُوا حواصله وحواشيه بعد ذلك، فـأخذوا منهم زيـادة على مائـة ألف دينار، وبعضَ متاع، وصيني وقُماش. واستمرّ الملكُ المؤيّدُ محتفظاً به بالبَحْرَة إلى ما سنذكره.

وكانت مُدّة تحكّمه من يوم تسلطن إلى يوم خُلِعَ من السلطنة بالملك الظاهر خُشْقَدَم أربعةَ أشهرٍ وستّة أيام بغير تحرير، وبتحرير الأوقـات والساعـات: وخمسة أيام.

ولما نُكِبَ الملكُ المؤيدُ وخُلِعَ من السلطنة على هذا الوجه كَثُرَ أسَفُ الناس عليه إلى الغاية والنهاية؛ فإنه كان سارَ في سلطنته سيرةً حسنةً جميلةً، وَقَمَعَ أهلَ الفساد وقُطّاعَ الـطريق بجميـع إقليم مصر، وأمِنَت السُّبُـل في أيامـه أمناً زائـداً، واطمـأنّت النفـوسُ من تلك المخـاوف التي كـانت في أيـام أبيـه، وزَالت أفعـالُ الأجلاب بالكليّة مما أرْدَعَهُم في أوائل سلطنته بالإخراق وَالوعيد وأبعدهم عنه. ثم

سَلَكَ الطريق الجميلة في الرعيَّة، فعظُمَ حبُّ الناس له، وانطلقت الألسنُ له بالدعاء والابتهال سِرّاً وعلانيةً، وسُرّ بسلطنته كلُّ أحدٍ من الناس، ومالت القلوبُ إليه، لولا تَكَبُّرٌ كانَ فيه وعدمُ التفات إلى الأكابر، حسبما تقدَّم ذِكْرُه، وهذا كان أكبر الأسباب لتوَغُّرِ خواطر الأمراءِ منه، وإلّا فكان أهلاً للسلطنة بلا نِزَاع. فلو أنَّهُ سارَ مع الأمراء سيرةَ والده الأشرفِ من المَلَقِ، وأخذِ الخواطر مع إرادة الله تعالى، لدامت أيَّامُه مِقْدَارَ المواهب الإلَهية، لأنه كان ملكاً عارِفاً سَيُوساً، فطناً عالِيَ الهِمّة يقظاً، لولا ما شان سؤدده من التكبُّر، ومصاحبة الأحداث، ولله درّ القائل: [الطويل]

ومَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجاياهُ كلُّها؟ كفى المرءَ فخراً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُه

ودَامَ الملكُ المؤيدُ هذا بالبحرة من الحوش السلطاني بقلعة الجبل إلى يوم الثلاثاء حادي عشرين شهر رمضان فرسم السلطانُ الملك الظاهر خُشْقَدَم بتوجُّهِهِ وتَوَجُّه أخيه محمد إلى سجن الإسكندرية. فأُنْزِلا في باكر النهار المذكور، وأُخرجَ الملكُ المؤيدُ هذا مُقَيَّداً، وحمل على فرس، ولم يركب خلفه أحد من الأوچاقية[1] ـ كما هي عادة مَن يُحْمَل من أعيان الأمراء إلى سجن الإسكندرية ـ فنزّهُوا مقامه عن ذلك؛ وأنا أقول: لعلّ أنه ما قصدوا بذلك إجلالَهُ، فإنه ليس في القوم مَن هو أهلٌ لهذه المعاني. وإنما الملك المنصور عثمان كان لمّا أُنْزِل من القلعة إلى الإسكندرية على هذه الهيئة لم يركب خلفه أوچاقي، فظن القومُ أن العادةَ لا يركبُ خلف السلطان أوچاقي، ففعلوا بالمؤيد كذلك. ولقد سمعت هذا المعنى من جماعةٍ من أكابر الجَهَلَةِ والمَشْهُورين بالمعرفة، فلو قيل له: وأيّ سلطان أنزل من القلعة بعد خلعه من السلطنة إلى الإسكندرية على هذا الوجه؟ لما كان يسعه أن يقول رأيتُ ذلك في بلاد الچاركس ـ انتهى.

وحمل أخوه محمد أيضاً على فرس آخر بغير قيد فيما أظن، ونزل أمامه،

---

(١) الأوجاقية: واحدها أوجاقي أو أوشاقي، وهو الذي يركب الخيل للتسيير والرياضة (صبح الأعشى؛ ٥/٤٥٤).

وبين يديهما مملوكُ أبيهما قَرَاجَا الأشرفي الطويل الأعرج على بغل بقَيْد، وخلفه أوچاقي ـ على عادة الأمراء ـ بسكين. وأنا أقول: عَظُم قَرَاجَا بهذا النزول مع هؤلاء الملوك في مثل هذا اليوم، والذي أراه أنا أنه كان يتوجّه بين يدي هؤلاء ماشِياً إلى أن يصل إلى البَحْرِ، وإلاّ فهذا إجلال لقدر هذا الوضيع، وإن كان فيه ما فيه من النكد، ففيه نوع من رفع مقامه.

وسار الجميع والعساكر محتفظة بهم، وعلى أكثرهم السلاح وآلة الحرب، وجلست الناسُ بالحوانيت والطُّرُقَات والبيوت لرؤية الملك المؤيد هذا، كما هي عادة العَوَامّ وغيرهم من المصريين، وتوجهوا بهم من الصليبة إلى أن اجتازوا بالملك المؤيد وأخيه محمد على تلك الهيئة بدار أُخته شقيقته زوجة الأمير يُونُس الدَّوَادار الكبير، وهو في حياض الموت، لمرضٍ طال به أشهراً تجاه الكبش. فلما وقع بصر زوجة الأمير يُونُس على أخويها وهما في تلك الحالة العجيبة المَهولة صاحت بأعلى صوتها هي ومَن حولها من الجواري والنسوة، فقامت عيطة عظيمة من الصِّيَاح واللَّطْم والرؤوس المكشوفة، فحصل للناس من ذلك أمرٌ عظيم من بكاء وحُزْنٍ وعِبْرَة على ما أصاب هؤلاء من النَّكْبَة والهوان بعد الأمن والعِزِّ الذي لا مزيد عليه، **وما أحسن قول مَن قال في هذا المعنى: [البسيط]**

جَادَ الزَّمَانُ بِصَفْوٍ ثُمَّ كَدَّرَهُ ... هَذَا بِذَاكَ، ولا عتبٌ على الزمنِ

ودامَ سيرهم على هذه الصفة إلى أن وصلوا بهم إلى البحر بخط بولاق بساحل النّيل، فأُنزل الملك المؤيد وأخوه ومعهما قَرَاجَا المذكور في مركب واحد، وسافروا من وقتهم على الفَوْرِ إلى الإسكندرية، وقد كثر تأسُّف الناس عليهم إلى الغاية، ما خلا المماليك الظاهرية فإنهم فرحوا به لما كان فعل الملك الأشرف إينال بابن أستاذهم الملك المنصور كذلك، فجازوه بما فعلوه الآن مع ابنه الملك المؤيد هذا. قلت: هكذا فعل الدهر، يوم لك ويوم عليك.

ودام الملك المؤيد ومَن معه مسافراً في البحر إلى ثغر رشيد، فسافروا على البرّ إلى أن وصلوا إلى الإسكندرية، فسجنوا بها. واستمر الملك المؤيد مسجوناً

بقيده إلى أن استهلَّت سنةُ ست وستّين فرسم السلطان الملك الظاهر خُشْقدَم بكَسْر قَيْدِهِ فَكُسر، وتوجهت والدتُه خَوَنْدُ زينبُ إليه وسكنت عنده بالثغر ومعها ابنتها زوجةُ الأمير يُونُس بعد موته. ثم مرض ولَدُها محمد في أثناء السّنة أيَّاماً كثيرة، ومات بالثغر، ودُفِنَ به في ذي الحجة. وقبل موته ماتت ابنته بنت أشْهُرٍ، ولم يتّهم أحد لموته، لأن مرضه كان غير مرض المَتْهُومين. ولما وَقَع ذلك أرسلَت والدتُه خوند زينب تستأذن السُّلْطَان في حمل رِمَّةِ ولدها محمد المذكور من الإسكندرية إلى القاهرة لتدفنه عند أبيه الأشرف إينال، فأذِنَ لها في ذلك، فحملته بعد أشهر، وجاءت به إلى القاهرة في شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وستّين وثمانمائة، ودُفن محمد المذكور على أبيه في فسقية واحدة ـ رحمهما الله تعالى والمسلمين. ولم تحضر والدته المذكورة مع رمّة ولدها محمد، وإنما قامت عند ولدها الملك المؤيد أحمد بالإسكندرية، لمرض كان حصل للملك المؤيد أبطل بعض أعضائه، ثم عُوفِيَ بعد ذلك بمُدَّة. وحضرت بعد ذلك إلى القاهرة بطلب من السلطان بسبب المال، وصادفت وفاة الأمير يونس المؤيدي الدوادار الكبير صهره زوج أُخته بعد يوم، ثم تَزَوَّجَها الأمير كسباي الخُشْقَدَمِي الدَّوَادار الثاني، فَقَبْلَ دخولها ماتت معه.

وكان عمره وقت سلطنته نيِّفاً وثلاثين سنة، فإن مولده وأبوه نائب بغزة.

وكانت مدة سلطنة الملك المؤيَّد أحمد على مصر أربعة أشهر وأربعة أيام، مرّت أيامه كالدقائق، لسرعتها وحُسْن أوقاتها، ودام في الإسكندرية، وقد كَمُلَ له بها الآن مدّة عشر[1] سنين سواء.

ولمّا مات الظاهر خُشْقَدَم وتسلطن الملك الظاهر تَمُرْبُغا الظاهري، ففي أوّل يوم رسم بإطلاق الملك المؤيَّد أحمد من سجن الإسكندرية، ورسم له بأن يسكن

(١) لا بدّ أن يكون هذا سبق قلم من المؤلّف. فالمعروف أن أبا المحاسن توفي في الخامس من ذي الحجة سنة ٨٧٤ هـ. والمدة الفاصلة بين سفر المؤيد منفياً إلى ثغر الإسكندرية في ٢١ رمضان سنة ٨٦٥ هـ وبين وفاة المؤلّف لا تبلغ عشر سنين. هذا لو فرضنا أن أبا المحاسن استمر في كتابة تاريخه حتى آخر يوم من حياته، علماً أنه تعلّل قبل موته مدة تزيد على السنة، يرجّح أنه لم يستطع الكتابة في أثنائها. وتاريخه الذي بين أيدينا لا يتجاوز حوادث سنة ٨٧٢ هـ، وكذلك تاريخه الآخر حوادث الدهور.

في الإسكندرية في أيّ بيت شاء، وأنه يحضر صلاة الجمعة راكباً، وأرسل إليه خلعة وفرساً بقماش ذهب، فاستمرّ يركب. ولما تسلطن صهره الملك الأشرف قايتباي زاد في إكرامه، وبقي يسافر، وصاهره على ابنته الأمير يَشْبُك من مهدي الظاهري الدَّوادار الكبير، ودام[1].

وهذه السنة وهي سنة خمس وستّين وثمانمائة هي التي اتفق فيها أَنْ حكَمَ فيها ثلاثة ملوك؛ حكم الملك الأشرف إينال من أوّلها إلى نصف جمادى الأولى، وحَكَمَ ولدُه الملكُ المؤيَّد هذا من نصف جمادى الأولى المذكورة إلى تاسع عشر شهر رمضان فقط، وحكم الملك الظاهر خُشْقدَم من تاسع عشر شهر رمضان فقط إلى آخرها.

وسنذكر وفيات هذه السنة بتمامها في محلها في أول سنين سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم ـ حسبما اصطلحنا عليه في مصنّفنا هذا ـ إن شاء الله تعالى.

---

(١) توفي المؤيد أحمد في منتصف صفر ٨٩٣ هـ، ونقلت جثته من الإسكندرية إلى القاهرة ودفن عند أبيه. (الضوء اللامع: ١/٢٤٦).

ذكر سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم(١) على مصر

هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خُشْقَدَم بن عبد الله الناصري المؤيَّدي، وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك التُّرْك وأولادهم بالديار المصرية، والأوّل من الأَرْوَام(٢) بعد أن تسلطن من الچراكسة وأولادهم ثلاثة عشر ملكاً، أعني من أول دولة الظاهر بَرْقُوق وهو القائم بدولة الچراكسة ابتداء. وأما مَن سَلَفَ من ملوك التُّرك الچراكسة والأروام ففيهم اختلاف كثير، لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى. والذي تحرَّر منهم من دولة الملك الظاهر بَرْقُوق إلى يومنا هذا، فأوّل الچراكسة بَرْقُوق، وأول الأروام خُشْقَدَم، هذا وبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً، لأنَّ كلًّا منهما تسلطن في تاسع عشر شهر رمضان، فذاك ـ أعني برقوقاً ـ في سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وخُشْقَدَم هذا في سنة خمس وستّين وثمانمائة، تسلطن يوم خُلع الملك المؤيَّد أبو الفتح أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال الأجرود، في يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس وستّين وثمانمائة بعد الزوال، وهو يوم ملك القلعة من الملك المؤيَّد أحمد.

فلما كان وقت الزَّوَال طلب الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة والأعيان، وقد حضر جميع الأمراء في الإسطبل السلطاني بباب السّلسلة بالحرّاقة، وبويع بالسلطنة. وكان قد بويع(٣) بها من بكرة يوم السبت ثامن عشر شهر رمضان قبل

---

(١) ترجمته وأخباره في بدائع الزهور: ٣٧٥ ـ ٣٨٤؛ وخطط علي مبارك: ١٢٣/١؛ وحوادث الدهور: ٦٢٣ وما بعدها؛ والضوء اللامع: ١٧٥/٣؛ والأعلام: ٣٠٥/٢؛ الشذرات: ٣١٥/٧.

(٢) أضاف ابن إياس في بدائع الزهور: «هذا إذا لم يكن أيبك التركماني ولا لاجين من الروم».

(٣) المراد أن الأمراء كانوا قد اتفقوا على سلطنته قبل عزل المؤيد أحمد.

قتال الملك المؤيَّد أحمد حسبما تقدّم ذكره في ترجمة الملك المؤيَّد أحمد، ولُقّب بالملك الظاهر، وكنّي بأبي سعيد.

ولمّا تمَّ له الأمر لبس خلعة السلطنة السّواد من مبيت الحرَّاقة وركب فرس النوبة، وطلع إلى القصر السلطاني بشِعار الملك والأمراء والعساكر مشاة بين يديه، ما خلا الخليفة فإنه راكب معه، وقد حمَل القُبَّة والطيرَ على رأسه الأميرُ جَرِباش المحمدي الناصري المعروف بكُرْد أمير سلاح. وجلس على تَخْت الملك، وقبَّلت الأمراءُ والعساكر الأرضَ بين يديه، ودقّت البشائر في الوقت، فازدحمت الناسُ لتهنئته وتقبيل يديه إلى أن انتهى كلُّ أحد. ونُودِيَ في الحال بسلطنته في شوارع القاهرة، وخلع على الخليفة المستنجد بالله يوسف فوقانياً حريراً بوجهيْن أبيض وأخضر بطرز زَرْكَش، وقدَّم له فرساً بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكَش، ثم خلع على الأمير جَرِباش المحمدي أطلسيْن مُتَمَّراً وفوقانياً بوجهيْن بطرز زَرْكَش، وأنعم عليه بفرس بقماش ذهب، وهذه الخلعة لحمله القُبَّة والطيرَ على رأس السلطان، وخِلْعَة الأتابَكيّة تكون بعد ذلك، غير أن جَرِبَاش المذكور علم أنه قد صار أتابَكاً لحمله القُبَّة والطير على رأس السلطان.

ثم خلع السلطانُ على الأمير قَرْقَماس الأشرفي أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضاً عن جَرِباش.

وكانت سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم وجلوسه على تخت الملك وقت الظهر من يوم الأحد المقدّم ذكره، وكان الطالع وقت سلطنته وجلوسه على تخت الملك[١] . . .

واستمرَّ جلوس السلطان الملك الظاهر خُشْقَدَم بالقصر السلطاني من قلعة الجبل إلى الخميس، وعنده جميع الأمراء على العادة. ثم أصبح السلطان في يوم الاثنين العشرين من شهر رمضان خلع على الأمير جَرِباش المحمدي خلعة الأتابَكية، وهي كخلعته بالأمس.

---

(١) كذا في الأصل. والعبارة ناقصة كما هو واضح. والظاهر أن المؤلّف ترك تحرير ذلك إلى وقت آخر ثم فاته الأمر.

وفيه رسمَ السلطانُ بإطلاق الأميرين من سجن الإسكنـدرية، الأميـر تَنَم من عبد الرزّاق المؤيـدي أمير سـلاح كان، والأميـر قَانِي بَـاي الچاركسي الأميـر آخور الكبير كان، وتوجههما إلى ثغر دِمْيَاط بَطَّالين.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشرينه الثانية من النهار حُمل الملكُ المؤيّـد أحمدُ وأخوه محمد من قلعة الجبل إلى جهة الإسكندرية ليُحبسا بها.

قلتُ: وقبل أن نشرع في ذكر الحوادث نبدأ بالتَّعْريف بأصل الملك الظاهر خُشْقَدَم هذا وسبب ترقّيهِ إلى السلطنة فنقول:

أصله روميُّ الجنس، جَلَبَه خواجا ناصر الدين إلى الديار المصرية في حدود سنة خمس عشرة وثمانمائة، أو في أوائل سنـة ست عشرة ـ هكـذا أَمْلَى عليَّ من لفظه بعد سلطنته ـ وسنُّه يوم ذلك دون البلوغ، فاشتراهُ الملك المؤيَّد شَيْخ، وجعله كتـابيـاً[1] سنين كثيـرة، ثم أعتقـه وجعله من جملة الممـاليـك السلطانيـة، إلى أن مـات الملك المؤيّد فصار خُشْقَدَم هذا خاصكياً في دولة ولده الملك المـظفر أحمـد بن شيخ، بسفارة أغاته الأمير تَغْري بَرْدي قريب قصروه. ودام خاصكياً مدة طويلة إلى أن صار ساقياً في أوائل دولة الملك الظاهر جَقْمَق. ثم أمَّره الملك الـظاهر إمْـرَة عشرة، وجعله من جملة رؤوس النوب في حـدود سنة ست وأربعين، فـدام على ذلك إلى سنة خمسين، فأنعم عليه الملك الظاهر أيضـاً بإمـرة مائـة وتقدمـة ألف بـدمشق. واستمرّ بـدمشق إلى أن تغيّر خـاطرُ الملك الـظاهـر جَقْمَق على الأميـر البُرْدبَكي حاجب الحجَّاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذي نعتوه الناس بالصلاح، ونفاه إلى ثغر دمياط بطَّالاً، فـرسم السلطان الملك الظاهـر جَقْمَق بطلب خُشْقَـدَم هذا من مدينة دمشق، ليكون عـوضاً عن تَنِبَـك المذكـور في حجوبيـة الحجَّاب، وعلى إقطاعه أيضاً دفعة واحدة، وذلك في صفـر سنة أربـع وخمسين وثمانمـائة.

(١) أي من جملة المماليك الكتابية الذي يربّون في الطباق. ـ راجع فهرس المصطلحات.

وكان مجيء خُشْقَدَم هذا إلى الديار المصرية بسفارة الأمير تَمُرْبُغا الظاهري الدّوادار الثاني، وقيل على البذل على يد أبي الخير النحّاس. وأنعم السلطان بتقدمة خُشْقَدَم هذا التي بدمشق على الأمير عَلّان جِلِّق المؤيدي، فاستمرّ خُشْقَدَم المذكور على الحجوبية إلى أن تسلطن الملك الظاهر جَقْمَق، فخلع عليه بإمرة سلاح عوضاً عن الأمير تَنِبَك البُرْدبكي الذي كان أخذ عنه الحجوبية بعد أن وقع لتَنِبَك المذكور دورات وتنقلات، فدام على وظيفة إمرة سلاح إلى أن سافر مقدّم العساكر السلطانية إلى بلاد ابن قَرَمان. ثم عاد واستمرّ على حاله إلى أن تسلطن الملك المؤيَّد أحمد ابن الأشرف إينال، فخلع عليه باستقراره أتابَك العساكر عوضاً عن نفسه، وذلك في يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وستّين. فلم تطل أيّامه، وثار القومُ بالملك المؤيَّد أحمد وقاتلوه حتى خلعوه حسبما ذكرنا أمر الوقعة في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور».

وتسلطن الملك الظاهر خُشْقَدَم هذا. ووقع في سلطنته نادرة غريبة، وهي أن الملك الظاهر بَرْقوقاً كان أول ملوك الچراكسة بالديار المصرية ـ إن كان الملك المظفر بَيْبرسَ الجاشنكير غير چاركسي ـ وكانت سلطنة برقوق في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ولقّب بالملك الظاهر، وكانت سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم هذا في يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس وستّين وثمانمائة، فتوافقا في اللقب والشُّهرة والتاريخ والشهر، وذلك أوّل ملوك الچراكسة، وهذا أول دولة الأروام، فبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً، لأن كلًّا منهما تسلطن بعد أذان الظهر في تاسع عشر شهر رمضان ـ انتهى.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطانُ على الأمير جَانِبَك الظاهري نائب جدّة باستقراره دواداراً كبيراً بعد موت الأمير يونس.

وخلع على الأمير جَانِبَك من أمير الظريف الخازندار باستقراره دواداراً ثانياً عوضاً عن بُرْدبك الأشرفي بحكم القبض عليه، ووَلِيَ الدّوادارية الثانية عَلَى تقدمة

ألف، ولم يقع ذلك لغيره. واستقرَّ قانم طاز الأشرفي خازنداراً عوضاً عن جَانِبَك من أمير.

وفي يوم الجمعة رابع عشرينه تواترت الأخبارُ بوصول الأمير جَانَم الأشرفي نائب الشام إلى منزلة الصالحية، وأُشيع هذا الخبر إلى وقت صلاة الجمعة، فتحقّق السلطان الإشاعة، فحصل عليه من هذا الخبر أمرٌ كبير، وعظم مجيء جانم عَلَى السلطان إلى الغاية، لأن جانَم كان رُشِّح لسلطنة مصر قبل ذلك عند مجيء ولده يحيىٰ بن جانَم إلى مصر في دولة الملك المؤيد أحمد، وقد ذكرنا ذلك في وقته.

وخارت طِبَاع الملك الظاهر خُشْقَدَم، وما ذلك إلّا لعظم جَانم في النفوس، وأيضاً لكثرة خُجِدَاشيته الأشرفية، وزيادة على ذلك مَن كان كاتَبَهُ وأذعن لطاعته من أعيان الظاهرية الجقمقية.

ثم طلب السلطان الأمير جَانِبَك الدَّوادار، وكلّمه بما سمعه من مجيء جَانَم، وكان جَانِبَك قد استحال عن جانم، ومال بكليته إلى الملك الظاهر خُشقدَم، وصار من جهته ظاهراً وباطناً فهوّن جَانِبَك مجيئه عَلَى السلطان، وأخذ في التدبير، وقام وخُجْدَاشيته بنُصْرة الملك الظاهر خُشقدَم. ووقع بسبب مجيء جانم أمورٌ كثيرة وحكاياتٌ ذكرناها في تاريخنا «حوادث الدهور»، ملخصها: أن جانم أقام بالخانقاه[1] أياماً، وعاد إلى نيابة الشام ثانياً، بعد أن أمدّه السلطان بالأموال والخيول والقماش، حسبما يأتي ذكره يوم سفره[2].

(١) أي خانقاه سرياقوس بظاهر القاهرة.

(٢) ذكر ابن إياس تفصيل ذلك بقوله: «فلما بلغ الظاهر خشقدم حضور جانم بك نائب الشام اضطربت أحواله وتزايدت أوجاله، فاجتمع بالأمراء وضربوا في ذلك مشورة، فوقع الاتفاق بأن جانم يرجع إلى الشام ولا يدخل إلى مصر، وأن يكون نائب الشام على عادته. فتوجّه إليه الصاحب علاء الدين الأهناسي وصحبته خلعة بأن يكون نائباً على عادته، فتوجّه إليه في ليلة عيد الفطر، ومدّ له في الخانقاه يوم العيد مدة عظيمة، ولم يمكّن السلطان أحداً من الأمراء المقدّمين بأن يتوجّه إليه، فتوجّه إليه أمراء العشرات من الأشرفية... ثم إن السلطان أرسل إلى الأمير جانم عشرة آلاف دينار، وأنعم عليه ببرك الأمير يونس الدوادار جميعه، وصار يرضيه بكل ما يمكن، فرجع الأمير جانم إلى الشام وهو بخفّي حنين. وكان ذلك ترتيباً من الأمير جانبك نائب جدّة فإنه كان كثيل الحيل والخداع». ـ قارن أيضاً بحوادث الدهور.

وفي يوم السبت خامس عشرينه نُودي بنفقة المماليك السلطانية، في يوم السبت الآتي.

وفيه أيضاً، أنعم السلطان عَلَى عدّة من الأمراء بتقادم ألوف، وهم: الأمير أُزْبُك من طَطخ الظاهري، وبُرْدبك الظاهري الرأس نوبة الثاني، وجَانِبَك من قَجْماس الأشرفي المشدّ زيادة عَلَى إقطاعه الأول ووظيفته.

وأنعم السلطان أيضاً عَلَى جماعة من الخاصكية، لكل واحد إمرة عشرة باستحقاق وغير استحقاق، كما هي عادة أوائل الدول.

واستقرّ الأمير قايتباي المحمودي الظاهري أمير طبلخاناه وشاد الشراب خاناه، عوضاً عن جَانِبَك الأشرفي.

وأما ما جدّده الملك الظاهر خُشْقَدَم من الوظائف مثل الدّوادارية والسّقاة والسلحدارية فكثير جداً لا يدخل تحت حصر لعسر تحريره.

واستقرّ الأمير دُولَات باي النجمي مسفِّر الأمير جانَم نائب الشام، واستقر تمراز الأشرفي أحد مقدّمي الألوف بدمشق في نيابة صَفد بعد عزل خيربك النّوْروزي عنها وتوجّهه إلى دمشق مقدّم ألف، وأنعم السلطان أيضاً عَلَى تمراز المذكور بمبلغ كبير من المال وغيره.

وفي يوم الاثنين سابع عشرين رمضان استقرّ يَشْبُك البَجَاسي أحد مقدّمي الألوف بمصر في حجوبية حلب، وأنعم بتقدمته على الأمير جَانِبَك الإينالي الأشرفي المعروف بقَلْقَسِيز ـ انتقل إليها من إمرة عشرة بسفارة الأمير جَانِبَك الدَّوادار.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرينه توجّه القاضي محبّ الدين بن الشِّحنة كاتب السِّرّ إلى خانقاه سرياقوس لتحليف جانم نائب الشام المقدّم ذكرُه.

وسافر جانم في يوم الجمعة ثاني شوّال إلى محل كفالته على أقبح وجه، وسافر بعدَه تِمْراز الذي استقرَّ في نيابة صَفَد، كلّ ذلك بتدبير عظيم الدولة جَانِبَك

الدوادار، وقد انتهت إليه يوم ذلك رئاسة المماليك الظاهريّة بديار مصر.

وأما الملك الظاهر فإنه لمّا سافر جانم أخذ في مكافأة العسكر واستجلاب خواطرهم، ووجد عنده حاصلاً كبيراً من الإقطاعات، ليس ذلك مما كان في ديوان السلطان، وإنما هو إقطاعات الأجلاب مماليك الأشرف إينال، وأضاف إلى ذلك شيئاً كثيراً من الذخيرة السلطانية، ومن أوقاف الملك الأشرف إينال، وأوقاف حواشيه، حتى إنه صار يأخذ البلد العظيمة من ديوان المفرد وغيره وينعم بها على جماعة لكل واحد إمرة عشرة، وتارة ينعم بها على خمسين مملوكاً من المماليك السلطانية، وأكثر وأقل. وقاسى الملك الظاهر من طلب المماليك أموراً عظيمة وأهوالاً، ولمّا قلّ ما عنده من الضياع بالديار المصرية مَدَّ يَدَهُ إلى ضياع البلاد الشّامية، ففرَّق منها على أمراء مصر وأجنادهم ما شاء الله أن يفرِّق.

فلما كان يوم السبت ثالث شوّال شرع السلطان في تَفْرِقَة نفقة المماليك السلطانية، ففرّقت في كل يوم طبقة[1] واحدة ـ لقلّة متحصّل الخزانة الشريفة ـ لكل واحد مائة دينار، ولمَن يَسْتَخِفُّونَ به خمسون ديناراً، وبالجملة إنها فُرِّقت أقبح تفرقة، لعجز ظاهر، وقلّة موجود، ومصادرات الناس.

ولمّا كان يوم الاثنين خامس شوّال أنعم السلطان بالْخِلَعِ على جميع أمراء الألوف، وأنعم على كل واحد بفرس بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكَش، ورسم لهم بالنُّزول إلى دورهم، وكان لهم من يوم قَدِمَ جانَم نائب الشام إلى خانقاه سرياقوس مقيمين بجامع القلعة، وكذلك القضاة، فنزل الجميع إلّا الخليفة فإنه دام بقلعة الجبل إلى يوم تاريخه، وأظن ذلك صار عادة مِمَّن يَلي المُلْكَ بعده.

وفي هذه الأيام استقرّ خير بَك القَصْرَوي نائب قلعة الجبل في نيابة غزَّة بعد عزل بُرْدبَك السيفي سُودون من عبد الرحمن، ورسم السلطان أن يفرج عن الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف بَرْسْبَاي، وعن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جَقْمَق من محبسهما ببرج الإسكندرية، ورسم لهما أن يسكنا بأيّ مكان

(١) أي في كل يوم على مماليك طبقة واحدة من الطباق.

اختارا بالثغر المذكور، ورسم أيضاً بكسر قيد الملك المؤيّد أحمد بن الأشرف إينال.

وفي يوم الأربعاء سابعه ماجت مماليك الأمراء، ووقفوا في جمع كبير بالرُّمَيلة، يطلبون نفقات أستاذيهم، لينفق أستاذ كل واحد منهم في مماليكه، وكان السلطان أخَّر نفقات الأمراء إلى أن تنتهي نفقة المماليك السلطانية، وكانت العادة تفرقة النفقة على الأمراء قبل المماليك. فلما بلغ السلطان ذلك شرع في إرسال النفقة إلى الأمراء، وقد ذكرنا قدر ما أُرسل لكل واحد منهم في تاريخنا «الحوادث».

ثم في يوم الخميس ثامن شوّال استقر الأمير قانَم المؤيَّدي أمير مجلس عوضاً عن قَرْقَماس الأشرفي، بحكم انتقاله إلى إمرة سلاح قبل تاريخه، واستقرَّ الأمير بيبرس خال العزيز رأس نوبة عوضاً عن قانم، واستقرَّ يلَباي الإينالي المؤيَّدي حاجب الحجَّاب عوضاً عن بِيْبَرْس المذكور، ولبس الأمير جَانِبَك الدوادار خلْعَةَ الإنظار[1] المتعلقة بوظيفته، ونزل في موكب هائل.

ثم في يوم الأحد حادي عشره وصل الأمير تَمُرْبُغَا الظاهري الدَّوَادار الكبير ـ كان ـ من مكّة المشرّفة بطلب إلى القاهرة، وأظنه كان خرج من مكة قبل أن يأتيه الطلب، وطلع إلى القلعة، وقبّل الأرض، وخلع السلطان عليه كامِليَّة بمَقْلَب سَمُّور، ونزل إلى داره التي بناها وجدَّدها المعروفة قديماً بدار مَنْجَك. وكان الأمير جانِبَك الدَّوَادار قبل مجيء الأمير تَمُرْبُغا عظيم المماليك الظاهرية، فلما حضر تَمُرْبُغا هذا وجلس فوق الأمير جَانِبَك، لكونه كان أغَاتَه بطبقة المستجدّة أيام أستاذه، ولعظمته في النفوس وسبقه للرئاسة، صار هو عظيم المماليك الظاهرية، وركضت[2] ريح جَانِبَك قليلاً، واستمر على ذلك.

وفي يوم الأربعاء رابع عشره تسحَّب الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكُوَيْز

(١) راجع ص ١٣، حاشية (١) من هذا الجزء.
(٢) كذا. ولعلّ المراد: ركدت.

ناظر الخاصّ الشريف، بعد أن قام بالكُلَف السلطانية أتمَّ قيام، أعني بذلك عن الخلع التي خلعها السلطان في أول سلطنته، وكانت خارجة عن الحدّ كثرة، ثم عقيب ذلك خِلَع عيد الفطر بتمامها وكمالها، وبينهما مسافة يسيرة من الأيام، ولم يظهر العجز في ذلك جميعه يوماً واحداً إلى أن طلب منه السلطان من ثمن البهار مائة ألف دينار لأجل النفقة السلطانية، فعجز حينئذ وهرب. واستقرَّ عوضه في نظر الخاص القاضي شرف الدين الأنصاري، وباشر هو أيضاً أحسن مباشرة، وقام بالنفقة السلطانية هو والأمير جَانِبَك الدَّوَادار، وتَنَم رصاص أتمَّ قيام، أعني أنهم اجتهدوا في تحصيل المال من وجوه كثيرة.

هذا ما وقع للملك الظاهر خُشْقَدَم من يوم تسلطن إلى يوم تاريخه مراراً.

ومن الآن نشرع في ذكر نوادر الحوادث إلى أن تنتهي ترجمته خوفاً من الإطالة والملل فنقول:

ولمّا كان يوم الاثنين ثالث ذي القعدة استقرَّ القاضي نجم الدين يحيىٰ بن حجّي في نظر الجيش بعد أن صُرف القاضي زين الدين بن مُزْهِر عنها.

وفي يوم خامس عشر ذي القعدة عيَّن السلطان تجريدة إلى قُبْرُس نجدةً لمَن بها من العساكر الإسلامية، ثم بطل ذلك بعد أيام.

وفي يوم الخميس سابع عشرينه استقرَّ الصفوي جوهر التركماني زماماً وخازنداراً عوضاً عن لؤلؤ الأشرفي الرومي.

وفي يوم الخميس سادس عشرين ذي الحجة أمسك السلطان بالقصر السلطاني بالقلعة جماعةً من أمراء الألوف وغيرهم من الأشرفية، وهم: بِيبَرْس خال العزيز رأس نوبة النوب، وجَانِبَك من أمير الطريف الدَّوَادار الثاني وأحد أمراء الألوف، وجَانِبَك المشد أحد أمراء الألوف أيضاً.

وأمسك من أمراء الطبلخانات والعشرات جماعة أيضاً، مثل: قانَم طاز الخازندار الكبير، ونَوْروز الإسحاقي، وبَرْسْباي الأمير آخور، وكُرْتباي، ودُولات باي

سَكْسنْ، وأَبْرَك البَجْمَقْدَار، وكلُّهم عشرات إلّا قانَم طاز أمير طبلخاناه.

فلما سمعت خُجْدَاشِيتهم بذلك ثاروا، ووافقهم المماليك الأشرفية الإينالية، وجماعة من الناصرية، وتوجّهوا الجميع إلى الأمير الكبير جَرِباش المحمدي الناصري، وهو مقيم يوم ذاك بتربة الملك الظاهر برقوق التي بالصحراء، وكان في التربة في مَأْتم ابنته التي ماتت قبل تَاريخه بأيّام، واختفى جرباش المذكور منهم اختفاء ليس بذاك، فظفروا به وأخذوه، ومضوا له إلى بيت قَوْصُون[1] الذي سُدَّ بابُه الآن من الرُّميلة تجاه باب السلسلة، ومرّوا به من باب النصر من شارع القاهرة، وبين يديه جماعة من أمراء الأشرفية وَغيرهم، وَعليهم آلة الحرب، وَقد لقّبوه بالملك الناصر على لقب أستاذه الناصر فَرَج بن بَرْقوق، ولما وصلوا إلى بيت قَوْصُون أجلسوه بمقعد البيت.

وعندما جلس بالمقعد ظهر على الأشرفية وَغيرهم اختلال أمرهم لاختلاف كلمتهم من سوء آرائهم المفلوكة، ولعدم تدبيرهم، فإن الصَّواب كان جلوسه بالتربة المذكورة، إلى أن يستفحل أمرهم، وأيضاً إنهم لمّا أوصلوه إلى بيت قَوْصُون ذهب غالبهم ليتجهّز للقتال، وبقي جَرِبَاش في أُناس قليلة.

وأما الملك الظاهر خُشْقَدَم فإنه لمّا بلغ الملك الظاهر والظاهرية أمرهم طلعوا بأجمعهم إلى القلعة، وانضمّ عليهم أيضاً خلائق، لعظم شوكة السلطنة من خچداشية السلطان المؤيدية وغيرهم، وأخذوا السلطان ونزلوا به من القصر إلى مقعد الإسطبل السلطاني أعلى باب السلسلة، وعليهم السلاح، ودقّت الكوسات[2] بالقلعة، وشرعوا في القتال. وبينما هم في تناوش قتال جَرِباش، وقد رأى جَرِباش أن أَمْرَه لا ينتج منه شيء، تَدَارك فرطه، وقام من وقته، وركب وطلع إلى القلعة طائعاً إلى السلطان، وقبّل الأرض واعتذر بالإكراه، فقبل السلطان منه عذره، وفي النفس من ذلك شيء، وانهزمت الأشرفية الكبار.

---

(١) راجع ص ١٩ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) الكوسات: آلات نحاسية شبه الترس الصغير يُضْرَب بها بإيقاع معين. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

وهذا ذنب ثانٍ للأشرفية عند السلطان ـ والذنب الأول قصة خُجْدَاشِهم جانَم والثاني هذا ـ وانهزم جميع مَن كان انضم على جَرِباش المذكور، وتوجّه كلٌّ منهم إلى حال سبيله، فتجاهل السلطان عليهم، وزعم أنه قبل أعذارهم إلى أن تمّ أمرُه، فمدّ يده يمسك وينفي، ويكتب إلى التجاريد والسُّخَر، إلى أن أبادهم.

ثم في يوم الجمعة سابع عشرين ذي الحجة المذكور أخذوا الأمراء[1] الممسوكين، ونزلوا بهم إلى حبس الإسكندرية.

وفي يوم الاثنين سلخ ذي الحجة خلع السلطان على جميع أمراء الألوف، كل واحد كاملية بمقلب سَمُّور، وأنعم على الأمير تَمُرْبُغا الظاهري القادم من مكّة بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، عوضاً عن جَانِبَك المشد، بحكم حبسه، وخلع عليه باستقراره رأس نوبة النوب، عوضاً عن بِيبرس خال العزيز، وأنعم بإقطاع بِيبرس على يَلَباي المؤيَّدي الحاجب لكونه أكثر متحصلاً من إقطاعه، وأنعم بإقطاع يَلَباي على خُجْدَاشِه قاني بك المحمودي المؤيدي، أحد أمراء دمشق الألوف ـ كان ـ.

وفيه أيضاً استقرَّ الأمير جَانِبَك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكُوهيّة دواداراً ثانياً، عوَضاً عن جَانِبَك الظريف على إمرة عشرة؛ وكان جَانِبَك الظريف وليها على تقدمة ألف.

ثم استهلّت سنة ستّ وستّين وثمانمائة.

ففي يوم الأربعاء ثاني المحرّم وصل الخبرُ بأن الأمير إياساً المحمدي الناصري نائب طرابُلُس وصل من جزيرة قُبْرُس إلى ثغر دمياط بغير إذن السلطان.

وفيه نفى السلطان خير بك البهلوان، وقانَم الصغير الأشرفيين إلى البلاد الشامية، وكلاهما أمير عشرة.

وفي يوم الخميس ثالث المحرّم عيَّن السلطان مع سليمان بن عمر الهواري

---

(١) ذكر في بدائع الزهور أن عددهم بلغ نحو اثني عشر أميراً من الأشرفية.

تجريدة من المماليك السلطانية، وعليهم ثلاثة أمراء أشرفية: جَكم خال العزيز، وأَيْدَكي، ومُغُلْباي، فتأمل حال الأشرفية من الآن.

ثم في يوم الاثنين سابع المحرّم استقرّ الأمير طوخ الأبوبكري المؤيدي زَردكاشاً عوضاً عن سُنقُر قَرق شَبق الأشرفي بحكم القبض عليه، واستقرّ سُودون الظاهري الأفْرم خازنداراً كبيراً، عوضاً عن قانم طَاز، بحكم القَبض عليه أيضاً. وأنعم السلطان في هذا اليوم على جماعة كثيرة بأمريات وإقطاعات ووظائف باستحقاق وغير استحقاق، كما هي عوائد أوائل الدول.

ثم في ليلة الثلاثاء ثامن المحرّم سافر الأمير قاني باي المحمودي الظاهري المشد إلى ثغر دمياط للقبض عَلَى الأمير إياس الناصري نائب طرابُلس وإيداعه السجن، لكونه حضر من قبرُس، وترك مَنْ بها من عساكر المسلمين.

ثم عيّن السلطان جماعةً من الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار إلى سفر قُبرس، وأميرهم مُغلباي البجَاسي أتابك طرابُلس، وكان مغُلْبَاي حضر مع إياس.

وفي يوم الاثنين رابع عشَر المحرّم استقرّ قرَاجا العمري ثاني رأس نوبة وأمير مائة ومقدّم ألف بدمشق على إقطاع هيّن، وقرَاجا هذا أيضاً ممّن كان انضمّ عَلَى جَرِباش من خُجْدَاشيته، واستقرّ تنَم الحسيني الأشرفي عوضه رأس نوبة ثانياً.

وفي يوم الخميس سابع عشر المحرّم استقرّ بَرْسْباي البجاسي الأمير آخور الكبير نائب طرابُلس عوضاً عن إياس المقبوض عليه، واستقرّ عوضه في الأمير آخورية الكبرى يَلَباي المؤيدي حاجب الحجَّاب، واستقرّ في حجوبية الحجَّاب عوضه الأمير بُرْدبك الظاهري البجمقدار، وأنعم السلطانُ بإقطاع بَرْسْباي البجَاسي على قاني بك المحمودي، وأنعم بإقطاع قاني بك المحمودي على تمرباي طَطَر الناصري، وكلاهما تقدمة ألف لكن الزيادة في المتحصّل، وفرّق السلطان إقطاع تَمُرْباي طَطَر عَلَى جماعة.

وفي يوم الاثنين حادي عشرين المحرّم استقرّ الخواجَا علاء الدين علي

الصابوني ناظر الإسطبل السلطاني بعد عزل شرف الدين بن البقري وأُضيف إليه نظر الأوقاف.

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرينه وصل مُغُلْباي طاز أمير حاج المحمل بالمحمل وأمير الركب الأول تنبك الأشرفي.

وفي يوم الخميس ثاني صفر أُعيد القاضي زين الدين بن مُزهر إلى وظيفة نظر الجيش، بعد عزل القاضي نجم الدين يحيىٰ بن حجّي.

وفي يوم الثلاثاء سابع صفر وصل إلى القاهرة رأس نوبة الأمير جانم نائب الشام، ومعه تقدمة إلى السلطان ـ تسعة مماليك لا غير ـ من عند مخدومه، واعتذر عن مخدومه أنه ليس له علم بتسَحّب الأمير تمراز نائب صفَد، وأنه باقٍ على طاعة السلطان، وكان السلطان أرسل قبل تاريخه بمسك تمراز المذكور، فهرب تمراز من صفَد، وله قصة حكيناها في «حوادث الدهور».

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشره وصل أيضاً الزيني عبد القادر بن جانَم نائب الشام، يستعطف خاطر السلطان على أبيه، وكان عبد القادر حديث السنّ، وقد حضر معه الأمير قَراجا الظاهري أتابَك دمشق ليتلطّف السلطان في أمر نائب الشام. ولمّا وصل قَراجا المذكور إلى منزلة الصالحية رسم السلطان بعوده إلى دِمَشق، ومنعه من الدخول إلى مصر، ورسم لعبد القادر المذكور بالمجيء، فجاء الصبي ورُدَّ قراجا إلى الشام.

وفي هذا اليوم رسم السلطان بإحضار الأمير تَنَم من عبد الرزاق المؤيدي أمير سلاح ـ كان ـ من ثغر دِمياط، وقد رُشِّح لنيابة الشّام عوضاً عن جانم المذكور.

ثم في ليلة الخميس سادس عشر صفر المذكور سافر الأمير تَنَم من نخشايش الظاهري المعروف برصاص محتسب القاهرة إلى دمشق على النجب والخيل، ومعه جماعةٌ كثيرة من الخاصكية، مقدار ثلاثين نفراً، ليمسك الأمير جانَم نائب الشام. قلت[١]: [الطويل]

(١) الشعر لأبي العلاء المعرّي من سَقْط الزند.

أيــا دارهــا بــالخَيْف إن مــزارَهـــا قــريبٌ، ولكــن دون ذلــك أهــوالُ

ثم في يوم الأربعاء عشرينه وصل الأمير تَنَم من ثغر دِمياط، وقبَّل الأرض، وأجلسه السلطانُ فوق الأمير قَرْقَماس أمير سلاح، وخَلَع عليه.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرينه، خلع عليه بنيابة الشّام، واستقرَّ مسفِّره الأمير بِرْدبَك هجين الظاهري الأمير آخور الثاني. وخلع السلطان على الأمير قانصوه اليحياوي الظاهري بتوجّهه إلى الأمير جَانِبَك الناصري المعزل قبل تاريخه عن حجوبيّة دمشق، وعلى يده تقليده وتشريفه بنيابة صَفَد عوضاً عن تِمْراز الأشرفي.

وفي يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الأول وصل إلى القاهرة الأمير أُزْدَمُر الإبراهيمي وخُجْدَاشه قَرْقَماس، وقد كان مسافراً مع الأمير تَنَم رصاص المحتسب إلى دمشق، وأخبر أُزْدَمُر المذكور أن الأمير جانم نائب الشام خرج منها بمماليكه وحشمه بعد دخول تَنَم رصاص إلى دمشق ومراسلته، ولم يقدر تَنَم على مسكه، بل ولا على قتاله؛ وكان خروج جانم من دمشق قُبَيل العصر من يوم الأحد سادس عشرين صفر، ولم يكترث بأحد من الناس، وتوجّهه إلى جهة حسن بك بن قَرايُلُك[1].

ثم في يوم الجمعة ثاني عشرين ربيع الأول ركب السلطان من قلعة الجبر ببعض أمرائه وخاصّته، ونزل إلى بيت الأمير تَنَم المستقر في نيابة الشّام وسلَّم عليه؛ وهذا أوّل نزوله من قلعة الجبل من يوم تسلطن. ثم نزل السلطان بعد ذلك بقماش الموكب في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الآخر، وسار إلى تربته التي أنشأها

---

(١) ذكر ابن إياس في بدائع الزهور أنه لمّا رجع الأمير جانم إلى الشام أرسل السلطان خشقدم إلى نائب قلعة الشام مراسيم في الدسّ (أي خفية) بأن يقبض على جانم نائب الشام، فرمى عليه بالمدافع وهو جالس في دار السعادة (وهي مقرّ نائب الشام عادة) فهرب وقام من وقته وأخذ عياله وأولاده وخرج من الشام هارباً. فلما خرج نهبوا دار السعادة وأخذوا جميع بركه وقماشه. فلما خرج من الشام توجّه إلى نحو مدينة الرّها واستمر في هجاج وعصيان. فلما جاءت الأخبار إلى القاهرة بذلك عيّن له السلطان تجريدة عليها الأمير جانبك نائب جدّة. ـ وحسن بن قرايلك المذكور هو أحد أمراء أسرة آق قيونلو (أصحاب الشاة البيضاء) التركمان الذين حكموا ديار بكر. ـ راجع ص ٨٥ من هذا الجزء، حاشية (٢).

بالصحراء بالقرب من قبّة النصر، وخلع على البدري حسن بن الطولوني معلِّم[١] السلطان و[على] غيره، ثم توجّه إلى مطعم[٢] الطير، وجلس به واصطادَ أميرُ شكار[٣] بين يديه، ثم ركب وعاد إلى القلعة بعد أن شقَّ القاهرة، ودخل في عوده إلى بيت إنيه[٤] الأمير تنبك الأشرفي المعلم.

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره استقرَّ شرفُ الدين يحيىٰ بن الصنيعة أحد الكتّاب وزيراً بالديار المصرية، بعد عزل علي بن الأَهْناسي.

وفي يوم الاثنين أول جمادى الأولى أنعم السلطان على الأمير بُرْدبَك هجين الظاهري أمير آخور ثانٍ بإمرة مائة وتقدمة ألف بعد موت تَمُرْباي طَطَر، وأنعم بإقطاع بُرْدبَك المذكور على مُغُلْباي طاز المؤيدي، وأنعم بإقطاع مُغُلْباي على سودون الأَفرَم الظاهري الخازندار، وأنعم بإقطاع سُودون الأَفرم على سُودون البُرْدبَكي المؤيَّدي الفقيه.

وفي يوم السبت سادس جمادى الأولى وصل تَنَم رصاص.

ثم في يوم السبت استقر إينال الأشقر الظاهري والي القاهرة في نيابة مَلَطْية بعد موت قانِي بَاي الجَكَمي.

وفي يوم الخميس ثامن عشره استقرَّ الصارمي إبراهيم بن بَيْغوت نائب قلعة دمشق بعد موت سُودون قَنْدُورَه التركماني اليَشْبُكي بحكم انتقاله إلى تقدمة ألف بدمشق.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرين جمادى الأولى المذكورة خرج الأمير تَنَم نائب الشّام إلى محل كفالته.

---

(١) المراد بالمعلم هنا الذي كان يدرّب السلطان على ألعاب الفروسية مثل لعب الرمح وسوق البرجاس والكرة وغيرها.

(٢) راجع فهرس الأماكن.

(٣) أمير شكار: هو الذي يشرف على طيور الصيد السلطانية ومتعلقاتها.

(٤) الإني: هو مملوك صغير السنّ يربىٰ في عهدة وإشراف مملوك كبير، فيكون الكبير بمثابة الوالد له. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

وفي آخر هذا الشهر وصل قاصد حسن بك بن علي بك بن قرايُلُك [صاحب آمد] وأخبر السلطان أن الأمير جانَم نائب الشام جاء إليه واستشفع عند السلطان له.

وفي هذا الشهر ترادفت الأخبار بأن جانَم نائب الشام أرسل يدعو تركمان الطاعة[1] إلى موافقته، وأن حسن بك المقدّم ذكره دعا لجانَم على منابر ديار بكر.

ثم في يوم الأربعاء سابع شهر رجب نُودي بشوارع القاهرة بالزينة لدوران المحمل، ونُودِي أيضاً بأن أحداً من المماليك ولا غيرهم لا يحمل سلاحاً ولا عصاة في الليل، فدامت الزينة إلى أن انتهى دوران المحمل في يوم الاثنين ثاني عشره، ولم يحدث إلّا الخير والسلامة. وكان معلِّم الرماحة[2] في هذه السنة الأمير قايِتْبَاي المحمودي الظاهري المشد، والباشات[3] الأربعة أمراء عشرات: بَرْقُوق الناصري، ثم طُومَان باي الظاهري، ثم جَانِبَك الأَبْلَق الظاهري، ثم بَرْسْباي قَرا الظاهري.

ثم في يوم الخميس خامس عشره عَيَّن السلطان تجريدة إلى الوجه القبلي - أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية - ومقدّم العسكر الأمير جَانِبَك الدَّوادار، وصحبته من أمراء الألوف جَانِبَك قلقسيز الأشرفي، ومن أمراء الطبلخانات والعشرات نحو عشرين أميراً، وخرجوا بسرعة في ليلة السبت سابع عشر رجب.

وفي يوم الجمعة سادس عشره - الموافق لحادي عشرين برمودة - لبس

---

(١) أي قبائل التركمان الداخلة في طاعة السلطة المملوكية.

(٢) معلّم الرماحة: هو كبير الرمّاحة الذين يلعبون بالرماح أمام المحمل في استعراض دوران محمل الحاج السنوي، حيث يستعرضون ألعابهم وفنونهم. وكان يسير أيضاً أمام المحمل جماعة أخرى من المماليك متنكّرين بأزياء مختلفة ويقومون بحركات مضحكة يسمّون عفاريت المحمل. وقد ورد في غير مكان من هذا الكتاب أن هؤلاء العفاريت كانوا يعتدون على الناس والأعيان في كثير الأحيان مما كان يدفع الكثيرين إلى الإحجام عن مشاهدة هذا الاستعراض تفادياً لشرّ هؤلاء وحفظاً لكراماتهم. وهذا ما جعل السلطان يأمر في بعض الأحيان بعدم خروج العفاريت ومنعهم من المشاركة في الاحتفال.

(٣) الباشات الأربعة: هم مساعدو أمير المحمل أو أمير الركب أو أمير الحاج.

السلطان القماش الأبيض البعلبكي المُعدّ لأيام الصيف، وابتدأ في يوم السبت سابع عشره يلعب الكرة على العادة في كل سنة.

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عاد الأمير جَانِبَك الدّوادار بمَن كان معه من بلاد الصعيد إلى الجيزة، وطلع إلى السلطان من الغد بغير طائل ولا حرب، وخلع السلطان عليه.

وفي ليلة الثلاثاء ثامن عشر شعبان سافرت خَوَنْد الأحمدية زوجة السلطان في محفّة إلى ناحِية طَنْدِتَا[1] بالغربية لزيارة سيدي أحمد البدوي[2].

وفي يوم الجمعة ثامن عشرينه، سافرت الغزاة المعينون قبل تاريخه إلى قبْرُس - انتهى.

وفي يوم الأحد ثامن شهر رمضان ورد الخبر بموت حاج إينال اليَشْبكي نائب حَلَب، فخلع السلطان في يوم الخميس ثاني عشره على الأمير قَايتباي شاد الشراب خاناه بتوجّهه إلى حماة، وعلى يده تقليد جَانِبَك التاجي المؤيدي نائب حماة وتشريفه بنيابة حَلب، عِوضاً عن الحاج إينال.

واستقرَّ مُغُلْباي طاز مُسَفِّر الأمير جَانِبَك النَّاصري نائب صفد باستقراره في نيابة حماة.

واستقرَّ في نيابة صفد خيربَك القصروي نائب غـزَّة، وتوجّه بتقليده الأمير تَمُرْباي الظاهري السلاحدار.

---

(١) هي المعروفة اليوم بمدينة طنطا عاصمة محافظة الغربية.

(٢) هو السيد أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني أبو العباس البدوي المتصوّف صاحب الشُّهرة في الديار المصرية. أصله من المغرب ودخل مصر في أيام الظاهر بيبرس فخرج لاستقباله هو وعسكره وأنزله في دار ضيافته. وقد عظم شأنه في مصر فانتسب إلى طريقته الصُّوفية جمهور كبير من بينهم الظاهر بيبرس نفسه. وتوفي سنة ٦٧٥ هـ ودفن في طنطا حيث تُقام في كل عام سوق عظيمة يفد إليها الناس من جميع أنحاء القطر المصري احتفاءً بمولده. (الأعلام: ١/ ١٧٥). - وترجم له المؤلّف في النجوم الزاهرة: وفيات سنة ٦٧٥ هـ في الجزء السابع من هذا الكتاب.

واسْتقرّ في نيابة غزّة أتابك حلب شـاد بَك الصّـارمي، ومُسَفِّره طـومان بـاي الظاهري.

واستقرّ يشْبك البجاسي حاجبُ حجّاب حلب أتابكاً بها عوضاً عن شـاد بَك الصّارمي.

واستقرّ تغري بَرْدي بن يونُس نائب قلعة حَلب في حجوبية حلبَ عوضاً عن يَشْبُك البجاسي.

واستقرّ كَمَشْبُغَا السيفي نخْشباي أحد المماليك السلطانية بمصر في نيابة قلعة حلب دفعة واحدة، مِنْ قبل أن تسبق له رئاسَة، مع عدم أهليّة أيضاً، وكانت ولايته بالمال ـ ولا قوة إلّا بالله.

وفي يوم الأربعاء تاسع شوّال خرجت تجريدة إلى البحيرة وعليها ثلاثة أمراء من أمراء الألوف: قَرْقماس أمير سلاح، ويَشبك الفقيه، وبرْدبك هجين الظاهري، ومن أمراء الطبلخانات: خُشكلدي القوامي الناصري، وتَنَم الحسيني الأشرفي ثاني رأس نوبة، ومن أمـراء العشرات: قـاني باي السيفي يَشبـك بن أَزْدَمُر، وقلمـطاي الإسْحاقي، وقَنِبَك الصغير الأشرفيان، وَسنطباي قرا الظاهري.

وفيه ورد الخبرُ بأن جانَم نائب الشام كان عدّى الفرات في جمع كثيـر من المماليك وتركمان حسن بك بن قرايُلك، وسار بعساكره حتى وصل إلى تـل باشـر من أعمال حلب، وتجهّز نائب حلب لقتاله، ففي الحال عيّن السلطان تجريدةً إلى حلب لقتال جانم: أربعمائة مملوك، ثم أضاف إليهم مائتين، وعليهم أربعة أمراء من مقدّمي الألوف، وهـم: جَانِبَك الظاهري الدَّوادار الكبير، ويلباي المؤيدي الأمير آخور الكبير، وأزبك الظاهري، وجَانِبَك قَلقسيز الأشرفي، وثلاثـة عشر أميـراً من أمراء الطبلخانات والعشرات.

ثم نُودِي في يوم الثلاثاء خامس عشر شوّال بالنفقة فيمَن عُيِّن إلى التجريدة المذكورة.

ثم أصبح من الغد في يوم الأربعاء رسم بإبطال التجريدة، وسبب ذلك ورود

الخبر من نائب حلب بعود جانم على أقبح وجه، وأن جماعة كثيرة من مماليكه فارقوه، وقَدِموا إلى مدينة حلب.

وأمْرُ رجوع جانَم أنه كان لما وصل إلى تَلّ باشر وقع بينه وبين تركمان حسن بك الذين كانوا معه كلامٌ طويل، ذكرناه في «الحوادث»، فتركوه وعادوا، فتلاشى أمر جانَم لذلك وعاد.

وفي يوم الخميس سابع عشر شوّال خرج الأمير بُرْدبَك الظاهري أمير حاج المحمل بالمحمل إلى بركة الحاج دفعة واحدة، وكانت العادة قديماً أن ينزل بالرَّيْدَانية، ثم يرحل إلى بركة الحاج؛ وكان أمير الركب الأول في هذه السنة الناصري محمد ابن الأتابَك جَرِباش المحمدي.

وفي يوم الاثنين حادي عشرينه استقرَّ القاضي محبّ الدين بن الشِّحْنَة قاضي قضاةِ الحنفية بالديار المصرية بعد استعفاء شيخ الإسلام سعد الدين بن الدَّيْري، لضعف بدنه وكبر سنّه، واستقرّ أخوه القاضي برهان الدين إبراهيم بن الدَّيْري كاتبَ السِّرِّ الشريف عوضاً عن قاضي القضاة محبّ الدين بن الشِّحْنَة المقدّم ذكره.

وفي يوم الخميس رابع عشرينه استقرّ القاضي نور الدين بن الإنبابي عينُ موقعي الدست[١] الشريف في نيابة كتابة السِّرِّ، بعد عزل لسان الدين حفيد القاضي محبّ الدين بن الشِّحْنَة؛ فحينئذ أُعطيَ القوسُ لراميه، والقلمُ لباريه، فإنه حقّ لهذه الوظيفة وأهل لها.

ثم في رابع ذي القعدة تُوفيت بنت خَونْد الأحمدية زوجة السّلطان، وهي بنت أُبْرَك الجَكَمي، أحد أمراء دمشق، وقد تزوّجها الزيني عبد الرحيم ابن قاضي القضاة بدر الدين العَيْني، فولدت منه الشهابي أحمد[٢] بن العَيْني الآتي ذكره في محله.

---

(١) موقّعوا الدست الشريف: هم الذين يكتبون بين يدي السلطان ويوقّعون على ما يكتبون، بخلاف كتّاب الدرج الذين لا يوقّعون. ـ راجع فهرس المصطلحات: كاتب الدست، كاتب الدرج.

(٢) ذكر المؤلف في حوادث الدهور أن السلطان تولى تربيته بعد وفاة والده. وقد دفنت ابنة زوجته المذكورة في تربة السلطان التي أنشأها بالصحراء عند قبّة النصر.

وفي يوم الاثنين سادس ذي القعدة عزل السلطان القاضي برهان الدين إبراهيم بن الدِّيْري عن وظيفة كتابة السِّر بعد أن باشرها خمسة عشر يوماً؛ وكان سبب عزله أنه لمّا ماتت بنت خَوَنْد المقدّم ذكرها في يوم السبت قال ابن الديري: ورد في الأخبار المنقولة عن الأفاضل أنه ما خرج من بيت ميّتٌ في يوم السبت إلّا وتبعه اثنان من أكابر ذلك البيت[1]. وشغرت كتابة السِّرِّ بعده مُدّةً، وباشر الوظيفة القاضي نُور الدين الإنبابي نائب كاتب السِّرِّ.

وفي يوم الخميس سادس عشره ورد الخبر من البحيرة بأن العسكر واقَعَ عرب لَبِيد وقُتل من عسكر السلطان أميران: تَنِبَك الصغير الأشرفي، وسَنْطَباي قَرَا الظاهري، وجماعة من المماليك. وسبب قتلهم أمرٌ ذكرناه في «الحوادث»، إذ هو محل إطناب في الواقع؛ وحاصل الخبر أن الذين قتلوا هؤلاء هم عرب الطاعة في الغوغاء لا عرب لَبيد.

ثم في يوم الاثنين عشرين من ذي القعدة خلع السلطان على القاضي زين الدين أبي بكر بن مُزهِر ناظر الجيش باستقراره في وظيفة كتابة السِّرِّ مسؤولاً في ذلك، مرغوباً في ولايته، واستقرَّ القاضي تاج الدين عبد الله بن المَقسي في وظيفة نظر الجيش عوضاً عنه.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين ذي الحجة توعَّك السلطان في بدنه من إسهال حصل له، ولم ينقطع عن صلاة الجمعة بجامع القلعة الناصري مع الأمراء على العادة، واستمرَّ به الإسهال إلى يوم سادس عشرينه فخرج من الدهيشة إلى الحوش، وجلس على الدكّة. وحضرت أكابرُ الأمراء الخدمةَ بالحوش المذكور، وعلى وجه السلطان أثر الضعف، كلّ ذلك وهو ملازم للفراش غير أنه يتجلَّد، ويجلس على الفرش بقاعة البَيْسَريَّة، والناس تدخل إليه بها للخدمة على العادة.

وفي هذا اليوم حضر إلى القاهرة مبشّر الحاج، وهو غير تركي، رجل من

(١) أضاف المؤلّف في حوادث الدهور: «فبلغ السلطان مقالته فعلم مقصوده بها، وعزله عن الوظيفة وأبغضه».

العرب، وهذا غير العادة، وما ذاك إلّا مخافة السُّبل، وعدم الأمن بالطريق، فأعاب النّاسُ ذلك على أرباب المملكة[١].

وفي هذه السنة أخذ حسن بك بن علي بك بن قَرَايُلُك مدينة حصن كَيفا، ثم أخذ قلعتها في ذي القعدة بعد ما حاصرها سبعة أشهر، وانقطع من الحصن مُلك الأكراد الأيوبية، بعدما ملكوها أكثر من مائتي سنة، وذلك بعد قتل صاحبها الملك خلف[٢] بيد بعض أقاربه، فاختلف الأكراد فيما بينهم، فوجد حسن بك بذلك فرصة في أخذها، فحاصرها حتى أخذها. وقوي أمر حسن بأخذها، فإنه أخذ بعد ذلك عدّة قلاع ومدن من أعمال ديار بكر من تعلّقات الحصن وغيره.

واستهلّت سنة سبع وستّين وثمانمائة.

وجميع نوّاب البلاد الشامية مقيمون بحَلَب مخافة هجوم جانم عليها، والسلطان ملازم الفراش. فلما كان أوّل المحرّم دقّت البشائر لعافية السلطان ثلاثة أيام.

---

(١) في هذا الخبر الصغير أكثر من إشارة هامّة: فهو يشير من جهة إلى عدم استتباب الأمن في طريق الحاج بسبب تعديات العربان وقطعهم الطرقات. ومن جهة ثانية يشير إلى الدور الذي كانت السلطات المملوكية تحرص على أدائه والتمسّك به، وهو رعاية الشعائر الدينية ومنها الحجّ بجميع متعلقاته من كسوة الكعبة وحماية قوافل الحجيج وحتى تنظيم أمورهم أثناء إقامتهم في مكة. وفي أدائها لهذا الدور كانت السلطة تحرص على أن يقوم بذلك عناصر مملوكية من غير العرب أو أهل البلاد الأصليين. فالذين كانوا يحملون كسوة الكعبة، وأمير الحاج ومساعدوه من الباشات وأُمراء الركبان كانوا جميعاً عناصر مملوكية. وكذلك كان السلطان يعيّن أميراً مملوكياً على المماليك الذين كانوا يرغبون بالمجاورة في مكة يسمى أمير المماليك المجاورين، كان يبعث به من القاهرة ويستبدل بين الحين والآخر. ـ ومبشّر الحاج هو الرسول المملوكي الذي كان يرجع عادة إلى القاهرة يبشّر بوصول الحجيج سالماً إلى مكة. وإشارة الكاتب إلى أن الناس عابوا على أرباب المملكة أن يكون مبشّر الحاج في تلك السنة من غير المماليك تؤكّد ملاحظاتنا أعلاه.

(٢) هو الملك العادل الأيوبي، خلف بن محمد بن سليمان بن أحمد، الحادي عشر من ملوك حصن كيفا الأيوبيين في ديار بكر. استولى على حصن كيفا بعد ثورة قام بها، واستمر نحو سبع سنين. وثار عليه بعض أبناء عمّه فقتلوه. (الأعلام: ٣١١/٢، وشذرات الذهب: ٣٠٦/٧؛ والضوء اللامع: ١٨٤/٣).

وفي يوم الخميس سادس المحرّم خلع السلطان على الأطباء وعلى السُّقاة وعلى مَن له عادة.

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشره وصل أمير الركب الأول الناصري محمد ابن الأتابك جَرِباش، ودخل أميرُ حاج المحمل الأمير بُرْدبَك من الغد. ومن غريب الاتفاق أنّي سألتُ الناصريَّ محمدَ ابن الأتابَك جَرِباش: «متى بلغكم مرضُ السلطان؟» فقال: «في المدينة الشّريفة»، فحسبنا الأيام، فكان يوم سمعوا فيه خبر مرضه قبل أن يمرض بيوم أو يومين.

وفي يوم الخميس حادي عشر صفر استقرّ عليٌّ بن الأهْناسي في وظيفتي الوَزَر والخاصّ[1]، ولبس في هذا اليوم وظيفة الخاص عِوَضاً عن القاضي شرف الدين موسى الأنصاري، والوَزَر عوضاً عن شرف الدين يحيىٰ بن صَنيعة.

وفي يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الأوّل استقرَّ القاضي عَلَمُ الدين بن جلود كاتبَ المماليك السلطانية.

وفي يوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوي بالحوش من قلعة الجبل، على العادة من كل سنة، وأصبح من الغد عمل مولداً آخر لزوجته خَوَنْد الأحمدية.

ثم في يوم السبت سادس عشرينه، استقرَّ الزيني قاسم الكاشف أستاداراً، بعد أن اختفى الأمير زين الدين الأستادار.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر ورد الخبر من جَانِبَك التّاجي نائب حَلَب أن جانَم نائب الشّام قُتِل بمدينة الرُّها، وقد اختلف في قتله على أقاويل ذكرناها في «الحوادث».

وفي يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى استقرّ بلاط دوادارُ الحاج إينال في نيابة صَفَد دفعةً واحدة من غير تدريج ـ ببذل المال ـ عوضاً عن خير بَك القَصْرَوي،

(١) أي نظر الخاص. وهذه الوظيفة تتعلق بإدارة شؤون أملاك السلطان الخاصة.

وتوجّه خيربَك على إمْرَة مائة وتقدمة ألف بدمشق عوضاً عن يَشْبُك آس قَلَق المؤيَّدي، بحكم استقرار يَشْبُك المذكور في نيابة غزَّة بعد موت شاد بك الصارمي، ثم تغيَّر ذلك بعد أيام، لامتناع يَشْبُك من نيابة غزَّة، واستمرّ يَشْبك على إمرته بدمشق، فصار خيربَك بَطّالاً بالشام. ثم رسم السلطان أن يستقر شاد بك الجُلُبّاني في نيابة غزّة بعشرة آلاف دينار، وإن امتنع شاد بك من نيابة غزَّة حُمل إلى قلعة دمشق، ويؤخذ منه العشرة آلاف دينار.

وفيه استقرَّ أُزْدَمُر الإبراهيمي مُسَفِّر بلاط نائب صَفَد، واستقرَّ سُودون البُرْدبَكِّي الفقيه المؤيّدي مُسَفِّراً لمَن يستقر في نيابة غزَّة.

ثم في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة استقرَّ الصاحب شمس الدين منصور أستاداراً عوضاً عن قاسم الكاشف.

وفي يوم السبت رابع عشره رسم السلطان بعزل إينال الأشقر عن نيابة مَلَطْيَة بالأمير يَشْبك البَجَاسي أتابك حلب، واستقرَّ إينالُ الأشقرُ أتابك حلب عوضه.

وفي سلخ هذا الشهر سافرت خَوَنْد الأحمدية زوجة السلطان إلى زيارة الشيخ أحمد البدوي.

وفي يوم الاثنين أول شهر رجب سافرت الغزاة في بحر النيل إلى ثغر دِمْياط، ليتوجّهوا من الثغر إلى جزيرة قُبْرُس، وكان على هذه الغزاة الأمير بُرْدبك الظاهري حاجب الحجَّاب، والأمير جَانِبَك قَلْقَسيز الأشرفي، واثنا عشر أميراً آخر، هم: بردبك التاجي، وقَانْصُوَه المحمدي، وقَانصوه الساقي، ويَشْبُك الأشقر، ثم خير بك من حديد، وقَلْطَبَاي، وكلهم أشرفية بَرْسْبائية، ثم تَنَم الفقيه المؤيّدي، ثم يَشْبك القرْمي، وتَمُرْباي السلاح دار، وقَانْصوه، وهؤلاء الثلاثة ظاهرية جَقْمَقِيَّة، ثم من السّيفيّة مُغُلْباي الجَقْمقي، وتَنِبك السَّيفي جَانِبَك النور، ونحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية وهذا خلاف المطوّعة والخدم، وأرباب الصنائع وغيرهم.

وفيه ظهر الأميرُ زين الدين، وطلع إلى السلطان، ولبس كامليّة، واستقرَّ أستاداراً على عادته، بعد عزل منصور والتَّرْسيم عليه.

وفي يوم الاثنين خامس عشره أُدير المحمل على العادة.

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره استقرَّ الأمير جَكَم الأشرفي خال الملك العزيز في نيابة غزَّة، بعدما شغرت مدة طويلة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشرين رجب استقرَّ بدر الدين حسين بن الصواف قاضي الحنفية بالديار المصرية، عوضاً عن قاضي القضاة محبّ الدين بن الشحنة بحكم عزله.

وفيه جهّز السلطان تجريدة إلى البحيرة عليها أميران من أمراء الألوف، وهما جَانِبَك الناصري المرتد، وقاني باي المحمودي المؤيَّدي، وجماعة أُخَر من أمراء الطبلخانات والعشرات.

وفيه ثارت مماليك السلطان الأَجْلاب عليه، ومنعوا أرباب الدَّولة والأمراء وغيرهم من الطلوع إلى القلعة للخدمة السلطانية، وضربوا الأمير جوهراً مقدّم المماليك، وهجموا على سُودون القَصْرَوي نائب القلعة، ثم بطلت الفتنة، لأمر حكيناه في «الحوادث».

وفي يوم الخميس خامس عشر شهر رمضان استقرَّ الزَّيْني مِثْقال الظاهري، المعروف بمِثْقال الحبشي، نائب مقدّم المماليك، بعد عزل صندل الظاهري بحكم عزله.

وفي ليلة السبت ثامن شوّال تَسَحَّب عَلي بن الأَهْناسي، وشغرت عنه وظيفتا الخاص والوَزَر، فاستقرّ عوضه في الوَزَر الصاحب مجد الدين بن البقري، وفي الخاص القاضي تاج الدين بن المَقسي، مضافاً للجيش.

وفي يوم الاثنين سابع عشره خرج الأمير بُرْدبك هجين الظاهري أمير حاج المحمل بالمحمل إلى بِرْكَة الحاج، وأمير الركب الأول الشهابي أحمد بن الأتابَك تِنِبَك.

وفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة أُعيد قاضي القضاة علم الدين

صالح البُلْقيني لمنصب القضاء، بعد عزل قاضي القضاة شرف الدين المنّاوي.

وفي ليلة الجمعة سادس عشرين ذي القعدة عمل عظيم الدولة الأمير جَانِبَك الظاهري الدَّوادار وليمةً عظيمة بالقُبَّة التي بناها تجاه جزيرة الروضة، وقد احتفل لهذه الوليمة احتفالاً عظيماً وحضرها جميع أعيان الدولة بأسرهم، ما خلا بعض أمراء الألوف، لعدم طلبهم، وقد حكينا أمر هذه الوليمة في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» ومن عظم هذه الوليمة لهج الناسُ بأنها تَمَامُ سَعْدِه. فلما كان يوم الثلاثاء أوّل ذي الحجة قُتل الأمير جَانِبَك المذكور بقلعة الجبل، داخل باب القُلَّة، تجاه باب الجامع الناصري الشرقي في الغلس قبل تباين الوجوه، وقُتل معه خُچدَاشُه الأمير تَنَم رصاص الظاهري محتسب القاهرة وأحدُ أمراء الطبلخانات، وكان قتلهما بيد المماليك الأجْلاب الذين أنشأهم الملك الظاهر خُشْقَدَم.

ولمّا أن طلع النهارُ المذكور قَبَضَ السلطانُ في الحال على ستّة أمراء من الظاهرية، وهم: سُودون الشمسي الأمير آخور الثاني، وقانصوه اليَحْياوي، وأُزْدَمُر، وطُومان بَاي، ودَمُرداش، وتَغْري بَرْدي طَطَر، والجميع رؤوس نُوَب، فحمل سُودون البَرْقي من الغد إلى سجن الإسكندرية، وأُطلق طومَان باي وأزْدَمُر ودَمُرْداش، وأُخرج قانصوه وتَغْري بَرْدي إلى البلاد الشامية. واضطرب لهذه الواقعة أمور المملكة، وتخوَّف كلُّ أحدٍ على نفسه، ويأبى الله إلاّ ما أراد.

وفي يوم الاثنين سابع ذي الحجّة استقرّ يَشْبُك من سلمان شاه المؤيّدي الفقيه دواداراً كبيراً، بعد قتل الأمير جَانِبَك، فولي يَشْبُك وظيفته، ولم يلِ مجده ولا ثناءه ولا همّته ولا حرمته ولا شهامته ولا عظمته، ولقد كان به تجمّل في الزمان، ولا قوة إلاّ بالله.

واستقرّ سُودون البُردبَكي المؤيَّدي في حِسْبة القاهرة، عوضاً عن تَنَم رصاص بعد قتله أيضاً. واستقرّ نانق الظاهري أمير آخور ثانياً عوضاً عن سُودون الشمسي، بحكم حبسه.

وفي يوم السبت ثالث عشره استقرَّ المعلّم محمد البِباوي ـ أحمد معاملي اللحم ـ ناظر الدولة دفعة واحدة، وترك زيَّ الزّفورية[1] السوقة، ولبس زيّ المباشرين الكتّاب، ولبس خُفّاً ومِهمازاً، وركب فرساً، وهو أُميٌّ لا يحسم القراءة ولا الكتابة، فكانت ولايته لهذه الوظيفة من أقبح ما وقع في الدولة التركية بالديار المصرية. وقد استوعبنا من حال البِباوي هذا نبذة كبيرة في تاريخنا «الحوادث»، لا سيما لمّا وَلِيَ الوزارة، فكان ذلك أدهى وأمرّ. وبالجملة إن ولاية البِباوي للوَزَر كان فيها عارٌ على مملكة مصر إلى يوم القيامة.

وفي صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرين ذي الحجة أمسك السلطان أربعة أمراء من أكابر أمراء الظاهرية بالقصر السلطاني؛ وكان الذي تولّى قبضهم جماعة أيضاً من المماليك الأجْلاب. وحبسوا بالبرج من قلعة الجبل، وقيدوا إلى الرابعة من النهار المذكور، وحملوا على البِغال على العادة إلى سجن الإسكندرية. والأمراء المذكورون أعظمهم تَمُرْبُغا الظاهري رأس نوبة النوب، وأُزْبك من طَطَخ الظاهري أحد مقدَّمي الألوف، وبَرْقوق الناصري ثم الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، وقاني بَاي الساقي الظاهري أيضاً أحد أمراء العشرات ورأس نوبة. ولمّا انفضّ الموكب منع السلطانُ الأمراءَ من النزول إلى دورهم، ورسم بإقامتهم بالحوش السلطاني مخافة أن يحدث منهم أمر لا سيما ممّن بقي من أمراء الظاهرية. ولهج الناس بزوال الظاهرية، وتهيأ مَن بقي منهم وأوصى، وكثرت المقالة بمصر، وأرجف بالركوب والفتنة. واستمرَّ الأمراء بالحوش جلوساً يومهم كله، إلى أن دخلت ليلة الثلاثاء تاسع عشرين ذي الحجة، ولم يتحرّك أحد بحركة، وقد عصم الخوفُ الناسَ جميعاً، لأن السلطان صار يخاف من وثوب الظاهرية عليه، والظاهرية تخاف من قبض السلطان عليهم، والناس خائفون من الفتنة، هذا والهرج موجود بين الناس.

فلما كان بعد صلاة عشاء الآخرة بلغ السلطان أن مماليكه الأَجْلاب الذين

(١) أي الزيّ الخاصّ بالقصّابين. وهو القميص الأزرق، والركوب على بغل بنصف رحل بسلخة خروف، كما سيأتي في ترجمته في وفيات سنة ٨٦٩ هـ.

ملكهم من مماليك الملك الأشرف إينال، وأجرى عليهم العِتْقَ وقرَّبهم وجعلهم خاصكية، وهم الذين قتلوا جَانِبَك الدّوادار وتَنَم رصاص، وهم أيضاً الذين تولّوا قبض الأمراء الأربعة، قد اتفقوا مع بقية خُجدَاشيتهم على قتل السلطان في هذه الليلة، ثم على قتل جميع الأمراء بالحوش السلطاني، ما خلا واحداً منهم، يبقوه ليسلطنوه عوضاً عن أستاذهم الملك الظاهر خُشْقَدَم، ثم يصير بعد ذلك أمر المملكة بيدهم. فلم يكذب السلطان هذا الخبر، وحارَ في نفسه كيف يفعل، وضاق عليه فضاءُ الأرض، لكون الذي طرقه إنما هو من مماليكه، وهم الذين يستعِزُّ بهم على غيرهم من جنده، فلم يجد بُدّاً من الاعتذار مع الظاهرية، وأن يصطلح معهم، ويعتذر إليهم في الليل، ويُطَيِّب خاطرهم. فأرسل مَنْ طلبَ الأمير قايتْباي الظاهري شاد الشراب خاناه في الليلة المذكورة، فحضر هو وجماعة كثيرة من خجدَاشِيته وأصحابه، وطلع من باب السلسلة إلى الحوش السلطاني راكباً، هو وجميع مَن حضر معه، وكانوا خلائق، ودخل قايتْبَاي إلى السلطان بقاعة الدهيشة، فقام إليه السلطان وعانقه واعتذر إليه، وأمر في الحال بإحضار خُجْدَاشيته الذين أرسلهم إلى سجن الإسكندرية. وطلع النهار فخرج السلطان من القاعة إلى مقعد البَحْرَة بالحوش السلطاني، وفعل ما أرضى به الظاهرية.

قلت: كان في تدبير الملك الظاهر في إحضار الظاهرية على الوجه المحكي وهم بالسلاح والرجال، زوال ملكه لو قُدّر لغيره؛ فإنه لمّا أرسل إلى الأمير قايتْبَاي، وجاء الأمير قايتْباي ومعه تلك الخلائق وعليهم السلاح، وليس عند السلطان سوى الأمراء الذين كانوا بالحوش، وليس عند الأمراء أحد من مماليكهم ولا عليهم آلة الحرب، ولا عند السلطان أيضاً بالقاعة من مماليكه إلاّ جماعة قليلة جدّاً، وجميع مَن كان عند السلطان بأسرهم لا يقدرون على دفع بعض مَن كان مع الأمير قايتبَاي، بل لو أراد قايتباي المذكور الوثوب على الأمر والفَتْك بالسلطان لأمكنه ذلك. ولم أدرِ ما طرق السلطان من الأمر العظيم حتى فعل ذلك، وكان يمكنه أن يفعل ما شاء ولو كان ما طرقه أهم من ذلك وأعظم، وما عسى أن تصل يدهم من الفعل به من شهامة السلطنة وعزّ الملك وعنده أمراؤه وأعيان مملكته، ولم يملك

أحد منه الزرَدْخاناه ولا باباً من أبواب القلعة، وبابُ السلسلة والإسطبل السلطاني بيده، والمماليك السلطانية ملء الديار المصرية من سائر الطوائف، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ثم أرسل السلطان في الحال بالإفراج عن الأمير تَمُرْبغا الظاهري، وعَن خُجْداشيته الذين أمسكوا معه، ومَجيئهم إلى الديار المصرية بعزٍّ وَإكرام. فأفرج عنهم وَحضروا إلى الديار المصرية في يوم الاثنين خامس المحرّم من سنة ثمانٍ وَستّين وَثمانمائة، وَباتوا تلك الليلة في بيت يَشْبك الدّوَادار. وطَلعوا إلى القلعة من الغد وَقبّلوا الأرض، فخلع السلطان على كلٍّ من تَمُرْبغا وَأُزْبك كاملية بمَقْلب سَمُّور، ورَسم لهم باستقرارهم على إقطاعاتهم وَوَظائفهم، لأن السلطان ما كان أخرج عن أحد منهم إقطاعه وَلا وظيفته، فإن غضبه عليهم كان يوماً واحداً، وكذلك كان سجنهم بالإسكندرية.

وَفي هذا اليوم استقرّ يونس بن عمر بن جَرْبغا العمري دوَادار الطواشي|فَيْروز النّوْروزي وَزيراً، وَكانت خلعته أطلسين بخلاف خِلْعة الوَزَر؛ لكونه يتزيّا بزيّ الجندي.

وفي يوم الخميس ثامن المحرّم سنة ثمانٍ وستّين أُعيد قاضي القضاة محبّ الدين بن الشِّحنة إلى قضاء الحنفية بالديار المصرية، بعد موت بدر الدين حسن بن الصواف.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره نودي بشوارع القاهرة: أن أحداً من الأعيان لا يستخدم ذِمِّياً في ديوانه ـ أعني من الكَتَبَة وغيرهم ـ قلتُ: ما أحسن هذا لَوْ دَامَ أو اسْتَمَرَّ. فمنعت هذه المناداة أهل الذمَّة قاطبة من التصرّفِ والمباشرة بقلم الديونة بوجه من الوجوه بأعمال مصر، وكُتب بذلك إلى سائر الأقطار. ثم عَقَدَ السلطان بالصالحية [ببين القصرين][1] عَقْدَ مَجْلِسٍ بالقضاة الأربعة، وحضره الدوادار الكبير، وجماعة من الأعيان بسبب هذا المعنى، وقُرِئت العهود المُكتتبة قديماً على

(١) زيادة من حوادث الدهور.

أهل الذِّمّة، فوجدوا في بعضها أن أحداً من أهل الذمّة لا يباشر بقلم الديونة[١] عند أحد من الأعيان، ولا في عمل من الأعمال، وأشياء من هذه المقولة، إلى أن قال فيها: ولا يلفّ على رأسه أكثر من عشرة أذرع، وأن نساءهم يتميزن من نساء المسلمين بالأزرق والأصفر على رؤوسهنّ في مشيهنّ بالأسواق، وكذلك بشيء في الحمّامات. فحكم قاضي القضاة عَلَم الدين صالح البُلْقيني الشافعي بإلزام أهل الذمّة بذلك جميعه، ما عدا الصرف والطبّ بشروطه[٢]. وصمّم السلطان على هذا الأمر، وفرح المسلمون بذلك قاطبة، فأسلم بسبب ذلك جماعة من أهل الذمّة من المباشرين. وعظم ذلك على أقباط مصر، ودام ذلك نحو السنة، وعاد كلُّ شيء على حاله أوّلاً. وبلغ السلطان ذلك فلم يتكلّم بكلمة واحدة، ولا حول ولا قُوّة إلّا بالله العليّ العظيم. وأين هذا من همّةِ الملك المظفّر بِيْبَرس الچاشنكير ـ رحمه الله ـ لمّا قام في بطلان عيد شَبْرَا، ولبّس النصارى الأزرقَ واليهودُ الأصفرَ، فللّه درُّه ما كان أعلى همّته، وأغزر دينه ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه[٣].

---

(١) أي عمل الكتابة في الدواوين.

(٢) ذلك أن اليهود والنصارى كانوا يحتكرون هاتين الصنعتين (الصرافة والطب) في ذاك الوقت، ولا تستطيع السلطة إبعادهم عنهما، إذ بذلك تتعطل الأحوال.

(٣) درج المؤلّف على إبداء أسفه كلما تراخى السلاطين في ملاحقة تطبيق القيود على أهل الذمّة فيما يتعلق بالوظائف والزيّ والسلوك. ونحن إذا تأملنا في تلك الأحكام المرتجلة التي كان يصدرها السلاطين بين الحين والآخر نجد فيها كثيراً من الإجحاف الذي لا تقرّه الشريعة الإسلامية السّمحة: مثل إلزامهم بألوان خاصة في الثياب، وحمل علامات خاصة في السوق والحمّامات، وركوب البغال والحمير على نحو معين والامتناع عن ركوب الخيل، وعدم الارتفاع بمنازلهم على منازل المسلمين، إلى ما هنالك من قيود مُهينة ليست من الإسلام في شيء. هذا مع ملاحظة أن تلك التدابير كانت تأتي عادة استجابة لنقمة شعبية لدى عامّة المسلمين تجاه تصرفات بعض أهل الذمّة من اليهود والنصارى الذين يتولّون بعض الوظائف العامّة ويسيطرون على بعض المرافق الاقتصادية الحسّاسة فيسيئون معاملة المسلمين. والحقيقة أن سلوك بعض أهل الذمّة على النحو المُشار إليه، وكذلك ردود الفعل المُغالية تجاهه، إنما يجد علاجه في التطبيق السليم لأحكام الشريعة الأمر الذي كان سلاطين المماليك بعيدين عنه. وإذا ما طبّقت تلك الأحكام ـ خاصة فيما يتعلق بالمعاملات، وعلى الأخصّ أحكام الحِسبَة ومبادىء التعايش بين الأديان ـ فإن أهل الذمّة يتمتعون عندئذ بكامل حقوقهم وكرامتهم في المجتمع الإسلامي. ولكن الخلل يؤدّي إلى خلل مثله، والتعصّب في جانب يثير تعصباً في الجانب الآخر ظاهراً أو مكبوتاً، ما يلبث أن يعبّر عن نفسه عند أول مناسبة. والملاحظ أيضاً أن السلاطين الذين كانوا يصدرون تلك الفرمانات ويُعيدون التأكيد =

وفي يوم السبت رابع عشرين المحرّم نفى السلطان مملوكه أُزْبُك، الذي كان من جملة مُسَفِّري الأمراء المتوجهين إلى الإسكندرية، وكان نَفْيُه لأمر يعلمه السلطان.

وفيه طلب السلطانُ جماعةً من أمراء الألوف إلى داخل قاعة الدهيشة، وحلّفهم على طاعته بأيمان مغلظة.

وفي يوم السبت ثاني صفر استقرَّ أبو بكر بن صالح نائب البيرة في حجوبية حجَّاب حلب، بعد استقرار تَغْري بَـرْدي بن يُونس في نيابة قلعة حلب، واستقرَّ كَمَشْبُغا السيفي نَخْشَباي نائب قلعة حلب في نيابة البيرة.

وفي يوم الاثنين رابع صفر رسم السلطان أن يفرج عن الأمير سُودون الشمسي المعروف بالبَرْقي من سجن الإسكندرية، وحضوره إلى القاهرة، بعد أن أنعم السلطان عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق.

ثم في يوم السبت أمسك السلطان بَرْسْبَاي الخاصكي أحد المماليك الذين أخذهم من تَرِكَة الملك الأشرف إينال، وهو أحد مَن تولّى قتل جَانِبَك الدَّوادار، ثم ممّن أراد قتل السلطان بعد ذلك في تلك الليلة المقدّم ذكرها، وضربه بين يديه ضرباً مبرحاً، ثم أمر بتوسيطه، فوُسِّط بين يديه بالحوش؛ وكان السلطان وَسَّط قبله آخَرَ من مماليكه يسمى قَانَم.

= عليها بين الحين والآخر لم يكونوا يتمسكون بها عملياً لسببين أساسيين: أنها لم يكن لها من مسوّغ شرعي مقنع، على الرغم من استصدار الفتاوى بها، وأن السلاطين بأكثريتهم كانوا ضعفاء أمام إغراءات المال والرشاوى التي كانت تأتيهم من أصحاب الوظائف من أهل الذمّة. وكيف لا يكون الأمر كذلك ونحن نرى أن جميع وظائف الدولة من وظيفة الحاجب إلى وظيفة الأستادار الكبير، وحتى الوظائف الدينية من وظيفة المقرىء إلى وظيفة المحتسب وقاضي القضاة، جميع هذه الوظائف كانت تولّى بالبذل والرشوة في عصر المماليك الجراكسة إلّا ما ندر، بحيث نرى المؤلّف يحرص على الإشارة إلى أن هذه الوظيفة أو تلك قد أُنيطت بفلان «من غير بذل» على حدّ تعبيره. خلاصة القول أنه يجب أن نفهم تلك الأحكام القاسية وما يسبقها أو يرافقها من ردود فعل لدى أهل الذمّة أو لدى المسلمين على ضوء فساد الحكم المملوكي. ونحن لا نوافق المؤلّف على ترحّمه الدائم على بعض السلاطين الذين كانوا يتشدّدون في تطبيق الإجراءات القاسية على أهل الذمّة.

ثم في يوم الاثنين حادي عشره أُعيد الصاحبُ مجد الدين بن البقري إلى الوَزَر بعد تسحُّبِ يونس بن جَرْبُغا.

وفي يوم الخميس استقرَّ شرامُرْد العثماني المؤيِّدي أحد أمراء العشرات بالديار المصرية دوادار السلطان بدمشق، وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه عوضاً عن أُزْدَمُر الإبراهيمي بحكم القبض عليه.

وفي يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول أُشيع بمجيء الغزاة من قُبْرُس إلى سواحل البلاد الشامية وغيرها بغير إذن السلطان، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً، ولم يسعه إلّا السّكات.

وفي يوم الأحد ثامنه عمل السلطان المولد النبوي على العادة، وعمل من الغد مولداً آخر لزوجته.

وفي يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان على الشهابي أحمد بن عبد الرحيم بن العيني ابن بنت زوجة السلطان باستقراره أمير حاج المحمل، بسفارة حجّ جدّته زوجة السلطان في هذه السنة.

وفيه استقر الصاحب مجد الدين بن البَقَري أستاداراً بعد اختفاء الأمير زين الدين، وطلب السلطان المعلّم محمداً البِباوي اللحّام الذي كان استقرَّ ناظر الدولة، وقرَّره وزيراً بالدّيار المصرية، ولبس خلعة الوَزَر في يوم الثلاثاء سابع عشره. [شعر: الطويل]

فيا نفس جِدِّي إنَّ دَهْرَك هازِلُ[1]

وقد ذكرنا أصل هذا البباوي، وسبب استقراره في «الحوادث»[2].

ثم في يوم الجمعة سابع عشرينه وصلت الغزاة من سواحل متعدّدة، وخلع

---

(١) هو عجز بيت لأبي العلاء المعرّي:

فيا موتُ زُرْ إن الحياة ذميمةٌ ويا نفس جدِّي إن دهركِ هازلُ

(٢) وسيأتي عرض لأحواله وأصله في ترجمته في وفيات سنة ٨٦٩ هـ من هذا الجزء.

السلطان على الأمير بُرْدبَك، وعلى الأمير جَانِبَك قَلْقَسيز، وأنعم على كل واحد منهما بفرس بسرج ذهب وكُنْبوش زَرْكَش، وخلع على جميع مَن كان معهما من الأمراء، فأقام الأمير بُرْدبَك إلى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى، وخلع عليه باستقراره في نيابة حلب، بعد عزل جَانِبَك التاجي المؤيَّدي، ومجيئه إلى القاهرة على إقطاع بُرْدبَك.

وفي يوم الخميس تاسعه استقرَّ الأمير أُزْبُك من طَطَخ الظاهري حاجب الحجّاب عوضاً عن بُرْدبَك المذكور.

وفي يوم سلخه ورد الخبرُ بموت الأمير تَنَم نائب الشام، وأحضر سيفَه قانصوه الجُلُبّاني الحاجب الثاني بدمشق، فرسم السلطان للأمير جَانِبَك التاجي المعزول عن نيابة حلب باستقراره في نيابة دمشق، عوضاً عن تَنَم، وتعيَّن قاني باي الحسني المؤيَّدي مُسَفِّره. وأنعم السلطان بإقطاع بُرْدبَك ـ الذي كان عُيِّن لجَانِبَك التاجي ـ على الأمير يَشْبُك الدَّوادار، وأنعم بإقطاع يَشْبُك على مُغُلْباي طاز المؤيدي، وكلاهما تقدمة ألف، لكن التفاوت في كثرة المتحصّل. وأنعم بإقطاع مُغُلْباي طاز على الأمير قايِتْبَاي شاد الشراخاناه زيادة على إقطاعه، ليكون قايِتْبَاي أيضاً من جملة مقدّمي الألوف، فزيدت المقدّمون تقدمة أخرى. واستقرَّ نَانِق الظاهري الأمير آخور الثاني شاد الشرابخاناه عوضاً عن قَايِتْبَاي، واستقرَّ جَانِبَك من طَطَخ الفقيه أمير آخور ثانياً عوضاً عن نَانِق.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة عيَّن السلطان إلى البحيرة تجريدةً عليها الأمير أُزْبُك حاجب الحجَّاب، وصحبته من أمراء الطبلخانات جَانِبَك الإسماعيلي كوهية الدوادار الثاني، وكَسْباي الشِّشْماني الناصري ثم المؤيدي، ومن العشرات أُرْغون شاه أستادار الصحبة، وقانَم نَعْجَة، وجانَم أمير شكار، وتَنِبك الأشقر، والجميع أشرفية، وتَغْري بَرْدي الطيَّاري، وقانْصوه، وقاني باي الساقي، وهما ظاهريان، وأربعمائة مملوك من المماليك السلطانية.

وفي يوم الأحد ثامن عشره ركب السلطان ونزل إلى بيت الأمير بُرْدبك نائب

حلب، ثم خرج من عند بُردبك ودخل إلى بَرْقُوق الناصري فلم يجده.

وفي يوم الاثنين تاسع عشره وصل سيف الأمير جَانِبَك التاجي المعزول عن نيابة حلب والمتولّي نيابة الشام بحلب قبل أن يخرج منها. فلما كان يوم الثلاثاء العشرون من جمادى الآخرة المذكورة رسم السلطان لبَرْسْباي البَجَاسي نائب طرابُلُس بنيابة دمشق عوضاً عن جَانِبَك التاجي، وصار قاني باي الحسني مُسَفِّره أيضاً، فإنه وافى قاني باي الحسني موتُ جَانِبَك وهو بقَطْيا متوجهاً إليه بتقليد نيابة الشام وتشريفه، فقرّره السلطان مُسَفِّر بَرْسْباي هذا، كما كان مُسَفِّر جَانِبَك. ثم رسم السلطان بانتقال جَانِبَك الناصري نائب حماة إلى نيابة طرابُلُس عوضاً عن بَرْسْباي البَجَاسي، واستقرّ مسفِّره الأمير لاجين الظاهري. واستقرّ بلاط نائب صَفَد في نيابة حماة ومسفِّره الأمير طوخ الأبو بكري المؤيّدي الزَرَدْكَاش. واستقر يشْبك أُوش[1] قَلَق المؤيّدي أحد أمراء الألوف بدمشق عوضاً عن بلاط في نيابة صَفَد، واستقر الأمير خُشْكَلْدي البَيْسَقي مُسَفِّر يشْبك هذا، وأنعم بإقطاع هذا على خُجْدَاشِه شرامُرد العثماني المؤيّدي دوادار السلطان بدمشق.

وفي يوم الجمعة ثالث عشرينه وصل قاصد صاحب قُبْرُس جاكُم، وأخبر أنه أخذ مدينة الماغوصة وقلعتها من يد الفرنج، وأنَّهُ سلّمها للأمير جَانِبَك الأَبْلَق المقيم بجزيرة قُبرس بمَن بقي معه من المماليك السلطانية، فأساء جَانِبَك المذكور السيرة في أهل الماغوصة، ومدّ يده لأخذ الصبيان الحِسَان من آبائهم أعيان أهل الماغوصة فشقّ ذلك عليهم، وقالوا: «نحن سلّمناكم البلد بالأمان، وقد حلفتم لنا أنكم لا تفعلوا معنا بعد أخذكم المدينة إلّا كل خير، وأنتم مسلمون، فما هذا الحال؟» فلم يلتفت جَانِبَك الأَبْلَق إلى كلامهم، واستمرّ على ما هو عليه، فأرسل أهل الماغوصة إلى جاكُم عرفوه الخبر، فأرسل جاكُم إلى جَانِبَك ينهاه عن هذه الفعلة، فضرب جَانِبَك القاصد المذكور، بعد أن أوسعه سَبّاً، فأرسل إليه قاصداً آخر، فضربه جَانِبَك بالنشّاب، فركب جاكُم إليه من الأفقسية مدينة قُبْرُس، وجاء

---

(١) ورد سابقاً برسم «آس».

إليه وكلَّمه، فلم يلتفت إليه، وخشَّن عليه الكلام، فكلّمه جاكم ثانياً، فضربه بشيء كان في يده، فسقط جاكُم مغشياً عليه، فلما رأت الفرنج ذلك مدّت أيديها إلى جَانِبَك ومَن معه من المسلمين بالسيوف، فَقُتِل جَانِبَك وقُتِلَ معه خمسةٌ وعشرون مملوكاً من المماليك السلطانية؛ وهذا معنى ما حكاه يعقوب الفرنجي قاصد جاكُم الذي حضر إلى القاهرة رسولاً من عند جاكُم - والله أعلم. هذا مع اختلاف الروايات في قتل جَانِبَك ورفقته. واستولى جَاكُم على الماغوصة على أنه نائبٌ بها عن السلطان، وعلى كل حال صارت الماغوصة بيد جاكُم صاحب قُبْرُس[1].

ثم عيَّن السلطان سُودون المنصوري الساقي لتوجُّه قبرس مع يعقوب المذكور، فسافر سُودون المذكور، ووقع له أمور ذكرناها في موضعها من تاريخنا «الحوادث».

ثم في يوم السبت ثامن شهر رجب أُعيد قاضي القضاة شرف الدين يحيىٰ المنّاوي إلى منصب قضاء الشافعية بعد موت قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقيني.

ثم في يوم الاثنين عاشر رجب أُدير المحمل، فلعبت الرمَّاحة على العادة.

وفي يوم السبت ثاني عشرينه عيَّن السلطان تجريدة إلى البحرية يردف بها الأمير قَرْقَمَاس لأمر وقع له مع العرب، قتل فيه جماعة من المماليك السلطانية.

ثم في يوم الأحد سابع شعبان وصل الأمير قَرْقَمَاس بمَن معه من البحيرة.

وفي هذا الشهر ورد الخبر بأخذ قلعة كَرْكَر[2]، وقتل نائبها جَكَم بحيلة من الأكراد.

وفي يوم الاثنين سادس شوّال استقرَّ الأمير بُرْدبك هجين أمير جانْدَار، وكان

---

(١) وجاكم هذا هو الذي ساعده الأشرف إينال في استرجاع قسم من جزيرة قبرص من أُخته التي استولت على الملك بعد موت والدهما. - راجع ص ١٠٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) كركر: حصن بين ملطية وآمد. (معجم البلدان).

لهذه الوظيفة مدة طويلة لا يليها إلّا الأجناد، وكانت في القديم أجلّ الوظائف[١].

ثم في يوم الجمعة تاسع عشرين ذي القعدة الموافق لعاشر مشرى أوفَىٰ النيل، ونزل السلطان بنفسه، وخلّقَ المقياس وفتح خليج السدّ، ثم ركب وعاد إلى القلعة وبين يديه أربعة من أمراء الألوف، وعليهم الخلع التي خلعها السلطان عليهم، وقيّد لكل واحد منهم فرساً بسرج ذهب وكُنْبوش زَرْكش، وهم: الأتابَك جَرِباش، وقَرْقَماس أمير سلاح، وقانَم أمير مجلس، وتَمُرْبُغا رأس نَوْبَة النُّوَب، وباقي الأمراء عليهم الخلع لا غير. وتعجّب الناس لنزول السلطان لكسر البحر، لبُعْد عهد الناس من نزول السلاطين إلى هذا المعنى، لأنه من سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ما نزل سلطان، وكان الذي نزل في سنة ثلاث وثلاثين الملك الأشرف بَرْسْباي ـ رحمه الله.

وفرغت هذه السنة.

واستهلّت سنة تسع وستّين وثمانمائة...

ففي يوم السبت العشرين من المحرّم أنعم السلطان على الأمير قانصوه المحمدي الساقي الأشرفي أحد أمراء العشرات بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، وأنعم ببعض إقطاع قانصوه هذا على الأمير قانْصوه اليَحْياوي الظاهري.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه وصل الشرفي يحيىٰ بن يَشْبُك الفقيه الدَّوادار، وهو أمير الركب الأول، إلى القاهرة، وأصبح من الغد وصل الشهابي أحمد بن العيني أمير حاجّ المحمل بالمحمل، وصحبته جدّته خَوَنْد زوجة السلطان.

وفي يوم الاثنين تاسع عشرينه استقرَّ شرامُرْد العثماني حاجب حجَّاب دمشق.

وفي يوم الاثنين سابع عشرين صفر استقرّ الأمير منصور أستاداراً عوضاً عن الأمير زين الدين.

---

(١) قال المقريزي: «هو مَن يتسلّم باب السلطان ويتكلم على البردداريه والركابية والحرامانية والجندارية ويشارك في عرض البريد ويدور بالزفّة حول السلطان، وعلى يده يكون تقرير الأمراء على وظائفهم وأرزاقهم أو إيقاع العقوبات بهم». (خطط: ٢/٢٢٢). ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

وفي يوم الاثنين رابع عشرين شهر ربيع الآخر استقر ألْماس الأشرفي دوادار السلطان بحلب في نيابة البيرة، بعد موت قاني باي طاز البَكْتَمُري، واستقرَّ علي بن الشيباني عوضه في دوادارية حلب.

وفي ثامن جمادى الأولى ورد الخبر بتسليم كَرْكَر إلى أعوان حسن بـك ابن قرايُلُك.

وفي يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب أُديـر المحمل على العـادة، وقاست الناس من الأجلاب شدائد.

ثم في يوم الخميس سلخ رجب قَدِمَ الخبر بموت الأميـر جَانِبَـك الناصـري نائب طرابُلُس.

وفي يوم الخميس سابع شعبان استقر سُودون الأفرم الخازندار مُسَفِّر الناصري محمـد بـن المبارك من نيـابة حمـاة إلى نيابـة طـرابُلُس، واستقـرَّ الأميـر كَسْبـاي الشِّشْماني المؤيَّدي مُسَفِّـر يَشْبُك البَجَـاسي أحد أمـراء حلب باستقـراره في نيابـة حماة، وكلاهما صُولِحَ ولم يسافر.

وفي يـوم السبت ثالث عشـرينه نفى السلطان يَشْبُـك الساقي أحـد مماليكـه الأجلاب إلى الشام.

ثم في يـوم الثلاثـاء ثـامن عشـر رمضـان رسم السلطان بنفي الأميـر الكبيـر جَرِباش المحمدي الناصري المعروف بكُرْد إلى ثغر دِمْياط بطَّالاً، فخرج من الغد.

وفي يـوم الخميس العشرين من رمضـان استقرَّ الأميـر قانَم من صَفَـر خَجـا المؤيَّدي المعروف بالتاجر أمير مجلس أتابَكَ العساكر عوضاً عن جَرِباش المذكور.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرينه استقر الأمير تَمُـرْبُغا رأس نـوبة النُّـوَب أمير مجلس بعد الأتابَك قانَم، واستقرَّ الأمير أُزْبُك حاجب الحجَّاب عوضه رأس نوبـة النُّوَب، واستقرَّ الأمير جَانِبَك قَلْقَسيز الأشرفي حاجب الحجَّاب عوضـاً عن أُزْبُك، وأنعم السلطان بإقطاع الأتابَك قانم على الشهابي أحمد بن العيْني.

قلتُ: هنا نكتة طريفة، وهي أن يوم رابع عشرين من الأيام السبعة المكروهة عند الناس، وهؤلاء الأربعة الذين تولّوا فيه لم يلقوا إلاّ كل خير؛ فإن الأمير تَمُرْبُغَا لا يزال أمره ينمو ويزداد في هذه الوظيفة إلى أن صار سلطاناً، وأُزْبُك إلى أن صار أتابك العساكر، وجَانِبَك قَلْقَسيز إلى أن صار أيضاً أتابَك العساكر، وابن العيْني إلى إمْرَةِ مجلس. والعجب أنهم من يوم تاريخه صاروا في خير وسلامة إلى أن كان من أمْرِهم ما كان، فأيّ شؤم حصل بولايتهم في هذا اليوم؟! والحق هو ما أقوله: إن كل شيء لم يأتِ به كتاب الله ولا سُنّة رسول الله فهو مردود على قائله، والسلام.

ودام جَرِباش كُرْد هذا بدِمْياط نحو سبع سنين[1].

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي الحجة أوفى النيل، ونزل السلطان خلَّق المقياس، وفتح السّدّ كما السنة الخالية.

واستهلّت سنة سبعين وثمانمائة.

ففي أولها رسم السلطان الظاهر خُشْقَدم بتحويل السنة الخراجية على العادة[2].

وفي يوم السبت أول المحرّم وصل نجّاب، وهو مبشّر الحاجّ، وأخبر بالأمن والسلامة.

وفي يوم الأربعاء ثاني عشره وصلت الأمراء الخمسة بمَن معهم من أمراء الطبلخانات والعشرات والمماليك السلطانية من البحيرة.

وفيه استقرَّ القاضي علاء الدين بن الصابوني قاضي قضاة دمشق الشافعية، بعد عزل القاضي جمال الدين الباعوني، وأُضيف إليه نظر جيش دمشق، عوضاً عن

---

(١) كان من حق المؤلّف أن يلحق هذه الملاحظة بخبر نفي جرباش السابق. ولعلّ هذا مما يشير إلى أن المؤلّف لم يكن يراجع ما يكتبه دائماً.

(٢) تحويل السنين الخراجية إجراء يتمّ كل ٣٣ سنة بسبب الفارق بين السنين الشمسية والسنين القمرية. ـ راجع فهرس المصطلحات «تحويل السنين» أو تحويل السنة الخراجية.

البدري حسن بن المزلق. وباشر علاء الدين المذكور قضاء دمشق سنين كثيرة، وهو مقيم بديار مصر، ونوّابُه تحكم بدمشق، وهذا شيء لم يقع لغيره في دولة من الدول.

وفي يوم السبت ثاني عشرينه وصل الأمير خُشْكَلْدي القوامي أمير الركب الأول، ووصل من الغد أمير حاجّ المحمل جَانِبَك قَلْقَسيز بالمحمل، وكان وصل قبلهما الأمير قاني بَك المحمودي المؤيَّدي أحد مقدّمي الألوف بالديار [المصرية] وكان حجّ في هذه السنة.

وفي هذه الأيام زاد فساد المماليك الأَجْلاب، وعظم شرّهم وظلمهم.

فلما كان يوم السبت ثالث عشر صفر نُودِي بالقاهرة بأن أعيان التجّار والسُّوقة تطلع من الغد إلى القلعة. وطلعوا وقد ظن كلٌّ واحد منهم أن السلطان ينظر في أمرهم مع المماليك الأجلاب، فعند طلوعهم ركب السلطان ونزل إلى جهة القرافة وغيرها، ثم طلع إلى القلعة، وجلس على الدكّة. وحضر التجّار المطلوبون وغيرهم، فلما تمثّلوا بين يديه كلّمهم السلطان بكلام معناه: أنهم لا يشترون شيئاً من القماش بالجريدة(١)، وأن يخبروا المشتري بالحق، وأشياء من هذه المقولة، ولم يُبْدِ في أمر الأجلاب بشيء، فراحوا مثل ما جاءوا.

وفي يوم الخميس ثالث ربيع الأول استقر الأمير خير بك الخازندار الظاهري أمير حاج المحمل، واستقر الأمير كَسْباي الشِّشْماني المؤيَّدي أمير الركب الأوّل.

وفي يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول استقر الأمير خُشكَلْدي البَيْسَقي محتسبَ القاهرة بعد عزل سُودون البُرْدبَكي المؤيَّدي الفقيه.

وفي هذه الأيام عزل يَشْبُك آس قَلَق المؤيَّدي عن نيابة صَفَد بجكَم الأشرفي خال الملك العزيز يوسف نقلاً من نيابة غزّة، وتوجّه يَشْبُك المذكور على إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، واستقرّ في نيابة غزّة الأمير إينال الأشقر الظاهري أتابَك

(١) من معاني الجريدة: بقية المال. ولعلّ المراد هنا الشراء بالدين.

حلب، واستقر في أتابَكية حلب بعده ألْماس الأشرفي نائب البيرة، واستقر في نيابة البيرة شاد بك الصغير الجُلُبَّاني، وهو رجل من الأحداث قدَّمه المال.

وفي يوم الجمعة حادي عشره ثارت المماليك الجُلْبان على السلطان، وأفحشوا في طلب تتريات[١] صوف المعدة للأسفار والصيد، ولهم حكاية طويلة ذكرناها في «الحوادث». وكان السلطان عزم على التوجّه إلى الصيد، فما وسعه إلاّ أنه أبطل الرَّواح إلى الصيد.

وفي يوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوي بالحوش على العادة.

وفي يوم الخميس سابع عشره استقر الأمير بَرْسْباي قَرا الظاهري مُسَفِّر جَكَم نائب صَفَد، واستقَرَّ كَسْباي الظاهري خُشقَدَم أحد الدوادارية الصغار مُسَفِّر نائب غزّة.

وفي يوم الاثنين ثامن عشرينه أمسك السلطان منصوراً الأستادار وحبسه بقلعة الجبل، وأُمْسِكَ عن سدادٍ لا عن عجز[٢]، وأُعيد الأمير زين الدين إلى الأستادارية، ودام منصور في الحبس والعقوبة إلى أن آل أمرُه إلى ضرب الرقبة بالشّرع على ما زعموا.

وفي يوم السبت وصل سيفُ ملك أُصْلان بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دُلْغَادِر نائب أُبُلُسْتين، وذكروا أنه قتله فداوِيٌّ[٣]، ولا يلزمني ذكر اسم مَن أرسل إليه الفِدَاوِيَّ.

---

(١) التتريات: جمع تترية أو ططرية، وهي كالقفطان.

(٢) هذه ملاحظة جديرة بالاهتمام. إذ غالباً ما كان الأستادار يتعرّض للسجن والمصادرة بسبب تمنعه عن تلبية حاجات السلطان المالية، خاصة أيام السلاطين الجراكسة المتأخرين. ذلك أن الأستادار كان يتولى الإشراف على مالية السلطان الخاصة في جميع وجوه الدخل والخرج، وباتت هذه الوظيفة في أُخريات أيام الجراكسة تُناط بالشخص الذي يتعهّد بتلبية احتياجات السلطان المالية، وبالطبع كان السلطان يطلق يده في جمع المال بوجه شرعي أو غير شرعي.

(٣) أي من الإسماعيلية. وقد عُرف هؤلاء في التاريخ الإسلامي بأعمال الاغتيال وتنظيمهم الدقيق لها.

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عزل السلطان الأمير جوهراً النَّوْرُوزيّ مقدّم المماليك السلطانيّة بنائبه الأمير مِثْقال الظاهري الحبشي، واستقرّ عوضه في نيابة المقدّم خادمٌ أسودُ دَكروري(١) من أصاغر الخُدَّام لا أعرفه قبل ذلك، يسمّى خالصاً.

وفي يوم السبت ثامن جمادى الآخرة عقد السلطان عقده على جاريته سواربـاي الجاركسية أم ابنته، وجعلها خَوَنْد الكبرى صاحبة القاعة(٢)، وذلك بعد موت زوجته خَوَنْد شُكُرْبـاي الأحمدية الناصرية فرج بن برقوق، وكان العاقد القاضي الحنفي محبّ الدين ابن الشِّحْنَة.

وفي يوم الخميس ثالث عشره وَلِيَ القاضي صلاح الدين المكيني قضاء الشافعية بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة شرف الدين يحيىٰ المنّاوي.

وفيه أيضاً استقرّ القاضي برهان الدين إبراهيم بن الدّيري قاضيَ قضاة الحنفية أيضاً بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة محبّ الدين بن الشِّحْنَة الحنفي.

وفيه استقر الأمير أرْغون شاه الأشرفي أستادارُ الصحبة أميرَ حاج الرّكب الأوّل بعد موت الأمير كَسْباي المؤيَّدي ـ رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس ثالث عشره استقرّ قاسم، صيرفيُّ اللحم، المعروف بجُغَيتة، وزيراً بالدّيار المصريّة، وقلع لبس العوّامّ والسّوقة، وتزيَّا بزيّ الكتّاب، وركب فرساً.

واستقرّ في نظر الدّولة شخص آخر من مقولة قاسم جُغَيْتة، اسمهُ عبد القادر، لم أعرفهما قبل تاريخه؛ وكان لبسهما لهاتين الوظيفتين عَاراً كبيراً على ملوك مصر

---

(١) نسبة إلى بلاد الدكرور أو التكرور، وهي بلاد مالي جنوب مراكش. قال العمري: أهلها في غاية السواد وتغلغل الشعور. (صبح الأعشى: ٥/٢٧١، طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) أي القاعة البيسرية، وهي قاعة الحريم بالقصر السلطاني بالقلعة. أما القاعة التي كان السلطان يدير منها الحكم في البلاد فهي قاعة الدهيشة... وعن هاتين القاعتين انظر خطط المقريزي؛ ٢/٢١١ ـ ٢١٢.

إلى يوم القيامة، وَلِي عَلَى مَنْ ولاَّهُمَا حُجَجٌ لا يقومُ أحدٌ بجوابها، وليس لأحد في ولايتهما عُذْرٌ مقبول. وآفةُ هذا كلّه عدمُ المعرفة وقلّة التدبير، وإلاّ ما ضيَّق الله على مَلك مِصر حتى يكون له وزير مثل هذا، ومثل أُستاذه محمد البباوي المقدَّم ذكره، وقد تكلمنا في ولاية البباوي للوزر كلاماً طويلاً في كفاية عن الإعادة هنا، وذلك في تاريخنا «حوادث الدهور». وقد أنشدني بعض رؤساء ديار مصر في يوم ولاية قاسم للوَزَر أبيات الطُّغرَائي من قصيدته لاميّة العجم - رحمه الله تعالى: [البسيط]

مَا كنتُ أُوثِرُ أنْ يَمْتَدَّ بِي زَمَنِي ... حَتَى أَرَى دَوْلَةَ الأَوْغادِ والسَّفَلِ
هَذَا جَزَاءُ آمْرِىءٍ أَقْرَانه دَرَجُوا ... مِنْ قَبْلِهِ، فَتَمَنَّى فُسْحَةَ الأَجَلِ

وفي هذه الأيّام عيَّن السلطان تجريدةً إلى البلاد الحلبية نجدةً لشاه بضع بن دُلْغَادِر نائبُ أَبُلُسْتين، ليُعِينُوه على قتال أخيه شاه سوار بن دُلْغَادِر، وفي التجريدة سبعة(1) أمراء من أمراء الألوف، وهم: الأتابَك قانَم، وتَمُرْبُغا أمير مجلس، ويَلَباي الأمير آخور الكبير، وقانِي بَك المحمودي المؤيّدي، وبُرْدَبَك هجين أمير جاندار، وقايِتْباي المحمودي الظاهري، وجماعة كبيرة أُخر من أمراء الطبلخانات والعشرات يأتي ذكر أسمائهم عند سفرهم إن تمّ ذلك، ثم بطلت التجريدة بعد أيام.

وفي يوم الثلاثاء أول شعبان استقرّ الكاتب شرف الدين بن كاتب غريب أستاداراً عوضاً عن الأمير زين الدين يحيىٰ الأستادار.

وفي يوم الجمعة أول شوّال خُطب فيه خطبتان بالقاهرة وغيرها، وتشاءم الناس بذلك على الملك فلم يقع إلاّ خير.

وفي يوم السبت سادس عشر شوّال استقرّ الأمير جَانِبَك الأسماعيلي المعروف بكوهيَّة الدوادار الثاني أمير مائة ومقدَّم ألف، عوضاً عن الأمير جَانِبَك الناصري المعروف بالمرتد، بحكم كبر سنّه وعجزه عن الحركة، وخلع السلطان على مملوكه

---

(1) كذا. والمعدود ستة.

الأمير خير بك الخازندار باستقراره دوَاداراً ثانياً، عوضاً عن جَانِبَك كوهيَّة. وخير بك هذا هو أمير حاجّ المحمل في هذه السنة؛ وسافر خير بك المذكور بالمحمل في يوم الاثنين ثامن عشره.

وفي يوم الأربعاء العشرين منه ضُربت رقبةُ الأمير منصور الأستادار بسيف الشرع، وكانت هذه الفعلة من غلطات الملك الظاهر خُشْقَدَم؛ فإنه كان في بقائه له خاصّة منفعة كبيرة من وجوه عديدة، ولعلّه نَدم على قتله بعد ذلك.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرينه استقر الأمير رُسْتُم بن ناصر الدين بك بن دُلْغادِر في نيابة الأبُلُسْتَين، عوضاً عن ابن أخيه شاه بضع، بحكم ضعف شاه بضع عن دفع أخيه سوار، وأظن أن رُسْتُم هذا أضعف من شاه بضع في دفع شاه سوار.

وفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة استقرَّ الأمير قاني بَاي الحسني المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات في نيابة طرابُلُس دفعة واحدة، بعد عزل الناصري محمد بن المبارك؛ وكانت ولاية قاني باي هذا لطرابُلُس أيضاً من الأمور المنكرة الخارجة عن العادة، لأننا لا نعلم أن أحداً وَلِيَ نيابة طرابلس غير مقدّم ألف بالديار المصرية، بل غالب مَن يلي نيابة طرابُلُس ينتقل إليها من وظيفة عظيمة جليلة، إما أمير مجلس، أو أمير آخور كبير أو رأس نوبة النُّوَب، أو ينتقل إليها من نيابة حماة، بل إن الأتَابَك طَرَبَاي الظاهري وَلِيَها بعد الأتابَكية، ومع هذا كله ليته أهل لذلك، بل هو من كبار المهملين - انتهى.

واستهلّت سنة إحدى وسبعين وثمانمائة. . .

بيوم الأربعاء ويوافقه عشرون مسرى.

فيه أوفى النيل [ستّة عشر ذراعاً وثلاثة أصابع][1]، وفتح الخليج، وخَلَّق المقياس الأتابك قانم بإذن السلطان.

وفي يوم الاثنين سادسه أُعيد قاضي القضاة محبّ الدين بن الشِّحْنَة إلى قضاء

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

الحنفية بعد عزل قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن الدَّيْري.

وفي يوم السبت حادي عشره استقرَّ القاضي أبو السعادات البُلْقيني قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية، بعد عزل صهره صلاح الدين المكيني.

وفي يوم الخميس سابع صفر استقرّ القاضي كمال الدين محمد ابن الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جَكَم ناظرَ الجيوش المنصورة، عوضاً عن القاضي تاج الدين عبد الله بن المَقْسي، وأُبقي على ابن المَقْسي وظيفة نظر الخاص.

وفيه استقرَّ الأمير زين الدين يحيىٰ أستاداراً على عادته.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر صفر استقرّ الأمير يَلَباي الإينالي المؤيَّدي الأمير آخور الكبير أتابَك العساكر بالديار المصرية، بعد موت الأتابك قانَم المؤيدي الآتي ذكره في الوفيات - إن شاء الله تعالى. وأنعم السلطان بإقطاع يَلَباي على الأمير بُرْدبك هجين أمير جاندار، وأنعم بإقطاع بُرْدبك هجين على الأمير نانق شاد الشراب خاناه.

وفي يوم الخميس حادي عشرين صفر استقرّ الشهابي أحمد بن العيْني أمير آخور كبيراً بعد الأتابك يَلَباي.

وفيه استقر الأمير خُشْكَلْدي البَيْسَقي أحد أمراء العشرات شاد الشراب خاناه بعد نَانِق المحمدي المقدَّم ذكره. قلتُ: وعلى كل حال خُشْكَلْدي أليق لهذه الوظيفة من نانِق.

وفي يوم الأحد رابع عشرينه ورد الخبر بموت الأمير بَرْسْباي البَجَاسي نائب الشام الآتي ذكره في الوفيات.

وفي يوم الخميس ثامن عشرينه رسم السلطان بانتقال الأمير بُرْدبك الظاهري نائب حلب من نيابة حلب إلى نيابة الشّام، عوضاً عن بَرْسْباي البَجَاسي، واستقرّ نانِق الظاهري أحد المقدّمين مُسَفِّره.

واستقرَّ في نيابة حلب عوضاً عن بُرْدبَك يَشْبُك البَجَاسي نائب حماة، واستقرّ مُسَفِّره الشرفي يحيىٰ بن يَشْبُك الفقيه الدَّوادار الكبير.

واستقرَّ تَنَم الحسيني الأشرفي ثاني رأس نوبة في نيابة حماة، عوضاً عن يَشْبُك البَجَاسي، واستقرّ مُسَفِّرهُ تَمُر من محمود شاه الظاهري والي القاهرة.

واستقر الأمير تَنِبَك المُعَلِّم الأشرفي عوضه رأس نوبة ثانياً.

واستقرَّ الأمير مُغُلْباي مملوك السلطان قديماً في حِسبة القاهرة، عوضاً عن خُشْكَلْدي.

وفي يوم الأحد ثامن شهر ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي على العادة، وقاسى مَن حضر المولد من الأجْلاب شدائد.

وفي يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول استقر نانِق المحمدي المقدّم ذكره أمير حاجّ المحمل، واستقر الأمير سيباي الظاهري الأمير آخور الثالث أمير الركب الأوّل، واستقرّ الأمير دَمُرْداش السّيفي تَغْرِي بَرْدي البَكْلَمُشي نائب قلعة حلب بعد عزل الشَّيْباني.

وفي يوم السبت ثالث عشرينه ابتدأ السلطان بالحكم بين الناس لا بالإسطبل السلطاني في يومي السبت والثلاثاء، على قاعدة ملوك السلف، ولم يقع له ذلك من يوم تسلطن، لأن سلاطين زماننا هذا صاروا يجلسون بالدّكّة من الحوش السلطاني بقلعة الجبل، ويتعاطون الأحكام بين الناس، فلم يحتج الملك مع جلوسه بالحوش إلى النزول بالإسطبل للحكم. وكانت قاعدة ملوك السلف ممّن أدركنا وسمعنا الاحتجاب عن الناس بالكليّة، ولم يقدر أحد من المماليك السلطانية أن يدخل الحوش ـ بحاجة أو غير حاجة ـ إلّا بقماش الموكب، ولا يجتمع أحد بالسلطان بالدهيشة والحوش إلّا الخصّيصين به لا غير، ومَن كان له مع السلطان حاجة يجتمع به في القصر السلطاني ليالي المواكب وأيام المواكب، فبهذا المقتضى كان يحتاج السلطان إلى النزول إلى الإسطبل السلطاني للحكم بين

الناس، وإنصاف المظلوم من الظالم، ويكون ذلك في الغالب أيّام الشتاء، وتكون مدّة الحكم في يومي السبت والثلاثاء نحو شهرين، وقد فهمتَ الآن معنى قولنا: «ولم يحكم السلطان بين الناس من يوم تسلطن»، أعني بذلك نزوله إلى الإسطبل - انتهى.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر نزل السلطان إلى رماية البركة[١] لصيد الكَرَاكي وغيرها على العادة، وهذا أيضاً أول نزوله إلى الصيد من يوم تسلطن وعاد من يومه، وشَقّ القاهرة. ثم تكرّر من السلطان نزوله إلى الصيد في هذه السنة غير مرة.

وفي هذه الأيام كانت واقعة أصْباي البوّاب مع القتيلين اللذين قتلهما، وقد حكينا واقعته في «الحوادث».

وفي يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى ثارت المماليك الأَجلاب بالقلعة في الأَطباق، ومنعوا الناس من الطلوع إلى الخدمة السلطانية، وطلبوا زيادة جوامك وكسوة وعلّيق، ووقع أمور، ثم وقع الأَمر على شيء حكيناه بعد وَهَنٍ في المملكة.

وفي يوم الخميس سادس عشره استقرّ القاضي وليّ الدين الأَسيوطي أحد نوّاب الحكم قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية، بعد شغور القضاء عن أبي السعادات البُلْقيني أيّاماً كثيرة.

وفي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة استقر جَانِبَك الظاهري أحد الدوادارية الصغار في نيابة قلعة دمشق، بعد عزل الصارمي إبراهيم بن بَيْغوت.

وفي يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الآخرة خرج الحاجّ الرجبي من القاهرة-وأميره عَلَّان الأشرفي، والعمدة في الركب المذكور على القاضي زين الدين بن مُزْهر كاتب السرّ الشريف، لعظمةٍ سار فيها، وتجمّل زائد إلى الغاية، وفعل في هذه السفرة أفعالاً جميلة، حُكيت عنه وشُكرت.

---

(١) أي بركة الحاج بظاهر القاهرة. وكانت محطة أولى للحجيج الخارجين من القاهرة إلى مكة.

وفي يوم الاثنين حادي عشر رجب أُدير المحمل، ولعبت الرمّاحة على العادة.

واستهلّ شعبان، نذكر فيه نادرة، وهي أن أرباب التقويم كانوا اجتمعوا على أن آخر مدّة الملك الظاهر خُشْقَدَم في السلطنة تكون إلى ثامن عشر شهر رجب من هذه السّنة، فمضى رجب ولم يحصل للسلطان تكدير ولا نكد مؤلم، ولا ضعفٌ لزم منه الفراش، ولا نوعٌ من الأنواع المشوّشة، واستهلّ شعبان هذا وهو في أحسن حال، وأخزى الله هؤلاء الكَذَبَة الفَسَقَة المدّعين علم الغيب، تعالى الله أن يُظهِر على غيبه إلّا مَن أراد من أصفيائه وأوليائه.

ثم استهلَّ شوّال يوم الثلاثاء، ففيه أيضاً نكتة نذكرها، وهي أنه كان في العام الماضي أول شوّال يوم الجمعة، فتشاءم الناس بذلك على الملك من وقوع خطبتيْن في نهار واحد، ولم يقع إلّا الخير والسلامة، فاعتمد على أن هذا الكلام من الهذيان، وما أعلم الذي قال ذلك، أوّلاً ما دليله؟ مع أن الخطبة من أعظم السُّنن، ويحصل بها التذكير والخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والخشوع ورقّة القلب، فعلى هذا كلما تكررت في اليوم تكرَّر الخير والبركة والأجْر، وما أظن قائل هذا، أولاً، إلّا رجلاً منافقاً يكره السُّنّة والاقتداء بها ـ انتهى.

وفي يوم الاثنين سابع شوّال استقرَّ الأمير شرف الدين موسى بن كاتب غريب أستاداراً عوضاً عن الأمير زين الدين يحيىٰ.

وفي يوم السبت تاسع عشره خرج أمير حاجّ المحمل بالمحمل، وهو نانِق الظاهري، وسيباي أمير الركب الأول.

واستهلّت سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة. . .

بيوم الأحد ويوافقه تاسع مسرى.

ففي يوم السبت سابعه ـ الموافق لخامس عشر مسرى ـ أوفى النيل [ستّة

عشر ذراعاً وسبعة أصابع][1]، ونزل السلطان الملك الظاهر خُشْقَدَم، وعدَّى النيل، وخلَّق المقياس، وعاد وفتح خليج السَّدّ على العادة.

وفي يوم الخميس ثاني عشره ورد الخبر من نائب حلب يَشْبُك البَجَاسي أن شاه سُوار نائب أَبُلُسْتَين خرج عن طاعة السلطان، ويريد المشي على البلاد الحلبية، فرسم السلطان في الحال بخروج نائب طرابُلُس ونائب حماة إلى جهة البلاد الحلبية لمعاونة نائب حلب إن حصل أمر. ثم عيَّن السلطان تجريدةً من مصر إلى جهات البلاد الحلبية إن ألجأت الضرورة إلى سفرهم، والذين عيّنهم في هذه التجريدة من أمراء الألوف: الأتابَك يَلَباي، وأمير سلاح قَرْقَماس، وأمير مجلس تَمُرْبُغا، وقانِي بَك المحمودي، ومُغُلْباي طاز المؤيَّدي، وذكر أنه تعيَّن عدّة كبيرة من أمراء الطبلخانات والعشرات، وألف مملوك من المماليك السلطانية. هذا والسلطان قد بدأ فيه التوعّك من يوم عاشوراء، وهذا المرض الذي مات فيه. ثم لهج السلطان بعزل يَشْبُك البجَاسي نائب حلب وتولية الأمير مُغُلْباي طاز المؤيَّدي المقدَّم ذكره عوضه في نيابة حلب.

ثم في يوم الخميس تاسع عشره ورد الخبر بأن إقامة الحاج التي جُهِّزَت من القاهرة أُخِذَت عن آخرها، أخذها مبارك شيخ بني عُقْبَة بمَن كان معه من العرب، وأنه قَتَلَ جماعة ممّن كان مع الإقامة المذكورة، منهم جارقُطْلو السّيفي دُولَات باي أحد أمراء آخورية السلطان، فعظم ذلك على السلطان، وزاد توعّكه، وعلى الناس قاطبة، وضرّ أخذ إقامة الحاج غاية الضرر، وأشرف غالبهم على الموت.

فلما كان يوم الجمعة العشرين من المحرّم وصل الحاج الرجبي، وعظيمُ مَن كان فيه زينُ الدين بن مُزْهِر كاتب السِّرِّ المقدّم ذكره، وأمير حاج الركب الأول سَيْباي، إلى بركة الحاجّ معاً، بعد أنْ قاست الحجاجُ أهوالاً وشدائد من عدم المِيرَة والعلوفة وقِلَّة الظهر، ودخل نايِق أمير الحاج من الغد.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرين المحرّم عيَّن السلطان الأمير أُزْبُك رأس

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

نوبة النُّوَب الظاهري، والأمير جَانِبَك حاجب الحجَّاب الأشرفي المعروف بقَلْقَسيز، وصحبتهما أربعة من أمراء العشرات، وهم دُولَات باي الأبو بكري المؤيَّدي، وقُطْلُباي الأشرفي، وتَنِبَك الأشرفي، وتَغْري بَرْدي الطَيَّاري، وعِدّة مماليك من المماليك السلطانية، لقتال مبارك شيخ عرب بني عُقْبَة ومَنْ معه من الأعراب، وكتبَ السلطان أيضاً لنائب الكَرَك الأمير بَلَاط، ونائب غزَّة الأمير إينال الأشقر، بالمسير إلى جهة الأمير أُزْبُك بعَقَبَة أَيْلَة، ومساعدته على قتال مبارك المذكور، وخرج الأمير أُزْبُك بمَن عُيِّن معه من القاهرة في يوم الاثنين سابع صفر.

كلّ ذلك والسلطان متوعّك بالإسهال، وهو لا ينقطع عن الخروج إلى الحوش، بل يتجلّد غاية التجلّد، حتى إنه عمل الموكب في هذا اليوم بالقصر لأجل خروج الأمير أُزْبُك، وهذا آخر موكب عمله الملك الظاهر خُشْقَدَم بالقصر السلطاني.

فلما كان يوم الخميس عاشر صفر أُرجف بموته، وأُشيع ذلك إشاعة خفيفة في أَلْسِنَةِ العوّامّ.

فلما كان يوم الجمعة حادي عشره خرج السلطان الملك الظاهر خُشْقَدَم إلى صلاة الجمعة من باب الحريم ماشياً على قدميه من غير مساعدة، وعليه قماش الموكب الفوقاني، والسيف والكَلَفْتاة على العادة، وصلّى الجمعة وسُنَّتها قائماً على قدميه، هذا وقد أخذ منه المرض الحدّ المؤلم، وهو يستعمل التجلُّد وإظهار القوة، إلى أن فرغت الصلاة، وعاد إلى الحريم ماشياً أيضاً، ولكن القاضي الشافعي أسرع في الخطبة والصلاة إلى الغاية حسبما كان أشار إلى السلطان بذلك، بحيث إن الخطبة والصلاة كانت على نحو ثلاث درج رمل وبعض دقائق.

فلما عاد السلطان من الصلاة إلى الحريم سقط مغشياً عليه لشدّة ما ناله من التعب وعظم التجلّد. وهذه أيضاً آخر جمعة صلاّها، ولم يخرج بعدها من باب الحريم لا إلى صلاة ولا إلى غيرها، وصارت الخدمة بعد ذلك في الحريم بقاعة البَيْسَرِيّة.

ثم أصبح السلطان في يوم السبت ثاني عشره رسم بالمناداة بشوارع القاهرة بأن أحداً لا يخرج بعد صلاة المغرب من بيته ولا يفتح سُوقِيٌّ دكّانه، وهدَّد مَن خالف ذلك، فلم يلتفت أحد إلى هذه المناداة؛ وعُلِمَ أن المقصود من هذه المناداة عدم خروج المماليك في الليل، وتوجّه بعضهم لبعض لإثارة فتنة.

وفي هذه الأيام ورد الخبر من دمشق بأن الأمير بُرْدبَك نائب الشام خرج من دمشق بعساكرها في آخر المحرّم إلى جهة حلب لمعاونة نائب حلب على قتال شاه سُوار.

ثم في يوم الاثنين رابع عشر صفر عمل السلطان الخدمة بقاعة البَيْسَرِيّة من الحريم السلطاني، لضعفه عن الخروج إلى قاعة الدهيشة، وحضرت الأمراء المقدّمون وغيرهم الخدمة السلطانية بالبَيْسَريّة، ولكن بغير قماش، وعلَّم السلطان على عدّة مناشير ومراسيم دون العشرين علامة، ولكن ظهر عليه المرض، لكنه يتجلّد ويقوم لمَن دخل إليه من القضاة والعلماء.

فلما كان يوم الجمعة ثامن عشره لم يشهد فيه صلاة الجمعة وصلَّت الأمراءُ بجامع القلعة على العادة. وبعد أن فرغت الصلاة دخلوا عليه وسلَّمُوا عليه، واستوحشوا منه، وجلسوا عنده إلى أن أسقاهم مشروب السّكر، وانصرفوا.

ثم في آخر يوم الاثنين حادي عشرينه وجَدَ السلطانُ في نفسه نشاطاً، فقام وتمشّى خطوات، فتباشر الناسُ بعافيته. كلّ هذا وهو مستمرٌّ في أول النهار وفي آخره يعلِّم على المناشير والمراسيم، لكن بحسب الحال، تارة كثيراً، وتارة قليلاً.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه لم يحضر السلطان فيه الصلاة أيضاً لثقله في المرض، ودخلوا إليه الأمراء بعد صلاة الجمعة، وجلسوا عنده، وفعل معهم كفعله في الجمعة الماضية.

واستهلّ شهر ربيع الأوّل يوم الخميس والسلطان مُلازِم للفراش، والناس في أمر مريج من توقّف الأحوال، لا سيما أرباب الحوائج الواردون من الأقطار. هذا

وجميع نُوّاب البلاد الشاميّة قد خرجوا من أعمالهم إلى البلاد الحلبية، لقتال شاه سُوار بن دُلْغَادِر، ما خلا جَكَم نائب صَفَد، ونائب غزَّة قد خرج أيضاً إلى جهة العَقَبَة لقتال مبارك شيخ عرب بني عُقْبَة، فبهذا المقتضى خلا الجو للمُفسِدين وقطّاع الطريق وغيرهم بالدرب الشامي والمصري؛ ومع هذا فالفتنُ لم تزل قائمةً بأسفل مصر الشرقية والغربية، وأيضاً بأعلى مصر، الصعيد الأدنى والأعلى، وتزايد ذلك بطول مرض السلطان.

وبينما الناس في ذلك ورد الخبر من يَشْبُك من مهدي الظاهري الكاشف بالصعيد أن يونس بن عمر الهوّاري خرج عن طاعة السلطان، وقاتل يَشْبُك المذكور، وقتل من عسكره عِدّة كبيرةً، وانكسر يَشْبُك منه بعد أن جُرح في بدنه، ثم أنهى يَشْبُك أنه يريد ولاية سليمان بن الهوَّاري عوضاً عن ابن عمّه يونس، وأنه يريد نجدةً كبيرةً من الديار المصرية. فرسم السلطان في الحال بولاية سليمان بن عمر، وتوجّه إليه بالخلعة قَجْمَاسُ الظاهري، ورسم السلطان بتعيين تجريدة إلى بلاد الصعيد.

فلما كان يوم السبت عيَّن السلطانُ التجريدة المذكورة إلى بلاد الصعيد، وعليها الأمير قَرْقَماس الجَلَب الأشرفي أمير سلاح، ويَشْبُك من سلمان شاه الفقيه الدّوادار الكبير، ومن أمراء العشرات خمسة نفر: قَلَمْطاي الإسحاقي، وأُرْغون شاه أستادار الصحبة، ويَشْبُك الإسحاقي، وأيدكي، ويَشْبُك الأشقر، والخمسة أشرفية، وجماعة كبيرة من المماليك السلطانية أشرفية كبار وأشرفية صغار، ونزل الأمير نقيب الجيش إلى المعينين، وأمرهم على لسان السلطان بالسفر من يومهم إلى الصعيد، فاعتذروا بعدم فراغ حوائجهم، لكون الوقت يوماً واحداً.

فلما كان آخر هذا النهار أُرجف بموت السلطان، فماجت الناس، وكثر الهرج بشوارع القاهرة، ولبس بعضُ المماليك آلة الحرب، فاستمرت الحركة موجودة في الناس إلى قريب الصباح.

وأصبح في يوم الأحد رابع ربيع الأوّل والسلطان في قيد الحياة، غير أنه

انحطَّ في المرض انحطاطاً يُشعِر العارف بموته، ونودي في الحال بالأمان والبيع والشراء، ودقّت البشائر بعافية السلطان في باكر النهار وفي آخره أياماً كثيرة، وصار السلطان أمره إلى التلف وهم على ذلك.

فلما كان عصر نهار الأحد المذكور نزل الأمير تَنِبَك المعلّم الأشرفي الرأس نوبة الثاني إلى الأمير قَرْقَماس أمير سلاح على لسان السلطان وأمره بالخروج إلى السّفر من وقته بعد أن ذكر له كلاماً حسناً من السلطان، فخرج قَرْقَماس من وقته، وكذلك يَشْبُك الفقيه الدَّوادار، وتبعهما مَن بقي ممّن عُيِّن إلى السفر، ونزلوا إلى المراكب، ووقفوا بساحل النيل ينتظرون مَن عُيِّن معهم من المماليك السلطانية فلم يأتهم أحد. كلّ ذلك والسلطان صحيح الذهن والعقل، يفهم الكلام ويُحسِن الردّ، وينفذ غالب الأمور، ويولي ويعزل، والناس لا تصدّق ذلك، وأنا أشاهده بالعين. هذا والسلطان يستحثُّ مَن نُدب إلى الصعيد بالسّفر في كل يوم.

وأصبح السلطان في يوم الاثنين على حاله، وحضر عنده بعض أمراء، وعلّم على دون عشرة مناشير ومراسيم، وهو في غاية من شدّة المرض. فلما نجزت العلامة استلقى على قفاه، فرأيتُ وجهه كوجه الأموات. وانفضَّ الناسُ وخرجوا. فلما كان بعد الظهر طَلَع إلى السلطان بعضُ أمراء الألوف والأعيان، وسلّم عليه، فشكا إليه السلطان ما أُشيع عنه من الموت، ثم قال: «أنا ما أموت حتى أموِّت خلائق، وأنا أعرف مَنْ أشاع هذا عنّي»، يعني بذلك الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار. قلتُ: قد عَرَّفْتُ الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار وأمرهما وما وقع في مرض السلطان من أوّله إلى آخره في تاريخنا «الحوادث»، وليس ما نذكر هنا إلّا علم خبر لا غير ـ انتهى.

ثم طلع القاضي كاتبُ السِّرِّ بعد ظهر يوم الأحد المذكور وأحضر آلة العلامة، فلم يطق السلطانُ أن يعلِّم شيئاً، وقيل: إنه علَّم على أربعة مناشير، وقيل غير ذلك، وقيل إنه لم يطق الجلوس إلّا بشدّة. هذا مع التجلّد الذي لا مزيد عليه؛ وكان هذا دأبه من أوّل مرضه إلى أن مات ـ التجلّد وعدم إظهار العجز ـ ولله درّه ما كان أجلده.

وبات السلطانُ في تلك الليلة على حاله، والناس في أمره على أقوال كثيرة. هذا وهو يستحثّ على سَفَرِ الأمراء المعينين إلى الصعيد، والقصّاد منه ترد إليهم، وهم يعتذرون عن السفر بعدم حضور مَن عُيِّن معهم من المماليك السلطانية، فيأمر بالمناداة بسفرهم، فلم يخرج أحد.

فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء سادسه طلع الأميرُ الكبير يَلَباي إلى السلطان ومعه خُجْدَاشُه قاني بك المحمودي، وجانِبَك كوهيّة، والثلاثة أمراء أُلوف مؤيديّة. فلما دخلوا على السلطان لم ينهض إليهم للجلوس، بل استمر على جنبه، لشدّة مرضه، وشكا إليهم ما به، فتألّموا لذلك ودعوا له. ثم أمر السلطان وهو على تلك الحالة أن ينادى بسفر العسكر إلى الصعيد. ثم خلع على يوسف بن قُطَيْس أستادار السلطان بدمشق بمشيخة نابُلُس. وخرج الناس من عند السلطان، ولم يعلِّم شيئاً. وهذا أوّل يوم منع السلطان فيه العَلاَمة من يوم مرض إلى هذا اليوم.

وأصبح يوم الخميس ثامنه وقد اشتدَّ به المرض، ويئس الناس منه، وكذلك يوم الجمعة، ولكن عقله واعٍ، ولسانه طلق، وكلامه كلام الأصحّاء.

وأصبح يوم السبت عاشر شهر ربيع الأول وهو في السياق. فلما كان ضحوة النهار المذكور حدثت أمور ذكرناها في تاريخنا «الحوادث». واجتمع الأمراء الأكابر بمقعد الإسطبل السلطاني عند الأمير آخور الكبير، والأمير آخور المذكور حِسٌّ بلا معنى، ليس له في المجلس إلاّ الحضور بالجثة، وجلس الأتابَك يَلَباي في صدر المجلس وبإزائه الأمير تَمُرْبُغَا أمير مجلس، وهو متكلِّمُ القوم، ولم يحضر قَرْقَماس أمير سلاح لإقامته بساحل النيل كما تقدَّم. وحضر جماعةٌ من أمراء الألوف، وكبير الظاهرية الخُشْقَدَمِيَّة يوم ذاك خير بك الدَّوادار الثاني، وأخذوا في الكلام إلى أن وقع الاتفاق بينهم على سلطنة الأتابَك يَلَباي، ورضي به عظيم الأمراء الظاهرية الكبار الأمير تَمُرْبُغا أمير مجلس، وكبير الظاهرية الصغار الخُشْقَدمِيَّة خير بك الدَّوادار، وجميع مَن حضر؛ وكان رضاء الظاهرية الكبار بسلطنة يَلَباي بخلاف الظَّن، وكذلك الظاهريّة الصغار.

ثم تكلَّم بعضهم بأن القوم يريدون من الأمير الكبير أن يحلف لهم بما يطمئن به قلوبهم وخواطرهم، فتناول المصحف الشريف بيده، وحلف لهم يميناً بما أرادوه، ثم حلف الأمير تَمُرْبُغا أمير مجلس، وشَرْحُ اليمين وكيفيتُه معروفة، فإنه يمين لتمشية الحال. وأرادوا خير بك أن يحلف، فقال ما معناه: «نحن نخشاكم فحلّفناكم، فنحن نحلف على ماذا؟».

ثم انفضَّ المجلس ونزل الأتابَك يَلَباي إلى داره وبين يديه وجوه الأمراء. ولم يحضر الأمير قَايتباي الظاهري معهم عند الاتفاق واكتفى عن الحضور بكبيرهم الأمير تَمُرْبُغا الظاهري، كلّ ذلك قبل الظهر بيسير. فلم يكن بعد أذان الظهر إلّا بنحو ساعة رمل لا غير ومات السلطان بقاعة البَيْسَرِيّة، بعد أذان الظهر بدرجات. وفي حال وفاته طلعت جميع الأمراء إلى القلعة، وأخذوا في تجهيز السلطان الملك الظاهر خُشْقَدَم رحمه الله تعالى، وغسّلوه وكفّنوه، وصلّوا عليه بباب القُلَّة من قلعة الجبل، كلّ ذلك قبل أن تابع العساكر يَلَباي المذكور بالسلطنة كما سنذكره في سلطنة الأتابَك يَلَباي. وهذا الذي وقع من تجهيز السلطان وإخراجه قبل أن يتسلطن سلطان بخلاف العادة؛ فإن العادة جرت أنه لا يجهّز سلطان إلّا بعد أن يتسلطن سلطانٌ غيره، ثم يأخذون بعد ذلك في تجهيزه ـ انتهى.

ولمّا صُلِّي عليه بباب القُلَّة، وحُمِلَ نَعْشُه، وعلى نعشه مُرَقَّعَةُ الفقراء، ساروا به إلى أن أنزلوه من باب المدرج، ولم يكن معه كثير خلق، بل جميع مَن كان معه أمام نعشه، وحوله وخلفه من الأمراء والخاصكية دون العشرين نفراً، والأكثر منهم أجناد؛ فإنه لم ينزل معه أحد من أمراء الألوف كما هي العادة، ولا أحد من المباشرين غير الأمير شرف الدين بن كاتب غريب الأستادار وجماعة من أمراء الطبلخانات والعشرات. وساروا به وقد ازدحمت الناس والعوّامّ حول نعشه، إلى أن أوصلوه إلى تربته ومدرسته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبّة النَّصر، ودُفِنَ بالقبّة التي بالمدرسة المذكورة، وحضرتُ أنا دفنه ـ رحمه الله تعالى. ولم تتأسّف الناس عليه يوم موته ذاك التأسُّف العظيم، لكن تأسّفوا عليه بعد ذلك تأسّفاً عظيماً

لما تسلطن بعده الأتابك يلَبَاي، بل عظم فقده عند سلطنة يَلَباي على الناس قاطبة.

ومات الملك الظاهر خُشْقَدَم ـ رحمه الله تعالى ـ وسنُّه نحو خمس وستّين سنة تخميناً، هكذا أملى عليَّ من لفظه بعد سلطنته.

وكان الملك الظاهر ـ رحمه الله تعالى ـ سلطاناً جليلاً عظيماً، عاقلاً مهاباً، عارفاً صبوراً، مدبّراً سيوساً، حشماً متجمّلاً في ملبسه ومركبه وشأنه إلى الغاية، بحيث إنه كان لا يعجبه من البعلبكي الأبيض إلّا ما تزيد قيمته على ثلاثين ديناراً، فما بالك بالصُّوف والسمُّور وغير ذلك. وكان يقتني من كل شيء أحسنه، وكان مع هذا التأنّق لائقاً في شكله وملبسه ومركبه، نشأ على ذلك عمره كله، أعرفه جندياً إلى أن صار سلطاناً، وهو متجمّل في ملبسه على ما حكيناه.

وكان مليح الشكل للطول أقرب، أعني معتدل القامة، نحيف البَدَن، أبيض اللون، تعلوه صُفرة ذهبية حسنة، كبير اللحية، تضرب إلى شُقْرة، قد شاب أكثَرُها، حسن فيها، وكان رشيق الحركات، خليقاً للمُلْك، عارفاً بأنواع الملاعيب، كالرّمح والكُرة، وسَوْق المحمل، له عمر كبير في ذلك أيام شبوبيّته، وله مشاركة في غير ذلك من أنواع الملاعيب جيدة.

وكان له إلمام ببعض القراءات، ويبحث مع الفقهاء، وله فهم وذوق بحسب الحال. وكان كثير الأدب، ويجلُّ العلماءَ ويقومُ لغالبهم إن قَدِمَ أحد منهم عليه، مع حشمة كانت فيه وأدب في كلامه ولفظه. وكان يتكلم باللغة العربية كلاماً يقارب الفصاحة على عُجْمَةٍ كانت في لسانه قليلة، وذلك بالنسبة إلى أبناء جنسه.

وكان يميل إلى جمع المال ويشره في ذلك من أيّ وجه كان جمعه، وله في ذلك أعذار كثيرة مقبولة وغير مقبولة. وعظم في أواخر عمره من سلطنته، وضخم وكبرت هيئته في قلوب عساكره ورعيّته لبَطْنٍ صار فيه، وإقدام على المَهولات مع دُربة ومعرفة فيما يفعله، فإن كان المُسيء ممّن يُتلافى أمره زجره ولقّنه حجّته بدُربة ولباقة، وإن كان ممّن لا يخاف عاقبته قاصصه بما يردع به أمثاله، من الضرب

المبرح والنفي، وعُدَّ ذلك من معايبه. يقول مَن قال: «القوة على الضعيف ضعف في القوة».

ومن ذلك أيضاً أنه كان في الغالب يُقدِم على ما يفعله من غير مشورة ولا تَأَنٍّ، ولهذا كانت أموره تنتقض في بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان. ومما كان يُعاب به عليه إمْسَاكُه، وتشويشُ المماليك الذين كان اشتراهم في سلطنته الأجلاب، مع أنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان كثيراً ما ينهاهم عن أفعالهم القبيحة، ويردع بعضهم بالحبس والضرب والنفي وأنواع النَّكَال، وهذا بخلاف مَن كان قبله من الملوك. وكان له عذر مقبول في إنشائه هذه المماليك الأجلاب، لا ينبغي لي ذكره، يعرفه الحاذق[1]. ومن كل وجه فالمالُ محبوبٌ على كل حال. وبالجملة إنه كانت محاسنه أضعَاف مساوئه، وأيامه غرر أيام، لولا ما شَانَ سؤدُدَه ومممالكه، ولله درّ القائل: [الطويل]

ومَن ذا الذي تُرْضَىٰ سجاياهُ كلُّها كَفَى المرءَ فخراً أن تُعَدَّ معايبُهُ

وعلى كل وجه هو من عظماء الملوك وأجِلّائهم وأخفّهم وطأة، مع شدّة كانت

---

(١) السبب الأساس في ذلك أن السلطان خشقدم لم يكن جركسياً وإنما كان رومياً، وهو بذلك لا يعتمد على عصبية قوية. ولمّا اتفق الأمراء على تنصيب خشقدم سلطاناً بعد الانقلاب على المؤيد أحمد بن إينال كان هذا المعنى حاضراً في ذهنهم، وقد عبّر عنه الأمير جانبك نائب جدّة ومتكلّم المماليك الظاهرية بقوله: «الرأي عندي سلطنة الأمير الكبير خشقدم المؤيدي، فإنه من غير الجنس ـ يعني كونه رومي الجنس ـ وأيضاً إنه رجل غريب ليس له شوكة، ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب».

وفي جميع الأحوال فإن أي سلطان جديد كان يسعى لشراء مماليك جدد واصطناعهم ليحمي نفسه، ذلك أنه كان بمجرد تولّيه السلطنة يقوم بتصفية وإبعاد أنصار السلطان السابق. هذا بالإضافة إلى تغييرات كاملة في وظائف إدارات الدولة، حتى إن أيّ انتقال للحكم من سلطان إلى آخر كان بمثابة انقلاب كامل. ولا يخفى ما لهذا الأمر من أثر كبير في إضعاف الدولة على جميع المستويات، خاصة إذا تناوب على الحكم عدّة سلاطين خلال فترة زمنية قصيرة. ففي سنة ٨٢٤ هـ تناوب على الحكم ثلاثة سلاطين هم أحمد بن المؤيد شيخ وسيف الدين ططر ومحمد بن ططر. وخلال سنة ٨٦٥ هـ تنقل الحكم أيضاً بين ثلاثة سلاطين هم الأشرف إينال وولده المؤيد ثم الظاهر خشقدم. وكذلك سنة ٨٧٢ هـ التي شهدت حكم كلٍّ من يلباي وتمربغا وقايتباي.

فيه ولين، وتكبّر واتّضاع، وبخل وكرم، فمَن أصابه شرُّه يلجأ لله، ويجعل أجره على الله تعالى، ومَن أمطره خيرُه ورِفْدُه فليترحّم عليه، وأنا ممّن هو بين النوعين، لم يطرقني شرّه ولا أمطرني خيرُه، غير أنه كان معظّماً لي، وكلامي عنده مقبول، وحوائجي عنده مقضيّة، وما قلتُه فيه فهو على الإنصاف - إن شاء الله تعالى - وبعد كل شيء، فرحمه الله تعالى، وعفا عنه.

وكانت مدة سلطنته على مصر ستّ سنين وخمسةَ أشهر واثنين وعشرين يوماً بيوم سلطنته - انتهى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الظاهر خشْقَدَم على مصر

وهي سنة خمس وستّين وثمانمائة؛ على أن السنة المذكورة حكم فيها ثلاثة ملوك: حَكَمَ الأشرفُ إينال من أوّلها إلى أن خلع نفسه، وولي والده الملك المؤيَّد أحمد في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة، ومات من الغد في يوم الخميس، وحكم ولـدُه الملكُ المؤيّدُ أحمد من رابع عشر جمادى الآخرة إلى يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان. ثم حكم في باقي السنة الملك الظاهر خُشْقَدَم إلى آخرها.

فيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين سُودُون بن عبد الله الإينالي المؤيَّدي المعروف بقَرَاقاش حاجب الحجّاب بجزيرة قُبْرُس في الغزاة من غير جراح، بل مرض نحو عشرة أيام، ومات في أول المحرّم. وقد عرفنا أحواله في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، وأيضاً في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» بما فيه كفاية عن ذكره ثانياً هنا. ومات وقد زاد سنُّه على الستّين، وكان مخلّطاً في أموره، يقبل المدح والذم.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جَانِبَك بنُ عبد الله النّوْرُوزي، أحد أمراء الطبلخانات، ونائب الإسكندرية بها في يوم السبت مستهلّ صفر وقد ناهز الثمانين من العمر. وكان من مماليك الأمير نَوْرُوز الحافظي المتغلّب على دمشق، ووَلِيَ أيام أُستاذه نيابة بعلبك، ولهذا كان يُعرَف بنائب بعلبك. وكان من خيّار أبناء

جنسه. كان شجاعاً مِقْداماً كريماً متواضعاً، ديِّناً خيِّراً، قلّ أن ترى العيونُ مثله.

وتُوُفِّيَ الشيخ الصالح الزاهد العابد المعتقد عمر [بن أبي بكر بن أحمد](1) اليمني نزيل مكة في سَحَر ليلة الأربعاء ثالث شهر ربيع الأوّل بمكة، ودُفن بمقابر باب شبيكة. وكان فرداً في كثرة العبادة والزهد، وقد سألت عنه بمكة من صاحبنا القدوة أحمد الفوّي، أعاد الله علينا من بركاته، فقال: «هذا يُشَبَّهُ بعُبَّاد بني إسرائيل».

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العالِم العلّامة أبو الفضل محمد [بن محمد](1) بن أبي القاسم(2) المَشَدَّالِي البِجائي المغربي المالكي غريباً ببعض أعمال حلب، وهو في الكهولية. وكان إماماً في المعقول والمنقول، وشُهرته القوية بالأول. كان إماماً في النحو والمنطق وعلم المعاني والبيان والأصلين والطب والحكمة وعلوم الأوائل. وكان إذا حقّق مسألة فقهية كان إلى كلامه المنتهى. وبالجملة إنه كان نادِرَةً من النَّوَادر ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العالِم الفقيه عزُّ الدين محمد بن محمد بن عبد السلام، أحد نوّاب الشافعية، في ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر، وكان آخر مَن حضر دروس الشيخ سراج الدين عمر البُلْقيني ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي السلطانُ الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلائي ثم الظاهري سلطان الديار المصرية في يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى وقد تقدَّم ذكره.

وتُوُفِّيَ جمالُ الدين جميلُ بن أحمد بن عميرة بن يوسف المعروف بابن يوسف، شيخ العرب ببعض إقليم الغربية والسخاوية بالوجه البحري، في جمادى الأولى وقد جاوز الستين.

---

(1) زيادة عن الضوء اللامع.

(2) في الضوء اللامع: «القسم».

وتُوُفِّيَ الزيني مَرْجانُ بن عبد الله الحصني الحبشي الطواشي، مقدَّم المماليك السلطانية، في آخر يوم الأحد ثاني جمادى الآخرة، ودُفن من الغد، وقد ناهز الستّين من العمر، كان وضيعاً في مبدأ أمره، وقاسى خطوب الدهر ألواناً، وتغرّب واحتاج في غربته إلى التكدِّي والسؤال، ثم حسنت حاله، وخدم عند خلائق من الأمراء، إلى أن تحرّك له بُعَيْضُ سعد، وترَقّى إلى أن وَلِيَ نيابةَ المقدّم، ثم التَّقْدمة. فلما وَلِيَ لم يُراعِ النعمة، بل أخذ في الإسراف على نفسه، فما عفَّ ولا كفَّ، ودام على ذلك إلى أن مات؛ وعلى كل حال فمستراح منه، وهو ممّن يُقال في حقه: «يأكل ما كان ويضيق بمكان».

وتُوُفِّي الوزيرُ الصاحبُ سعدُ الدين فرج بن مجد الدين ماجد بن النحّال القبطي المصري بطّالاً بالقاهرة، في ليلة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة، وقد جاوز الستّين من العمر، بعد أن وَلِيَ كتابة المماليك والوَزَر والأستادارية غير مرة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين كُزُل بن عبد الله السُّودوني المعلِّم، أحد أمراء العشرات في يوم السبت ثاني عشرين جمادى الآخرة، ودفن من الغد بتربته التي أنشأها بالصحراء، وسنُّه نحو التسعين سنة تخميناً، وقد انتهت إليه رئاسة الرُّمْح وتعليمه في زمانه. وكان أصله من مماليك سيّدي سُودُون نائب الشام قريب الملك الظاهر بَرْقُوق، وقد ذكرنا من أمره نبذة في ترجمة الملك الظاهر في «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأميرُ زينُ الدين فَيْرُوز بن عبد الله الطواشي الرومي النَّوْرُوزي الزّمام والخازندار، في يوم الخميس رابع عشرين شعبان، وقد شاخ وجاوز الثمانين من العمر. وكان من عتقاء الأمير نَوْرُوز الحافظي نائب الشام، ثم وقع له بعد موت أستاذه مِحَنٌ وخطوب ذكرناها في غير موضع من مصنّفاتنا، وليس هذا المحل محل إطناب في التراجم، وإنما هو إخبار بما وقع وحدث على سبيل الاختصار في هذه الترجمة وغيرها. ومات فَيْرُوز هذا بعد مرض طويل، ودُفن بتربته التي أنشأها

بالصحراء، وخلّف مالاً كثيراً لم يظفر السلطان إلّا ببعضه، وهو نحو المائة ألف دينار أو أزيد. وكان رأساً في البخل والشُّح، يمشي من طبقته بقلعة الجبل إلى السلطان بالدهيشة، وإذا صلّى الفريضة صلّى جالساً إن صلّى.

وتُوُفِّي الأميرُ شرفُ الدين يونس الأَقْبائي الدّوادار الكبير بعد مرض طويل في يوم الأربعاء ثاني عشرين شهر رمضان، ودُفِن من يومه بتُرْبَتِه التي أنشأها بالصَّحراء، وقد جاوز الستّين من العُمْر، ولم يخلف بعده مثله سؤدداً وكرماً، وحشمةً وشجاعةً ورئاسةً. وبالجملة إنه كان به تجمّل في الزّمان - رحمه الله تعالى. وكان أصله من عتقاء الأمير آقْباي المؤيَّدي نائب الشام، حسبما ذكرنا محاسنه في غير موضع من تواريخنا.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين سُودُون بن عبد الله الأبو بكري المؤيدي أتابَك حلب بها في أواخر شهر رمضان، وهو مناهز الستّين من العُمْر. وأصله من عُتَقَاء الملك المؤيَّد شَيْخ. وقد وَلِيَ أتابَكية حلب غير مرّة، ووَلِيَ في بعض الأحيان نيابة حماة، ثم نقل إلى تقدمة ألف بدمشق، ثم إلى أتابَكية حلب. وكان عاقلاً حشماً، حسنة من حسنات الدنيا.

وتُوُفِّي الأميرُ سيفُ الدين خُشْكَلْدي بن عبد الله الكوجكي، أحد أمراء طرابُلُس، في أواخر شهر رمضان. وكان له شُهرة، ووَلِيَ نيابة حمص في وقت من الأوقات.

وتُوُفِّي الوزيرُ تاجُ الدين بن عبد الوهاب بن الشمس نصر الله ابن الوجيه توما القبطي الأَسْلَمي، الشهير بالشيخ الخطير - وهو لَقَبٌ لوالده نصر الله - بعدما شاخ، في يوم الأربعاء خامس ذي القعدة. وكان معدوداً من الكَتَبَة، وباشر الوَزَر بعجز، لكنه كفَّ عن المظالم، فهو أحسن الوزراء سيرة - والسّداد مُيَسّر.

وتُوُفِّي قاضي القضاة وليُّ الدين أحمدُ ابن القاضي تقي الدين ابن العلّامة بدر الدين محمد ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البُلْقيني الشافعي، قاضي قضاة دمشق مَعزولاً بها، بعد مرض طويل، في ذي القعدة، ومولده بالقاهرة في

سنة أربع عشرة وثمانمائة. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ عالِماً فاضلاً ذكيّاً، فصيح العبارة، مستقيم الذهن، طلق اللسان، جهوري الصوت، مليح الشكل، ، خطيباً بليغاً مفوهاً، كثير الاستحضار للشعر وأنواعه، نادرة في أقاربه وأبناء جنسه، إلّا أنه كان قليل الحظّ عند الملوك والأكابر، كما هي عادات الدّهر من تقديم الجهلاء وتأخير الفضلاء.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين خيربك بنُ عبد الله النَّوْرُوزِي بعد عزله عن نيابة صَفَد وتوجّهه إلى دمشق أميراً بها. وكان يلي المناصب الجليلة بالبذل لعدم أهليته، فإنه كان لا للسيف ولا للضيف.

وتُوُفِّيَ الشيخُ المعتقدُ الصالحُ المجذوبُ أحمد [بن خضر][1] السطوحي، المعروف بالشيخ خروف، في يوم السبت سابع ذي الحجة، ودفن بزاويته عند جامع مَلكتْمَرُ الشَيْخوني، المعروف بالجامع الأخضر بطريق بولاق. وكان للناس فيه اعتقاد، وكان يعجبني حاله في المجاذيب ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ القاضي أفضلُ الدين محمود بن عمر القرْمي الأصل، الحنفي الفقيه المشهور، أحد نُوَّاب الحُكْم الحنفية بالديار المصريّة، وهو عائد من مجاورته بمكة بالقاع الكبير، في ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة، وحمل إلى منزلة بَدْر فدُفن بها، وهو في عشر السبعين. وكان معدوداً من فقهاء السّادة الحنفية، وله اشتغال قديم، وفضل ومشاركة، وناب في الحكم زيادةً على ثلاثين سنة، مع أدب وحشمة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديمُ ستّة أذرع ونصف. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وواحد وعشرون إصبعاً. وثبت إلى أيام من توت، ومع هذا الثبات شرق بلاد كثيرة من عدم إتقان الجسور ـ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

* * *

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم على مصر

وهي سنة ستّ وستّين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين بِيبرس بن أحمد بن بقر شيخ العُرْبان بالشَّرْقية من أعمال القاهرة بالوجه البحري، وقد ناهز السبعين من العُمْر، في يوم الأربعاء مستهل صفر بالقاهرة. وكان مشكور السِّيرة نادرة في أبناء جنسه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الرَّبانيُّ الصُّوفيُّ المعتقد أبو عبد الله محمد [بن أحمد بن أبي بكر][1] الفوّيّ الشافعي، نزيل القاهرة بها، في ليلة السبت سلخ شهر ربيع الأول، وهو في الثمانين تخميناً، ودفن من الغد بالصحراء. وكان من تلامذة الشيخ المسلِّك إبراهيم [بن عمر بن محمد][1] الإدكاوي، وخدم غيره أيضاً من الصالحين. وكان رحمه الله تعالى أحد مَن أدركنا من أرباب الصلاح والخير ـ عفا الله تعالى عنه.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين قاني بَاي بن عبد الله الچاركسي الأمير آخور الكبير ـ كان ـ بثغر دِمياط بَطّالاً في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر، وحُمل ميتاً من دِمياط إلى القاهرة، فغُسِّل بها وكُفِّن وصُلِّي عليه بمصلاة المؤمني، وحضر السلطان الملك الظاهر خُشْقَدَم الصلاة عليه، ودُفن بتربته التي جدّدها وبناها بالقرب من دار الضيافة. وكان أستاذه الأمير چاركس القاسمي المصارع مدفوناً بها. ومات قاني بَاي هذا وقد ناهز الثمانين من العمر، وكان أصله من مماليك الأتابك يَشْبُك الشعباني، وأنعم به على الأمير چاركس القاسمي المصارع، فأعتقه چاركس، واستمر بخدمته إلى أن قتل في سنة عشر وثمانمائة، وصار من جملة المماليك السلطانية. ثم صار خاصكياً بعد موت الملك المؤيد شَيْخ، وعاش على ذلك دهراً طويلاً، إلى أن صار أمْرُ المُلك إلى الملك الظاهر جَقْمَق في دولة الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف بَرْسْباي وأنعم عليه بإمرة عشرة، لكونه من مماليك أخيه چاركس

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

القاسمي، وكان چاركس أكبر في السنّ من أخيه الملك الظاهر جَقْمَق. فلم يكن إلّا مُدّة يسيرة وتسلطن الملك الظاهر جَقْمَق، وقرّب قاني باي هذا ورقّاه، وجعله شاد الشراب خاناه، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف، ودام على وظيفته وهو من جملة المقدّمين، ثم جعله دواداراً كبيراً، ثم أمير آخور كبيراً. ونالته السعادةُ، وعظم في الدولة الظاهرية حسبما ذكرنا أموره مفصّلة في تاريخنا «الحوادث»، ودام على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جقمق وتسلطن ولده الملك المنصور عثمان، وخرج عليه الأتابَك إينَال العلائي وتسلطن عوضه، فأمسك قاني بَاي هذا وحبسه بالإسكندرية سنين كثيرة إلى أن أخرجه الملك الظاهر خُشْقَدَم في أول سلطنته وسيّره إلى دِمياط بطّالاً، فدام بها إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان خيِّراً ديِّناً سليم الباطن مع طيش وخفّة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الأميرُ سيفُ الدين تَمُرْبَاي بن عبد الله من حمزة الناصري المعروف بتَمُرْبَاي طَطَر، أحد مقدّمي الألوف، في ليلة السبت ثامن عشرين جمادى الآخرة، وقد ناهز الثمانين. وكان تركي الجنس من مماليك الملك الناصر فرج، ونزل به الدهر، ثم عاد إلى بيت السلطان وترقّى ثانياً إلى أن صار أمير مائة ومقدّم ألف في دولة الملك الظاهر خُشْقَدَم. وكان من المهملين المساكين.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جَانِبَك بنُ عبد الله الجَكَمِي نائب مَلَطْية بها في شهر ربيع الآخر وقد أسنّ، لأنه من مماليك الأمير جَكَم من عوض نائب حلب ـ كان.

وتُوُفِّيَ غَيْثُ بن نَدَى بن نصير الدِّين، شيخ العربان، بأحد جهات إقليم مصر، ودُفِنَ خارج القاهرة في يوم الاثنين خامس شهر رجب؛ وكان موته بعد قتل ابنه حمزة وسلخه باثنين وعشرين يوماً، ومُسْتَرَاحٌ منه ومن ابنه حمزة ـ ولله الحمد على موتهما.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين حاج إينال اليَشْبُكي نائب حلب بها في ليلة الخميس سابع عشرين شعبان بحلب، ودفن في يوم الخميس، وقد قارب السّتين من العمر أو جاوزها. وكان أصله من مماليك الأمير يَشْبُك الجَكَمي أمير آخور،

ووَلِيَ حلب عوضه الأمير جانِبَك التاجّي المؤيَّدي. وكان إينال هذا وَلِيَ عدّة أعمال بالبلاد الشَّامية: حماة، وطرابُلُس، وحلب، غير أنه لم تسبق له رئاسة بمصر قطُّ. وكان لا بأس به، لكنه لم يحمده الحلبيون في ولايته عليهم.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين تَنِبَك بنُ عبد الله الأشرفي المعروف بالصغير، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، قتيلاً بيد العربان بالبُحَيرة، وقد ذكرنا واقعته وكيفية قتله في «الحوادث»، وكذلك الأميرُ سَنْطَباي قَرا الظاهري ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ المقامُ الناصري محمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال العلائي بثغر الإسكندرية في يوم الخميس مستهل ذي الحجة، وعمره نحو سبع عشرة سنة؛ وهو شقيق الملك المؤيد أحمد، أُمهما خَوَنْد زينب بنت بدر الدين بن خاص بك.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وعشرة أصابع. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وستّة أصابع. وثبت إلى أواخر توت على نحو ثمانية عشر ذراعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم على مصر

وهي سنة سبع وستّين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ الأمير الطواشي عنبر الطنبذي الحبشي نائب مقدّم المماليك السلطانية بطّالاً في يوم السبت ثامن المحرّم. وكان من أصاغر أبناء طائفته. كان من عُتَقاء التاجر نور الدين علي الطّنْبذي، وبنى مدرسة بخط سوق الغنم قبل موته بمدة يسيرة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جانَم بنُ عبد الله الأشرفي نائب الشام قتيلاً بيد بعض مماليكه بمدينة الرُّها، في ليلة الثلاثاء تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل، وهو نزيل حسن بك [بن قرايُلُك] صاحب ديار بكر. وقد تقدّم من ذكره في أول سلطنة الملك الظاهر هذا ما يُغْني عن التعريف بأموره ثانياً هنا. وكان جانَم رجلاً للقِصَر

أقرب، وفيه جِدّة مزاج، وسرعة حركة، مع تديّن وجودة، ومحبّة للفقهاء والفقراء وأرباب الصلاح، مع كرم وأدب وحشمة ورئاسة وعفّة عن القاذورات والفواحش ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة شيخُ الإسلام سعدُ الدين سعد ابن قاضي القضاة شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر بن مُصْلح بن أبي بكر بن سعد العبسي الدّيري المَقْدِسي الحنفي، قاضي قضاة الديار المصرية وعالمها، معزولاً عن القضاء بداره بمصر القديمة، في ليلة الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر، وحضر السلطانُ الصلاة عليه بمصلاة المؤمني، ودُفن بتربة السلطان الملك الظاهر خُشْقَدَم بالصحراء. ومولده ببيت المقْدِس في شهر رجب سنة ثمانٍ وستّين وسبعمائة، وبها نشأ وسمع الحديث على جماعة ذكرناهم في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، وحفظ القرآن العزيز وعدَّة متون في الفقه، وتفقّه بأبيه وغيره إلى أن بَرَع في الفقه وأصوله. وأما فروع مذهبه والتّفْسير فكان فيهما آية من آيات الله، ومات وقد انتهت إليه رئاسةُ الفقه في مذهبه شرقاً وغرباً، مع أنه كان رأساً أيضاً في حفظ التفسير، وله مشاركة في عدّة فنون، وبالجملة فإنه مات ولم يخلف بعده مثله ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين شاد بك بن عبد الله الصارمي نائب غزّة بها في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأوّل، وقد قارب الستّين. وكان من عتقاء المقام الصارمي إبراهيم ابن الملك المؤيَّد شَيْخ المحمودي، وكان ولي غزة بالبذل، ومات قبل أن يستوفي ما بذله في ولايتها، وخلف عليه ديوناً ـ عفا الله تعالى عنه.

وتُوُفِّيَت خَوَنْد بنت السلطان الملك الظاهر جَقْمَق، زوجة الأمير أُزْبك من طَطخ الظاهري، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، في عصر يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى، وحضرَ السلطانُ الصلاةَ عليها بمصلاة المؤمني، ودُفنت عند أبيها بتربة الأمير قانِي بَاي الچاركسي. وكان موتها في غياب زوجها، كان مسافراً في السّرحة، وماتت وسنُّها دون ثلاثين سنة، وأُمها خَوَنْد مُغُل أُخت القاضي كمال الدين بن البارزي، وهي في قيد الحياة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جانِبَك بنُ عبد الله القوامي المؤيدي، أحد أمراء العشرات بالقاهرة، في يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الأولى، وحضر السلطان الملك الظاهر خُشْقَدَم الصلاةَ عليه بمصلاة المؤمني وقت العصر. وكان من عُتقاء الملك المؤيَّد شَيخ، وكان من الخيِّرين الساكنين.

وتُوُفِّيَ الإمامُ علاء الدين علي المغربي الحنفي، إمام الملك الأشرف إينال، في يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة، وهو في عشر الستّين من العمر. وكانت لديه فضيلة مع وسوسة وطَيْش وخفّة، وإسراف في الحال. وبالجملة إنه كان من المُخَلِّطِين ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفّيَ عظيمُ الدَّولة ومدبِّرُ المملكة الأميرُ سيفُ الدين جَانِبَك بن عبد الله الظاهري الدّوادار الكبير، المعروف بنائب جدَّة قتيلاً بيد المماليك الأَجْلاب بباب القُلَّة داخل قلعة الجبل، وقت صلاة الصبح من يوم الثلاثاء مستهلّ ذي الحجة؛ وقد ذكرنا قصة قتلته في «الحوادث» مستوفاة، لكن نذكرها هنا جُمْلة؛ وهي أنه ركب من بيته سَحَر يوم الثلاثاء المذكور بِغَلَس بعد صلاة الصبح بغير قماش الموكب، ومعه نحو خمسة نفر، وطلع إلى القلعة، ومشى بمَن كان معه إلى أن وصل إلى باب القُلَّة، فسلَّم على مقدّم المماليك، ثم مشى إلى أن جاوز العتبة الثانية من باب القُلَّة، والتفت عن يمينه إلى الجهة الموصلة إلى القصر السلطاني، فوجد هناك جماعةً من المماليك السلطانية الأجلاب، فظن أن وقوفهم هناك لأجل أخذ الأضحية السلطانية على العادة في كل سنة، فسلَّم عليهم فردّوا عليه السلام بأعلى أصواتهم، كما يفعلون ذلك مع أعيان الأمراء بطريق التجمّل. ثم مشى إلى أن التفت إلى نحو العتبة التي تكون على شماله تجاه باب الجامع الناصري، فرأى على درجات الباب المذكور جماعةً من المماليك الأجلاب من أوّل الدَّرج إلى آخرها، فسلَّم عليهم كما فعل مع مَن صدفه منهم قبلهم، فلم يَرُدَّ أحدٌ منهم السلام. وحال أن وقع بصرهم عليه نزلوا إليه دفعة واحدة، وأحاطوا به، ونزلوا عليه من جهاته الأربع بالسيوف وغيرها، وهرب مَن كان معه إلى جهة الحوش السلطاني والدهيشة. ولمّا ضُرِب على رأسه سقط في الحال من وقته، وضربه آخر في

خاصرته بالسيف، ثم نهض وارتكن بحائط الجامع، ثم سقط من وقته، فسحبه بعضهم برجله إلى طريق المطبخ، فوجد به رَمَقاً، فألقى على رأسه حجراً هائلاً رضخ رأسه، فمات من وقته. وكان مقدار قتلته كلها من أول الإحاطة به إلى أن خرجت روحه دون نصف درجة رمل. ولمّا تحقّقوا قتله أخذوا ما كان عليه من القماش وغطُّوه بحصير ورجعوا إلى باب القُلَّة، ليلقوا مَن ندبوا إلى قَتْلِهِ أيضاً من خچداشيته، فوافوا الأمير تَنَم رصاص الظاهري المحتسب، وأحد أمراء الطبلخانات، قد أقبل في أثر الأمير جَانِبك المذكور فقصدوه، فاستجار بمقدّم المماليك أو بجماعة من إنِّياته، فلم يغنوا عنه شيئاً، وتناولته الأيدي بالضرب، فهجَّ فيهم، وخرج من بينهم، وهو بغير سلاح، ومضى إلى جهة القصر، وهم في أثره في الظلام. ثم عَادَ وَهُم في أثره إلى جهة الجامع حيث قُتل الأمير جَانِبَك، وقد ظفر منهم بعصاة، فضربهم بها، ودفع عن نفسه مع كثرة عددهم، وكاد أن ينجو منهم، فبادره بعضُهم، وضربه بسيف ضربة طارت يده منها، ثم تكاثروا عليه بالضرب حتى ظنوا أنه مات، فحملته إنِّياتُه إلى طبقته وبه رَمَق، وأخذوا في مداواة جِرَاحه، فمات بعد قليل، ذلك والنجوم ظاهرة بالسماء.

ولمّا وقع هذا أُغلقت أبواب القلعة، وماجت الناسُ، وذهب كلُّ واحدٍ من الأمراء والخاصكية إلى جهة من جهات القَلْعَة. وأما السلطان فإنه كان جالساً بقاعة الدّهيشة والشمعةُ تَقِدُ بين يَدَيْه بعد أن صلّى الصبح، فدخل إليه جانَم دوادار الأمير جَانِبَك المذكور، ولم يعلم جانَم بقتل أستاذه، وعرّف السلطان أن المماليك الأجلاب منعت أستاذه من الدخول إلى السلطان، فسكت السلطان، لعلمه بباطن الأمر. ثم قال بعد ساعة: «أيش الخبر؟» فقال له بعض مَن حضر من الأمراء: «خير» فقال غيره: «وأيّ خير»، والقائل الأول جَانِبَك كوهيّة، والثاني مُغُلْباي طاز وكلاهما مؤيَّدي. ثم سكتوا، فقال الأميرُ يَلَباي المؤيَّدي الأمير آخور الكبير: «ما بقي اليوم خدمة؟» فقال السلطان: «بلى نخرج إلى الحوش». وخرج إلى الحوش، وجلس على الدّكّة، وذلك بعد طلوع الشمس، وجميع أبواب الحوش والقلعة مغلقة. فجلس السلطان ساعة وليس عنده الصحيح من خبر جَانِبَك، إلى أن جاءه

نائبُ المقدّم وغيره، وأعلموا السلطان سِرّاً بواقعة الأمير جَانِبَك وقتله، فقال السلطان إلى الخازندار: «أخرج ثوبين بعلبكياً لتكفين الأمير جَانِبَك وتَنَم رصاص».

ثم أمر السلطان الأمير جَانِبَك كوهيَّة الدوادار الثاني أن يخرج ويتولّى أمرهما وتجهيزهما والصلاة عليهما، فخرج وفعل ذلك وصلّى عليهما بباب القُلَّة ووجههما على نعوشهما إلى محل دفنهما، وليس معهما كثير ناس، بل جميع مَن كان معهما دون عشرة نفر، فدفن الأمير جَانبَك بتربته التي أنشأها خارج باب القرافة، ودفن الأمير تَنَم عند ليث بن سعد(1).

وكثر أسف الناس على الأمير جَانِبَك إلى الغاية، وعظمت مصيبته على أصحابه وخُچْداشيته، وانطلقت الألسنة بالوقيعة في السلطان، ورثاه بعضُهم، وقالت المذاكرة في أمره قِطَعاً في كيفية قتلته، وفي عدم وفاء السلطان على ما كان قام بأمره حتى سلطنه وثَبَّتَ قواعد ملكه. واضطرب مُلْك الملك الظاهر خُشْقَدَم بقتله، وخاف كلّ أحد من خُچْداشيته وغيرهم على نفسه، وماجت المملكة وكثر الكلام في الدولة، ووقع أمور بعد ذلك ذكرناها في وقتها، ليس لذكرها هنا محل - انتهى.

ومات الأمير جَانِبَك - رحمه الله تعالى - وهو في أوائل الكهولية، غير أنه كان بادَرَهُ الشيبُ ببعض لحيته. وكان - رحمه الله تعالى - أصله چاركسي الجنس وجُلب إلى الديار المصرية، وتنقّل من ملك واحد إلى آخر - ذكرنا أسماءهم في ترجمته في غير موضع من مصنّفاتنا - إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق في أيام إمرته وأعتقه. فلما تسلطن جعله خاصكيّاً وقرَّبه، ولا زال يرقّيه حتى أمَّره وولّاه بندر جدَّة. ونالته السعادة في أيام أستاذه، وعظم وضخم ونهض في إمْرَة جدَّة، بحيث إنه صار في وقته حاكم الحجاز جميعه حتى مات - في دولة أستاذه وفي دولة غيره - وقد حرّرنا ذلك جميعه في «الحوادث» وغيره. وعظم بآخرِهِ عظمةً زائدة، لا سيما

---

(1) أي بالقرافة قريباً من قبر الإمام الشافعي. والليث بن سعد هو مفتي أهل مصر وعالمهم وقائد كبير من قادة الرأي في زمانه. كان مقدّماً على الأمراء والولاة. توفي سنة ١٧٥ هـ.

لمّا وَلِيَ الدَّواداريـة الكبرى في دولـة الملك الظاهـر خُشْقَدَم، وصـار هو مـدبِّـر المملكة، وشاع ذكره، وبَعُدَ صيتُه، حتى كاتبه ملوكُ الأقطار من كل جهة وقطر.

وأما ملوك اليمن والحجاز والهند فإنه أوقفني مَرّةً على عِدَّة كثيرة من مكاتبات ملوك الهند، وبعضها مشتمل على نظم ونثر وفصاحة وبلاغة، وأما ما كان يأتيه من ملوك الهند من الهدايا والتحف فشيء لا يُحْصَرُ كثرةً. وتضاعفت الهدايا له في هذه الدولة أضعاف ما كان يهدى إليه أوّلاً، وقال له الدهر: خذ، فأخذ وأعـطى حتى أسرف وبذّر، بحيث إنه لم يكن أحدٌ من خچداشيته وغيرهم من كثرتهم [له مالٌ] إلّا من إنعامه عليه، أو هو ساكن في بيت أنعمه عليه. والذي أعرف أنا أنه وهب تسعة دور من بيوت مقدّمي الألوف بالدّيار المصريّة على تسعة نفر من خُچْدَاشِيته الأكابر الأمراء وغيرهم، وقِس على هذا من الخيول والقماش. وكان في مجاورتي بمكة في سنة ثلاث وستّين يُلَازِمُني وأُلازمه في الحرم كثيراً، ولم أنظره تصدَّق على أحد فيما تصدّق به أقلّ من عشرة أشرفية، هـذا مع اقتنـائه من كـل شيء أحسنه وأجمله وأكثره، لا سيما بَرْكه[1] وخِيمه، فكان إليهـا المنتهى في الحُسْن، يُضرَب بها المثل.

ويكفيك من علوّ همّته أنه أنشأ بداره بستاناً أزيد من مائة فدّان، بابه الأول[2] من داره قريب من خطّ قناطر السِّباع، وبابه الآخر تجاه الروضة، ثم أنشأ له تلك القبّة العظيمة والرصيف الهائل تجاه الروضة. وبالجملة والتفصيل إن بابه كان محطّ الرِّحال، وملجأ الطالبين الملهوفين، ونصرة المظلومين، وكثرة المحتاجين؛ فإنه كان يعطي الألفين ديناراً دفعة واحدة إلى ما دونها، وكان يعطي من المُغَلّ ألف إردب دفعةً واحدةً أيضاً في يوم واحد إلى ما دونهـا إلى عشرة أرادب، وأعـطى في يوم واحد لبعض أعيان خُچْدَاشِيته مائة ناقة بأتباعها، يعرف هذا كلُّ أحد، فَقِسْ على كرمه أيها المتأمّل ما شئت أن تقيس. ثم اعلم أنه لم يخلف بعده مثله، وإن أشكل

---

(١) البرك: هو المتاع الخاص من ثياب وقماش.

(٢) في الأصل: «الواحد». والتصحيح يقتضيه السياق.

عليك هذا القولُ، فسَلْ من أحدٍ من أمرائك العصريِّين عشرةً من الإبل، فإن أعطاك فاشكر مولاك، واعلم أنَّ الناس فيهم بقيةُ كَرَمٍ، وإن لم يُعْطِك فاشهد بصدْقِ مقالتي.

وعلى كل حال إنه كان ملكاً كريماً جليلاً، مهاباً شهماً، عارفاً حاذقاً فطناً، فصيح العبارة في اللغة العربية والتركية بالنسبة لأبناء جنسه. وكان قصير القامة مع كَيْس في قَدّه، وظَرْف في تناسب أعضائه بعضها لبعض. وكان سيوسياً حَسَن التدبير؛ ومن حُسْن سياسته أنه لم ينحطّ قَدْرُه بعد زوال دولة أُستاذه الملك الظاهر جَقْمَق، بل زادت حُرْمته أضعاف ما كانت في أيّام أستاذه، مع كثرة حكّام الدولة الأشرفية الإينالية وتفرّق كلمتهم، فَسَاسَ كلّ واحد بحسب حاله، وأقام في دولتهم عظيماً مُبَجَّلاً، وبوجوده كان أكبر الأسباب في إعادة دولة خُجْداشِيته بعد موت الملك الأشرف إينال. وبالجملة إنه كان نادرةً من نوادر دهره ـ رحمه الله تعالى. وقد استوعبتُ أحواله في غير هذا المصنّف بأطول من هذا بحسب الباعثة والقريحة، ورثيته بقصيدة نونية في غاية الحُسْن ـ عفا الله عنه وصالح عنه أخصامه بمنّه وكرمه[١].

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين تَنَم رصاص من نخْشايش الظاهري المحتسب، أحد أمراء الطبلخانات، قتيلاً بيد المماليك الأجلاب مع الأمير جَانِبَك الدَّوادار، وقد تقدّم ذكر قتله فيما تقدّم.

وكان تَنَم هذا من عتقاء الملك الظاهر جَقْمَق وخاصكيته، وترقّى بعد موته إلى أن وَلِيَ حِسبةَ القاهرة في أواخر دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار أمير عشرة في أوائل دولة الملك الظاهر خُشْقَدَم، ثم نقل إلى إمرة طبلخاناه، ودام على ذلك إلى أن قُتل في التاريخ المذكور في قصة الأمير جَانِبَك، وهو يوم الثلاثاء أول ذي

(١) من الواضح حماس المؤلّف في ترجمته لجانبك الجداوي هذا وإعجابه الشديد به. وقد اتّهمه السخاوي باتّباع الهوى في هذه الترجمة والبُعد عن الإنصاف والموضوعية، بسبب العلاقة الخاصة التي كانت تربط بينهما وأفضال جانبك الكثيرة على أبي المحاسن. ـ انظر الضوء اللامع؛ ١٠/٣٠٥ ـ ٣٠٨. ـ هذا ويؤكد ابن إياس في بدائع الزهور أن مقتل جانبك كان بتدبير من السلطان الظاهر خشقدم.

الحجة. وكان شابّاً مليح الشكل، شجاعاً عارفاً، كريماً لَيناً، متحرّكاً حاضر الجواب، وكان أحد أعوان الأمير جَانِبَك الدّوادار في مقاصده ـ رحمهما الله تعالى، وعفا عنهما أجمعين.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين محمد بن أحمد القَرافي المالكي أحد نوّاب الحكم المالكية وأعيان الفقهاء بالديار المصرية، في ليلة الاثنين رابع عشر ذي الحجة، ودفن صبيحة يومه بالقرافة وقد جاوز السبعين من العمر. وكان له اشتغال كثير في ابتداء أمره، وعمل جيد مع ذكاء وحُسْن تصوّر، لا سيما في باب التوريق[1] وصناعة القضاء والشروط ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ـ سبعة أذرع وعشرون إصبعاً. مبغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وسبعة أصابع.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم على مصر

وهي سنة ثمانٍ وستّين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ قاضي القضاة بدر الدين حسن بن محمد بن أحمد بن الصَّوّاف الحنفي الحموي قاضي قضاة حماة، ثم الديار المصرية، إلى أن مات في يوم الأحد رابع المحرّم ودفن من الغد في يوم الاثنين، وسنُّه نحو الستّين سنة تخميناً. وكان أصله من حماة من أولاد التجّار، واشتغل بالعلم في مبدأ أمره يسيراً، ثم مال إلى المتجر وتحصيل المال إلى أن حصر على جانب كبير منه. ووَلِيَ قضاء حماة بالبذل سنين كثيرة، وطال تكراره إلى القاهرة غير مرّة، وأُخِذ منه ـ بوسائط ـ جملٌ مستكثرة من المال غصباً ورِضاً. ثم قَدِمَ القاهرة في سنة ست وستين لأمر من الأمور، وحصل بينه وبين قاضي القضاة محبّ الدين بن الشِّحْنَة الحنفي شنآن

(١) كذا. ولعلّ المراد بها إعداد أوراق الحجج والأحكام ونسخها.

بواسطة صهارة، فسعى عليه وعزله، ووَلِيَ عوضَه في ثاني عشرين شهر رجب من سنة سبع وستّين إلى أن مات في المحرّم من هذه السنة، بعد أن مرض نحو الشهر، فكانت مدّته كلها في القضاء خمسة أشهر وأياماً بما فيها أيام مرضه؛ ولقد تعب بولايته وأتعب، واستراح بموته وأراح.

وتُوُفِّيَ السلطان الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن السلطان الملك الأشرف أبي النصر بَرْسْباي الدّقْماقي الظاهري، بعد خلعه من السلطنة بسنين كثيرة، بثغر الإسكندرية في يوم الاثنين تاسع عشر المحرّم، وهو في أوائل الكهولية؛ لأن مولده بقلعة الجبل في سلطنة أبيه في سنة سبع وعشرين وثمانمائة، وأُمه خَوَنْد جُلُبَّان أم ولد لأبيه چاركسية، تزوّجها أُستاذُها الملك الأشرف بعد أن ولدت الملك العزيز هذا، وماتت أيام والده الأشرف، ونشأ الملك العزيز تحت كنف والده بالدُّور السلطانية، إلى أن عَهِدَ له أبوه الأشرف بالسلطنة في مرض موته، ومات بعد أيّام.

وتسلطن العزيزُ هذا بعد عصر نهار السبت ثالث عشر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، وهو السلطان الثالث والثلاثون من ملوك الترك بالديار المصرية وأولادهم، والتاسع من الچراكسة وأولادهم. وتمّ أمره في الملك، وصار الأتابك جَقْمَق مُدَبِّرَ مملكته، وفرّق النفقة على المماليك السلطانية كلّ واحد مائة دينار، لا يتنفَّل أحدٌ على أحد كائناً مَن كان، على قاعدة الملوك العِظام، بخلاف مَن جاء بعده من الملوك. ودام في المُلْك إلى أن وقع بين الأتابَك جَقْمَق وبين مماليك أبيه الأشرفية أمور آلت إلى خلعه من السلطنة، وسلطنة الأتابَك جَقْمَق عوضه في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، فكانت مدة ملكه نحواً من خمسة وتسعين يوماً، ليس له فيها إلّا مجرّد الاسم فقط.

وبعد خلعه من الملك رسم له بالسكن في قاعة من الحريم السلطاني بقلعة الجبل، فسكن بها إلى أن حسّن له بعض حواشيه التّسَحُّبَ منها والنزول من القلعة إلى القاهرة لتثور مماليك أبيه به على الملك الظاهر جَقْمَق، ففعل ذلك، وتزيَّا في

نزوله في زيّ بعض صبيان الطَّبَاخين، ونزل بعد الفطر وقت صلاة المغرب إلى القاهرة من باب المدرج، وكانت أيام شهر رمضان، فنزل ولم يفطن به أحد، لاشتغال الخدّام وغيرهم بالفطر. فلما نزل إلى تحت القلعة لم يرَ شيئاً مما قيل له، فندم على نزوله، وبقي لا يمكنه العَوْدُ إلى مكانه، فاختفى من وقته هو ومملوكه أَزْدَمُر وطواشيه صَنْدل، وطبّاخه إبراهيم، ووقع له وللناس في اختفائه أمور ومِحَن، ونُكِبَت جماعةٌ كثيرةٌ من الناس بسببه، وضُرِبَ جماعةٌ من مماليك أبيه بسببه بالمقارع والكسَّارَات، ووُسِّط بعضهم، وقلق الملك الظاهر جَقْمَق بسببه قلقاً زائداً.

وضاقت الدنيا على الملك العزيز يوسف، وتفرّقت عنه أصحابُه إلى أن ظَفِر به الملك الظاهر جَقْمَق في أواخر شوّال، وكان الذي أَمْسَكَهُ الملك الظاهر يَلَباي، وكان يوم ذاك أميرَ عشرة، فأنعم عليه الملك الظاهر جَقْمَق بقرية سِرْيَاقُوس، زيادةً على ما بيده لكونه قبض على الملك العزيز في الليل، وطلع به إلى السلطان. ولمّا ظَفِر به الملك الظاهرُ جَقْمَق حبسه بالدُّورِ السلطانية، ثم بعثه إلى سجن الإسكندرية، فحُبس بها إلى أن أطلقه الملك الظاهر وخُشْقَدَم في أوائل سلطنته، هو والملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جَقْمَق. وسكن العزيز بدار في الإسكندرية إلى أن مات بها في التاريخ المقدّم ذكره، بعد أن قضى من عمره أياماً عجيبة من حبسٍ وقهرٍ وتنغُّصِ عيش - عوَّضَهُ اللَّهُ الجنّة بمنّه وكرمه.

وتُوُفِّيَ الشيخ الصالح المعتقد المجذوب [بن إبراهيم][1] البَبَاني الكردي بسكنه بجامع قَيْدان[2] على الخليج بالقرب من قناطر الإوز[3] خارج القاهرة، في ليلة الجمعة سلخ محرّم هذه السنة، وصُلِّي عليه ثلاث مِرَارٍ، مَرّة بجامع قَيْدان

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) جامع قيدان: كان مسجداً قديماً فجدّده الطواشي بهاء الدين قراقوش سنة ٥٩٧ هـ، ثم عمل فيه الأمير مظفر الدين قيدان الرومي منبراً لإقامة الخطبة يوم الجمعة فنسب إليه. (انظر خطط المقريزي: ٣١٢/٢).

(٣) قناطر الإوز: من إنشاء الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥ هـ على الخليج الكبير. (خطط المقريزي: ١٤٨/٢).

حيث كان سكنه ووفاته، ومرّة في الطريق، ومَـرَّة حيث دُفن بتربـة الملك الظاهـر خُشْقَدَم في الصحراء، وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية، بحيث إن نعشه رُفِعَ على الأصابع من كثرة الناس مع هذا المـدى البعيد، ومـات وقد جـاوز الستّين. وكان أصله ببـانيّاً ـ طـائفة من الأكـراد ـ وُلِدَ هنـاك وقَدِمَ القـاهرة، ونـزل صوفيـاً بخانقـاه سعيد السعداء، ودام على ذلك دهراً إلى أن ظُنّ منه نوع من الجنون الذي يسمّيه الفقراءُ جَذْبَة، فنقله أهلُ الخانقاه عنهم، فسكن بدار، ثم انتقل إلى جامع قَيْدان، فدام به سنين كثيرة، وبه اشتهر بالصَّلاح، وقَصَدته الناس للزيارة والتَّبَرّكِ بدعائِه، مع أنـه كان لا يقبل من أحد شيئاً إلاّ نوع الأكل. وكانت جَذْبَتُه غير مطبقة، لأنـه كان لا يخلّ بالمكتوبة بل يغتسل في الغالب لكل صلاة صيفاً وشتـاءً. وكان لـه في مبدأ أمـره اشتغال ببـلاده، ولم يبلغني من كرامـاته شيء. وبَبّـان ببائين ثـاني الحروف مفتوحين وبعدهما ألف ونون ساكنة ـ أظنها قبيلة في الأكراد ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ المقام الشهابي أحمد ابن الملك الأشرف بَرْسْباي الدقْماقي الظاهري بدار عَمّه زوج أُمه الأمير قرقماس الأشرفي أمير سلاح، بخطّ التبَّانة خارج القاهرة، في يـوم السبت سابـع شهر ربيـع الأول، وحضر السلطان الصـلاةَ عليـه بمصـلاة المؤمني، ودفن بتربة والده الملك الأشرف بَرْسْباي بـالصحراء في فَسْقِيَّـة واحدة. وَبِمَـوْتِ أحمد هـذا انقرضت ذريّـة الملك الأشرف بَـرْسْباي لصلبـه، لأن أحمـد المذكور خلَّف بناتٍ صغاراً.

وكان سيدي أحمد هذا أصغر أولاد الملك الأشرف، تـركه حمـلاً، وأُمه أُم ولد چاركسية، تزوجها الأمير قَرْقَماس الأشرفي الجَلَب، وهو الذي تولّى تربيته إلى أن كبر. وماتت أُمه، فلم يتركه قَرْقَماس، واستمر عنده، وبهذا المقتضى لم يقدر أحد من السلاطين أن يأخذه منه ويرسله إلى ثغر الإسكندرية. ولمّا كبـر أراد غيرُ واحدٍ من الملوك أن يرسله إلى الإسكندرية عند أخيه الملك العزيز يوسف المقدّم ذكـر وفاتـه في هذه السنـة، فقال قَـرْقماس: «إذا خـرج أحمد هـذا إلى جهة من الجهات أخرج أنا أيضاً معه» فسكت القائل.

ولا زال الشهابي [أحمد] مقيماً بالقاهرة إلى أن صار في حدود الرجال، غير أنه لم ينظره أحد قطُّ، ولم يخرج من بيته قطُّ لأمر من الأمور حتى ولا إلى صلاة الجمعة ولا إلى العيدين، بل يسمع الناسُ به ولا يَرَوْنَه إلى أن مات. ومع هذا كله كانت الملوك مطمئنة بإقامته بالقاهرة لحُسْن طاعة قَرْقَماس للسلاطين. وكان على ما قيل شابّاً طُوالاً جميلاً فاضلاً عارفاً، وله محبة في الفضيلة ومطالعة الكتب، ويكتب المنسوب. وكان موته بعد أخيه العزيز من النوادر، فإنه عاش بعد موت أخيه العزيز شهراً وثمانية عشر يوماً، والعجيب أنهما شابّان كاملان مَاتَا في هذه المُـدَّةِ اليسيرة من غير طاعون، وإنما هي آجال متقاربة. ومحل الظن بالملك[1]، وأظنه بريء من ذلك، اللّهمَّ إن كان وقع شيء من غير الملك من جهة النسوة أو غيرها فيمكن ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الشيخُ جمالُ الدين عبد الله ابن الشيخ الإمام القدوة المسلك الرّباني نور الدين أبي الحسن علي بن أيّوب الدمشقي الأصل والمولد والمنشأ، المصري الدار والوفاة، خادم خانقاه سعيد السعداء، في ليلة الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر، وصُلِّي عليه بعد أذان العصر من يوم الأربعاء المذكور بمصلاة باب النصر، ودفن بمقابر الصوفية. وكان رحمه الله تعالى له اشتغال وفضيلة مع فصاحة وطلاقة لسان، ومحاضرة حسنة، وكرم نفس، مع العُزْلَة والقناعة، مع التجمّل في ملبسه وشأنه، وكان الناسُ في أَمْنٍ من يده ولسانه ـ عفا الله عنه.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين تَنَم بن عبد الله من عبد الرزّاق المؤيدي نائب الشام بها في يوم الأربعاء ثاني عشرين جمادى الأولى، ودفن بدمشق بعد يومين لأمر اقتضى ذلك، لتعلّق كان عليه، ومات وهو في عشر السبعين. وكان چاركسي الجنس، من عتقاء الملك المؤيد شيخ وخاصكيته الصغار، ثم جعله خازنداراً صغيراً، ومات الملكُ المؤيّدُ وهو على ذلك. ثم صار في دولة الملك الأشرف بَرْسْباي رأس نوبة الجمدارية، ثم أمير عشرة. ثم وَلِيَ حِسبَة القاهرة في أوائل دولة

(١) أي ربما كان السلطان خشقدم قد دسّ إليه مَن يقتله خوفاً على السلطنة.

الملك الظاهر جَقْمَق، ثم نقل إلى نيابة إسكندرية، ثم عُزل وقَدِمَ القاهـرة. وبعد عزله بمدّة يسيرة وَلِيَ نيابة حماة، فلم تَطُل مُدّته بحمـاة، ونُقل إلى نيـابة حلب، فلم ينتج أمرُه في نيـابة حلب، ورُجم من أهلهـا، فعزلـه الملكُ الظاهـرُ جَقْمَق، واستقدمه إلى مصر أمير مائة ومقدّم ألف بها. ثم صار أمير مجلس، ثم صار في دولة الملك المنصور عثمان أمير سلاح بعد جَرِباش الكريمي قاشق، بحكم عزله وعجزه، ودام على ذلك إلى أن كانت الفتنة بين الملك المنصور عثمان وبين أتابَكه إينال العلائي، فكـان تَنَم هذا من حـزب الملك المنصور بـالقلعة. فلمـا تسلطن الأتابَك إينال حبس تَنَم المذكور بثغر الإسكنـدرية، إلى أن أطلقـهُ الملك الظاهـر خُشْقَدَم، وأطلق معه الأمير قانِي بَاي الچاركسي، وسيَّرهما إلى ثغر دِمْياط بطَّالَين. ثم بعد مدة يسيرة أحضره الظاهر خُشْقَدَم إلى القاهرة، وولّاه نيابة دمشق بعد عزل الأمير جَانَم الأشرفي، فتوجّـه تَنَم إلى دمشق وحكمها، فلم تُحْمَـد سِيرَتُـه وتُشْكَر طريقَتُه، إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكـان ـ رحمه الله تعـالى ـ له مسـاوىء ومحـاسن، وأظن الأول أكثـر. ومن غريب ما اتفق في أمره أنه لمّا كان محبوساً كان رجلٌ من أصحابه مُلْتَفِتاً إلى أَمْرِهِ ولِمّا يصِيرُ من شأنه، فقصد الرجلُ بعضَ المشهورين بعلم النّجوم وأرباب التَّقويم، فعمل الرجل لتَنَم المذكور زايرجـاة، وأتقن عملها، فخرج له أبيات تُشعِر بسلطنة تَنَم المذكور، فجاءني الرجل وهو مسرور، وحكى لي ذلك، فأجبته بكلام معناه: إن هؤلاء كَـذَبَة، ليس لهم معـرفةٌ بهـذه الأمور، وكـل ما يقـولونـه كذب وبهتـان واختلاق، نَصَبَة على أخذ الأموال، فعظم ذلك عليه، فقلت له: «لي معك شرط، أكتبُ الأبيات، فإن تسلطن فهو كما تقول، وإن كانت الأخرى فأكتبها في ترجمـة وفاته ليكون ذلك عبرة لمَن يصدِّق كذب هؤلاء الفَسَقَة» فقال: نعم، الأبيات هي:
[الطويل]

وإنَّ الـذي في السجنِ لا بـدَّ أنـه ... يكـون مليكـاً لـلأنـام عـزيـزا
فـأولـه تـاءٌ وآخـر اسـمـه ... على القـطع ميمٌ، كن عليه حـريزا

وذلــك كــهــلٌ يــا أُخَــيُّ وإنــه لضخمُ القفا والصدرِ فـاصغ مميـزا
ولا بــدّ أن يــأتي الــزمــان بقــوةٍ ويـعلو رقــابــاً لـلعــداة محيــزا
فَـزَايـرْجَةٌ في نـظمهـا نـطقتْ بـذا فكُنْ لي بهـذا العلم منـك مجيـزا

وهذا الذي عمل هذه الزَّايِرْجة الناسُ مجمعون على معرفته، فما العجب من كذب هؤلاء الكذبة الجهلة الأوقاح، وإنما العجب من تصديق الناس لكلامهم. وقد رأيتُ جماعة من ذوي العقول تقول: «صدق فلان في قوله كذا وكذا» فأقول لـه: «ما صدق بل حزر مَرَّة وثانية وثالثة ورابعة فأخطأ، ثم أصاب في الخامسة، وكلّ أحد يقدر على أن يقول مثل ذلك، لأن الخير والشر والولاية والعزل واقع في كل أوان وزمان، وكل منتصب لا بُدَّ له من العزل أو الموت، فالفرق في هذا المعنى بين العارف والجاهل بباب الحزر واضح لا يحتاج إلى بيان».

وتُوُفِّيَ الأَمير سيف الدين جَانِبَك بن عبد الله التـاجِّي المؤيدي المعـزول عن نيابة حلب، والمرشّح لنيابة الشّام بعد موت تَنَم المقدّم ذكره، قبل أن يخـرج من حلب بدار سعادتها[1]، في يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة بعد أن مرض أياماً يسيرة، وهو في عشر السبعين. وكان چاركسي الجنس، من صغار مماليك الملك المؤيَّد شَيْخ، وصار خاصكياً بعد موته إلى أن صـار نائب بيـروت في أوائل دولـة الملك الظاهر جَقْمَق، ثم نقل إلى نيابة غزة، ثم وَلِيَ نيابة صَفَد، ثم حماة، كلّ ذلـك ببذل المـال لاتِّضَاعِ قَـدْرِه. ثم وَلِيَ نيـابة حلب بعـد موت الحـاج إينـال اليَشْبُكي، فباشر ذلك إلى هذه السنة. فرُسم له أن يقدم إلى الديار المصرية أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية، فتهيّأ للخروج من حلب فمات الأَمير تَنَم نـائب الشام، فأقرّه الملك الظاهر خُشْقَدَم عوضه في نيابة الشام، فمات جَانِبَك هذا قبل أن يصل إليه الخبر بولاية دمشق، وقيل بعد وصول الخبر بيوم. وكان متوسط السِّيرة في ولايته، ولم تسبق له رئاسة بالديار المصرية غير الخاصكية. وكان غالب ولاياته ببذل المال، والذي يبذل المال لا بدّ له من الظلم. وقد بلغنا عنه أنه كان يستعمل

(١) الدار التي يسكنها نائب السلطنة في الشام أو في حلب كانت تسمّى دار السعادة، وهي مقر الحكم.

لُقَيْمَة الفقراء[١] الخضراء، والله أعلم بصحة ذلك.

وتُوُفِّيَ الأمير سيفُ الدين جَانِبَك بن عبد الله الأبلق أحد أمراء العشرات قتيلاً بيد الفرنج في الماغوصة بجزيرة قُبْرُس في إحدى الجمادين، وقد ذكرنا سبب قتله في «الحوادث». وحاصل الأمر: أنه لمّا ملك الماغوصة، مدَّ يَدَهُ لأولاد أهل الماغوصة من الفرنج، فعزَّ على الفرنج ذلك، لأنه كان أخذها بالأمان؛ فشكوا ذلك إلى صاحب قبرس جاكُم الفرنجي، فنهاه عن ذلك فلم ينته، فوقع بينهم تشاجر أدّى ذلك إلى قتله، ولم ينتطح في ذلك شاتان. وبالجملة إن جَانِبَك المذكور كان غير مشكور السيرة في مدّة إقامته بقُبْرُس ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ شيخ الإسلام قاضي القضاة عَلَم الدين صالح ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البُلْقيني الكناني الشافعي، قاضي قضاة الديار المصرية وعالِمها، في يوم الأربعاء وقت الزوال خامس شهر رجب، بعد أن مرض نحو عشرة أيام، ودفن من الغد بمدرسة والده تجاه داره بحارة بهاء الدين، بعد أن صُلّي عليه بالجامع الحاكمي، وتوجّهوا بجنازته من طريق الجَملون العتيق، ودخلوا بها من باب الجامع الذي بالشارع عند باب النصر، وعادوا بنعشه من الباب الذي بالقرب من باب الفتوح، وأُعيد إلى مدفنه، وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية.

ومات وسنُّه سبع وسبعون سنة، لأن مولده بعد عشاء ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وهو من جملة الفقهاء الذين قرأتُ عليهم القرآن في صغري، لأن أُختي كانت تحت أخيه قاضي القضاة جلال الدين البُلْقيني، فكُنَّا بهذا المقتضى كشيء واحد. وكان إماماً عالِماً فقيهاً، درَّس وأفتى سنين كثيرة، وناب في الحكم عن أخيه جلال الدين المذكور، ثم وَلِيَ القضاء بعد ذلك غير مَرّة، وطالت أيّامُه في المنصب، وانتهت إليه رئاسة مذهبه في زمانه. وقد استوعبنا حاله في عدّة مواضع من مصنّفاتنا، ليس لذكرها في هذا المختصر محل،

---

(١) أي حشيشة الكيف. وذكر المؤلّف في حوادث الدهور أنه كان يأخذها من صوفية الأعاجم يتنزّه بها عن الخمر.

وفي شُهرته ما يُغني عن الإطناب في ذكره هنا ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين كَمَشْبُغَا بن عبد الله السيفي نَخْشَبَاي نائب البيرة بها في أوائل شوّال. وكان من عتقاء الأمير نَخْشَباي الذي ضرب الملكُ الظاهرُ جقْمق رقبته. ثم خدم كَمَشْبُغا هذا في بيت السلطان، ثم صار خاصكياً، ودام على ذلك دهراً إلى أن سعى في نيابة قلعة حلب فوَلِيَها دفعة واحدة بالبذل، فلم تُشْكَر سيرتُه وعزل، ونقل إلى البيرة، فلم تطُل مدّته بها، ومات في التاريخ المذكور. وكان لا ذات ولا أدوات، ولولا أنه وَلِيَ هاتين الولايتين ما ذكرناه هنا.

وتُوُفِّيَ الشيخُ أبو الفضل محمد ابن الشيخ الإمام الفقيه الصالح القدوة المسلك شمس الدين محمد بن حسن المعروف والده بالشيخ الحنفي، في ليلة السبت ثامن ذي الحجة بجزيرة أُرْوَى المعروفة بالوسطانية، بعد مجيئه من الوجه البحري، وحمل من الجزيرة في باكر نهار السبت المذكور، وصُلِّيَ عليه ودُفِنَ بزاوية أبيه خارج قنطرة طُقُزْدَمُر[1]، وهو في عشر الستين من العمر. وكانت لديه فضيلة، وله اشتغال بحسب الحال، ولكنه لم يكن أميناً على الأوقاف ـ عفا الله تعالى عنه بمنّه وكرمه.

وتُوُفِّيَ الوزير علاءُ الدين علي ابن الحاج محمد الأهْنَاسي بمكة المشرّفة بطّالاً في حياة أبيه، في ثاني عشرين ذي القعدة. ومات وهو في أوَائل الكهولية. وقد وَلِيَ عليٌّ هذا الوزر والأستادارية والخاصّ غير مَرّة. وعليٌّ هذا وأبوه محمد هما من أطراف الناس الأوباش المعدودة رئاستهم من غَلطَات الدّهر، وقد ذكرنا من أحوال عليّ هذا وولاياته نبذةً كبيرة في تارينا «الحوادث» تُغني عن العيادة هنا ـ انتهى ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ السلطان صارمُ الدين إبراهيمُ بنُ محمد بن علي بن قَرَمان صاحب بلاد الرّوم ـ قونية، ولارِنْدَهْ وقَيْسارية وغيرها ـ في أواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة

(١) قنطرة طقزدمر: كانت تقع على الخليج الكبير الناصري بخط المسجد المعلّق. (خطط المقريزي: ١٤٧/٢).

وقد ناهز السِّتين من العمر، بعد أن وَلِيَ بلاد قَرَمان أكثر من خمس وأربعين سنة، وتولى بعده ابنه إسحق، في لغتهم إسحق أيسق، ووقع الخلْف بسبب ولاية إسحق بين أولاده.

وبنو قَرَمان هؤلاء من أُصَلاء الملوك كابِراً عن كابر، أباً عن جدّ فصاعداً إلى السلطان علاء الدين السّلْجوقي. وقيل إن بني قَرَمان هؤلاء من ذريّة بايَنْدر أحد أكابر أمراء جانكزْخان ملك التُّرْك الأعظم.

وتُوُفِّي القاضي شمسُ الدين محمدُ ابنُ الشيخ بدر الدين محمد بن السَّحْمَاوي الشافعي أحد أعيان موقعي الدست الشريف بالديار المصرية، في ليلة السبت خامس عشر ذي الحجّة، ودُفن صبيحة يوم السبت المذكور عن اثنتين وثمانين سنة. وكان لديه فضيلة وعنده حشمة وأدب وتواضع. وباشر التوقيع أزيد من خمسين سنة، وخدم بالتوقيع عند جماعة من أعيان الأمراء، آخرهم الملك الظاهر خُشْقَدَم إلى أن تسلطن ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين طوخ بن عبد الله الجَكَمِي الرأس نوبة الثاني ـ كان ـ وأحد أمراء الطبلخانات بطّالاً بعد ما كُفَّ بصره، في ليلة الأربعاء تاسع عشر ذي الحجة، ودُفن من الغد بالصحراء، وقد زاد سنُّه على الثمانين، ولم يحجّ حجّة الإسلام. وكان أصله من مماليك جَكَم المتغلّب على حلب. وكان من مساوىء الدهر لا يصلح لدين ولا لدنيا، وكان مُسْرفاً على نفسه، ما أظنه ترك الشرب إلّا في مرض موته. ولم يحجّ حجّة الإسلام مع طول عمره وسِعَة ماله ـ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، اللّهمّ وفّقنا لما تحبّ وترضى يا ربّ العالمين.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين بُرْدبَك بن عبد الله الأشرفي الدّوادار الثاني ـ كان ـ، قتيلاً بيد العُرْبان بالقرب من منزلة خُلَيْص[1] في عَوْدِه من الحج في يوم الاثنين سادس عشر ذي الحجة، وقد ناهز الخمسين أو جاوزها. وكان أصله من سبي

(١) خليص: حصن بين مكة والمدينة. (معجم البلدان).

قُبْرُس قبيل سنة ثلاثين وثمانمائة مراهقاً، وملكه الملك الأشرف إينال أيّام إمرتـه، وربّاه وأعتقه وأعله خازنداره، وزوَّجه بابنته الكُبْرَى، ثم جعله دَوَادَاره. ولمّا تسلطن أمَّره وجعله دَوَاداراً ثالثاً ثم جعله دواداراً ثانياً، ونالته السعادةُ. وعـظم في الدولـة وقصدَهُ الناسُ لقضاء حوائجهم، وشاع ذكرُه وبَعُدَ صِيتُه، وحمـدت سيرتـه، وعمّر الجوامع في عدّة بلاد، وله مآثر وذكر في الصدقات والإعطاء. ودامَ على الدَّوَادارية إلى أن نُكِبَ ابنُ أستاذه السلطان الملك المؤيَّد أحمد ابن الملك الأشرف إينـال، وخُلع من السلطنة، وأمسك بُرْدبَك هـذا وصُودِرَ، وأُخـذ منه نحـو من مائتي ألف دينار، ووقع له أمور.

وبالجملة إنه كان لا بأس بـه لولا محبتـه لجمع المـال من أيّ وجه كـان - رحمه الله تعالى.

وتُـوُفِّيَ الشيخ الفقيـهُ العالمُ المقـرىء تاج الـدين محمد بن أحمـد الفطيسي الإسكندري المالكي إمام السلطان، ومدرّس الحديث بالظاهرية العتيقة. مات في نصف ذي القعدة، ومولده سنة خمس عشـرة وثمانمـائة، واشتغـل كثيراً في عِـدّة علوم، لكنه لم يكن ماهِراً في غير القراءات، وحصلت له وجاهة آخر عمره.

وتُوُفِّيَ الأمير سيفُ الـدين سُودُون بن عبـد الله اليَشْبُكي التركمـاني المعروف بسُودُون قَنْدورة، أحد مقدّمي الألـوف بدمشق وأميـر حَاجّ المحمـل الشامي، بعـد خروجه من المدينة الشريفة إلى جهة الشام، في أواخر ذي الحجة، أو في أوائل المحرّم، وقد زاد سنُّه على الستّين. وكان من مماليك الأمير يَشْبُك الجَكَمي الأمير آخور، وبقي بعد أستاذه من جملة مماليك السلطان. ودام على ذلك دهراً طويلاً لا يلتفت إليه، إلى أن تحرّك لـه بعيض سعد، وانتهى للصـاحب جمال الـدين ناظـر الخاص ابن كاتب جَكَم بواسطة خُجْداشِه جَـانِبَك اليَشْبُكي والي القـاهرة، فـوَلِيَ بعض قلاع البلاد الشامية: قلعة صَفَد، وقلعة الشام، ثم تنقل في البلاد بالبذل إلى أن صار من أُمْرَه ما كان. ولم يكن سُودُون هذا من أعيان الأمراء لتشكر أفعاله أو تذمّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماءُ القديم ستّة أذرع وخمسة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وثلاثة عشر إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم على مصر

وهي سنة تسع وستّين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين قانِي باي طاز بن عبد الله البَكْتَمُري نائب البيرة بها، في أواخر شهر ربيع الأول أو أوائل شهر ربيع الآخر، وهو في الثمانين تخميناً. وكان أصله من مماليك بَكْتَمُر جِلِّق الظاهري نائب الشام، وصار بعد موت أستاذه من مماليك السلطان، ثم نقل في أواخر عمره إلى نيابة قلعة صَفَد، ثم إلى نيابة البيرة، إلى أن مات. وهو من مقولة سُودُون تُرْكُمَان المقدّم ذكره في السنة الخالية.

وتُوُفِّيَ الأميرُ موسى بن محمد بن موسى صاحب حَلْي ابن يعقوب[1] من بلاد اليمن في شهر ربيع الآخر بمدينة حَلْي ابن يعقوب. وكان معدوداً من أعيان الأمراء ومن ذوي البيوت في الممالك، ولجدّه موسى مع الشريف حسن بن عَجْلان صاحب مكّة وقائع ذكرناها في ترجمة حسن المذكور في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي».

وتُوُفِّيَ الشهاب بُدَيْد بن شُكْر وزير الشريف محمد بن بركات صاحب مكّة، في ليلة السبت السابع من جمادى الأولى بوادي الآبار من عمل مكة، وحمل بقية ليلته على الرقاب إلى بطن مكة، فغُسِّل بالبيت الذي أنشأه الشريف محمد بن بركات بمكة، وصُلِّي عليه صلاة الصبح بالحرم، ودفن بالمعلاة على والده. وكانت جنازته مشهودة، وأسف الناس عليه، لأنه كان مقصوداً للخير، ومن بقية الشيوخ

(١) حلي ابن يعقوب: مدينة باليمن على ساحل البحر، بينها وبين مكة ثمانية أيام. (معجم البلدان).

والأكابر المُشار إليهم. وبُدَيْد بباء موحدة ثانية الحروف مضمومة وبعدها دال مهملة مفتوحة، ثم ياء آخر الحروف ثم دال ساكنتين.

وتُوُفِّيَ القاضي بدر الدين محمد ابن قاضي القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حَجَر العسقلاني الشافعي في يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة وقد جاوز الخمسين من العمر، ولم يخلف قاضي القضاة وَلداً ذكراً غيره ولا أُنثى، وبموته انقطع نسل ابن حجر من الذكور[١].

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جَانِبَك بن عبد الله الناصري نائب طرابُلُس بها في يوم الأربعاء حادي عشرين شهر رجب، وقد جاوز السبعين من العمر. وكان من صغار مماليك الملك الناصر فرج وعتقائه، ثم خدم بعد موت أُستاذه عند خچْدَاشِه الأمير بَرْسْباي حاجب حجّاب دمشق، وبخدمته عرف بين الناس، ودام بخدمته إلى أن خرج الأمير إينال الجَكَمِي نائب الشام على الملك الظاهر جقمق وانهزم، فقبض جَانِبَك عليه ـ وقد ذكرنا كيفية القبض عليه في غير موضع من مصنّفاتنا، ليس لذكرها في هذا المختصر محل ـ فأنعم عليه الملك الظاهر جَقْمَق بإمرة طبلخاناه بدمشق، ثم تنقل بعد ذلك بعدّة وظائف وأعمال غالبها بالبذل، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير عِجْل بن نُعَيْر أمير عرب آل فضل بالبلاد الشامية، وهو بطَّال بالقرب من أعمال حلب.

وتوفي السلطان خليل بن إبراهيم صاحب مملكة شماخي[٢] وما والاها في السنة الخالية، فيما أُظن بمدينة شَماخي، ولم تُحَرَّر وفاتُه إلاّ في هذه السنة لبُعْد المسافة، ومات بعد أن ملك نحو أربعين سنة. وكان من أجلِّ ملوك الشرق قدراً وأحسنهم سيرة، وأجودهم بضاعة وأكثرهم سياسة، وأحزمهم رأياً، وهو آخر مَن

(١) ذكر المؤلّف في حوادث الدهور أنه «خلّف، ولم ينقطع في النسب وإنما نقطع في العلم من يوم مات».

(٢) شماخي: مدينة عامرة هي قصبة بلاد شروان في طرف أران، وتُعدّ من أعمال باب الأبواب (معجم البلدان).

كان بقيَ من أكابر الملوك، وهو أحد مَن أوصاه السلطان مُرَاد بك بن محمد بن عثمان ملك الرُّوم على ولده محمد صاحب الروم في زماننا هذا؛ وقد ذكرنا أمره محرّراً في «الحوادث» ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الوزير شمسُ الدين محمد البِباوي، غريقاً ببحر النيل بساحل بولاق بالقرب من فم الخور، وقت المغرب من يوم الأربعاء ثامن عشرين ذي الحجة، وهو في الكهولية؛ وكان سبب موته أنه توجّه في مركب عقيبة إلى ناحية طناش بالجيزية أو غيرها، وعاد فغرق من شَرْد ريح وافى مركبه قلبتها، ولله الحمد.

وكان البباوي هذا أصله من ببا الكبرى بالوجه القبلي: كان بها خفيراً، وقيل راعياً، وقيل غير ذلك، وقَدِمَ القاهرة، وصار بخدمة بعض الطبّاخين مَرَقْدَاراً[1]، ثم صار صبيّاً عند بعض معاملي اللحم. ولا زال ينتقل في هذه الصناعات إلى أن صار معاملاً، وحسنت حاله، وركب حماراً. ولا زال أمرُه ينمو في صناعته إلى أن أثرى، وحصّل مالاً كثيراً، وصار مُعَوَّلُ الوزراء عليه في حمل اللحم المرتّب للمماليك السلطانية، وبقي يركب بغلاً بنصف رحل بسلخ جلد خروف، ويلبس قميصاً أزرق كأكابر المعاملين. وسمع الملك الظاهر خُشقَدم بسعة ماله ـ وكان من الخِسّة والطمع في محل كبير ـ فاحتالَ على أخذِ ماله بأن ولّاه نظر الدّولة في أوائل ذي الحجة من سنة سبع وستّين. ولبس البباوي العمامة والفَرَجِيَّة والخُفَّ والمهماز، وتزيّا بزيّ الكتّاب، وترك زيّ المعاملين، فشقّ ذلك على الناس قاطبة، وعَدُّوا ذلك من قبائح الملك الظاهر خُشْقَدم؛ لأن البباوي هذا مع انحطاط قَدْرِه وجهله ووضاعته وسفالة أصله، مع عدم معرفته بالكتابة والقراءة، فإنه كان أُمِّيّاً لا ينطق بحرف من حروف الهجاء، إلّا إن كان تلقيناً؛ ومع هذا كله كان غير لائق في زِيِّه، فباشر نظر الدّولة مُدَّة يسيرة، واختفى الأميرُ زين الدين الأستادار ووَلِيَ الأستادارية من بعده المجدُ بنُ البقري، وشغر الوَزَرُ عنه، وطلب السلطان البباويَّ هذا وولّاه

---

(١) المرقدار: هو الذي يتصدّى لخدمة ما في المطبخ وحفظه. وسُمّي بذلك لكثرة تذوّقه مرق الطعام عند رفع الخوان ونحو ذلك. (صبح الأعشى: ٥/ ٤٧٠).

الوَزَرَ في يومِ الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثمانٍ وستّين وثمانمائة، وصار وزيرَ الديار المصرية، فلم نعلم بأقبح حادثة وقعت في الديار المصرية قديماً وحديثاً من ولاية البباوي هذا للوزر؛ لأنه كان أحد الأعوام الأوباش الأطراف السّوقة، ووثب على هذه الوظيفة العظيمة التي هي أجلّ وظائف الدنيا بعد الخلافة شَرْقاً وغَرْباً. وقد وَلِيَها قديماً جماعة كثيرة بالديار المصرية وغيرها من سادات الناس من زمن عبد الملك بن مروان إلى أيام الملك الظاهر بِيْبَرْس البُنْدُقْداري، وهي إلى الآن أرفع الوظائف قَدْراً في سائر بلاد الله، وفي كل قطر من الأقطار إلّا الديار المصرية فإنه انحطّ بها قدرها، ووَلِيَها من الأوباش وصغار الكَتَبَة جماعةٌ من أوائل القَرْن التاسع إلى يومنا هذا. فالذي وَلِيَها في عصرنا هذا ممّن لا يصلح لولايتها ابن النجّار، وعلي بن الأهْنَاسي البُرْددار، وأبوه الحاج محمد المقدّم [ذكره]، ويونس بن جَرْبُغَا دوادار فيروز النَّوْرُوزي، وغيرهم من هذه المقولة. ومع هذا كله بلاءٌ أعظمُ من بلاء، وأعظمُ الكل ولايةُ البباوي هذه؛ فإن كل واحد ممّن ذكرنا من الذين وُلُّوا الوزرَ كان لكل واحدٍ ميزة في نفسه، وقد تقدَّم له نوع من أنواع الْخِدَمِ والمباشرات، إلّا البباوي هذا فإنه لم يتقدّم له نوعٌ من أنواع الرئاسة. ومع هذه المساوىء باشر بظلم وعَسف وعدم حشمة وقلّة أدب مع الأكابر والأعيان، وساءت سيرتُه، وكثر الدعاءُ عليه، إلى أن أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأراح الله المسلمين منه. وقد هجاه الشعراء بأهاجٍ كثيرة، ذكرنا بعضها في تاريخنا «الحوادث». وأنا أستغفر الله من لفظة وقعت منّي في ترجمته؛ فإني قلت في آخر ترجمته: ما وَلِيَ الوزر في الدنيا أحد أخسّ من البباوي هذا، ولا يليها أيضاً أقبحُ منه إلى يوم القيامة، فوَلِيَها بعد مدة شخصٌ من غلمانه يقال له قاسم جُغَيْتَة، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع سواء. مبلغُ الزيادة لم يتحرَّر، نذكره في السنة الآتية عند انتهاء النيل.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم على مصر

وهي سنة سبعين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين قراجا بن عبد الله العمري الناصري أحد أمراء الألوف بدمشق بها في المحرم، وقد ناهز الثمانين من العُمر. وهو من مماليك الناصر فَرَج بن بَرْقُوق، وطالت أيامه في الجندية إلى أن استقرّ به الملكُ الظاهر جَقْمَق والي القاهرة، ثم تنقّل بعد ذلك في عدّة ولايات إلى أن صار أحد أمراء الألوف بدمشق، إلى أن مات في هذه السنة. وكان من المهملين المسرفين على أنفسهم مع شُهرة بالشجاعة.

وتُوُفِّيَ الأميرُ إسحاق بن إبراهيم بن قَرَمان ملك الروم، غريباً عن بلاده بديار بكر عند حسن بك بن قَرايُلُك في أوائل المحرّم، بعد أن وقع له أمور وحروب لمّا ملك الروم وخالفه إخوتُه؛ وقد ذكرنا أمره في تاريخنا «الحوادث» مفصّلاً.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جانَم بن عبد الله المؤيَّدي، المعروف بحرامي شَكَل، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بعد مرض طويل وعُمْرٍ طَوِيلٍ أيضاً. وكان من أوباش مماليك الملك المؤيَّد شَيْخ، وطالت أيامه في الخمول والفقر إلى أن جعله الملكُ الظاهرُ جَقْمَق بوَّاباً، وأنعم عليه بإقطاع كبير، فحَسُن حاله، وامتنع عن الشحاتة من الأكابر. ودام على ذلك إلى أن تسلطن الملكُ الأشرفُ إينالُ، فطلب منه إمْرَةً، فلم يُعطه شيئاً، فقام بين يَدَيْهِ في الملأ وقال: «إما توسطني أو تعطيني إمْرَة»، فضحِكَ الناسُ وشفعوا له حتى أعطاه إمْرَة عشرة. ثم صار من جُمْلَةِ رؤوس النوب، ودام على ذلك إلى أن مات. وكان له حكايات في البُخْل والجنون والنذالة نستحي من ذكرها. وبالجملة إنه كان بوجوده عاراً على جنس بني آدم.

وتُوُفِّيَ القاضي بَدْرُ الدين حسن[1] الرهوني المالكي أحد نُوّاب الحكم

(١) ورد اسمه في الضوء اللامع: «بدر الدين محمد بن علي ابن القاضي نور الدين الرهوني».

المالكية بالقاهرة، في يوم الثلاثاء أوّل شهر ربيع الأوّل، وقد قارب الستّين من العمر. وكانت لديه فضيلة، إلّا أنه كان متهوِّراً في أحكامه.

وتوفي القاضي نور الدين علي [بن أحمد بن محمد][1] الشيشيني[2] الحنبلي، أحدُ نوّاب الحكم الحنابلة في صفر، وقد جاوَزَ الكهولية. وكان فاضلاً معدوداً من فقهاء الحنابلة.

وتوفي القاضي بدرُ الدين محمد ابن القاضي ناصر الدين محمد، المعروفُ بابن المخلِّطة، المالكي السكندري الأصل، المصري المولد والمنشأ والوفاة، في ليلة السبت تاسع عشر ربيع الأول، ودفن من الغد بالصحراء، وهو في عنفوان الشبيبة. وكان وَلِيَ نيابة الحكم بالقاهرة، ثم وَلِيَ قضاء الإسكندرية، وحَسُنت سيرته، إلى أن مرض وقَدِمَ القاهرة مريضاً، ولازَمَ الفراش إلى أن مات. وكان فاضلاً عالِماً فقيهاً أديباً، حسنة من حسنات الدهر - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخ المعتقد إبراهيم الغنّام بداره بالحسينية خارج القاهرة، في يوم الخميس مستهلّ ربيع الآخر، وصُلّي عليه برحبةٍ بالقرب من داره[3]، ودُفن بها. وكان من المعمّرين، وللناس فيه اعتقادٌ حسن، وكان يبيع لبن المعز، يسوقها أمامه بالطرقات على عادة بَيَعَة اللبن، وكان مشهوراً بالصلاح.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين جَانِبَك بن عبد الله من أمير الأشرفي، المعروفُ بالظريف، محبوساً، بقلعة صَفد في هذه السّنة، وقد جاوزَ الكهولية. وكان من صغار مماليك الملك الأشرف بَرْسْباي، وصار خاصكياً في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، ثم خازنداراً صغيراً، ثم دواداراً صغيراً، ثم تأمّر عشرة، ثم صار خازنداراً كبيراً في دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار في دولة الملك الظاهر خُشْقَدَم

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) في الضوء اللامع: «الششيني، نسبة إلى ششين الكوم من قرى المحلة».

(٣) عبارة الضوء اللامع: «وصلّى عليه الشرف المناوي على باب جامع الأنور عند خان السبيل من الحسينية ورجعوا به إلى منزله فدفن في قبر أعدّه له هناك في حياته».

دواداراً ثانياً بإمرة مائة وتقدمة ألف، فلم تَطُل أيامُه فيها، وقُبِضَ عليه مع مَن قُبِض عليه من خُجْدَاشِيته الأشرفية، وحُبس سنين إلى أن مات في السجن. وكان شابّاً خفيفاً، وفيه طيش مع تكبّر وتعاظم وبخل زائد، لكنه كان عارفاً بأنواع الملاعيب كالرّمح والبُرْجاس[1] وغير ذلك؛ وعلى كل حال كانت مساوئه أكثر من محاسنه.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين مالك أَصْلان بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دُلْغَادِر نائب أَبُلُسْتين قتيلاً بها بيد فداوي في صلاة الجمعة بالجامع؛ وثب عليه الفداوي وضربه بسكّين كان في يده إلى أن قتله، وقُتل الفداوي في الوقت، وقيل إن الفداوي كان أرسله الملك الظاهرُ خُشْقَدَم. وحضر سيفه[2] إلى الديار المصرية في عاشر ربيع الآخر. ووَلِيَ بعده شاه بضع أخوه، ووقع بعد ذلك أمور وفِتَن قائمة إلى يومنا هذا.

وتُوُفِّيَ الشيخ الإمام الخطيب البليغُ الأديبُ المفنّن برهانُ الدين إبراهيمُ ابن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبد الله بن عبد الرحمن البَاعُوني الأصل، الدِّمشقي المولد والمنشأ والوفاة، في يوم الخميس رابع عشرين شهر ربيع الأوّل، ودُفن من يومه، وقد عمّر. ومولده في سابع عشرين شهر رمضان سنة سبع وسبعين وسبعمائة، ونشأ بدمشق، وطلب العلم، وقرأ على علماء عصره إلى أن بَرَع في عِدّة فنون من فقه وعربية وأدب، وغلب عليه الأدبيات والشعر. وله نظمٌ رائق ونثرٌ فائق، وقفتُ على عِدَّة كُتب من مكاتباته تدلّ على فضلٍ كبير وعلمٍ غزير، واتّساعِ باعٍ في الأدب وأنواعه. وله رسالة عاطلة من النقط، أبدع فيها وأتى بغرائب، مع عدم التكلّف، وخمَّس ألفية ابن مالك في النحو، وله غير ذلك من المصنَّفات. ووَلِيَ خطابة دمشق، ومشيخة الباسطية[3]،

---

(١) البرجاس: رمح أو سارية في أعلاه كرة من ذهب أو فضة يرميها الحذّاق وهم على الجياد. (المعجم الوسيط).

(٢) كانت العادة إذا قتل أحد النوّاب أو الولاة، أو عُزل، أن يُحضر سيفه إلى مقر السلطنة في الديار المصرية ليُصار إلى تسليمه للنائب الجديد.

(٣) أي الخانقاه الباسطية بدمشق. أنشأها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش الإسلامية =

وسُئِلَ بقضاء دمشق فامتنع، ووَلِيَها أخوه القاضي جمال الدين يوسف الباغوني. ولم يزل الشيخ برهان الدين على أحسن طريقة إلى أن مات ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَت خَوَنْد شُكرْباي الناصرية الأحمدية زوجة السلطان الملك الظاهر خشقدم في يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى، وصُلّي عليها تحت طبقة الزّمام تجاه باب الستارة، ودفنت بتربة زوجها السلطان الملك الظاهر خشقدم التي أنشأها بالصحراء. وأُنْزِلَت من القلعة، ولم يُغَطَّ نَعْشُها بِبَشَخاناه[1] على عادة الخَوَنْدات، بل جُعل على نعشها خرقة مرقّعة للفقراء، وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية[2]، وكان ذلك بوصيّة منها. وكان أصلها چاركسية الجنس، من عتقاء الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، وتزوّجت بعد موت أُستاذها بالأمير أَبْرَك الجَكَمي، واستولدها أَبْرَك أولاداً، منهم: خاتون أُم الشهابي أحمد ابن العيني. وماتت خاتون المذكورة في سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم، ولم يتزوّج السلطان الملك الناصر غيرها إلّا بعدها.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين كَسْباي بن عبد الله الشمشاني الناصري ثم المؤيدي، أحد أمراء الطبلخانات في ليلة الاثنين ثالث جمادى الآخرة، ودُفن بتربته التي أنشأها خارج القاهرة. وكان أصله من مماليك الملك الناصر فَرَج، ثم ملكه الملك المؤيَّد شَيخ وأعتقه، وصار خاصكياً بعد موته، ودام على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر جَقْمَق دَوَاداراً صغيراً، ووقع له معه أمور ومِحَن، إلى أن صار أميراً في دولة الملك الأشرف إينال، ثم صار من أمراء الطبلخانات في دولة خُجْدَاشِه

= والخوانق والكسوة الشريفة. كانت داراً له فأوقفها بإشارة من السلطان برسباي سنة ٨٣٦ هـ. (الدارس في تاريخ المدارس: ٢/١١١).

(١) البشخاناه: هي ما يطلق عليه اليوم الناموسية التي توضع فوق السرير. والمراد هنا الغطاء المزركش الذي يستعمل في تغطية النعش. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) نسبة إلى السيد أحمد البدوي المتصوّف المعروف. والظاهر أن المتوفاة كانت من أتباع طريقته، وقد مرّ معنا في غير موضع من هذا الجزء أنها كانت تكثر من زيارة ضريحها الكائن في مدينة طندتا (طنطا). ـ راجع ص ٢٣٨ من هذا الجزء، حاشية (١) و(٢).

الملك الظاهر خُشْقَدَم إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان رأساً في فنون الفروسية، عارفاً بأنواع الملاعيب، كالرمح والنّشّاب والبِرْجاس وغير ذلك، لكنه كان عنده خفّةٌ وطيش، مع سلامة باطن - رحمه الله تعالى وعفا عنه.

وتُوُفِّيَ القاضي فخرُ الدين محمد [بن محمد بن أحمد][١] الأسيوطي الشافعي أحد نوّاب الحكم الشافعية، في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة، وسنُّه أزيد من سبعين سنة. وقد ناب في الحكم أزيد من أربعين سنة، على أنه كان قليل العلم والعمل - عفا الله عنه.

وتُوُفِّيَ الشيخُ الواعظُ المُذَكِّرُ أبو العباس أحمد بن عبد الله المَقْدِسِيّ الشافعي الواعظ، بعد مرض طويل، بالقاهرة في ليلة الأربعاء سادش عشرين جمادى الآخرة، ودُفِنَ من الغد بالقرافة الصُّغرى؛ ومولده في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، هكذا ذكر لي عندما استجارني. وكان له اشتغال قديم، وغلب عليه الوعظُ والتَّذكِيرُ، وعملُ المواعيد[٢]. وكان لتذكيره تأثير في القلوب، وعليه أنْسٌ، وله باع واسع في الحفظ للأحاديث والتفسير وكرامات الصالحين. وكان له في التذكير القَبُول الزائد من كل أحد، وأثرى من ذلك وجَمَعَ المالَ الكثير، والناس فيه على قسمين، ما بين معتقد ومنتقد، والظن الثاني أكثر، وكنت أنا من القسم الأول، لولا ما وقع له مع الحافظ العلاّمة بُرهان الدين البِقاعي ما وقع، وحكايته معه مشهورة أضربت عن ذكرها لقرب عهد الناس منها.

وتُوُفِّيَ الخادمُ الرئيسُ صَفيّ الدين جَوْهَر بن عبد الله الأرغوني[٣] الظاهري، الساقي، الحبشي الجنس، رأس نوبة الجَمدَارية، في ليلة الخميس عاشر شعبان، ودُفن من الغد بتربة الأمير قاني بَاي الچاركسي، وحضر السلطانُ الصلاة عليه بمصلاة المؤمني. ومات وهو في عشر الستّين، ولم يخلف بعده مثله ديناً وأدباً

(١) زيادة عن الضوء اللامع.
(٢) المواعيد: هي دروس الوعظ والتذكير التي كانت تُقام في المساجد والرُّبط في أوقات (مواعيد) محدّدة.
(٣) في حوادث الدهور: «الأرغون شادي».

وحِشمَةً ورئاسةً وتواضعاً وعقلاً. وبالجملة إنه كان من حسنات الدَّهْر ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين سُودُون بن عبد الله المؤيَّدي الفقيه الأَشقر، أحد أمراء العشرات، بعد مرض طويل، في يوم الخميس سابع شهر رمضان. وكان من عتقاء الملك المؤيَّد شَيْخ، وتَأَمَّر في دولة الملك المؤيَّد أحمد ابن الملك الأشرف إينال ـ فيما أظن ـ ودام على ذلك إلى أن مات. وكان فقيهاً ديِّناً خيِّراً فاضلاً ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأديبُ الفاضل أبو العباس أحمد بن أبي السعود إسماعيل بن إبراهيم بن موسى بن سعيد بن علي المنوفي الشافعي، المعروف بابن أبي السعود، الشاعر المشهور، بالمدينة الشريفة في خامس عشرين شهر رمضان، ومولده في شوّال سنة أربع عشرة وثمانمائة بمنوف العليا. ومن شعره في مليح منجم: [الوافر]

لمحبوبي المنجِّمِ قلتُ يوماً فَدَتْكَ النَّفسُ يا بدْرَ الكمالِ
براني الهجرُ، فاكشف عن ضميري فهل يوماً أرى بَدْري وَفَى لي

وقد ذكرنا من شعره قطعةً جيدة في «الحوادث» وغيرها.

وتُوُفِّيَ القاضي جلالُ الدين عبدُ الرحمن ابن الشيخ نور الدين علي ابن العلاّمة سراج الدين عمر بن المُلَقِّن الشافعي، في صبيحة يوم الجمعة ثامن شوّال، وقد جاوز الثمانين بأيام قليلة. ومات فجأة. وكان من بيت علم وفضل، وناب في الحكم سنين، ووَلِيَ عِدَّة وظائف دينية، ودرَّس بعدَّة مدارس، وكان مشكور السِّيرة ديِّناً عاقلاً، مليح الوجه حَسَن السَّمْت ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخُ زينُ الدين خالد بن أيوب بن خالد، شيخ خانقاه سعيد السعداء، في يوم الأربعاء ثالث عشر شوّال، بعد مرض طويل. ووَلِيَ المسجد بعده الشيخُ تقي الدين عبد الرحمن القَلْقَشَنْدي ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ الوزيرُ الصاحبُ شمس الدين منصورُ بن الصفّيّ قتيلاً. ضُرِبَت

رقبتُه تجاه الصالحية بحكم قاضي القضاة حسام الدين بن حُريز المالكي، في يوم الأربعاء العشرين من شوّال، وسُنُّه دُون الأربعين سنة، بعد أن قاسى شدائد من الضرب والعصر والمصادرات والسجن، لِتَحَامُلِ أهلِ الدولة عليه. وقد سقنا حكايته بتطويل في تاريخنا «الحوادث» ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخُ شمسُ الدين محمدُ بن علي بن محمد[1] المعروف بابن الفألاتي الفقيه الشافعي، في يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وهو في أوائل الكهولية. .والفألاتي[2] كانت صناعة أبيه. وكان أبوه وأعمامه ثلاثة إخوة: كان عمّه الواحد أديباً حكماً لأدباء العوّامّ، عاميّاً، يجلس على الطرقات في وسط حلقة، وعمّه الآخر على قيد الحياة يتكسّب بالتنجيم بالرَّمل، وكان والد شمس الدين حَكَوِيّاً يجلس على الطرقات، وعليه حلقة كعادة العوّامّ، وكان مع هذا حَكَماً للمصارعين. ونشأ شمس الدين هذا على هيئة العوّامّ، إلاّ أنه حفظ القرآنَ العزيز، فلما كبر حُبِّبَ إليه الاشتغالُ بالعلم، فاشتغل على جماعة من العلماء في فنون كثيرة، وعُدَّ من أعيان الفقهاء ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين تَغْري بَرْمُش السيفي قَرَاخَجا الحسني، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، في ليلة الخميس ثامن عشر ذي الحجّة، وقد ناهز الستّين أو جاوزها بقليل. ودُفن من الغد، وحضر السلطانُ الصلاة عليه بمصلاة المؤمني ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ بير بُضَع بن جهان شاه بن قَرا يُوسُف بن قَرا محمد، التركماني الأصل، صاحب بغداد والعراق، قتيلاً بسيف والده جِهان شاه، بعد أن حصره ببغداد نحو ثلاث سنين. وكان كآبائه وأجداده سيىء الاعتقاد، محلول العقيدة، راحت رُوحُه إلى سقر، ويُلْحِقُ الله به مَن بقي من أقاربه.

---

(١) في الضوء اللامع: «محمد بن علي بن علي بن محمد».

(٢) الفألاتي أو الفالاتي هو الذي يقرأ الفأل والطالع.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع ونصف. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وستّة أصابع.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر خُشْقَدَم على مصر

وهي سنة إحدى وسبعين وثمانمائة.

فيها تُوُفِّيَ أتابَكُ العساكر بالديار المصرية الأميرُ قانَم من صَفَر خَجا المؤيَّدي، المعروف بالتاجر، فُجاءة في ليلة الاثنين حادي عشر صفر، وسنُّه نحو السبعين. وكان أصله من مماليك الملك المؤيَّد شَيْخ وأعتقه، وصار خاصّكِيّاً في دولة ولده المظفر أحمد ابن شَيْخ، ولا زال على ذلك إلى أن تأمَّر عشرة في دولة الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي. واستمرَّ في دولة الملك الظاهر جَقْمَق كلها على ذلك، وحجَّ أمير الركب الأوّل غير مرَّة، وتوجَّه في الرّسْلِيّة إلى جِهان شاه بن قَرا يوسف ملك الشرق، ثم إلى خَوَنْدكار بن عثمان متملّك بلاد الرُّوم، ثم عاد ودام بمصر إلى أن صار في دولة الملك الأشرف إينال من جملة أمراء الطبلخانات، ثم صار أمير مائة ومقدَّم ألف بعد موت خير بَك النّوْرُوزي المؤيَّدي الأجرود، ثم صار في دولة الملك المؤيَّد أحمد بن إينال رأس نوبة النُّوَب، بعد الأمير قَرْقَماس الأشرفي، بحكم انتقاله إلى إمرة مجلس، واستمرَّ على ذلك إلى أن نقله خچداشُه الملك الظاهر خُشْقَدَم إلى إمرة مجلس، بعد انتقال قَرْقَماس أيضاً إلى إمرة سلاح، بعد انتقال الأمير جَرِباش إلى الأتابكية، عوضاً عن الملك الظاهر خُشْقَدَم. وعظم قانم في دولة خچداشِه خُشْقَدَم المذكور، ونالته السعادةُ زيادة على ما كان أولاً، ودام على ذلك إلى أن نقله إلى الأتابَكية بعد إخراج الأتابَك جَرِباش المحمدي إلى ثغر دمياط بطَّالاً، فدام على الأتابكية إلى أن مات فُجاءة في التاريخ المقدّم ذكره. وكان من أجلِّ الملوك وأعظمهم، لولا تكبُّر كان فيه ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين بَرْسْباي بن عبد الله البَجاسي نائب الشام بها في يوم

الاثنين ثامن عشر صفر، وقد زاد سنُّه على السّتين، بعد مرض طويـل. وكان من عتقاء الأمير تَنِبَـك البَجَاسي نـائب دمشق، الذي كـان خرج على الملك الأشـرف بَرْسْباي وَقُتل في سنة سبع وعشرين وثمانمائة، فكان بين وفاة بَرْسباي هذا ووفـاة أستاذه تَنِبَك نحو أربع وأربعين سنة. ولما قُتل أستاذ بَرْسْباي هذا تنقَّل في الخِدَم حتى صار من جملة المماليك السلطانية، وترقّى إلى أن صار أمير عشرة في دولـة الملك الظاهر جَقْمق، ثم جعله نائب الإسكندرية، ثم صار في دولة الأشرف إينال أمير مائة ومقدَّم ألف.

ثم لمّا مات حاجب الحجّاب جَانِبَك القَرَمانيَ الظاهري في شوّال سنة إحدى وستّين جُعل هذا موضعه حاجب الحجّاب، ثم نُقل إلى الأمير آخورية الكُبْرى في سنة أربع وستّين بعد موت يُونُس العَلاَئي، وذلك بعد أن صـاهرَ السلطان وتـزوّج ببنت الأميـر بُرْدبـك الدوادار الثـاني، وهي بنت بنت السلطان، فلم يكن مكـافـأة بَرْسْباي هذا للأشرف إينال على ما خوَّله من النِّعم إلاّ أنه لمَّا خرج القومُ على وَلَدِه الملك المؤيّد أحمد بن إينال غَدَرَهُ ومال إلى الملك الظاهر خُشْقَدم، فعابه كلُّ أحدٍ على ذلك. وليت الملك الظاهر خشقدم عرف له ذلك، بل أخرجه بعد قليل إلى نيابة طرابُلُس، ثم تنقَّل بعد نيابة طرابُلُس إلى نيابة الشام ببذل المـال، ولم يتهنّأ بدمشق بل مَرِض وطالَ مرضُه إلى أن مات. وكان رجلاً عاقلاً عفيفاً عن المنكرات والفروج، ولم يَعِفّ عن الأموال، وكان بخيلاً جداً ـ عفا الله عنه.

وتـوفي شيخُ مكـة ومحـدِّثهـا ومسنـدهـا تقيُّ الـدين أبـو الفضـل محمـد بن نجم الـدين محمـد بن أبي الخيـر محمـد بن عبـد الله بن فَهْـد الهـاشمي المكّي الشافعي، بمكة في يوم السبت سابع شهر ربيع الأول؛ ومولده بأصْفُون الجبلين من صعيد مصر، في يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وَسبعمائة، وَقد استوعبنا ترجمته في تاريخنا «الحوادث».

وتوفي الأمير سيف الدينِ قانَم بن عبد الله الأشرفي؛ المعروف بقانَم نَعْجَـة، أحد أمراء العشرات ورأس نَوبة، شبه الفُجاءة، في ليلة الأحد سادس عشر جمادى

الأولى، وقد جاوز الستّين. وَكان من مماليك الملك الأشرف بَرْسْباي، وتأمّر في دولة الملك الأشرف إينال إلى أن مات. وكان مُسرِفاً على نفسه منهمكاً في اللذّات، وعنده بطش وظلم.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين تِمْرَاز بن عبد الله الإينالي الأشرفي الدَّوادار الثاني ـ كان ـ مقتولاً بسيف الشرع بقلعة المَرْقب، في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى؛ ومات وقد زاد سنّه على الستّين. وحكاية تِمْراز هذا طويلة، وما وقع له من الحبس والنفي والمِحَن يطول الشرح في ذكره، استوعبنا غالب أُموره في وقتها في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور». وبالجملة إن تِمْراز هذا كان من مساوىء الدهر لفظاً ومعنًى ـ عفا الله تعالى عنه.

وتُوُفِّيَ الخواجا[1] التاجر بدرُ الدين حسن الطَّاهر اليمني الأصْل والمولد والمنشأ، المكّي الدار والوفاة، شاه بَنْدَر[2] جدَّة، بمكة في جمادى الأولى، وقد عمّر وشَاخ، وانتهت إليه رئاسة التجّار بمكة في كثرة المال والبخل، وقيل إنه كان زَيْدِيَّ المذهب مع جهل مفرط، وبُعْدٍ عن كلّ علمٍ وفنٍّ.

و تُوُفِّيَ قاضي القضاة شرف الدين يَحْيىٰ بن سعد الدين محمد بن محمد المُنَاوِي الشافعي، قاضي قضاة الديار المصرية وعالِمها ـ معزولاً ـ في ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، ودُفن من الغد بالقرافة الصغرى، وقد زاد سنُّه على السبعين. وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمصلّاة المؤمني، وكانت جنازته مشهودة، وكثر أسف الناس عليه، لغزير فضله ودينه وحُسْن سيرته؛ ومات ولم يخلف بعده مثله ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) الخواجا أو الخواجة: لفظ فارسي بمعنى المعلم أو الكاتب أو التاجر أو الشيخ أو السيّد. وقد استعمل هذا اللفظ في العصر المملوكي لقباً على التجّار، خاصة مَن يمتّ منهم بصلة إلى الأصل الفارسي. (الألقاب الإسلامية: ٢٧٩ ـ ٢٨٠). والظاهر أنه استعمل للتجّار بوجه عامّ. ـ وانظر صبح الأعشى: ١٣/٦.

(٢) أي كبير تجّار ميناء جدّة. واللقب مؤلّف من لفظين: «شاه» بمعنى ملك أو سيّد، و«بندر» أي الميناء.

وتُوُفِّيَ القاضي زين الدين عبد الغفّار بن مخلوف السمديسي[١] المالكي، أحد نوّاب الحكم بالديار المصرية، وهو في آخر الكهولية، وكان معدوداً من فضلاء المالكية.

وتُوُفِّيَ الإمامُ نورُ الدين علي [بن أحمد بن علي][٢] السُّوَيْفي المالكي إمام[٣] السلطان، في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب، وهو في عشر المائة من العمر، بعد أن خدم عِدَّة ملوك، ووَلِيَ حِسْبَةَ القاهرة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الحافظُ تقي الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن قطب الدين أحمد القَلْقَشَنْدِي الشافعي، شيخ خانقاه سعيد السعداء الصلاحية في ليلة الثلاثاء ثالث شعبان؛ ومولده في شهر رجب سنة سبع عشرة وثمانمائة. وكان من الفضلاء، وصحبني سنين كثيرة، وسمعت أشياء عالية من الحديث بقراءته، ذكرنا ذلك كله في ترجمته في «الحوادث» ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ شهاب الدين أحمد بن ناصر الدين محمد، المعروف بابن قُلَيْب، حاجب حُجّاب طرابُلُس وأستادار السلطان بها، في يوم الخميس خامس شعبان.

وتُوُفِّيَ أميرزة بن شاه أحمد بن قرا يوسف في يوم السبت رابع ذي القعدة، بالقاهرة بسكنه بباب الوزير خارج القاهرة، وسنُّه زيادة على ثلاثين سنة، وأظنه حفيد شاه أحمد بن قرا يوسف لا ولده[٤] ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأمير سيفُ الدين جَانِبَك بن عبد الله الناصري، المعروف بالمُرْتَدّ،

---

(١) نسبته إلى سمديسة من قرى البحيرة قرب دمنهور.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع. والسويفي: نسبة إلى بني سويف من قرى مصر.

(٣) أي الذي كان يؤمّ السلطان في الصلاة ويقرأ له الحديث في مجلسه.

(٤) أضاف المؤلّف في حوادث الدهور: «وكان أحضره حواشي والده إلى الديار المصرية من العراق وهو صغير في دولة الظاهر جقمق مخافة عليه من عمّه أصفهان بن قرا يوسف متملّك بغداد، فنشأ بالديار المصرية كأحد أولاد الأمراء».

أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية ـ بطّالاً ـ بعدما شاخ وكبر سنُّه. وكان من المهملين في أيام عمله وبطالته ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً سواء.

ذكر سلطنة الملك الظاهر أبي نصر يَلْبَاي[١] الإينالي المؤيَّدي على مصر

وهو السلطان التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم، والرابع عشر من الجراكسة وأولادهم[٢].

تسلطن في آخر نهار السبت عاشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، قبل الغروب بنحو ثلاث درج رمل. وسبب تأخيره إلى هذا الوقت أنه لمّا مات الملك الظاهر خُشْقَدَم بعد أذان ظهر يوم السبت المقدَّم ذكرُه طلع الأتابَك يَلْبَاي المذكور وجميع الأمراء إلى القلعة، وقبل أن يتكلموا في ولاية سلطان أخذوا في تجهيز الملك الظاهر خُشْقَدَم والصلاة عليه، فغسَّلوه وأخرجوه وصلّوا عليه عند باب القُلَّة، ونزلوا به إلى حيث دُفن بمدرسته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبّة النصر، وحضرتُ أنا دفنه، ولم يحضره من أعيان الأمراء إلّا جماعة يسيرة حسبما تقدَّم ذكرُه في وفاته؛ وهذا كله بخلاف العادة، فإن العادة سلطنة سلطان، ثم يؤخذ في تجهيز السلطان الذي مات.

ولمّا أُنزل نعشُ الملك الظاهر خُشْقَدَم من القلعة شرعوا عند ذلك في سلطنة الأتَابَك يَلْباي، وكان قد انْبَرَمَ أمرُه في ضَحْوة نهار السبت هذا مع الأمراء ومماليك الملك الظاهر خُشْقَدَم، وكبيرهم يوم ذاك خير بك الدّوادار الثاني، وخُشْكَلْدِي

---

(١) ترجمته وأخباره في حوادث الدهور؛ والضوء اللامع: ١٠/٢٨٧؛ والأعلام: ٨/٢٠٨؛ وبدائع الزهور: ٣٨٨؛ وشذرات الذهب: ٧/٣١٥؛ وخطط علي مبارك: ١/١٢٤. وقد وقع اسمه في المراجع الثلاثة الأخيرة: «بلباي» بالباء الأولى الموحدة. قال الزركلي: وهو تصحيف من النسّاخ.

(٢) وهو آخر السلاطين المؤيَّدية الذين ينتمون إلى المؤيد شيخ المحمودي. (علي مبارك).

النَّيْسَقي أحد مقدَّمي الألوف. ولمّا أذعن مماليك الظاهر الأجْلَاب بسلطنة يَلْباي لم يختلف عليه يومئذ أحد، لأن الشوكة كانت للأَجْلاب، وهم أرادوه، والظاهرية الكبار تَبَعٌ لهم، وأما المؤيّدية فخُجْداشِيته، فتمَّ أمرُه.

وكيفية سلطنته أنه لمّا عادوا من الصلاة على الملك الظاهر خُشْقَدَم جلسوا عند باب الستارة وقتاً هيِّناً، وإذا بالأمير خير بك خرج من باب الحريم ومعه جماعةٌ من خُجْداشيته وأخذوا الأتَابك يَلْباي وأدخلوه من باب الحريم، ومضوا به إلى القصر السلطاني، وخاطبوه بالسلطنة، فامتنع امتناعاً هيّناً، فلم يلتفتوا إلى كلامه، وأرسلوا إلى الأمراء أحضَروهم إلى القصر من خارج، فوجدوا القصر قد سقط بابه، فدخلوا من الإيوان إلى القصر، فتفاءل الناس زواله بسرعة، لغلق باب القصر. فدخلت الأمراء قبل أن يحضر الخليفةُ والقضاةُ، وطال جلوسهم عنده، وقبَّلت الأمراء الأرض قبل المبايعة وهم في هرج لإحضار الخليفة والقضاة إلى أن حضروا بعد مشقّة كبيرة، لعسر طريق القصر، إذ المصير إليه من الإيوان السلطاني، وأيضاً حتى لبست الأمراء قماش الموكب وتكاملوا بعد أن فرغ النهار. وقد أخذوا في بيعته وسلطنته، وَلَبّسُوه خلعة السلطنة بالقصر، وجلس على تَخْت الملك من غير أن يركب فرساً بأُبّهة الملك على العادة، وقبّلوا الأمراء الأرض بين يديه وتمّ أمره، فكان جلوسه على كرسي السلطنة قبل الغروب بثلاث درج حسبما تقدّم ذكرُه.

وخَلع على الأمير تَمُرْبُغا أمير مجلس بالأتابكية، ثم خلع على الخليفة، فدقّت البَشائر، ونودي بسلطنته، وتلقّب بالملك الظاهر يَلْباي.

والآن نشرع في التعريف به قبل أن نأخذ فيما وقع له في سلطنته من الحوادث فنقول:

أصله چاركسي الجنس، جلبه الأميرُ إينالُ ضضع من بلاد الچاركس إلى الديار المصرية في عدّة مماليك، فاشتراه الملك المؤيد شَيخ قبل سنة عشرين وثمانمائة، وأعتقه وجعله من جملة المماليك السلطانية، وأسكنه بالقلعة بطبقة

الرَفْرَف[١]. ثم صار خاصكياً بعد موت أُستاذه، ودَام على ذلك إلى أن صار من أعيان الخاصكية. وأنعم الأشرف بَرْسْباي عليه بثُلث قرية طُحُورية [من الشرقية][٢]، ثم نقله الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي إلى نصف بَنْها العسل[٣] بعد أَيْتَمُش المؤيدي. ثم صار ساقياً في أوَائل دولة الملك الظاهر جقمق، فلم تطل أيامه في السقاية، وأمَّره عشرة وَجعله من جملة رؤوس النوب، فدام على ذلك إلى أن تَسَحّب الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف بَرْسْباي من قلعة الجبل واختفى إلى أن ظفر به يَلْباي هذا في بعض الأماكن، وطلع به إلى الملك الظاهر جقمق، فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بقرية سرياقوس[٤] زيادةً على ما بيده، وصَار أمير طبلخاناه. ودام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور عثمان ابن السلطان الملك الظاهر جَقْمَق، فقبض على يَلْباي هذا وعلى اثنين من خچداشِيته: دُولات باي الدَّوَادار الكبير ويَرْشباي الأمير آخور الثاني، وذلك في سنة سبع وخمسين، وحُبس بثغر الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال من سجن الإسكندرية، وأطلق خُچداشيته المذْكُورَيْن، ووجَّهه إلى دِمْياط ـ بَطَّالاً ـ ثم أحضره إلى القاهرة بعد أيام قليلة، فاستمر بطّالاً مدة يسيرة.

وقتل الأمير سَونْجبُغا اليونسي الناصري ببلاد الصعيد، وكان سَونْجبُغا هو الذي أخذ إقطاع يَلْباي هذا بعد مسكه، فأعاده الملك الأشرف إينال إليه، وصار

(١) يُفهَم من وصف المقريزي للرفرف أنه كان عبارة عن سطيح مرتفع يشرف على الجيزة، بناه الأشرف خليل وعقد عليه قبّة على عمد وزخرفها. ثم هدمه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢ هـ وأقام مكانه برجاً نقل إليه بعض المماليك فصار طبقة لهم، واستمر معروفاً باسم طبقة الرفرف. ويقال أحياناً طبقة البرج. ـ انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٢.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع. وهذه القرية تتبع مركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية (القاموس الجغرافي لمحمد رمزي) وكانت مساحتها تساوي ١٩٥٠ فدّاناً (الانتصار لابن دقماق).

(٣) وهي أيضاً من الأعمال الشرقية. ومساحتها ١٠٨ فدادين، ولكن مغلّها (عبرتها) كانت كبيرة يقدّرها ابن دقماق بأربعة عشر ألف دينار سنوياً. (الانتصار: ٥/٥٩).

(٤) سرياقوس: من الأعمال القليوبية. وكان فيها كثير من البساتين والميادين والقصور. وكانت متنزهاً للأمراء المماليك في فصل الخريف. (الانتصار: ٥/٤٩).

على عادته أولاً أمير طبلخاناه إلى أن مات الأميرُ خير بـك المؤيّدي الأشقـر الأمير آخور الثاني، فنقل يَلْباي هذا إلى الأمير آخورية الثانية من بعده، فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملكُ الأشرفُ إينال بإمرة مائة وتقدمة ألف بالـديار المصـرية، فدام على ذلك إلى أن نقله الملك الظاهر خُشْقَدَم إلى حجوبية الحجَّاب بالديار المصرية، عـوضاً عن بيبـرس خال العـزيز، بحكم انتقـاله إلى وظيفـة رأس نَوبـة النُّوَب، بعد انتقال الأمير قانَم إلى إمرة مجلس بعد انتقال قَرْقَماس إلى إمرة سلاح، بحكم انتقال جَرِباش إلى الأتابكية، عوضاً عن الملك الظاهر خُشْقَدَم. وذلك في يوم الأربعاء سابع شوّال.

فاستمرّ يَلْباي هذا على الحجـوبية إلى أن نقله الملك الـظاهر خُشْقَـدَم إلى الأمير آخورية الكبرى، بعد توجّه بَرْسْباي البَجَاسي إلى نيابة طرابُلُس، بعد القبض على الأمير إياس المحمدي الناصري، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرّم سنة ست وستين.

فدام يَلْباي هذا في هذه الوظيفة إلى أن نُقِـل إلى أتابكيـة العساكـر بالـديار المصرية بعـد موت الأتـابك قـانَم دفعة واحـدة، بعد أن كـان يجلس في مجلس السلطان خامسَ رجل، وذلك في يوم الاثنين ثامن عشر صفر سنة إحـدى وسبعين وثمـانمائـة. واستمرَّ على ذلـك إلى أن مرض الملك الـظاهر خُشْقَـدَم، وثقل في مرضه، وتكلَّم الناسُ فيمن يتسلطن فيما بينهم، فرُشِّح جماعة، فاختارت الأجلابُ يَلْباي هذا، كَوْنه أتـابك العسـاكر وأيضـاً خُچداش أستـاذهم، فتسلطن، وتمّ أمره حسبما تقدَّم ذكره ـ انتهى.

قلتُ: ولمّـا استمر جلوسـه بالقصـر السلطاني رسم في الحال بسفـر الأميـر قَـرْقَماس أميـر سلاح بمَن كـان عُيِّن معـه من الأمـراء والممـاليـك السلطانيـة إلى الصعيد، وكان له أيام مقيماً بالمركب، وكذلك جميع مَن كان عُيِّن معه، وسافروا من يومهم أرسالاً.

ثم خلع الملك الظاهرُ يَلْباي على الأتابك تَمُرْبُغا في يوم الاثنين ثاني عشره خِلْعَة نظر البيمارستان المنصوري.

وخلع على خُجِدَاشِه الأمير قاني بَك المحمودي المؤيدي بإمرة مجلس عوضاً عن الأتابَك تَمُربُغا، وأنعم عليه بإقطاع تَمُرْبُغا أيضاً.

وخلع على تَمُر المحمودي والي القاهرة خلعة الاستمرار، وكذلك على القاضي علم الدين كاتب المُماليك.

وفيه ورد كتاب يَشْبُك من مهدي كاشف الوجه القبلي يتضمن أنّه ولَّى سليمان بن عمر الهواري عوضاً عن ابن عمّه، وأنه لا حاجة له بتجريدة، فلم يلتفت السلطانُ إلى مقالته في عدم إرسال تجريدة إلى بلاد الصعيد لغرض يأتي بيانه.

ثم في يوم الخميس خامس عشره خلع السلطان على جميع مُباشِرِي الدولة باستمرارهم على وظائفهم.

وفيه نُودِيَ بأن نفقة المماليك تكون من أول الشهر، يعني أول ربيع الآخر.

وَفيه عُمل المولد النبوي بالحوش على العادة. وقبل أن يفرغ المولد ندب السلطانُ الأمير بَرْسْباي قرا الظاهري، والأمير جكم الظاهري، وطَرَبَاي الظاهري البوّاب، أن يتجهّزوا إلى الصعيد لمسك الأمير قَرْقَماس أمير سلاح والأمير قَلَمْطَاي رأس نوبة، والأمير أرْغُون شاه، ويتوجهوا بهم إلى حبس الإسكندرية، ولم يعلم أحدٌ ما المُوجِب لذلك.

وفي يوم السبت سابع عشره أعاد السلطانُ القاضي قطبَ الدين الخَيْضَري إلى كتابة السِّرِّ بدمشق، بعد عزل الشريف إبراهيم بن السيد محمد.

وفيه أيضاً استقرّ الصارمي إبراهيم بن بَيْغُوت الأعرج حاجب الحجّاب بدمشق عوضاً عن شَرامُرْد العثماني المؤيدي.

وفيه وصل الخبر بقدوم الأمير أُزبك رأس نَوبَة النُّوَب من تجريدة العقبة، بعد أن أمسك مباركاً شيخ بني عُقْبَة، الذي قطع الطريق على إقامة الحجّاج.

ثم وصل الأمير أُزبك في يوم الاثنين تاسع عشره، وخلع السلطان عليه وعلى

رفيقه الأمير جَانِبَك قَلْقَسيز حاجب الحجّاب، ورسم بتسمير مبارك شيخ بني عُقْبة المقدَّم ذكره ورفقته، وكانوا أزيد من أربعين نفراً، فسُمِّروا الجميع، وطِيفَ بهم الشوارع، ثم وُسِّطوا في آخر النهار عن آخرهم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه ورد الخبرُ على الملك الظاهر يَلْباي بعصيان الأمير بُرْدبك نائب الشام، وأنه قتل جميع النوّاب المجرّدين معه لقتال شاه سُوار بن دُلْغادِر، وكان الأمر غير ذلك. ووقع أمور حكيناها مفصّلة في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» محصولها أن بُرْدبك المذكور كان تهاون في قتال شاه سُوار المذكور، وخذل العسكر الشامي لِمَا كان في قلبه من الملك الظاهر خُشْقَدَم رحمه الله، فكان ذلك سبباً لكسر العسكر الشامي والحلبي وغيرهم ونهبهم، وقُتل في هذه الواقعة نائب طَرَابُلُس قاني باي الحسني المؤيدي، ونائب حماة تَنَم خوبي الحسيني الأشرفي، وأتابك دمشق قَراجا الخازِندار الظاهري، وأتابك حلب قانْصوه المحمدي الأشرفي، وغيرهم من أمراء البلاد الشامية، وغيرهم حسبما يأتي ذكرهم في الوفيات على عادة هذا الكتاب - انتهى.

قلتُ: وجاء هذا الخبر والديار المصرية غير مستقيمة الأحوال لعدم المدبّر، والطرق مخيفة، والسُّبل غير آمنة. وما ذاك إلّا أن الملك الظاهر يَلْباي لمّا تسلطن وتمَّ أمرُه غَطَّاهُ المنصبُ، وصار كالمذهول، ولزِم السُّكَات وعدم الكلام، وضعف عن بَتّ الأمور، ورَدْعِ الأَجْلاب، بل صارت الأَجْلابُ في أيامه كما كانت أولاً وأعظم، فلم يحسن ذلك ببال أحد، وصار الأمير خير بك الدّوادار الثاني هو صاحب الحلّ والعقد في مملكته، وإليه جميع أمور المملكة. وشاع ذلك في الناس والأقطار، وسَمَّته العوّامّ: «أيش كنت أنا؟ قل له» يعنون أن السلطان لمّا يُسأل في شيء يقول: «أيش كنت أنا، قل لخير بك» فبهذا وأشباهه اضطربت أحوالُ الديار المصرية.

هذا مع ما ورد من البلاد الحلبية من أمر شاه سُوار، وقتل أكابر أمراء البلاد الشامية، ونهبه للبلاد الحلبية، وأخذه قِلَاع أعمالها، وأن نائب الشام بُرْدبَك في

أسره، وأن يَشْبُك البَجَاسي نائب حلب دخل إلى حلب على أقبح وجه، فصار الناس بهذا المقتضى كالغنم بلا راعٍ.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرين ربيع الأول المذكور خلع الملك الظاهر يَلْباي على الأمير أُزْبُك من طَطَخ الظاهري رأس نوبة النوب باستقراره في نيابة الشام عوضاً عن بُرْدبَك الظاهري، بحكم انضمامه على شاه سُوار.

وفيه استقرَّ الأمير قاني بَك المحمودي المؤيَّدي أميرُ مجلس أميرَ سلاح عوضاً عن قَرْقَماس الأشرفي بحكم القبض عليه وحبسه بالإسكندرية، واستقرَّ قانِي بَك المذكور مقدّم العساكر لقتال شاه سُوار بن دُلْغَادِر.

وعيَّن السلطانُ في هذا اليوم عدّة أمراء تجريدة لقتال شاه سُوار؛ فعيَّن من أمراء الألوف قانِي بَك المقدّم ذكره، وجَانِبَك الإينالي الأشرفي المعروف بقَلْقَسيز حاجب الحجّاب، وبُرْدبَك هجين أمير جاندار، وهؤلاء من أمراء الألوف، وعيَّن أيضاً عدّة كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشرات يأتي ذكر أسمائهم يوم سفرهم من القاهرة، ثم عيَّن صحبتهم ستمائة مملوك من المماليك السلطانية.

وفيه استقرَّ الأميرُ إينال الأشقر الظاهري نائب غَزَّة في نيابة حماة، عوضاً عن ابن المبارك؛ وكان الناصري محمد بن المبارك قد استقرَّ في نيابة حماة قبل تاريخه عوضاً عن الأمير تَنَم الحسيني الأشرفي، بحكم مرضه وعوده من تجريدة شاه سُوار إلى حلب، وكان الناصري محمد بن المبارك إلى الآن لم يخرج من الديار المصرية، فعُزل عنها قبل أن يحكمها أو يتوجّه إليها. وكان إينال الأشقر قَدِمَ إلى القاهرة مع الأمير أُزْبك من تجريدة العَقَبة، ثم رشّح ابن المبارك إلى نيابة غزّة، فامتنع عن ولايتها.

ثم في يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الأول لبس إينال الأشقر خِلعَة السفر.

ثم في يوم السبت ثاني شهر ربيع الآخر ابتدأ السلطان بالنفقة على المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار، ففُرِّقت هذه النفقة على أقبح وجه؛ وهو أن القويّ

يُعطى، والغائب يُقطع، والمسِنّ يعطى نصف نفقة أو ربع نفقة، ومُنع أولاد[١] الناس والطواشية من الأخذ، وعاداتهم أخذ النفقة، فأحدث الظاهر يَلْباي هذا الحادث، وكثر الدعاءُ عليه بسبب ذلك، وتفاءل الناس بزوال ملكه لقطعه أرزاق الناس، فكان كذلك. ومنع السلطان أيضاً أُمراء الألوف وغيرهم من النفقة، ولم يُعطِ إلاّ مَن كُتب منهم إلى السَّفَر لا غير، فبهذا المقتضى وأمثاله نفرت القلوبُ من الظاهر يَلَباي، وعظمت الوقيعة في حقه، وكثرت المقالة في بخله، وعُدَّت مساوئه، ونُسِيَت محاسنه ـ إن كان له محاسن ـ وصارت النفقة تُفرَّق في كل يوم سبت وثلاثاء طبقةً واحدة أو أقلّ من طبقة، حتى تطول الأيام في التفرقة.

وبالجملة فكانت أيام الملك الظاهر يَلْباي نكدة، قليلة الخير، كثيرة الشر، وعظم الغلاء في أيامه، وتزايدت الأسعار، وهو مع ذلك لا يأتي بشيء، ووجوده في الملك وعدمه سواء؛ فإنه كان سَالِبَةً كُلِّية، لا يعرف القراءة ولا الهجاء، ولا يُحسِن العلامة على المناشير والمراسم إلاّ بالنُّقَط[٢]، مع عُسْر في الكتابة. وكان الناس قد أهمَّهم أمر الجُلْبان أيام أُستاذهم الملك الظاهر خُشْقَدَم، فزادوا بسلطنة الملك الظاهر يَلْباي هذا هَمّاً على همّهم[٣].

ثم في يوم الاثنين حادي عشر ربيع الآخر استقرَّ الأمير جَانِبَك قُلْقَسيز أمير مجلس عوضاً عن قاني باي المحمودي المنتقل إلى إمرة سلاح، واستقر الأمير بُرْدبك هجين عوضه حاجبَ الحجّاب.

وفيه أنعم السلطان على الأمير قايتباي المحمودي الظاهري بإقطاع الأمير

---

(١) أولاد الناس: هم أولاد الأمراء الكبار من المماليك. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) أي أنهم كانوا يرسمون له اسمه بالنقط فيمرّ بقلمه عليها ليعلّم على المناشير والمراسيم.

(٣) يوافق ابن إياس في بدائع الزهور رأي المؤلّف هنا بالسلطان يلباي. أما السخاوي في الضوء اللامع فيقول: «كان كثير السكون والوقار، متديّناً، وجيهاً في الدول، سليم الفطرة جداً. والظاهر أنه لو دام لما حصل به كبير ضرر لقلّة أذاه ومزيد صفائه ومحبته لنفع المسلمين»... على أن ابن إياس نفسه الذي أخذ على الظاهر يلباي بخله وقطعه لأرزاق أولاد الناس (وابن إياس وابن تغري بردي هما من أولاد الناس) يذكر أن السلطان يلباي أخرج جميع ما كان ادّخره من ماله الخاصّ «من حين كان جندياً وأنفقه جملة واحدة على العسكر».

أُزْبُك نائب الشام واستقرَّ عوضه أيضاً رأس نَوْبة النُّوَب، وأنعم بإقطاع الأمير قايِتْبَاي على الأمير سُودُون القَصْرَوي نائب القلعة، والإقطاع تقدمة ألف.

وفيه أيضاً استقرَّ الأميرُ خُشْكَلْدي البَيْسَقي في تقدمة الألوف عوضاً عن قانِي باي المحمودي المؤيَّدي.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الآخر استقر الأمير سُودُون البُرْدبكي الفقيه المؤيَّدي نائب قلعة الجبل بعد سُودُون القَصْروي. وفي يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر رسم السلطان أن ينتقل الأمير إينال الأشقر المقدَّم ذكرُه من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس بعد فَقْدِ نائبها الأمير قاني باي المؤيدي الحسني في واقعة شاه سُوار، وذلك بسعي من إينال المذكور، وذلك قبل أن يصل إينال المذكور إلى حماة.

ثم في يوم الخميس رابع عشره استقرَّ الناصري محمد بن المبارك في نيابة حماة كما كان وَلِيَها أوّلاً.

وفيه استقرَّ مُغُلْباي الظاهري المحتسب شاد الشراب خاناه بعد الأمير خُشْكَلْدي البَيْسقي، واستقر طَرَباي البوّاب محتسب القاهرة عوضاً عن مُغلباي المذكور، واستقرّ سُودُون السيفي أحمد بن إينال أمير عشرة وأستادار الصُّحبة، وسُودُون هذا من الأوباش الأطراف.

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأجلاب وغيرهم كل واحد بإمرة عشرة، والذين أعطوا أزيد من خمسة عشر نفراً. فالذي أخذ من الأجلاب: أركماس البوّاب، وقايت البوّاب، وطرباي البوّاب الذي وَلِيَ الحِسبة، وأصباي البوّاب الذي كان قتل قتيلين أيام أُستاذه ولم ينتطح في ذلك عنزان، وأَصْطَمُر البوّاب، وجانم الدوادار، ومُغُلْباي الساقي ابن أُخت الأمير قايتباي. والذي أخذ الإمرة منهم من الظاهرية الكبار: أزبك الساقي، وَجانم قشير، وَقانم أمير شكار، وجَكَم قَرَا أمير آخور الجمال، وسُودُون الصغير الخازندار، وقَرْقَمَاس أمير آخور. والذي أخذ من السيفية: تَمُرْباي التمرازي المِهْمَنْدَار، وبَرْسْبَاي خازندار يُونُس الدّوادار.

وفيه ورد الخبر بأن الأمير بُرْدبَك نائب الشام فارق شاه سُوار، وقَدِمَ إلى مَرْعَش[١] طائعاً، ثم سار إلى منزلة قَارَا[٢] في يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر.

ثم في يوم السبت سادس عشره تواترت الأخبارُ أن الأمير بُرْدبَك جاوز مدينة غزَّة، فندب السلطان الأمير تَمُرباي المِهْمَندار، والأمير جَكَم الظاهري، أن يخرجا إليه ويأخذاه، ويتوجّها به إلى القُدْس الشريف بَطّالاً.

ثم في يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر أضاف السلطان الأمير أُزْبك نائب الشام، وخلع عليه كاملية بفرو سَمُّور بمقلب سَمُّور، وهي خلعة السَّفر، فسافر في بكرة يوم الاثنين ثامن عشره.

وفي يوم الاثنين هذا قُرِىء تقليد السلطان الملك الظاهر يَلْباي بالسلطنة، وخلع السلطانُ على الخليفة وكاتب السِّرِّ والقضاة، وعلى مَن له عادة بلبس الخلعة في مثل هذا اليوم.

وأما أمر بُرْدبك نائب الشام، فإن السلطان لمّا أرسل تَمُرباي وجَكَم إلى ملاقاته وأخذه إلى القدس، وسارا إلى جهته، فبينما هم في أثناء الطريق بلغهم أنه توجّه إلى جهة الديار المصرية من على البدوية[٣]، ولم يجتز بمدينة قَطْيا، وقيل إنه مَرّ بِقَطْيا لكنه فاتهم وأنه قد وصَل إلى القاهرة، فعادا من وقتهما؛ فلما وصل بُرْدبَك إلى ظاهر القاهرة أرسل إلى خُجداشِه الأمير تَمُر والي القاهرة يعرّفه بمكانه، فعرّف تَمُر السلطان بذلك، فرسم السلطان في الحال للأمير أُزْدَمُر تمساح الظاهري

---

(١) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم. (معجم البلدان).

(٢) قارا: ويقال أيضاً: قارة؛ وهي قرية كبيرة والمنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق. وكانت آخر حدود حمص، وما بعدها من أعمال دمشق. (معجم البلدان).

(٣) في طبعة كاليفورنيا: «البدرية». وما أثبتناه عن طبعة الهيئة المصرية. ولعلّ المراد أنه سلك طريقاً في البادية، ولم يسلك الطريق المعروفة التي تمرّ على قطيا. وقد ورد اسم البدرية في صبح الأعشى: ١٤٦/١٣ على أنها من قرى بغداد، الأمر الذي يرجّح الرواية التي أثبتناها، فضلاً عن السياق أعلاه.

أن يتوجّه إليه ويأخذه إلى القُدْس بطّالاً، ففعل أُزْدَمُر ذلك. وقيل في مجيء بُرْدبك غير هذا القول، واللفظ مختلف والمعنى واحد.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره استقر الأمير جَانِبَك الإسماعيلي المؤيّدي المعروف بكوهية أحد مقدّمي الألوف أمير حاجّ المحمل، واستقرّ تِنِبَك المُعَلّم الأشرفي ثاني رأس نوبة النوب أمير الركب الأول.

ثم استهلّ جمادى الأولى، أوله الأحد، والقالة موجودة بين الناس بركوب المماليك الأجلاب، ولم يدرِ أحدٌ صحّة الخبر. غير أن الأمراء المؤيدية خُچداشية السلطان امتنعوا في هذه الأيام من طلوع الخدمة، مخافة من الأمير خير بك الدّوادار الثاني وخچداشيته الأجلاب أن يقبضوا عليهم بالقصر السلطاني، واتفقت المؤيدية في الباطن مع الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار. كلّ ذلك والأمر خفي على الناس، إلّا السلطان فإنه يعلم بأمره، بل هو المدبّر لهم فيما يفعلونه في الباطن حسبما يأتي ذكره من الوقعة، وهي الواقعة التي خُلع فيها الملك الظاهر يَلْباي من السلطنة.

* * *

ذكر خلع الملك الظاهر يَلْباي من سلطنة مصر

ولمّا كان عصر يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى المقدّم ذكره، وطلعت الأمراء الألوف إلى القلعة ليبيتوا بالقصر على العادة، امتنعت المؤيدية عن الطلوع بمَن وافقهم ما خلا الأمير جَانِبَك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز أمير مجلس، وهو كبير الأشرفية الكبار يومئذ، فإنه طلع إلى القلعة ووافق الظاهرية الكبار والظاهرية الصغار الأجلاب.

فلما تكامل طلوعُ مَن طلع من الأمراء في عصر يوم الأربعاء المذكور امتنع الأمير يَشْبُك الفقيه المؤيدي الدّوادار الكبير وخُچداشيته، وهم: الأمير قاني بك المحمودي المؤيدي أمير سلاح، ومُغُلْباي طاز الأبوبكري المؤيدي، وجَانِبَك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية، وهؤلاء الأربعة مقدّمو ألوف، وجماعة أُخَر

من خُجْداشِيتهم من أمر الطبلخانات والعشرات، أجلُّهم الأمير طوخ الزَّرَدْكاش، وهو الذي حَوَّل غالب ما كان بزَرَدْخانات السلطان من آلات الحرب والنُّفُوط وغير ذلك إلى بيت الأمير يَشْبُك الدّوادار، وانضم عليهم جماعةٌ كثيرةٌ من أمراء العشرات من الأشرفية الكبار وخُجْداشيتهم أعيان الخاصكية، وغيرهم، بل غالب المماليك الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار وجماعة كثيرة أيضاً من أمراء السيفية وأعيان خاصكيتهم، فصاروا في عسكر كبير وجمع هائل إلى الغاية. لكن صارَ أَمْرُهم لا ينتج في القتال لعدم مَن يقوم بأمرهم، لأن يَشْبُك الدّوادار كان الملك الظاهر يَلْباي قد وَعَدَه عندما أملاه ما يفعله من شأن هذه الوقعة أنه ينزل إليه ومعه الظاهرية الكبار، وفاته الحزمُ فإنه لم يحسب أنه يصير هو كالأسير في أيدي الأجلاب إذا تحقّقوا وُثوبَ الأمير يَشْبُك وقتاله، فصار يَشْبُك بسبب ذلك كالمقيّد عن القتال لمّا وقع القتالُ الآتي ذكره.

وكان الملك الظاهر يَلْباي لما وافق يَشْبُك الدوادار على ما فعله قد ضاقت حصيرته، وتُغُلِّبَ مع خير بك والأجلاب، وخاف إن شرع في القبض عليهم لا يتمّ له ذلك، فرمَّ هذه المرمّة[1] ليأخذ الثأر بيد غيره، وأنهم إذا استفحل أمرُهم يسألهم الملك الظاهر يَلْباي ما الغرض من ركوبهم؟ فيقولون: غرضُنا نزولُ الأجلاب من الأطباق وإبعادُ خير بك وغيره من خُجْداشيته، ويكون هذا القول عندما تَنْغَلِبُ الأجلابُ، فإذا أذعنوا بالنزل من الأطباق، وخلت القلعةُ منهم، فعل فيهم الملك الظاهر يَلْباي عند ذلك ما أراد.

وكان هذا التدبير لا بأس به لو أنه نزل إليهم في أوائل الأمر واجتمع بهم، أو طلعوا عنده وصاروا يَداً واحدة، ففاته ذلك، وأقام هو بالقلعة. وفهم خير بك والأجلابُ أنّ ذلك كله مكيدة منه لأخذهم فاحتاطوا به، واحتاجوا إلى الإذعان للظاهرية الكبار ومطاوعتهم على أنهم يخلعون يَلْباي من السلطنة، ويولّون أحداً من كبار أمراء الظاهرية، فوافقتهم الظاهرية على ذلك، ومالوا إليهم. واستمالت

---

(١) المراد أنه نوى هذه النيّة ليتدارك وضعه.

الظاهريةُ أيضاً الأمير جَانِبَك قَلْقَسيز الأشرفي أمير مجلس، فمـال إليهم، ووعدهم بممالأة خچداشيته الأشرفية إليهم، وخذلان يَشْبُك الدّوادار، فعند ذلك صار الملك الظاهر يَلْباي وحده أسيراً في أيدي القلعيِّين»[1].

فلما أصبحوا يوم الخميس خامس جمادى الأولى أعلن الأمير يَشْبُـك الفقيه [الوثوب على الخشقدمية][2]، ولبسوا آلة الحـرب، وركب بمَن معه من المؤيـدية والأشرفية الكبار والأشرفية الصغار، والسيفية، ولبسوا آلة الحرب، واجتمـع عليهم خلائق من كل طائفة، ومالت زُعْر الديار المصرية إليهم. وبلغ مَنْ بالقلعة أمرُهُم، فخافوهم خوفاً شديداً، ولبسوا هم أيضاً آلة الحرب، ونزلوا بالسلطان الملك الظاهر يَلْباي إلى مقعد الإسطبل السلطاني المطلّ على الرُّميلة، وشـرعوا في قتـال الأمير يَشْبُـك بمَن معـه في الأزقّـة والشـوارع بـالصليبيـة، وهم لا يعلمـون حقيقـة أمـر يَشْبُك[3]، ولم يقع بين الأجلاب والظاهرية الاتفاق المذكور إلى الآن، فإن الاتفاق بمـا ذكرنـاه لم يقع بين الأجـلاب والظاهـرية بـالقلعة إلّا في آخـر يوم الخميس، وكذلك الاحتراز على السلطان لم يقع إلّا في آخر يوم الخميس.

وأما أول نهار الخميس ما كانت القلعيّون إلّا كالحيارى، ولمّا وقع القتالُ بين أصحاب يَشْبُك وبين القلعيِّين تقاعد يَشْبُك عن القتال، ولم يركب بنفسه البتّة، بل صار يترقّب نزول السلطان إليه، هذا والقتالُ واقع بين الفريقين بشوارع الصّليبية من أول النهار إلى آخره، وقُتل بين الفريقين جمـاعة كثيـرة. فلما رأى النـاس تقاعـد يَشْبُك بنفسه عن القتال ظنوا أن ذلك عجز منه عن مقاومة القلعيّين فنفر لذلك عنه خلائق، ووافق ذلك اتفاق الظاهريّة الكبار مع الأجلاب بالقلعة.

وأصبح يوم الجمعة سادس جمادى الأولى والقتال عمّال بين الفريقيْن بشارع الصّليبية من أول النهار إلى آخره. فلما مالت الأشرفية الكبار إلى القلعيّين وفارقت

(١) أي أهل القلعة من الأمراء والأجناد.
(٢) زيادة للتوضيح عن بدائع الزهر.
(٣) أي أنه في حقيقة الأمر لم يكن ضدّ السلطان، وإنما كان ضدّ الخشقدمية ورأسهم خيربك.

يَشْبُـك خارت طبـاعُ الأشرفيـة الصغـار ومـالـوا أيضـاً للقلعيّين، وكـانت القلعيّـون استمالتهم أيضاً، فما أمسى الليل إلّا ويَشْبُـك الدّوادار بقي وحـده مع خُچْـداشِيته المؤيَّديّة لا غير. فلما رأى أمره آل إلى ذلك قام من وقته واختفى، وكذلك فعل غالب خُچْداشِيته المؤيدية لا غير. وأمـا الملك الظاهـر يَلْباي فـإنه لمّـا نزل إلى المقعد بالإسطبل السلطاني في باكر يوم الخميس، وشرع القتال بين القلعيّين وبين يَشْبُك وأصحابه، كان حينئذ إلى ذلك الوقت في عزّ السلطان، ولم يظهر إلى ذلك الوقت أن الذي قعله يَشْبُك كان صـادراً عنه وبتـدبيره. فلمـا فهموا ذلـك وأبرمـوا أمرهم مع الظاهرية الكبار حسبما ذكرناه في أول الكلام، أخذوا في مقته والازدراء به والتلويح له بما يكره، بل ربما صرَّح له ذلك بعضُهُم في الوجه.

وطـال هذا الأمـر والحصرُ عليـه يومي الخميس والجمعـة وليس له فيهـا إلّا الجلوس على المدوَّرَةِ[1]، والأتَابَك تَمُرْبُغـا جالس بين يـديه وقـد رشّح للسلطنـة عوضه، وهو يعرف هذا بالقـرائن، لأن الذي بقي يـطلع إلى القلعة من الـطوائف طائعاً يَبُوسُ له الأرضَ ثم يُقَبِّلُ يَد الأتابَك تَمُرْبُغا. هذا والأميرُ قايِتْبَاي المحمودي رأسُ نوبة النوب، والأميرُ جَانِبَك قَلْقَسيز أميرُ مجلس بمَن معهم من خُچْـداشِيتهم الظاهرية والأشرفية ركّاب على خيولهم، لإرسال الأمداد لقتال يَشْبُك الدوادار.

فلما جاء الليل ليلة السبت أُدخل يَلْباي إلى مبيت الحرَّاقة، وباتَ بـه على هيئة عجيبة، إلى أن أصبح النهار وأخذوه وطلعوا به إلى القصر الأَبْلَق، وحبسـوه في المخبأة التي تحت الخرجـة، بعد أن طلعـوا به مـاشياً على هيئـة الخَلْعِ من السلطنة، وأخذوا الناس في سلطنة الملك الظاهر تَمُـرْبُغا، وزال مُلْك يَلْبـاي هذا كأنه لم يكن، فسبحان مَن لا يزول ملكه.

وكانت مدة ملكه شهرين إلّا أربعة أيام، ليس له فيها إلّا مجرد الاسم فقط. ولم نعلم أحداً من أكابر ملوك الترك في السنّ، خـاصة مَن مَسَّـه الرقّ، خُلع من

---

(١) المدوَّرة: هنا نوع من دكّة مـدوَّرة مرتفعـة عن الأرض يجلس عليها السلطان. واستعملت أيضـاً بمعنى خيمة السلطان الكبيرة التي يصطحبها معه في الأسفار. ـ راجع فهرس المصطلحات.

السلطنة في أقل من مدة يلباي هذا، وبعده الملك المظفر بيبرْس الجاشْنَكير، فإن مدة بِيْبَرْس أيضاً كانت سنة تنقص ثلاثة وعشرين يوماً، ثم الملك العادل كَتْبُغا المنصوري كانت مدة سلطنته سنتين وسبعة عشر يوماً، وأما الملك الظاهر بَرْقُوق فإنه خُلع بعد سلطنته بنحو سبع سنين، ثم أُعيد.

ومع هذه المدة اليسيرة كانت أيّامه، أعني الملك الظاهر يَلْباي، أشرَّ الأيام وأقبحها. في أيامه زادت الأجلابُ في الفساد، وضيّقت السبل، وعظم قطع الطرقات على المسافرين مصراً وشاماً. وما برحت الفتنةُ في أيّامه قائمةً في الأرياف قِبْليِّها وبحريِّها، وتوقفت أحوال الناس لا سيما الواردين من الأقطار، وزادت الأسعارُ في جميع المأكولات، وضاعت الحقوقُ، وظلم الناسُ بعضُهم بعضاً، وصار في أيامه كل مفعول جائزاً، وما ذلك إلّا لعدم معرفته، وسوء سيرته، وضعفه عن تدبير الأمور، وبتّ القضايا وتنفيذ أحوال الدولة، وقلّة عقله، فإنه كان في القديم لا يُعرَف إلّا بيَلْباي تلي، أي يلباي المجنون[١]، فهذه كانت شُهرَتُه قديماً وحديثاً في أيام شبيبته، فما بالك به وقد شاخ وكبر سنُّه، وذهل عقله، وقلَّ نظره وسمعه.

وقد حكى الأمير بَرْسباي قَرَا الخازندار الظاهري أنه، لمّا أخذه من مخبأة القصر الأَبْلَق وتوجّه به إلى البَحْرَة ليُحْبَس بها فاجتاز به من طريق الحريم السلطاني أنه عَيِيَ في الطريق وجلس ليستريح، ثم سأل الأمير بَرْسْباي المذكور: «إلى أين أروح؟» فقال له: «إلى البَحْرَة يا مولانا السلطان معزوزاً مُكَرَّماً»، فقال: «والله ما أنا سلطان! أنا أمير! وما كنت أفعل بالسلطنة، وقد كبر سنّي وذهل عقلي، وقلّ نظري وسمعي؟! بالله سلِّم على السلطان وقل له إنّي لست بسلطان، وسَلْه أن يرسلني إلى ثغر دِمْياط أو موضع آخر غير حبس، فأكون فيه إلى أن أموت وأنا مأمون العاقبة، لأني ما عرفتُ أُدَبِّرُ المملكة وأنا مولًى سلطاناً، فكيف يقع منّي ما يكرهه السلطان؟!». ثم بكى أُولَى وثانية. قال بَرْسْباي: فشرعت أزيد في تعظيمه، وأُسلّيه، وأعده بكل خير».

---

(١) سمّي بذلك لجرأة كانت فيه وحدّة مزاج. (الضوء اللامع).

والمقصود من هذه الحكاية اعترافه بالعجز عن القيام بأمور المملكة. وبالجملة كانت سلطنته غلطة من غلطات الدهر.

ودام الملكُ الظاهر يَلْباي بالبَحْرَة إلى ليلة الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، فحُمِلَ إلى سجن الإسكندرية في بحر النيل، ومُسَفِّرُه الأمير قانْصوه اليَحْيَاوي الظاهري المستقر في نيابة الإسكندرية بعد عزل كَسْباي المؤيَّدي وتوجُّهه إلى دِمْياط بطّالاً. فحُبس الملكُ الظاهرُ يَلْبايُ ببعض أبراج الإسكندرية إلى أن تُوُفِّيَ بحبسه من البرج بإسكندرية في ليلة الاثنين مستهلّ شهر ربيع الأوَّل من سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة، وقد جاوز السبعين من العمر.

وكان ملكاً ضخماً، سليم الباطن، مع قِلَّة معرفته بأمور المملكة، بل بغالب الأمور، أُمّيّاً لا يحسن الكتابة ولا القراءة ولا الكلام العُرْفِيّ إلّا بمشقّة. وكان في ابتداء أَمْرِه يُعرف بيَلْباي تلِّي أي مجنون. وكان عديم التجمُّل في ملبسه ومَرْكَبه ومماليكه وسِماطه، مشهوراً بالبخر والشُّحِّ. نالَتْهُ السعادةُ في ابتداء أمره إلى يوم تسلطن. تنقّل في أوائل أَمْرِهِ من منزلة سَنِيّة إلى منزلة أخرى إلى يوم تسلطن، فلما تسلطن كان ذلك نهاية سعده. وأخذ أَمْرُه من يوم جَلَسَ على تَخْت المُلْك في إدبار، واعتراهُ الصمتُ والسُّكَاتُ، وعجز عن تنفيذ الأمور، وظهر عليه ذلك، بحيث إنه علمه منه كلُّ أحد، وصارت أمور المملكة جميعها معذوقة[1] بالأمير خير بك الدوادار، وصار هو في السلطنة حِسّاً والمعنى خير بك، وكل أمر لا يُبَتُّهُ خير بَك المذكورُ فهو موقوف لا يُقضَى. وعلم منه ذلك كل أحد، ولهجت العوّامُ عنه بقولهم: «أيش كنتُ أنا؟ قُلْ له»، يعنون بذلك أنه إذا قدمت له مظلمةٌ أو قصةٌ بأمرٍ من الأمور يقول لهم: «قُولوا لخير بك» وأشياء من هذا النمط يطول شرحها، ذكرنا غالبها في تاريخنا «الحوادث» مفصّلة، كلّ واقعة في وقتها.

وبالجملة إنه كان رجلاً ساكناً غير أهل للسلطنة ـ رحمه الله تعالى، وعفا عنه.

---

(١) أي موكلة إليه ومنوطة به.

ذكر سلطنة الملك الظاهر أبي سعيد تَمُرْبُغا[1] الظاهري على مصر،

وهـو السلطانُ الذي تَكْمُـل به عِـدَّة أربعين ملكاً من ملوك التـرك وأولادهم بالديار المصرية، والثاني من الأرْوَام، إذا لم يكن الملك المعز أيبك التركماني من الروم، والملك المنصور لاچين المنصوري؛ فإن كانا من الأروام، فيكـون الملك الظاهر تَمُرْبُغا هذا الرابع منهم.

وكـان وقتُ سلطنته بـاكر نهـار السبت سابـع جمادى الأولى من سنـة اثنتين وسبعين وثمانمائة ـ الموافق لثامن كيهك ـ بعد أن اتَّفق جميعُ أكابر الأمراء من سائر الطوائف على سلطنتهِ. وقـد جلس بصدر المقعـد بالإسـطبل السلطاني المعـروف بالحَرَّاقة، وحضر الخليفة المستنجد بالله أبو المـظفر يـوسـف، والقاضي الشـافعي والقـاضي الحنفي، وتخلَّف المالكي لتـوعكه، والحنبلي لإبـطائه، وحضـر غـالبُ أرباب الدَّوْلة والأعيان وبايعوه بالسلطنة. فقام من وقته ودخل مبيت الحَرَّاقة، ولبس خِلعةَ السلطنة ـ السواد الخليفتي. ثم خرج من المبيت المذكور وركب فرس النوبة من سلَّم الحَرَّاقة بـأُبّهة الملك، وركب الخليفـةُ أمامـه، ومشت أكابـرُ الأمراء بين يـديـه، وجميـع العسكـر، وحمـل السنْجق السلطاني على رأسـه الأميـرُ قـايِتبَـاي المحمودي رأس نَوبَة النُّوَب، ولم تُحمل القُبَّة والطَّير على رأسه؛ فإنهم لم يجدوها في الزَّرَدْخاناه، وكانت أُخِذَت فيما أُخذ يوم الوقعة لمّا نَقل طوخُ الزَّرَدْكاش ما في الزَّرَدْخَاناه، فجعلوا السنْجَق عوضاً عن القُبّة والطير. وسار الملك الظاهر تَمُرْبُغا في

---

(١) ترجمته وأخباره في حوادث الدهور؛ وبـدائع الـزهور: ٣٩٠؛ والضـوء اللامـع: ٣/٤٠؛ وخطط عـلي مبارك: ١/١٢٤؛ وشذرات الذهب: ٨/٣٢٦؛ والأعلام: . . .

مَـوْكب السلطنة إلى أن طلع من بـاب سِـرِّ القصـر السلطاني، وجلس على تَخت الملك، وقبَّلت الأمـراءُ الأرضَ بين يديـه، وخلع على قايِتْبَـاي رأس نوب النُّـوَب باستقراره أتابَك العساكر عوضاً عن نفسه، ولُقِّب بالملك الظاهر أبي سعيد تَمُرْبُغا. وهذا ثالث سلطان لُقِّبَ بالملك الظاهر واحداً بعد واحد لم يكن بينهم أحد، ولم يقع ذلك في دولة من الدُّول بسائر الأقطار.

ودُقَّت البشائر ونُودِي باسمه بشوارع القاهرة ومصر، وكان حين سلطنته الثانية من النهار والساعة للمشتري، والطالع الجَدْي وزُحَل.

وتمَّ أمْرُ الملك الظاهر في الملك، وزالت دولةُ الملك الظاهر يَلْباي كأنها لم تكن. وطلع الأعيانُ لتهنئته أفواجاً، وسُرَّ الناس بسلطنته سروراً زائـداً، تشارك فيه الخاصّ والعامّ قاطبة، لكونه أهلاً للسلطنة بلا مدافعة. فإننا لا نعلم في ملوك مصر في الدولة التركية أفضل منه ولا أجمع للفنون والفضائل، مع علمي بمَن وَلِيَ مصر قديماً وحديثاً كمـا مرَّ ذكـره في هذا الكتـاب، من يوم افتتحهـا عمرو بن العـاص ـ رضي الله عنه ـ إلى يوم تاريخه، ولو شئتُ لقلتُ: ولا من بني أيوب، مع علمي محاسن السلطان صلاح الدين السعيد الشهيد، وما له من اليد البيضاء في الإسلام، والمـواقف العظيمـة والفتوحـات الجليلة، والهِمَم العاليـة ـ أسكنه الله الجنّـة بمنّه وكرمه.

غير أن الملك الظاهر تَمُرْبُغا هذا في نوع تحصيل الفنون والفضائـل أجمع من الكل؛ فإنه يصنع القوس بيده وكـذلك النّشّـاب، ثم يرمي بهمـا رمياً لا يكـاد يشاركه فيه أحد شرقاً ولا غرباً. انتهت إليه رئاسة الرّمي في زمانه، وله مع هذا اليد الـطولى في فنِّ الرمـح وتعليمه، وكـذلـك البـرجـاس، وسَـوْق المحمـل، وتعبئـة العساكر. وأما فنّ اللجام ومعرفته، والمِهماز وأنواع الضرب به فلا يُجارى فيهمـا، ويُعـرَف فنّ الضرب بـالسيف. وأما فن الـدَّبُّوس فهـو فيه أيضـاً أستاذ مفتن، بـل تلامذته فيه أعيانُ الدنيا، هذا مع معرفة الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ـ رضي الله عنه ـ معرفة جيّدة، كثير الاستحضار لفروع المذهب وغيرهـا،

ثم مشاركة كبيرة في التاريخ والشعر والأدب والمحاضرة الحسنة والمذاكرة الحلوة، مع عقل تامّ وتؤدة في كلامه ولفظه، غير فحّاش ولا سبّاب.

وكان فيه أولاً في مبدأ أمره بُعَيْضُ شممَ وتعاظم، فلما نقل إلى المناصب الجليلة تغيَّر عن ذلك كله، لا سيما لمّا تسلطن صار كالماء الزلال، وأظهر من الحشمة والأدب والاتِّضَاع ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت، وبقي يقوم لغالب مَن يأتيه من أصاغر طلبة العلم ذهاباً وإياباً، ويُجلّ العلماء والفقراء، وسلك مع الناس مسالك استجلب بها قلوبَ الخاصّ والعامّ.

ولمّا دام جلوسه يومه كله بالقصر السلطاني جلوساً عامّاً لتهنئة الناس، وهنّأه الناسُ على قدر منازلهم، فصار يلقى كلَّ مَن دخل إليه بالبشاشة والإكرام وحُسْن الردّ بلسان فصيح مع تؤدة ورئاسة وإنصاف، فتزايد سرورُ الناس به أضعاف مسرّتهم أولاً. وبالله أُقسم أني لم أرَ فيما رأيتُ أطلقَ وَجهاً ولا أحسن عبارةً ولا أحشم مجلساً في ملوك مصر منه.

ولمّا كان عصر نهار السبت المذكور أُخذ الأمير قانِي بَك المحمودي المؤيّدي أميرُ سلاح من اختفائه ببيت الشيخ سيف الدين الحنفي، فَقُيِّد وحُبس بعد أن نَهَبَت العامّة بيته، وأخذت أمواله من غير إذن السلطان ولا إذن أحد من أرباب الدولة، بل بأمر الغوغاء والسواد الأعظم يوم الوقعة عند انهزام يَشْبُك الفقيه الدَّوادار واختفائه. وكان هذا المسكين جميع ماله من المال والسكّر والقنود[1] والأعسال والقماش في داره، فنُهب ذلك جميعه، وما ذاك إلّا لصدق الخبر: «بشِّر مالَ البخيل بحادث أو وارث»، وكذلك العامّة والغوغاء في بيت الأمير يشبك الفقيه الدَّوادار، ولكن ما أُخذ من بيت قانِي بَك من المتاع والمال أكثر.

وفيه شفع الأمير قَايِتْبَاي المحمودي في الأمير مُغُلْباي طاز المؤيَّدي، فقَبِل السلطان شفاعته ورسم له بالتوجّه إلى دِمْياط بطَّالاً.

---

(١) القند: عسل قصب السكر إذا جمد.

وفيه رسم السلطان بإطلاق الملك المؤيّد أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال من حبس الإسكندرية، ورسم أن يسكن في الإسكندرية في أيّ بيت شاء، وأنه يحضر صلاة الجمعة راكباً، وأرسل إليه فرساً بقماش ذهب.

ثم رسم السلطان أيضاً للملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جَقْمَق بفرس بقماش ذهب وخلعة عظيمة، ورسم له أن يركب ويخرج من أيّ باب شاء من أبواب الإسكندرية، وأنه يتوجّه حيث أراد من غير مانع يمنعه من ذلك. قلتُ: وفِعْلُ الملك الظاهر تَمُرْبُغا هذا مع الملك المنصور عثمان كان من أعظم المعروف، فإنه ابن أستاذه وغرس نعمة والده.

وفيه أيضاً رسم السلطان بإطلاق الأمير قَرْقَماس أمير سلاح، ورفيقيه قَلَمْطاي وأَرْغُون شاه [الأشرفيين][1] من سجن الإسكندرية، وكتب أيضاً بإحضار دُولات باي النجمي وتِمْراز الأشرفيْن من ثغر دِمْياط.

وكتب أيضاً عِدّة مراسيم إلى البلاد الشامية والأقطار الحجازية بإطلاق مَنْ بها من المحابيس [الأشرفية وغيرهم][1]، ومجيء البطّالين.

وفيه رسم السلطان بأن كلّ مَن كانت له جامكية في بيت السلطان من المماليك الإينالية الأشرفية وقُطعت قبل تاريخه، تُعاد إليه من غير مشورة، فعمّ الناسَ السرورُ بهذه الأشياء من وجوه كثيرة، وتباشرت الناس بيمن سلطنته.

قلتُ: وقبل أن نشرع في ذكر حوادث السلطان نذكر قبل ذلك التعريف به ثم نشرع في ذكر حوادثه، فنقول:

أصل الملك الظاهر تَمُرْبُغا هذا رومي الجنس من قبيلة أُرْنَؤوط[2]، وجَلَبه بعض التجّار في صغره إلى البلاد الشامية في حدود سنة أربع وعشرين وثمانمائة، فاشتراه الأمير شاهين الزَّرَدْكاش نائب طَرَابُلس كان. ثم نقل إلى ملك غيره إلى أن

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) هم الألبان. وهم من الجنس الآري، يسكنون على الشاطىء الشرقي للبحر الأدرياتيكي. (دائرة المعارف الإسلامية: ١٠٩/٣).

ملكه الملك الظاهر جَقْمَق وهو يوم ذاك الأمير آخور الكبير، فربّاه الملك الظاهر وأدَّبه وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الخواصّ به. ودام على ذلك إلى أن تسلطن فقرّبه وأدناه، وجعله خاصكياً سلاحداراً مدة، ثم جعله خازنداراً. ثم أمَّره في أواخر سنة ستٍّ وأربعين وثمانمائة إمرة عشرة عوضاً عن آقْبَردي الأمير آخور الأشرفي. واستمر على ذلك مدة طويلة، وهو معدود يوم ذاك من خواصّ الملك، إلى أن نقله إلى الدوادارية الثانية عوضاً عن دُولات بَاي المحمودي المؤيدي، بحكم انتقاله إلى تقدمة ألف، فباشر تَمُرْبُغا هذا الدوادارية الثانية بحرمة وعظمة زائدة، ونالته السعادة، وعظم في الدولة، وشاع اسمه في الأقطار، وبَعُدَ صيته، وقصدته أرباب الحوائج من البلاد والأقطار، وصار أمر المملكة معذوقاً به، والدوادار الكبير بالنسبة إليه في الحُرمة ونفوذ الكلمة كآحاد الدوادارية الصغار الأجناد.

واستمرَّ على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جَقْمَق رحمه الله تعالى، وتسلطن بعده ولده الملك المنصور عثمان، فصار تَمُرْبُغا عند ذلك هو مدبّر المملكة وصاحب عقدها وحلّها، والملك المنصور معه حِسٌّ في الملك والمعنى هو، لا سيما لمّا أمسك الملك المنصور الأمير دُولات بَاي الدّوادار والأمير يَلْباي المؤيّدي هذا الذي تسلطن، والأمير يَرْشَبَاي المؤيدي الأمير آخور الثاني. واستقر تَمُربغا هذا دواداراً كبيراً عوضاً عن دولات بَاي المذكور وبقي ملك مصر وأُموره معذوقاً به، والناس تحت أوامره، فلم تطل أيامه بعد ذلك، ووقعت الفتنة بين الملك المنصور عثمان وبين أتابَكه الأشرف إينال، وهي الواقعة التي خُلع فيها الملك المنصور عثمان وتسلطن من بعده الأشرف إينال.

ودام القتال بين الطائفتين من يوم الاثنين إلى يوم الأحد، أعني سبعة أيام والقتال عمّال بين الطائفتين، وكان القائم بحرب إينال بالقلعة هو الملك الظاهر تَمُربغا مع خُجْداشِيته الظاهرية، والمعوّل عليه فيها، مع علمي بمَن كان عند الملك المنصور غير تَمُربغا من أكابر الأمراء، مثل تَنَم من عبد الرزّاق أمير سلاح، والأمير قانِي بَاي الچاركسي الأمير آخور الكبير، ومع هذا كله كان أمر القتال

وتحصين القلعة والقيام بقتال الأتابك إينال متعلقاً بالملك الظاهر تَمُربغا هذا. فلما تسلطن إينال وانتصر أمسك الملك الظاهر تَمُرْبغا هذا وسجنه بالإسكندرية أشهراً، ثم نقله إلى حبس الصُّبَيْبة بالبلاد الشامية، فحُبس بالصُّبَيْبَة أكثر من خمس سنين.

وكانت مدة سجنه بالإسكندرية والصُّبيْبة نحو ست ستّين، إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال في أواخر سنة اثنتين وستّين، وأمره أن يتوجّه إلى دمشق ليتجهّز بها، ويتوجّه مع موسم الحاج الشامي إلى مكة ويقيم بها. فسار إلى مكة وجاور بها سنة ثلاث وستّين، وكنتُ أنا أيضاً مجاوراً بمكة في تلك السنة، فتأكدت الصحبةُ بيني وبينه بها، ووقعت لنا محاضرات ومُجالسات. ودام هو بمكّة إلى أن تسلطن الملك الظاهر خُشْقَدَم في سنة خمس وستّين وثمانمائة، فقَدِمَ القاهرة، فأجلّه الملك الظاهر، وزاد في تعظيمه وأجلسه فوق جماعة كثيرة من أمراء الألوف الأعيان. ثم أنعم عليه في يوم الاثنين سلخ ذي الحجة من سنة خمس وستين وثمانمائة المذكورة بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضاً عن جَانِبَك الأشرفي المشدّ بحكم القبض عليه، وخلع عليه في اليوم المذكور باستقراره رأس نوبة النوب، عوضاً عن بِيْبَرس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف، بحكم القبض عليه أيضاً، فدام على ذلك إلى أن أخرج الملك الظاهر خُشْقَدَم الأتابك جَرِباش إلى ثغر دِمْياط بطّالاً، واستقرّ عوضه في الأتابكية الأمير قانم أمير مجلس، فنقل الملك الظاهر تَمُرْبُغا إلى إمرة مجلس عوضاً عن قانم المذكور، وذلك في شهر رمضان سنة تسع وستّين وثمانمائة، فدام على إمرة مجلس إلى أن مات الملك الظاهر خُشْقَدَم في عاشر شهر ربيع الأول.

وتسلطن الملك الظاهر يَلْباي، فصار الملك الظاهر تَمُرْبُغا هذا أتابَك العساكر عوضاً عن الملك الظاهر يَلْباي المذكور، فعند ذلك تحقّق كلّ أحد أن الأمر يؤول إليه، فكان كذلك حسبما تقدم ذكره. ولنعد الآن إلى ما وعدنا بذكره من الحوادث:

ولمّا كان يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى أنعم السلطان الملك الظاهر تَمُرْبُغا على جماعة من الأمراء بعدّة وظائف:

فاستقرَّ الأمير جَانِبَـك قَلْقَسيز أميرُ مجلس أميرَ سـلاح عوضـاً عن قاني بـك المحمودي المؤيَّدي بحكم القبض عليه.

واستقرَّ الشهابي أحمد بن العيْني الأمير آخور الكبير أمير مجلس عوضـاً عن جَانِبَك قَلْقَسيز.

واستقرَّ الأميرُ بُردبَك هجين الظاهري حاجبُ الحجَّاب أميرَ آخوراً كبيراً عوضاً عن ابن العَيْني.

واستقرَّ الأمير خير بك الظاهري الدوادارُ الثاني دواداراً كبيراً عوضاً عن يَشْبُك الفقيه بحكم القبض عليه وإخراجه إلى القُدُس الشريف بطّالاً.

واستقرَّ الأمير كَسْباي الظاهري أحد أمراء العشرات دواداراً ثانياً، عوضاً عن خير بك.

واستقـرَّ الأمير خُشْكَلْدي البَيْسَقي رأس نـوبة النـوب، عـوضـاً عن الأتـابـك قايتباي.

واستقر الأمير قانْصوه اليحياوي الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في نيابة الإسكندرية عوضاً عن كَسْباي المؤيدي السمين بحكم عزله وتوجّهه إلى دمياط بطّالاً، بعد أن أنعم الملك الظاهر على قانصوه المذكور بإمرة طبلخاناه عوضاً عن طوخ الزرَدْكَاش، بحكم توجّهه إلى دِمْياط بطّالاً.

وفي ليلة الثلاثاء عاشره حُمل الملك الظاهر يَلْباي في النيل إلى إسكندريـة ليُسجَن بها، ومُسَفِّره قانْصوه اليحياوي؛ وقد تقدّم ذكر ذلك كله في ترجمة الظاهر يَلْباي.

وفي يوم الثلاثاء عاشره فُرِّقت نفقـة المماليـك السلطانية، وهي تمـام تفرقـة يَلْباي التي كان أنفق غالبها ولم يتم؛ ولم يفرّق الملك الظاهـر تمربغـا نفقة على المماليك السلطانية لقلّة الموجود بالخزانة الشريفة.

ورسم الملك الظاهر تَمُربغا في هذا اليوم بإعطاء أولاد الناس النفقة، الذين

هم من جملة المماليك السلطانية، وكان المَلك الظاهر يَلْباي منعهم، فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك حتى خُلع، وأحوجه الله إلى عُشْر من أعشارها. فلما أمر الملك الظاهر تَمُربغا بالنفقة عليهم كثر الدعاء له بذلك. فلم يسلم من وَاسطة سوء ـ وكلمة الشحّ مُطاعة ـ فتغيّر بعد ذلك، فقرأ بعض أولاد الناس هذه الآية الشريفة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] بذلّ وخشوع وكسر خاطر، فلم يفلح بعدها. ولم يقع للظاهر تَمُرْبُغا في سلطنته ما يُعاب عليه إلّا هذه القضية، فما شاء الله كان. قلتُ: «واعجباه من رجل يملك تَخْتَ ملك مصر، ثم تضعف همّته من إعطاء مثل هذا النّزر اليسير الذي يعوّضه الملك العارف المدبّر من أيّ جهة شاء من الجهات الخفيّة عن العاري الضعيف التدبير، وتطلق عليه بعدم الإعطاء ألسنة الخاصّ والعامّ، وتكثر الشناعة والقالة في حقّه بسبب ذلك، ولكن العقول تتفاوت».

وفيه أيضاً قَدِمَ الأمير أَزْدَمُر تمساح إلى القاهرة بعدما أوصل الأمير بُرْدُبَك الظاهري نائب الشام إلى القدس ليقيم به بطّالاً.

وفي يوم الخميس ثاني عشره خلع السلطان على الأتابك قَايِتْبَاي خلعة نظر البيمارستان المنصوري، وكذلك خلع على خير بَك الدوادار الكبير، وعلى كَسْباي الدوادار الثاني، كليهما خلعة الإنظار المتعلقة بوظائفهما.

وفيه أنعم السلطانُ على ستّة نفر بتقادم ألوف بالدّيار المصريّة، فرّق عليهم من الإقطاعات الشاغرة، وأضاف إليها بلاداً أُخَر من الذخيرة السلطانية وغيرها، وهم: الأمير لاچين الظاهري، وسُودُون الأفرم الظاهري الخازندار، وجَانِبَك من طَطَخ الظاهري الفقيه الأمير آخور الثاني، وتَمُر من محمود شاه الظاهري والي القاهرة. واستقرّ تَمُر المذكور حاجب الحجّاب بالدّيار المصرية دفعة واحدة عوضاً عن الأمير بُرْدبك هجين المنتقل إلى الأمير آخورية الكبرى، وهؤلاء الأربعة مماليك الملك الظاهر جَقْمَق.

ثم أنعم على الأمير تَنِبَك المعلّم الأشرفي رأس نوبة ثانٍ أيضاً بتقدمة ألف،

ثم مُغُلْباي الظاهري شاد الشراب خاناه. فهؤلاء الستّة المقدّم ذكرهم، منهم تَنِبَك مملوك الأشرف بَرْسْباي، ومُغُلْباي مملوك الظاهر خُشْقَدَم.

ثم استقرّ بَرْقُوق الناصري الظاهري شاد الشراب خاناه عوضاً عن مغلباي.

واستقرّ تَغْري بَرْدي طَطَر الظاهري نائب قلعة الجبل بعد عزل سُودُون البُرْدْبَكي الفقيه المؤيدي ونفيه.

واستقر آصْباي الظاهري ـ أحد أمراء الأجلاب ـ الذي كان قتل قتيلَيْن أيام أستاذه الملك الظاهر خُشْقَدَم، ولم ينتطح في ذلك شاتان ـ واليَ القاهرة عوضاً عن تَمُر الظاهري.

وفي يوم السبت رابع عشر جمادى الأولى المقدّم ذكره استقر الأمير تَنِبَك المعلِّم أحد المقدّمين أمير حاج المحمل، عوضاً عن جَانِبَك كوهيَّة. وكان تَنِبَك هذا قد وَلِيَ قبل تاريخه إمْرَة الركب الأول، فلما صار أحد مقدّمي الألوف استقرّ أمير الحاج، ووَلِيَ بعده بمُدّة تَنِبَك الأشقر الأشرفي أمير الركب الأوَّل.

وفيه كان تمام المماليك السلطانية بعد أن فرّقت على أقبح وجه وأظهر عجز، لأنهم لم يُنْفِقُوا على أحد من الأمراء إلاّ مَن نُدب إلى السفر، ولا على أولاد الناس، ولا على الخُدَّام الطواشية، ولا على أحد من المتعمّمين، ومع هذا كله فرّقت النفقة في مدة طويلة كإعطاء المديون المماطل لغريمه. ولمّا فُرّقت النفقة خلع السلطان على القاضي عَلَم الدين كاتب المماليك، وعلى ولده، بالتحدّث عن خَوَنْد زوجة السلطانُ في تعلقاتهما.

وفيه استقرّ الأَميرُ جَكَم الظاهري أحد الأمراء الأجلاب حاجباً ثانياً عوضاً عن الأمير قانِي بك السيفي يَشْبُك بن أَزْدَمُر بحكم استعفائه عن الإمرة والوظيفة معاً.

وفي يوم الاثنين سادس عشره استقرَّ الأمير دُولات بَاي حمام الأشرفي أحدُ أمراء العشرات رأسَ نوبة ثانياً عوضاً عن تَنِبَك المعلِّم على إمرة عشرة كما كان أولاً.

وفيه استقر الأمير بَرْسْبَاي قَرا الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة خازنداراً عوضاً عن سُودُون الأفْرَم المنتقل إلى تقدمة ألف.

واستقرَّ فارس السيفي دُولات بَاي أحد أمراء العشرات زَرْدْكَاشاً عوضاً عن طوخ الأبو بكري المؤيدي على إمرة عشرة.

وفي آخر هذا النهار وصل الأمير قَرْقَماس أمير سلاح ورفيقاه قَلَمْطاي وأَرْغُون شاه من سجن الإسكندرية، وباتوا بالميدان الناصري، وطلعوا من الغد إلى القلعة، فقام السلطان إلى قرقماس المذكور واعتنقه وأجلسه فوق أمير سلاح على ميسرته، ثم خلع عليه كاملية بمقلب سَمُّور، ونزل هو ورفيقاه إلى دورهم.

وفيه فرّق الملك الظاهر تَمُرْبُغا نحو سبعين مثالاً، أعني سبعين إقطاعاً، على جماعة من المماليك السلطانية، الكثير والقليل.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره نفى السلطان خمسة أمراء من أمراء المؤيَّدية إلى البلاد الشامية، وأخرج إقطاع بُردبك الشمسي أحد أمراء العشرات وأُبقي بالقاهرة بطّالاً. والذين أُخرجوا هم: سُودُون البُردبَكي الفقيه نائب القلعة، وجَقْمَق، وجانَم كسا، وقاني باي مِيق، وجَانِبَك البوّاب، ومعهم جندي من المؤيدية غير أمير يسمى خُشْكَلْدي قَرا الحسني، وما على خُشْكَلْدِي المذكور في نفيه أضرّ من كثرة متحصّل إقطاعه لا غير. وشُفِعَ في جَانِبَك الزيني وتَنَم الفقيه وطوغان مِيق [العمري][1] ودولات باي الأبو بكري، فهؤلاء الذين بقوا بمصر من أمراء المؤيدية، ثم بُعَيْض أجناد لم يُلتفت إليهم، وهم نحو من عشرين نفراً أو أقلّ [كلهم من المؤيَّدية][1].

وفي يوم الخميس تاسع عشره أنعم السلطان الملكُ الظاهر تَمُربغا على نحو عشرين نفراً بإمريات عشرة: من الأشرفية الكبار[2]، ومن الظاهرية الكبار[3]، ومن

(١) زيادة عن حوادث الدهور.

(٢) أي مماليك الأشرف برسباي.

(٣) أي مماليك الظاهري جقمق.

الأشرفية الصغار[١]، ومن الظاهرية الصغار[٢] الأجلاب ثم على بعض سيفية[٣].

وفيه وصل دُولات باي النجمي وتِمراز [الساقي الأشرفيان][٤] من ثغر دِمياط، وطلعا إلى السلطان في يوم السبت.

وفي يوم السبت حادي عشرينه أُشيع بالقاهرة بإثارة فتنة وركوب الأمراء على السلطان، ولم يعيَّن أحد.

وفيه أُشيع بموت جهان شاه بن قَرَا يوسف ملك الشرق والعراقَيْن[٥].

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين جمادى الأولى المذكور استقرّ الأمير أُرغُون شاه الأشرفي في نيابة غزّة عوضاً عن دَمُرداش العثماني قبل أن يصل دَمُرداش المذكور إليها أو يحكمها.

ثم استهلّ جمادى الآخرة ـ أوله الاثنين، ويوافقه أول طوبة.

في يوم الثلاثاء، ثانيه نُودِي من قِبَل السلطان بأن السلطان ينزل إلى الإسطبل السلطاني في يومي السبت والثلاثاء للحكم بين الناس وإزالة المظالم.

وفي يوم الخميس رابعه استقر الأمير خير بك الدوادار ناظر خانقاه سِرياقوس وناظر خانقاه سعيد السعداء وناظر قُبَّة الصالح، وذلك عوضاً عن الشهابي أحمد بن العيني أمير مجلس بحكم انحطاط قدره.

وفيه وصل رأس جِهان شاه بن قَرا يوسف ملك العراقين والشرق على ما زعم حسن بك بن علي بك بن قَرَايُلُك متملّكُ ديار بكر، وعُلِّقت الرأس على باب الملك الأفضل بن شاهنشاه المدعو الآن بباب زويلة أيّاماً. وفي قتل حسن بك لجهان شاه المذكور روايات كثيرة مختلفة يناقض بعضها بعضاً.

---

(١) أي مماليك الأشرف إينال.

(٢) أي مماليك الظاهر خشقدم.

(٣) أي مماليك الأمراء السابقين.

(٤) أي عراق العرب وعراق العجم. ـ راجع فهرس الأماكن.

(٥) زيادة عن حوادث الدهور.

وفي ليلة السبت سادسه سافر الأمير قَرقَماس أمير سلاح كان، إلى ثغر دِمياط بَطّالاً برغبته لذلك.

وفي يوم الاثنين ثامنه خلع الظاهر تَمُربُغا على الأمير أزْدَمُر تمساح بتوجّهه إلى القُدس الشريف وعلى يده تقليد الأمير بُردبك وتشريفه وعوده لنيابة حلب، عوضاً عن يَشْبُك البَجَاسي بحكم عزله وحبسه بقلعة دمشق.

وفي يوم الخميس حادي عشره خلع السلطان على الأمير أزدَمُر الطويل الإبراهيمي القادم قبل تاريخه من دمشق بتوجّهه إلى حلب، وعلى يده مرسوم شريف بتوجّه الأمير يَشْبُك البَجَاسي نائب حلب إلى القُدْس بطّالاً، ثم آل أمره إلى حبس دمشق؛ وأزْدَمُر هذا خلاف أزْدَمُر تمساح المقدّم ذكرُه.

وفي يوم السبت ثالث عشره وصل الأمير سُودُون البَرْقي أحد أمراء الألوف بدمشق إلى خانقاه سِرْياقوس، فمنعه السلطان من الدخول إلى الديار المصرية، وأرسل إليه بفرس بسرج ذهب وكُنْبُوش زركش وكاملية بمقلب سَمُّور، وطيَّب خاطره.

وفي يوم السبت العشرين من جمادى الآخرة ضرب السلطان القاضي تقي الدين بن الطيوري الحلبي الحنفي، المعروف بخروف، بالإسطبل السلطاني في الملأ ضرباً مبرحاً، لسوء سيرته وقبح سريرته، وأرسله في الجنزير إلى بيت القاضي المالكي ليدّعي عليه بأمور. فاستمر في الجنزير إلى يوم الأحد ثامن عشرينه، فأحضروه إلى بيت القاضي كاتب السِّرِّ الشريف، فادّعى عليه بأمر ذكرناه في «الحوادث»[1]، فحكم القاضي بدرُ الدين محمد بن القطّان الشافعي فيه، وضربه ثلاثين عصاة، وكشف رأسه، وأشهره وهو مكشوف الرأس مقطّع الأكمام إلى الحبس، ثم نفي بعد ذلك إلى جهة البلاد الشامية.

---

(١) قال المؤلّف في حوادث الدهور: «وقد كتب عليه بعظائم فلم يدّع عليه بشيء مما ذكر في المحضر غير أنه يصلّي بغير وضوء وأنه يقع في حق العلماء والأعيان». وابن الطيوري المذكور هو أبو بكر بن علي بن محمد بن علي الحلبي. توفي سنة ٨٩١ هـ (الضوء اللامع: ١١/٥٧).

وفي هذه الأيام قويت الإشاعة بأن الأمير خير بك يريد القبض على السلطان وعلى الأتابك قايتباي المحمودي إذا طلع إلى القلعة في ليالي الموكب، وأنه قد اتفق مع خُچْداشِيته الچراكسة الأجلاب على ذلك، الذين هم من جنسه جنس أبزة، وأن خچداشيته الجراكسة تخالفه وتميل إلى الأمير كَسْباي الدَّوادار الثاني، وكَسْباي المذكور هو صهر الملك الظاهر تَمُرْبُغا أخو زوجة السلطان. وأما الأتابَك قايتباي فإنه أخذ حِذْرَه من هذه الإشاعة، واحترز على نفسه، وامتنع في الغالب من الطلوع إلى القلعة في ليالي الموكب وصلاة الجمعة مع السلطان، وصار يعتذر عن طلوع القلعة بأمور مقبولة وغير مقبولة، لكن كان يطلع أيام الموكب في باكر النهار بقماش الموكب وينزل في الحال؛ وكانت أعذاره عن الطلوع إلى القلعة بأنه تارةً يتوجه إلى الربيع[1] وتارة بغير ذلك، والسلطان يسمع هذه الإشاعة ويعلم من الأتابَك قَايِتْبَاي ما يفعله ولا ينكر عليه عدم طلوعه، ولا يجبره على الطلوع، بل يتخوَّف هو أيضاً على نفسه، ويأخذ في إصلاح أمره بما هو أخفّ، فلا يسلّم ممّن يُسَكِّن روعه وينفي عن خير بك المذكور هذه الإشاعة ممّن له غرض في الباطن مع خير بك. ثم يُقَوِّي جأشَ السلطان الأميرُ كَسْباي الدوادار مع كثرة خُچْداشِيته، فإنه مخالف لخُچْداشِه خير بك الدوادار، ويميل إلى ظهره الملك الظاهر تَمُرْبغا. واستمر هذا الحال جمادى الآخرة كلها، إلى أن استهلّ شهر رجب ـ أوله يوم الأربعاء.

فيه سأل الأتابَك قايتْبَاي السلطان أن يتوجّه إلى ناحية مربط جماله على الربيع ببعض قرى القليوبية من أعمال مصر، فأذِنَ له السلطان في ذلك. فسافر الأتابَك إلى تلك الجهة، وغاب بها إلى يوم الأحد خامس رجب. فحضر إلى القرآن في آخر النهار المذكور، ولم يطلع تلك الليلة إلى القلعة كعادة طلوعه قبل تاريخه في ليالي الموكب، وامتنع أيضاً من الطلوع في تلك الليلة جماعةٌ أُخَر من مقدّمي الألوف، ولم يطلع إلاّ الأمير جَانِبَك قَلْقَسيز أمير سلاح، والشهابي أحمد بن

(١) أي إلى بعض قرى الوجه البحري حيث كان من عادة الأمراء أن يسرّحوا جمالهم وخيولهم في أوقات الربيع بهدف تسمينها. وهي عادة قديمة. وكان الأمراء يخرجون إلى تلك الأماكن للتنزّه وتفقّد أملاكهم ودوابّهم. وكان يسمى هذا الخروج: السرحة. وكانت سرحة السلطان عادة إلى سرياقوس.

العَيْني أمير مجلس، وسُودُون القَصْرَوي، وتَنِبَك المعلّم الأشرفي، والأمير تَمُر حاجب الحجّاب، وخُشْكَلْدي البَيْسَقي رأس نَوبَة النُّوَب، وهو من أعظم أصحاب خير بك، وكذلك الأمير مُغُلْباي الظاهري.

فهؤلاء السبعة[1] الذين طلعوا إلى القلعة في تلك الليلة من مقدّمي الألوف. وأذّن المغربُ وهم بالقلعة، وصلّوا مع السلطان الملك الظاهر تَمُرْبُغا صلاة المغرب. ثم دخل الملك الظاهر إلى الخَرْجَة المُطِلَّة على الرميلة على العادة، وجلس بها.

* * *

ذكر الوقعة التي خلع فيها السلطان الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا من الملك

ولمّا دخل الملك الظاهر تَمُرْبغا إلى الخرجة المقدّم ذكرها وجلس بها سمع بالقصر بعض هَرَج بخارج القصر، فسأل عن الخبر، فقيل له ما معناه: «الأجلاب بينهم كلام». فرابَ السلطان ذلك، فطلب خير بك الدَّوادار، فدخل عليه، فأخذ السلطان يتكلّم معه وهو يتبرّم من وجع رجليه على ما زعم. ولم يطل جلوسه عند السلطان، وخرج إلى خارج القصر. فعظم الهرج بالقصر، فأزعج السلطان ذلك، فقام وخرج إلى القصر، فلم يجلس به إلّا يسيراً وأشار عليه بعض أصحابه بالدخول إلى الخرجة، فعاد إليها، وطلب الأمير خُشْكَلدي البَيْسَقي رأس نوبة النوب وسأله عن أمر هؤلاء، فذكر أنه لا يعرف ما هم فيه.

وقام السلطانُ وصلّى العشاء داخل الخَرْجة، وهذا بخلاف العادة، وصلّى خُشْكَلدي معه. ثم خرج وقد عظم الهرج، وضرب أصحابُ خير بك الأمير طَرَبَاي المحتسب أحد أصحاب كَشْباي الدّوادار ضرباً مبرّحاً أشفى منه على الهلاك، ونالوا من كَشْباي أيضاً، وضربوه ضرباً ليس بذاك؛ كلّ ذلك لدفع كَسْباي وطَرَباي المَكْرُوهَ عن السلطان.

---

(١) في الأصل: «الستة». والتصحيح يقتضيه المعدود أعلاه.

وكان من الاتفاق الغريب أن الچراكسة أصحاب كَسْباي لم يطلع منهم في تلك الليلة إلّا أُناس قليلة وطلع من أصحاب خير بك جنس أَبَزَة خلائق باتفاق من خير بك. فلما وقع ذلك تحقّق الملكُ الظاهر تَمُرْبُغا وقوعَ شيء، ولم يسعه إلّا السُّكات.

وكان عند السلطان جماعة من خچداشيته الأمراء، والسلطان ومَن عنده كالمأسورين في يد الأجلاب. ثم تفرّقت الأجلاب إلى الأطباق بقلعة الجبل، ولبسوا آلة الحرب وعادوا إلى القصر بقوّة زائدة وأمر كبير، وتوجّه بعضهم لإحضار الخليفة، وتوجّه بعضهم لنَهْب الحريم السلطاني بداخل الدُّور. ثم أُغْلِق بابُ الخَرْجة من قِبَل السلطان كأنه مخافة من هجوم بعض الأجلاب عليه.

ثم وقعت أمور سمعناها بالزائد والناقص على قدر الروايات، فإننا لم نحضر شيئاً من ذلك، وآل الأمر إلى الدخول على السلطان وإخراج خُچْدَاشِيته من عنده، ثم أرادوا إخراج مَن بقي عنده من السّقاة، فمنعهم السلطان من ذلك قليلاً، ثم سكت، فأخرجوهم، وبقي السلطان في جماعة يسيرة من مماليكه وغيرهم.

ثم بعد ساعة دخل على السلطان ثلاثة أنفار من الجلبان ملبسة وهم ملثمون، وأرادوا منه أن يقوم وينزل إلى المخبأة التي تحت الخَرجة، فامتنع قليلاً، ثم قام معهم مخافة من الإخراق. وأخذوه وأنزلوه إلى المخبأة من غير إخراق ولا بهدلة، وأنزلوا فرشاً ومقعداً، ونزل معه بعض مماليكه وبعض الأجلاب أيضاً، وأغلقوا عليه الطابقة. وأخذوا النِّمْجَة(١) والدرقة(٢) والفوطة ودفعوهم إلى خير بك، بعد أن أطلقوا عليه اسم السلطان، وباس له الأرضَ جماعةٌ من أعيان الأمراء، وقيل إنهم

---

(١) النمجة أو النمجاة: من آلات السلطان الخاصة به. وهي عبارة عن خنجر كبير أو سيف صغير يحمله السلطان عادة. واللفظ فارسي (نيمجة) معرب. ويقال أيضاً: نمجا، ونمشا، ونمشاة، ونمشه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٥٢).

(٢) الدرقة: الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب. (المعجم الوسيط).

لقّبوه بالملك العادل[١]، كلّ ذلك بلا مبايعة ولا إجماع الكلمة على سلطنته، بل بفعل هذه الأجلاب الأوباش، غير أن خير بك لما أخذ النّمْجَةَ والدّرَقة حدّثته نفسه بالسلطنة، وقام وأبعد في تدبير أمره وتحصين القلعة.

وأما الملك الظاهر تَمُرْبُغا لم يتمّ جلوسه بالمخبأة حتى أنزلوا عنده جماعة كبيرة من خُجْدَاشيته الأمراء واحداً بعد واحد حتى تكمل عدّتهم ثمانية أو تسعة، وهم: الأمير تَمُر حاجب الحجّاب، وبَرقوق المشد، وبَرْسْباي قَرا الخازندار، وأُزبك ناظر الخاصّ، وتغْري بردي طَطَر نائب القلعة، وقانِي باي الساقي، وقانِي بك، وقَجْماس، واثنان آخران. وقعد عندهم جماعة من الأجلاب كما تقدّم ذكره.

وأمّا الأمير بُردبَك هجين الأمير آخور الكبير فإنه بلغه الخبر في أوائل الأمر فلم يكذب ما سمع، ونزل من الإسطبل السلطاني من وقته، وأرسل أعلم الأتابك قايتْباي بما وقع. فركب الأتابك في الحال هو وأصحابه وخُجْدَاشيته، وقد انضمّ عليه الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار بعد أمور وَقعت، فحضر الأتابَك قايتباي إلى بيت قَوصُون الذي سُدَّ بابه من تجاه القلعة. فلم يكد جلوس السلطان الملك الظاهر تَمُربغا بالمخبأة إلّا وقد انتشر أصحاب قايتْباي بالرملة[٢]، ورآهم السلطان الملك الظاهر تَمُرْبُغا من شبّاك المخبأة المطلّ على الرملة في جمع كثير، وذلك قبل نصف الليل، لأن إنزال الملك الظاهر تَمُرْبُغا إلى المخبأة كان بالتقريب قبل ثلث الليل الأخير، والخبر الذي ورد على الأمير بُردبك هجين كان بعد عشاء الآخرة.

وأما خير بك الدّوادار الكبير فإنه لمّا أخذ النّمْجَةَ والدّرَقة شرع في إصلاح أمره ليتمّ له ما أراد من ملك مصر، ونزل إلى الإسطبل السلطاني في جمع كبير من خُجْدَاشيته الأجلاب، ووقف بداخل باب السلسلة يترقّب مَن يجيء إليه من الرملة.

---

(١) في بدائع الزهور: «الملك الظاهر». قال ابن إياس: «وقد سمّته العامّة: سلطان ليلة» لأن سلطنته لم تدم أكثر من ليلة واحدة، إذ سرعان ما تدخّل قايتباي وانقلبت الموازين، على ما سيأتي.

(٢) كذا. وترد عادة باسم الرميلة، تحت القلعة.

والذي بلغني من غير ثقة أن جماعة من الطوائف[١] المشهورة كانوا وافقوه على أن يفعل ما فعل، وأنهم معه على السرّاء والضرّاء وفي كل ما يَرُومُه. فلما طال وقوف خير بك ولم يطلع إليه أحد، علم أنهم خذلوه وغرّروا به، فندم حيث لا ينفعه الندم، ولم يسعه إلاّ إتمام ما فعل. فعاد خير بك إلى القلعة بعد أن أمر الأجلاب أن يصعدوا على سور القلعة ويقاتلوا مَن بالرّملة من أصحاب قايتبَاي، ففعلوا ذلك، وقاتلوا قتالاً جُرح فيه جماعة من الفريقين، وقُتل جماعة. وطلع خير بك إلى القصر، وقد علم أنّ أمْرَهُ تلاشى وأدبرت سعادته. وبينما هو في ذلك فرَّ عنه غالب أصحابه الكبار مثل خُشْكَلدي ومُغُلْباي وغيرهما، فعند ذلك لم يجد خير بك بُدّاً من الإفراج عن الملك الظاهر تَمُرْبُغا ومَن معه من خُجْداشِيته ومماليكه، فأخرجوهم ونزل خير بك على رِجْل الملك الظاهر تَمُرْبُغا يقبّلها، ويبكي ويسأله العفوَ عنه، وقد أبدى من التضرّع أنواعاً كثيرة، فقبل السلطانُ عُذرَه. هذا وقد جلس السلطانُ الملك الظاهر تَمُربغا مَوْضِعَ جلوس السلطان على عادته، وأخذ النّمْجَة والدّرَقة، وقد انهزم غالب الأجلاب، ونزلوا من القلعة لا يلوي أحد منهم على أحد؛ كلّ ذلك والأتابك قايتباي بمَن معه من الأمراء بالرّملة.

فلما تَمَّ جُلوس الملك الظاهر تَمُرْبُغا بالقصر على عادته، أمر مَنْ كان عنده من أكابر الأمراء بالنزول إلى الأتابَك قايتْبَاي لمساعدته؛ والذين أرسلهم هم: الأمير جَانِبَك قَلْقسيز أمير سلاح، وسُودُون القَصْروي، وتَنِبَك المعلّم. فهؤلاء الثلاثة وأمثالهم كانوا عند خير بَك في وقت مَسْكِ الملك الظاهر تَمُرْبُغا وفي قبضته، وقد أظهروا له الطاعة إمّا غصباً على ما زعموا، وإما رضًى على ما زعم بعضهم.

ثم أرسل [السلطان] بمَن كان عنده ومحبوساً معه مثل الأمير تَمُر حاجب الحجّاب وبَرْقُوق شاد الشراب خاناه وغيرهما. وكان إنزال هؤلاء الأمراء إلى الأتابَك قايتْبَاي هفوة من الملك الظاهر تَمُرْبُغا؛ فإنه لو لم يكن نزولهم ما كان ينبرم للأتابَك قَايتْبَاي في غيبتهم أمْرٌ.

---

(١) أي طوائف المماليك الأجلاب.

كلّ ذلك والخلائق تطلع إلى الملك الظاهر تَمُرْبُغا أفواجاً أفواجاً تهنئه بالنصر وبعودِهِ إلى مُلكه، والعساكر وقوف بين يديه.

وطلع السيفي تَنَم الأجرود الظاهري الخاصكي إلى السلطان، فلما رأى خير بَك الدَّوادار واقفاً بين يدي السلطان أراد قَتْله بالسَّيف، فمنعه الملكُ الظاهرُ من ذلك، ثم أَمَرَ بحبسه داخل خِزَانة الخرجة فَحُبِسَ بها.

ولمّا تمّ أمر الأتابَك قايِتْبَاي من قتال الأجلاب وانتصر، طلع بمَن معه إلى باب السّلسلة، وجلسَ بمقعد الإسطبل. وكان لهج بعض الأمراء عند طلوعِ قايِتْبَاي إلى الإسطبل بأن قال: «الله ينصر الملك الناصر قَايِتْبَاي»، وسمع بعضُ الناس ذلك.

ولمّا جَلَس الأتابَكُ قايِتْبَاي بمقعد الحَرَّاقة بتلك العظمة الزائدة كَلّمه بعضُ الأمراء في السَّلطنة، وحسَّنُوا له ذلك، فأخذ يمتنع امتناعاً ليس بذاك، إلى أن قامَ بعضهُم وقبّل الأرضَ له، وفعل غيرُه كذلك، فامتنَع بعد ذلك أيضاً، فقالوا: «ما بقي يُفِيدُ الامتناعُ، وقد قبَّلنا لك الأرض. فإما تذعن وإما نسلطن غيرَك». فأجاب عند ذلك[1].

فقال بعض الظُّرَفَاء: «جلوسه بالمقعد والملك الظاهر تَمُرْبُغا بالقصر كان ذلك إجابة منه، وإلاّ لو لم يكن له غرض في ذلك كان طلع إلى القَصْرِ عند السلطان دفعة واحدة».

فلما تَمَّ أمرُ الأتابَك قايِتْبَاي في السلطنة، طلع الأمير يَشْبُك من مهدي الظاهري الكاشف بالوجه القبلي إلى الملك الظاهر تَمُرْبُغا، وعرَّفه بسلطنة قايِتْبَاي،

---

(١) تفيد رواية ابن إياس في بدائع الزهور أن قايتباي كان قد أعدّ الخطة مسبقاً لخلع الظاهر تمربغا. قال: «وكان الأتابكي قايتباي غائباً في الربيع لم يطلع في تلك الليلة إلى القلعة مع الأمراء. فلما بلغه مسك السلطان والأمراء، ركب تحت الليل ودار على جماعة الظاهرية من خشداشينه، ثم داروا على الإينالية واستمالوهم على خيربك وقالوا لهم: نحن نرضيكم. فوقع الاتفاق في تلك الليلة على خلع السلطان تمربغا، وأن الأتابكي قايتباي هو السلطان، وأن يقبضوا على الخشقدمية كلهم».

وأخذه ودخل به إلى خزانة الخَرْجَة الصغيرة، وقد حُبس بها خير بَك قَبْلَ ذلك كما تقدّم.

ولما استقرّ الملكُ الظاهرُ تَمُرْبُغا بالخزانة المذكورة، كلّمه يَشْبُك من مهدي في أنه يتوجّه إلى البَحْرَة، أو هو أراد، فَقَبْلَ أن يقوم من مجلسه تناوَلَ يَشْبُك من يده النّمْجَة والدَّرَقة ودفعهما إلى تِمْراز الأشرفي، فأخذهما تِمْراز وتوجّه إلى الأتابَك قايِتبَاي. وقام الملك الظاهرُ تَمُرْبُغا وتوجّـه في الحال إلى البَحْـرَة مكرّمـاً مبجّلاً، وبين يديه يَشْبُك من مهدي المذكور وغيره، وسار إلى البَحْـرَة من داخل الحـريم السلطاني وجلس بالبَحْرَة.

وتمَّ أمرُ قايِتْباي في السلطنة حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

واستمرَّ جلوسُ الملكِ الظاهر تَمُرْبُغا بالبَحْرَة وأصحابُه وحواشيه تتردَّدُ إليه من غير مانع يمنعهم من ذلك، والملك الأشرف قايِتْبَاي يُظْهِرُ تَعظيمَهُ وإكرامه بكل ما تصل قدرته إليه.

فلمـا كـان ليلة الأربعـاء ثـامن شهـر رجب المـذكـور رسم السلطانُ الملكُ الأشرفُ بسفره إلى ثغر دِمْياط، برغبة الملك الظاهر تَمُرْبُغا في ذلك. فلما كان بين العشاءين من ليلة الأربعاء خرجَ الملكُ الظاهر تَمُرْبُغا من قاعة البَحْرَة وفي خدمته الخُدّامُ وغيرهم، وسار من الحوش السلطاني إلى داخـل الحريم، وعـرف الملك الأشرف قايِتْبَاي وقت خروجه من البَحْرَة، فقامَ من خَرْجَة القصر مُسْرِعاً في مشيـه إلى أن وافَى الملكَ الظاهرَ تَمُرْبُغا بدهليز الدُّور السلطانية عنـد الشيخ البُـرْدِيني، فبادره السلطان الملك الأشرف قايتباي بالسّلَام، فاعتنقه وأهـوى إلى يده ليقبّلهـا، فمنعه الملك الظاهر تَمُرْبُغا من ذلك. ثم أخذ الأشرفُ في الاعتـذار له ممـا وقع منـه، والملك الظاهـر يقبل منـه عذره، ويُـظهِـر لـه الفـرح التّـام بسلطنتـه، لأنـه خُجْدَاشُه، وآمِنٌ على نفسه في دولته. هذا والملكُ الأشرف مُسْتَمِـرٌ على إكرامـه وتعظيمه إلى غاية ما يكون، ثم تكلّم معه سِرّاً في خَلْوَةٍ، لأن السلطان كان حضر معه الأتابك جَانِبَك قَلْقَسيز، ويَشْبُك مِن مهدي، وتَمُر حاجب الحجّاب، وجماعـة

أُخَر من خواصّ الملكَيْن وخُجْداشيتهما، وطال الوقوف بينهما ساعة جيدة، ثم تعانقا وتباكيا، وافترقا على أحسن وجه وأجمل حال.

ثم نزل الملك الظاهرُ تَمُرْبُغا وركِبَ فرساً كعادته من خيله الجِياد، بعد أن ودّعه أيضاً الأمراء الذين كانوا جاؤوا مع الملك الأشرف. ولما قبّل الأمير يَشبك من مهدي يدَ الملك الظاهر تَمُرْبُغَا دفع له ألفي دينار، وقنطاري سكّر مكرّر، وغير ذلك.

وسار الملك الظاهر تَمُرْبُغَا من القلعة إلى ساحل النيل وهو في غاية الحشمة في مسيره من غير أوجاقي يركب خلفه بالسكين، كما هي عادة الأمراء ولا غير ذلك؛ والذين ساروا معه غالبهم كالمودّعين له. فلما وصل إلى المركب نزل إليها، بعد أو ودّعه مَن كان وصل معه إلى البحر من أعيان خُجْدَاشِيته الأمراء، وسافر من وقته من غير أن يتوجّه معه مُسَفِّرٌ من الأمراء ولا غيرهم، بل سار هو بنفسه كما يسافر الشخص إلى جهة تعلّقه، وهذا بعد أن رسم له الملك الأشرفُ بالركوب بثغر دِمْياط إلى حيث أراد من سائر الجهات برّاً وبحراً، وأشياء كثيرة من هذه المقولة حتى سيّر معه السلطان فَرَساً في المواكب.

وسافر الملك الظاهر تَمُرْبُغا حتى وصل إلى ثغر دِمياط ونزلها، وسكن بأحسن دورها ومعه حَشَمُه وَخَدَمُه وبعض حرمه. ودام بالثغر إلى[1] (. . .).

---

(١) بياض في الأصول. والواضح أن المؤلّف كان ينوي العودة إلى إكمال ترجمة الظاهر تمربغا، غير أن مرضه (القولنج) الذي أُصيب به قبل حوالى السنة من وفاته قد اشتدّ عليه وحال دون ذلك. ولم يسجّل المؤلّف بعد هذا سوى بداية ترجمة الأشرف قايتباي، على ما سيأتي. يقول السخاوي في الضوء اللامع: ٣٠٨/١٠: «وتعلّل قبل موته بنحو سنة بالقولنج، واشتدّ به الأمر من أواخر رمضان بإسهال دموي بحيث انتحل وتزايد كربه وتمنّى الموت لما قاساه من شدّة الألم إلى أن قضى في يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة سنة ٨٧٤ هـ».

وننقل فيما يلي ـ باختصار عن السخاوي ـ بقية ترجمة الظاهر تمربغا: «وأقام بثغر دمياط إلى أول العشر الثالث من ذي القعدة، فحضر إليه محمد بن عجلان وعيسى بن سيف ومَن انضمّ إليهما من الأعراب ليدبّروا أمر عودته إلى المملكة. فسار وهم في خدمته إلى قطيا ثم منها إلى جهة غزة، فأمسكه نائبها أرغون شاه وأرسله إلى السلطان. وتسلّمه في بلبيس الدوادار الكبير يشبك من مهدي وتوجّه به إلى =

ذكر سلطنة الملك الأشرف قايِتْباي[1] المحمودي على مصر

وهو السلطانُ الحادي والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والخامس عشر من الچراكسة وأولادهم.

وأمرُ سلطنته وكيفيتها أنه لمّا خُلِعَ الملك الظاهر تَمُرْبُغا وتمَّ أمر قايِتْبَاي هذا بالإسطبل السلطاني جلس بمبيت الحَرَّاقة من الإسطبل المذكور، وحضر الخليفةُ والقضاةُ، وبايعوا الأتابَك قايِتْبَاي بالسلطنة ولبس خلعة السلطنة ـ السواد الخليفتي ـ من مبيت الحرّاقة، وركب فرسَ النوبة بقماش ذهب بـأُبّهة الملك، وحمـل الأمير جَانِبَك الإينالي الأشرفي المعروف بقَلْقَسِيز أمير سلاح السنْجَقَ على رأسه، وذلك لفقد القُبّة والطير من الزرَدْخاناه السلطانية في واقعة الملك الظاهر يَلْباي، وسـارَ وجميعُ العسكر بين يـديه إلى أن طلع من بـاب سِرِّ القصـر، ودخل إلى القصـر

= الإسكندرية ليكون بها في بيت العزيز يوسف بدون ترسيم وأنه يحضر الجمعة والعيدين. ثم أرسل تمربغا إلى السلطان يترقّق ويتعطّف ويعتذر عن صنيعه وأنه إنما حمله عليه ما كان يطرق سمعه من الأمر بسجنه بالإسكندرية والتضييق عليه، فرام التوجّه إلى الطور ليتوصّل منه في البحر إلى مكـة. [وهنا يـذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن تمربغا أرسل إلى السلطان كتـاباً بخط يـده وقال فيـه: المملوك تمربغـا يقبّل الأرض... ثم يعتذر بأنه قصد التوجّه إلى شاه سوار ليصلح بينـه وبين السلطان]. قـال السخاوي: واستمر تمربغا مقيماً بالإسكندرية على أعزّ حال وأكرم هيئة إلى أن مات في يوم الجمعة ثامن ذي الحجة سنـة ٨٧٩ هـ بعد تـوعكه عـدة أشهر، ودفن هنـاك بحوش لنـائبها إذ ذاك الأمـير قجـماس بجـانب مدرسته. ووجد عنده من النقد نحو تسعة عشر ألف دينار فيما قيل سوى ما له هناك من أثاث ومتاجر؛ هذا مع كونه من قريب أرسل يشتكي الفقر والفاقة بحيث جهّز له السلطان فيما قيل ألف دينار وغـير ذلك ـ انتهى.

(١) ترجمته وأخباره في: بدائع الزهور: ٣٩٣؛ والضوء اللامع: ٢٠١/٦؛ وشذرات الذهب: ٦/٨؛ وخطط علي مبارك: ١٢٥/١؛ والأعلام: ١٨٨/٥.

الكبير، وجلس على تَخْت المُلْك، وقَبَّلَت الأمراءُ الأرضَ بين يديه على العادة. وتمَّ أمرُه، ونودي في الحال بسلطنته بشوارع القاهرة، وتلقَّبَ بالملك الأشرف، ودقّت البشائر، وخَلَع على الخليفة على العادة، وعلى جَانِبَك قُلْقسيز أمير سلاح باستقراره أتابَك العساكر عوضاً عن نفسه.

وكانت العادة أن الأمير الكبير يلبس ليومٍ خلعة حمل القبّة والطير على رأس السلطان، ثم بعد ذلك يلبس خلعة الأتابكية فيما بعد، فالآن اقتصروا على خلعة واحدة، ووُفِّر غيرها. ثم دخلت الناس لتهنئته بالسلطنة أرسالاً إلى أن انتهى ذلك.

وكان وقتُ بيعته بالسلطنة قبل أذان الظُّهر من يوم الاثنين سادس رجب من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة بثماني عشرة درجة، والساعة للشمس، والطالع الثور والزهرة، وهو أيضاً يوم سادس أمشير لأن الشهر العربي والقبطي توافقا في هذا الشهر والشهر الخارج أيضاً.

وفي هذه السنة حَكَم فيها أربعةُ سلاطين. وقبل أن نشرع في ذكر حوادثه وأموره نشرع في التعريف به فنقول:

أصل الملك الأشرف قايتباي هذا أنه چاركسي الجنس، جُلب من بلاده إلى الديار المصرية في حدود سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، فاشتراه الملكُ الأشرف بَرْسْباي، ولم يُجْرِ عليه عِتْقاً، وجعله بطبقة الطَّازِية من أطبَاق قلعة الجبل إلى أن ملكه الملك الظاهر جَقْمَق، وأعتقه وجعله خاصكيّاً، ثم دواداراً صغيراً. ثم امتحن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور عثمان. ثم تراجع أمره عند الملك الأشرف إينال، وصار دَوَاداراً صغيراً كما كان أولاً. ثم أمَّره [إينال] إمْرَة عشرة، فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر خُشْقَدَم بإمرة طبلخاناه، وجعله شاد الشراب خاناه بعد جَانِبَك الأشرفي المشد، فدام في المشدّية أياماً كثيرة. وتوجّه إلى تقليد نائب حلب، ثم بعد عوده بمدة أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية. فاستمر على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر يَلْباي رأس نوبة النوب بعد خروج الأمير أُزْبُك الظاهري إلى نيابة الشام، وأنعم عليه بإقطاعه أيضاً. فلم تطل أيام

قايِتْبَاي هذا فيما ذكرناه، ونقله الملك الظاهر تَمُرْبُغا إلى الأتابكية عوضاً عن نفسه لمّا تسلطن، فلم تطل أيّامُه أيضاً في الأتابَكِيّة، ، وتسلطن حسبما ذكرناه.

ولما استقر جلوسه بالقصر، وخُلِع عليه خِلْعَة السلطنة أمر بحبس الأمير خير بَك الدوادار بالركبخاناه، وكذلك الأمير أحمد العيني أمير مجلس، واختفى الأمير خُشْكَلْدي البَيْسَقي رأس نَوْبَة النُّوَب، ثم ظهر فرُسم بنفيه[1].

* * *

انتهى

كتاب النجوم الزاهرة

في ملوك مصر والقاهرة

* * *

---

(١) بهذا اللفظ ينتهي ما سجّله أبو المحاسن من تاريخه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». ـ راجع ص ٣٥٣ من هذا الجزء، حاشية (١).
وقد حكم الأشرف قايتباي حتى تاريخ وفاته في ٢٩ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ.
أما بقية السلاطين المماليك الجراكسة الذين جاؤوا بعده فهم على التوالي: الناصر محمد بن قايتباي (ذو الحجة ٩٠١ ـ ربيع الأول ٩٠٤ هـ) الظاهر قانصوه بن قانصوه الأشرفي (٩٠٤ ـ ٩٠٥ هـ) الأشرف جانبلاط الأشرفي (حكم ستّة أشهر و١٨ يوماً من سنة ٩٠٥ هـ) طومان باي الأشرفي بن قانصوه (ثلاثة أشهر وعشرة أيام من سنة ٩٠٦ هـ) قانصوه الغوري (٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ) الملك الأشرف طومان باي (ثلاثة أشهر و١٤ يوماً من أوائل سنة ٩٢٣ هـ) وبه انتهت دولة الجراكسة بمصر بعد أن دامت مائة وإحدى وعشرين سنة. ودخلت مصر منذ ذلك التاريخ في حكم السلطنة العثمانية. ودخل السلطان سليم القاهرة، ومكث في الديار المصرية ثمانية شهور يرتّب أمورها، ثم زحف عنها إلى القسطنطينية واستصحب معه الخليفة المتوكل على الله العباسي بعد أن استنزله عن الخلافة فخلع نفسه منها وتنازل عن حقوقها وفوّض أمورها إلى السلاطين من بني عثمان.

المصادر والمراجع
الجـــزء السـادس عشـر

- **الأعلام**، تأليف خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.
- **الألقاب الإسلامية**، حسن الباشا، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.
- **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، ابن دقماق، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ابن إياس، إصدار كتاب الشعب، القاهرة ١٩٦٠.
- **بلدان الخلافة الشرقية**، لسترانج، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، بغداد ١٩٥٤.
- **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، محمد فريد بك المحامي، دار الجيل، بيروت ١٩٧٧.
- **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل**، أحمد السعيد سليمان، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤.
- **التعريف بالمصطلح الشريف**، ابن فضل الله العمري، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.
- **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، ابن تغري بردي، تحقيق محمد كمال الدين عزّ الدين، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٠.
- **الخطط التوفيقية الجديدة**، علي باشا مبارك، الهيئة المصرية العامّة، القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٦.
- **الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار)**، أحمد بن علي المقريزي، دار صادر، بيروت.
- **الدارس في تاريخ المدارس**، النعيمي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
- **دائرة المعارف الإسلامية** (النسخة العربية)، إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
- **زبدة كشف الممالك**، خليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩٤.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، أحمد بن علي المقريزي، (جـ ٣ - ٤)، تحقيق سعيد

عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢.
- **شذرات الذهب**، ابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القلقشندي، طبعة المؤسسة العامّة المصرية، القاهرة ١٩٦٣، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
- **الضوء اللاّمع لأهل القرن التاسع**، السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، تأليف المستشرق زامباور، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
- **معجم متن اللغة**، الشيخ أحمد رضا، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة.
- **النجوم الزاهرة**، ابن تغري بردي، طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر، وطبعة دار الكتب المصرية.

فهرس الموضوعات
الجـــزء الســادس عشـر

